كتاب الشعب
٦

القرآن الكريم

جزء تبارك

تفسير

المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

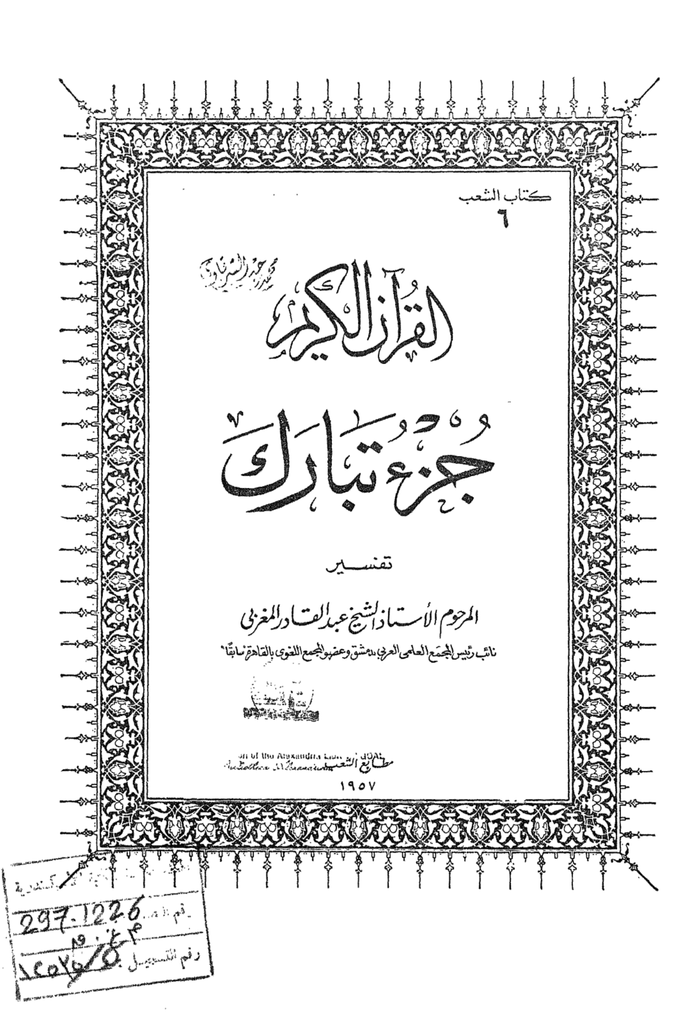
نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة سابقاً

مطابع الشعب
١٩٥٧

اهداءات ١٩٩٩

أ/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية



كتاب الشعب
٦

القرآن الكريم

جزء تبارك

تفسير

المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي
نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة سابقاً

مطابع الشعب
١٩٥٧

صدرت هذه الطبعة ضمن سلسلة « كتاب الشعب » بإذن خاص من وزارة التربية والتعليم . وقد أخذت عن طبعة المطبعة الأميرية (عام ١٣٦٦ هجرية ـ ١٩٤٩ ميلادية) التى قام بتصحيحها والتعليق عليها ، بتكليف من الوزارة ، الأستاذ الشيخ على محمد حسب الله ، أستاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك ربنا منزل القرآن ، بحقائق الايمان ، وجليل العبر . وملهم الأذهان ، نواصع البيان ، ودقيق النظر . ونصلي ونسلم على سيدنا محمد المبعوث بأكرم الأديان ، وقاطع البرهان ، من ولد مضر . صلاة وسلاما يتجددان ماتجدد الزمان ، وتعاقب الملوان ، ولاح قمر .

اما بعد ، فان جزأى « عم » و « تبارك » من أكثر الأجزاء شيوعا بين طلاب المدارس ، وتداولا بين عامة المسلمين وايدى صغارهم . وآياتهما أشد علوقا بالنفس ، وترديدا في الأفواه من سائر آيات الكتاب . فمن ثم كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيرا حسن الوضع ، صحيح الأسلوب ، يقرب من اذهان العامة ، ولا تتجافى عنه عقول الخاصة . فيقتصر فيه من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والاعراب ، ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحا وسطا مجردا عن التنطع بالمشاغبات ، وايراد الخلافات والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله — تفسيرا لجزء « عم » توخى فيه هذا النمط والأسلوب ، فجاء من خير الكتب وفاء بالغرض ، واصابة لمواضع الحاجة . فلا غرو اذا تناولته الألسنة بالثناء ، وتلقته القلوب بالقبول .

وقد رغب الى بعض الفضلاء في أثناء اقامتي بمصر بين سنتي ١٣٢٣ و ١٣٢٧ هـ (١٩٠٥ — ١٩٠٨ م) ان أضع تفسيرا لجزء « تبارك » أتوخى فيه طريقة استاذنا الجليل فيما علقه على جزء « عم » من جهتي الصحة في التعبير ، والاقتصار على المفيد من القول ، فقلت له : بلغني أن الأستاذ رحمه الله قد فسر جزء « تبارك » وهو مازال في تساويد مبعثرة محفوظة عند صديقه المرحوم « حسن باشا عاصم » .

وبعد البحث عن تلك التساويد ، علمنا ان الأستاذ لم يشرع في تفسير جزء « تبارك » بالفعل ، وانما كان هيأ صحائف بيضا رقم في رءوسها آيات ذلك الجزء ، وتركها غفلا من الكتابة ، على أمل أن يصطحبها معه في بعض اسفاره ، ويملأها تفسيرا وتعليقا ، كما كان من أمره في تفسير جزء « عم » الذى الفه في غضون سفره الى البلاد المغربية ، لكنه اخترمته منيته ، قبل أن تتحقق أمنيته .

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارني أو صادفني سألني عن التفسير والح على بالشروع فيه .

فكنت اعتذر اليه بنقص الكفاية ، وصعوبة الأمر ، وفقد الأداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر ، ولا سيما ان تفسيرى لجزء « تبارك » لاينظر اليه الناظرون لذاته ، ومن حيث نسبته الى صاحبه ، وانما تتعمد فيه الموازنة بينه وبين ماكتبه الأستاذ على جزء « عم » فينحط قدره في عيون القراء ، وينسخ ظلامه بالضياء ، وبضدها تتميز الأشياء .

ثم ضرب الدهر ضرباته ، فكان من أمره أن نزلت دمشق أول سني الحرب الأولى نزولا حسبته لماما ، فاذا هو قد استتلى شهورا وأعواما . فتجددت لي وانا فيها دواع حفزتني لتحقيق الأمل ، ومباشرة ماكلفت من العمل . فوضعت هذا التفسير مستعينا بحول الله وقوته ، وأكملته على مثال تفسير شيخنا وطريقته .

بيد انى رايت ان اتوسع قليلا في التعليق والتفسير ، والاستشهاد والتنظير — ولا سيما في المباحث اللغوية — بأكثر مما فعله الأستاذ رحمه الله في تفسير جزء « عم » ، مراعيا في ذلك حال قراء جزء « تبارك » ، ومقدرا في نفسي أنهم سيكونون أكبر سنا ، وأتم استعدادا ، واشد اهتماما بالتحصيل من قراء جزء « عم » .

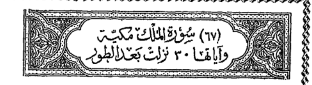
وقد قمت في تفسيرى هذا بفعل ما اطيق واملك : من تحرى الحق والصواب فيما أولت وفسرت ، وبسط العبارة وتهذيبها فيما انشأت وحررت ، وتصحيح النية وجعلها خالصة لوجهه الكريم فيما اخترت ورجحت .

أما قبوله تعالى لعملي ، وعفوه عن قصورى وزللى ، ورواج تفسيرى بين القراء كما هو قصدى وأملي — فان هذا لا أملكه ولا اطيقه بقوتي ، ولا يدخل تحت مقدورى ومكنتي ، وانما أكل الأمر فيه الى الله ، فهو المسئول أن يتولاه بعنايته ، ويجعله قرين التوفيق بفضله وكفايته .

وقد عنيت وزارة المعارف المصرية بهذا التفسير ، واحالته على لجنة من خيرة رجالها المختصين ، فراجعته ، وأشارت بطبعه ونشره ، تعميما لفائدته في معاهد العلم المختلفة ، وبين جمهور المسلمين في بقاع الأرض .

والله المسئول ان يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به ، فانه الموفق الى الخير ، والهادى الى سبيل الرشاد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

عبد القادر المغربي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ

جميع سور هذا الجزء أنزلت بمكة اى قبل الهجرة . ومن ثم كان الخطاب الالهى فيها موجها الى المشركين . وهو فى الأغلب يدور حول اثبات وجود الله تعالى والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ، ثم اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه صادق فى دعوى الرسالة والوحى ، ثم تقريع المكذبين وتخويفهم مابين ايديهم من هول الحشر والحساب ، وأن هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل ، فيلقى كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاءه اللائق به ، فى داره المعدة له . ووصف هاتين الدارين وصفا بدعا فى اسلوبه ، عجيبا فى نسقه وتركيبه . ويتخلل الآيات تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه الشريف ، وحثه على الصبر والتجلد والتأسى باخوانه الأنبياء الذين تقدموه ، ولقوا من اممهم مثل ما لقى أو أشد .

وقد افتتحت هذه السورة بتمجيد الله تعالى المالك لكل شىء ، والذى خلق البشر واختبرهم باحيائهم وأماتتهم ، وخلق السموات على نظام محكم ، وزينها بالنجوم ، كما جعل تلك النجوم من جهة ثانية رجوما للشياطين الخ .

(تبارك) فى مادة البركة معنى الزيادة والنماء والدوام : فمعنى تبارك الله تعاظم وجلت صفاته ، وتعالى عن مشابهة المخلوقين تعاليا دائما لايعتوره نقص ولا انقطاع .

(بيده الملك) أى أن التصرف المطلق فى هذه الكائنات له تعالى لا لغيره . ويراد من ذكر اليد فى مثل هذا الاستعمال افادة معنى التمكن من الشىء والاستيلاء التام عليه .

(ليبلوكم) اى ليختبركم ويمتحنكم .

استهل الكلام بأن له تعالى التصرف فى كل شىء والقدرة على كل شىء . ثم ذكر مثالا من أمثلة تصرفه وقدرته ، فقال : انه تعالى قدر على البشر موتا وحياة . والمراد بالموت الحالة التى يكون فيها الانسان عناصر متفرقة ، لا حياة فيها ولا شعور . ثم بعد ذلك يسلط الله على تلك العناصر من نواميس قدرته ، المنطبقة على سابق مشيئته ــ ما يجعلها حية مدركة ذات ارادة واختيار . ولماذا هذا ؟ لانه تعالى يريد أن يختبر الانسان : أى يعامله معاملة المختبر المجرب ، فيظهر أمره ، ويعرف مقدار طاعته وميله الى الفضيلة ، ومبلغ عصيانه وجنوحه الى الرذيلة . وانما قلنا فى معنى الابتلاء هذا لأنه تعالى يعلم أمر الانسان من دون اختبار ، ولكن الانسان نفسه والناس لا يعلمون ذلك ، حتى اذا علموا حقت الكلمة ، وقامت الحجة ، وانقطعت المعاذير .

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى : **(أيكم أحسن عملا)** فسره بقوله : « أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » . فالمفاضلة فى حسن العمل انما هى فى أن يكون المؤمن أتم تعقلا لأوامر الله ، وتفهما لأسرار مشيئته فيما أوحاه الى نبيه . فيورثه ذلك التفهم الكف عن المحارم ، والمسابقة الى ممارسة الطاعات . حتى اذا فرط مفرط فى جنب الله وخالف أمره ، وتمادى فى غيه وضلاله ــ لا يعجزه تعالى أن يجازيه على سوء صنيعه ، لأنه تعالى **(العزيز)** الذى لايغلب ولا يسبق ، كما أنه تعالى **(الغفور)** الذى يعفو عمن تاب وأصلح وكف عن المحارم .

ثم ان للموت والحياة كنها يصعب تعقله على كل المخاطبين ، وليس فى طاقة معظمهم سهولة الانتقال منه الى اثبات وجود الله تعالى . لذلك عدل الوحى الالهى الى مافيه يسر وسهولة عليهم ، وهو النظر فى هذه السموات المرئية ، وعجائب الصنع والتكوين فيها فقال **(الذى خلق سبع سموات الخ)** (١)

(طباقا) مصدر طابق النعل خصفها وجعل كل

---

(١) هكذا يقول المؤلف فى بيان وجه الانتقال من ذكر الموت والحياة الى ذكر طبقات السماء . ونرى ان ماذكره لايصلح وجها لذلك ، لأن الله تعالى حين يطالب الناس بالنظر فى أمر الموت والحياة لا يطلب منهم معرفة حقيقة يعجزون عن ادراكها ، بل يطلب منهم الاستدلال بتواردهما على الأجسام ، وهو مايراه الناس جميعا ، ويعرفون من أمره بالحس مايكفى فى الاستدلال ، وما لايعرفون مثله من طبقات السماء ، التى لا يعرفها العلماء الا بعد دراسة شاقة .

فالأمثل فى وجه الانتقال أنه بعد أن ذكر آية فى الانسان انتقل الى ذكر آية فى الآفاق المحيطة به ، على حد قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » اهـ مصححه

طبق منها حذو الطبق الذى يليه ، او هو جمع طبق كجبل وجبال ، أو جمع طبقة مثل رحبة بالتحريك وهى الساحة اذ يقال فى جمعها رحاب . (**تفاوت**) اختلاف واضطراب وخلل فى الخلقة (**فارجع البصر**) اى انظر مرة أخرى نظر متفحص متأمل . فقد تكون نظرتك الأولى مجردة عن ذلك (**فطور**) جمع فطر ، وهو الشق والصدع فى الشىء . والمراد هنا الخلل وعدم التلاؤم بين أجزاء السموات (**كرتين**) مرتين . والمراد بالتثنية التكثير : كأنه يقول : ثم رد بصرك المرة بعد المرة ، بدليل السياق، اذ يقول تعالى : (**ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير**) والبصر لا يكل بمجرد النظر مرتين اثنتين ، وانما يكل ويتعب بترديد النظرات الكثيرة . وهذا مثل قولهم : لبيك وسعديك ، فان التثنية فيهما لافادة التكثير (**خاسئا**) اسم فاعل من خسىء بمعنى تباعد بذلة وصغار . ومنه قولهم للكلب : اخسأ ، فاذا تكررت النظرات ولم تجد خللا رجعت بعيدة عن نيل غرضها ، واصابة ملتمسها : كأن عليها آثار الذلة والصغار (**حسير**) كليل معيى من كثرة مابحث عن الفطر والتفاوت فلم يجدهما .

هذه الآية مثال ثان من امثلة سعة ملكه ، وشمول قدرته . ذكر فى صدر السورة انه تعالى بث الحياة فى البشر بعد ان كانوا عناصر ميتة لا شعور فيها . ثم ذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالى خلق سبع سموات يعلو بعضها بعضا ، وانك لاترى عند التأمل خللا فيها ، ولا تشاخصا (١) بين اجزائها . فحقق النظر اليها ، وتأمل تأمل متفحص هل تجد فيها خللا ؟ ثم اذا لم تطمئن للنظرة الأولى التى ربما كانت حمقاء فأعد نظراتك مرارا . فلا جرم أن يكل اذ ذاك بصرك ، ويخيب بحثك ، ولا تظفر بمطلوبك من وجود الخلل والفطر . والخطاب فى قوله (ماترى) (فارجع) (ثم ارجع) لكل امرىء يتأتى منه الريب والشك فى مبلغ القدرة الالهية، لا لواحد بعينه . وقد أيدت تجارب العلماء الباحثين فى المادة ونواميسها ، والكائنات وسننها ــ مضمون هذه الآية ، فانهم قرروا ــ بعد النظر الدقيق ــ أن العالم جميعه ــ من أصغر ذرة فى فضائه ، الى أكبر جرم فى سمائه ــ خاضع لناموس واحد ، ومتماسك بنظام عام شامل : لايمكن حصول خلل فيه ، ولا طروء شذوذ عليه الا أن يشاء الله . فتبارك الله احسن الخالقين .

والسموات السبع هى طرائق السيارات ومداراتها (٢) . ولا ريب أن هذه المدارات طبقات : طبقة ادنى من طبقة ، وفلك فوق فلك . وانما اقتصر الوحى من ذكر السموات على سبع ــ مع أن العلم اثبت انها أكثر من ذلك ــ لأنه تعالى انما يخاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أسر الأفلاك وكواكبها . وقد احالهم على النظر والتأمل فى تكوينها واوضاعها ، ليتنبهوا الى كمال احكامها ، وليحدث الخطاب فى نفوسهم عبرة واذعانا وفضل تأثر ، وليكون ذلك آية لهم على وجود الله وكريم صفاته . وهذا هو جل القصد من ذكر السموات فى القرآن . وليس القصد من ذكرها تقرير حقائق فى علم الهيئة . وسكوت الوحى عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفى وجود الزيادة . والحكمة فى هذا السكوت ان المخاطبين فى ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير فى غير السموات السبع او السيارات السبع التى عرفها الأوائل ، واشتهر امرها عند عامة الناس يومئذ . أما النجوم الثوابت الأخر فلم يكن يتيسر لهم او ينتظر منهم ان يرجعوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت او احكام ، وذلك لبعدها الشاسع عن متناول الحس ، وعدم معرفة الأوائل ما عرفه المتأخرون من طبائعها واحوالها . وأما فلكا « أورانوس » و « نبتون » فلم يكونا اكتشفا بعد فى ذلك العهد ، فلو احال الله البشر فى قرآنه على ما لم يمكنهم النظر فيه ، والاحاطة علما بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين ــ لكانت احالته عبثا ، وتكليفه محالا . وقد ابى الله سبحانه وتعالى لنا ذلك فى منزل وحيه ، ومحكم شرعه ، تفضلا منه ورحمة . وسيأتى زيادة بيان لهذا البحث فى سورة نوح فانتظره .

(**الدنيا**) تأنيث الأدنى ، وهى صفة للسماء ، اى السماء التى هى أقرب الينا من سائر السموات . (**بمصابيح**) جمع مصباح ، وهو السراج . وقد اراد بها النجوم التى تضىء نواحى السماء على طريقة التمثيل . ونكر المصابيح تفخيما لشأنها ، وتعجيبا من أمرها ، وانها قد بلغت من الاضاءة والجمال حدا دونه مصابيح الناس وسرجهم المعهودة .

ولا يقال ان معظم النجوم التى نراها فى السماء الدنيا هى نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها ، لأننا نقول : ان تلك النجوم الثوابت هى من كواكب السماء الدنيا وزينتها فى بادىء النظر ، وان كان مركزها حيث ذكر ، فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين جعلها زينة للسماء الدنيا .

(**رجوما للشياطين**) . الرجم : فى الأصل مصدر رجمه اذا رماه بنحو حجر ، ثم سمى الشىء الذى يرجم به (رجما) تسمية بالمصدر ، وجمع على (رجوم) مثل ما مر فى جمع فطر على فطور . و (الشياطين) طائفة من المخلوقات الشريرة . لانعرفها بأعيانها . وانما نعرفها بآثارها . ومن جملة تلك الآثار خواطر السوء ، ونزوع أنفسنا الى الشرور . وهذه المخلوقات الغيبية هى مايفهم فى الأعم الأغلب من اطلاق لفظ الشياطين . والا فان الشيطان اسم لكل متمرد عات ، سواء أكان انسانا أم جنا أم دابة . ومن ذلك قوله تعالى : (واذا خلوا الى شياطينهم) اى رؤسائهم من الانس . وفى الحديث «لاتصلوا فى مبارك الابل ، فانها من الشياطين» قال بعض شراحه : انها من الشياطين حقيقة ، لأن الشيطان اسم لكل متمرد عات كما قلنا . وقال آخرون : ان الابل تشبه شياطين الجن فى النفور والتهويش على المصلين .

(**واعتدنا لهم عذاب السعير**) اى واعددنا لأولئك الشياطين عذابا تسعر فيه النار ، اى توقد أشد ايقاد .

(١) شخص الأمر كمنع وتشاخص : اضطرب وتفرق ، فهو شخيص

(٢) قال ابن سيده الأندلسى فى مخصصه (ج ١٦ ص ١٨١) ما نصه (والسماء والسماوة مدار النجوم) المؤلف .

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ
قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ
فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ

ذكر فى الآية السابقة السموات واحكام صنعها ، وذكر هنا مافيها من النجوم المتلألئة ، وقال ان تلك النجوم خلقت زينة للسماء ورجوما للشياطين . ولا ينافى هذا أن تكون النجوم خلقت لمصالح أخر : ككونها علامات يهتدي بها المسافرون فى ظلمات البر والبحر ، اذ ليس فى الآية مايستدعى الحصر .

ومعنى جعل النجوم رجوما أنها سبب للرجوم ، ومصدر لها . والا فان النجوم أجرام كبيرة ثابتة فى مراكزها وتسمى ثوابت، أو متحركة فى أفلاكها وتسمى سيارات . ولا يمكن حسبما عرف من السنن والنواميس التى قيدها بها خالقها ومبدعها أن تدع مراكزها أو تخرج عن مداراتها وهى بحيث وصفنا من كبر الحجم فتنبعث وراء الشياطين . وانما تكون تلك النجوم منشأ للرجوم ومصدرا لها . فالرجوم ، وهى الشهب ، أجرام صغيرة مضيئة منفصلة عن النجوم وسابحة فى الفضاء ، حتى اذا اقترب منها واحد من تلك الأرواح الشريرة المساة شياطين — انقضت عليه بهيئة شعلة نارية وأحرقته . ولا يقتصر فى التنكيل به على ذلك ، بل قد هيىء له فى الآخرة (عذاب السعير) جزاء تصديه لاستراق خبر السماء .

ويقول العلماء المتأخرون فى سبب انقضاض هذه الرجوم المسماة فى اصطلاحهم « نيازك » انها بعد انفصالها عن الأجرام السماوية بسبب من الأسباب تبقى سابحة فى الفضاء ، حتى اذا اتفق اقترابها من كوكب آخر أو من كوكبنا الأرضي ودخلت فى منطقة نفوذه — جذبها اليه بسرعة هائلة ، فتحترق وتتلاشى هباء منثورا ، أو تبقى منها بقية تسقط على سطح الارض ، وهى مايسمونه « الحجر النيزكى » .

وما قلناه من أن الرجوم شهب منفصلة عن النجوم لا النجوم نفسها صرح به فى الكشاف قال : « ومعنى كون النجوم مراجم للشياطين ان الشهب التى تنقض لرمى المسترقة من الشياطين منفصلة من نار الكواكب لا انهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة فى الفلك على حالها . وما ذاك الا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقض » اهـ .

او يقال : ليس المراد بالمصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا النجوم أنفسها ، بل المراد بها كل ما استنار فى أفق السماء بحيث تراه العين فى الليل الدامس متلألئا مضيئا كمصباح ، فيدخل فى ذلك النجوم كما تدخل الشهب التى هى الرجوم ، فقوله تعالى **(وجعلناها)** اى وجعلنا بعض تلك المصابيح أو نوعا منها ، وهو الشهب التى ترى فى السماء كمصابيح ، رجوما للشياطين .

ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد فى القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين . واذا لم يفهم العلم الطبيعى هذه القضية ، فذلك لأنه لم تتوفر له أسباب الفهم اليوم . ويكفينا فى صحة الايمان بها على ظاهرها أن العقل لايجعلها من المحالات العقلية .

ولبعضهم فى تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين كلام جدير بالقبول وهو : أن الرجوم واحدها الرجم مصدر رجم وهو أن يتكلم المرء بالظن والتخمين . ومنه قوله تعالى (رجما بالغيب) فالرجوم هنا بمعنى الظنون، اما الشياطين فهم شياطين الانس ،أعنى المنجمين الذين اتخذوا من النظر فى نجوم السماء والتكهن عن امور المستقبل بما يبدو لهم من طوالعها وقراناتها — صناعة لحمتها الرجم ، وسداها الوهم ، فالله تعالى يقول : انه خلق النجوم فكانت زينة للسماء ، أما الشياطين من الكهان فقد اتخذوها وسائل للتنجيم واضلال الناس ، فلا بدع اذا أعدت لهم النار يصلون سعيرها .

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمنجمين أن ذلك كان من نتائج خلق النجوم ، وقد حصل بارادته ، لا أنه تعالى شرعه ورضى به كما رضى بأن تكون النجوم زينة ومصابيح للسماء .

وسنزيد هذا البحث ايضاحا فى سورة الجن عند قوله تعالى : (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) .

وربما أوهم قوله فى الآية السابقة (وأعتدنا لهم الخ) أن عذاب السعير ما أعد الا للشياطين خاصة ، فنفى ذلك هنا بقوله **(وللذين كفروا بربهم الخ)** اى أن عذاب جهنم للكافرين جميعهم : شياطين كانوا أو غير شياطين، و **(المصير)** المرجع والمآل : من صار أمره الى كذا : آل اليه ورجع ، والمخصوص بالذم محذوف كأن يقول وبئس المصير عذاب جهنم ، و **(الشهيق)** الصوت الذى يتردد فى صدر المرء وهو يبكى ، ويخرج من الجوف بشدة، ولذلك يسمى نهيق الحمار شهيقا أيضا ، **(تفور)** تغلى كما تغلى القدر **(تميز)** أصله تتميز اى تتفرق أجزاؤها وتتقطع من شدة غيظها وحنقها على أولئك الكافرين الذين ألقوا فيها ، وهذا كما يقال فى وصف الحزين : « يكاد يتفطر قلبه من شدة الحزن » والشهيق والغيظ جمعا فى آية واحدة فى سورة الفرقان فى وصف

جهنم أيضا (**اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا**) و (**الزفير**) هو الشهيق أو قريب المعنى منه .

ومعنى الآيات أن أولئك الكافرين حينما يلقون فى جهنم يسمعون لها صوتا شديدا وهى تغلى ، ويكاد الرائى لهـا من شـدة غليانها وحسيسها المنكر يحسبها غضبى على الكافرين بحيث يوشك ان تتقطع أوصالها من فرط غيظها عليهم ، وهل هـذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى أن المواد التى تلتهب فيهـا يسمع لها هذا الصوت ؟ أو هو صوت أهلها الذين القوا ويلقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين احـد الأمرين ، كما لم يكلفنا أن نعرف جهنم نفسها والجنة وسـائر شـئون عالم الغيب معرفة كنه وتحديد ، وانما كل ما على المؤمن أن يعتقد أنه تعالى أعـد دارا للأشرار تسعر فيها النار وتفور ويسمع لها صوت على المعنى الذى يريده سبحانه وتعالى . أما ما وراء ذلك من اعتقاد أن مواد جهنم وعناصرها وطبائعها وغليانها وحسيسها من جنس ما نعرفه فى الدنيا أو لا ـ فهذا مما لم نكلفه رحمة بنا ، اذ القصد أن يؤدى علمنا بالنار الى الخشية والازدجار ، وهذا يحصل بمجرد ما قصه الله علينا من أمرها وان الداخل اليها يشعر من الألم بأقصى ما يعهده فى دار الدنيا .

وأما أن الغيظ والغضب يكاد يقطع أوصال جهنم ، فهو تمثيل وتصوير لهول أمرها ، وفظاعة خطبها ، قلما يجهل حسـنه من أوتى حظا من علم الأدب ، وتذوق بشىء من خصائص لغة العرب .

الكلام متصل بما قبله ، فبعد أن وصف دار العذاب جاء هنا يصف لنا أطوار المعذبين فيها ، (**فوج**) جماعة من الجاحدين ، (**خزنتها**) هم الموكلون بها ، ويسمون الزبانية ، (**نذير**) رسول من قبل الله ينذركم بطشه ، ويحذركم عقابه ، (**بلى**) حرف تصديق يقع بعد النفى فيفيـد اثبـات المنفى ، وفى الآية لم يكتف بمـا تفيده (**بلى**) من الاثبـات ضمنـا ، بل جىء به صراحة ، اذ قيل (**قد جاءنا نذير**) ولو لم يصرح به لفهم ، و (**الضلال الكبير**) هو أن يبعد المرء عن الحق بعدا شاسعا ومفعول (**نسمع أو نعقل**) محذوف أى ماكنا نسـمع ولا نعقل كلام الرسـل ولا انذارهم ولا تحذيرهم . والمراد بنفى السماع والعقل نفى الاجابة والتلبية ، لأن القوم لم يكونوا صما ولا مجانين ، وهذا الاستعمال شائع فى كلام العرب . قال شاعرهم :

دعوت الله حتى خفت الا   يكون الله يسمع ما أقول

أى حتى خفت الا يـكون الله يريد اجـابة دعائى ، وتلبية ندائى ، و (**السـعير**) من أسماء جهنم وهو من سـعرت النـار فهى مسعورة وسعير ، مثل مقتولة وقتيل ، اى أوقدتها ايقادا شديدا ، (**سحقا**) بعـدا وهلاكا ، وهى من كلمـات الدعاء والتقريع مثل تبـا وجدعا ، ويقال فى ضدها سقيا ورعيا ، وأصل معنى (سحقا له) أسحقه الله سحقا ، أى أبعده من رحمته ابعادا ، ومن السحق بمعنى البعد قولهم «مكان سحيق» أى بعيد و « نخلة سحوق » أى طويلة ، ومعنى الآيات أنه كلما القى فى جهنم جماعة من المكذبين سألهم القائمون عليها سـؤال توبيخ وتقريع : ألم يرسـل الله اليكم رسولا ؟ فيقولون : بلى ! أرسله الينا فكذبناه وأفرطنا فى التكذيب حتى جحدنا الوحى السماوى وقلنا ما أنزل الله شيئـا مما تدعونه أيها الرسل ، ثم ذهبنـا فى الجحود والعناد والجراة على الله كل مذهب ، فقلنا للرسل (**ان أنتم**) أى ما أنتم معشر الرسل الا بعيدون عن الحق والصواب أشد بعد . ثم قال المسئولون لأولئك السائلين مقال النادم الآسف : لو كنا سمعنا كلام الرسل سماع اصغاء وقبول ، وعقلناه عن تفكر وتدبر ـ لكنا آمنا بهم وبالحق الذى جاءوا به ، وما كنا الآن فى عداد زوار جهنم نقاسى حرها ونصلى سعيرها . ثم قال تعالى فانظر كيف اعترف هؤلاء القوم بذنوبهم فى وقت لاينفعهم فيه الاعتراف . ومن كان هذا شأنه فى العناد ومقاومة الحق لا ينبغى الرأفة به ، ولا العطف عليه ، وانما يحسن تقريعه وتوبيخه والدعاء عليه بالسحق والهلاك . وفى تكرير تلقيبهم بأصحاب السعير من النعى عليهم والهزء بهم ما لا يخفى وقعه وحسن ايراده .

وانما سألهم زبانية جهنم هذا السؤال وهو قولهم لهم (**ألم يأتكم نذير**) مع أنهم ربما كانوا عالمين بمـا كان منهم فى دار الدنيا ـ ليكون ذلك أشد نكاية فى تعذيبهم ، وأكثر ايلاما لنفوسهم ، فانه لا يرمض قلب المرء شىء مثـل أن يقال له فى حين ظهور خطئـه ، ومقاساته عاقبة ماجنته يداه : انك انت الجانى على نفسك ، أنت الذى فرطت بما تيسر لك من أسباب النجاة والسعادة فشقيت .

قلما يصف القرآن ما أعده الله للمكذبين فى الدار الآخرة من أنواع العـذاب الا اعقبه بذكر ما أعـده للمؤمنين من منازل الكرامة وصنوف النعيم ، وهذا هو معقد الاتصال بين هذه الآية (**ان الذين يخشون ربهم الخ**) وسابقتها ، على أن لها بها اتصالا آخر ادق وألطف : ذلك أن المكذبين لمـا وردوا جهنم ورأوا ماهالهم أمره من أحوالها ، وسئلوا عن سبب ورودها ـ أجابوا بأنهم كانوا يكذبون أقوال الرسل ، وينكرون الوحى وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد . وحجتهم فى ذلك انهم يستبعدون وجود تلك الدار وهم لم يروها ، فمهما وضحت لهم صحة الرسالة وقامت القرائن على صدق الرسول فى دعواه ، اتخذوا عدم رؤيتهم لما بشر وانذر به من عالم الغيب والنشـأة الثانية ذريعة الى تكذيبه صلى الله عليـه وسـلم ، وعدم الاعتداد بقوله ، فكان أمر الغيب اكبر عقبـة فى طريق ايمانهم . أما أولئك (**الذين يخشون ربهم**) اى يخـافون عذابه (**بالغيب**) أى حال كون ذلك العذاب غائبا عنهم ولم يعـاينوا منـه أثرا ـ فانهم جديرون بأن تكون (**لهم مغفرة**) وعفو من الله عن ذنوبهم (**وأجر كبير**) أى عظيم اذا قيس بلذائذ الدنيا الصغيرة الحقيرة .

بعد أن أنذر تعالى المكذبين وبشر المصدقين عاد فنبههم جميعا الى انه عالم بما يكون منهم من ايمـان وكفر ، ولا فرق عنده بين السر والجهر . والخطاب فى قوله : (**وأسروا قولكم**) سر وان كان موجها الى

أَجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن

الفريقين المصدقين والمكذبين ـ كان سببه صادرا عن المكذبين وهم المشركون ، فانهم كانوا يوصى بعضهم بعضا بألا يجهروا بما يدور بينهم من الحديث ، لئلا يطلع عليه النبى صلى الله عليه وسلم . و **(ذات)** بمعنى صاحبة للمؤنث كما ان (ذو) بمعنى صاحب للمذكر . واذا قال العرب (ذات الخدر) أرادوا المرأة صاحبة الخدر الملازمة له . وكذلك هم يريدون **(بذات الصدور)** الخواطر التى تلازم الصدور فلا تبرحها وتبقى مخفية فيها . و **(من خلق)** يمكن تطبيقه فى الاعراب النحوى على وجهين : اما أن نجعل **(من)** فاعلا ليعلم : كأنه يقول : ألا يعلم الخالق؟ ويصح أن يكون مفعولا به ليعلم ويكون فاعله ضميرا راجعا الى الله : كأنه يقول : ألا يعلم الله تعالى مخلوقاته؟ و **(اللطيف)** فيه معنى الدقة وصغر الحجم (لطف الشىء) صغر ودق حجمه ، فهو لطيف . واذا وصف به ذو العلم والقدرة كان معناه أنه مطلع على الأمور الدقيقة التى قلما يفطن لها . والله سبحانه وتعالى لطيف اى أنه عالم بدقائق شئون البشر مطلع على غوامض مصالحهم . وهو يسلك فى تمهيد طريقها بين أيديهم مسلك الرفق والرحمة . ولذلك يقولون : (هو لطيف بعباده ، وان لطفه بعباده عجيب) يريدون عنايته تعالى بكشف الضر عنهم ، وايصال الخير اليهم من حيث يخفى ذلك عليهم ، ولا يقع تحت مشاعرهم .

والآية على وجازة لفظها تتضمن قضايا ونتائج آخذ بعضها برقاب بعض ، فهو تعالى يقول للقوم المخاطبين : انه لافرق عنده بين ان تسروا حديثكم بينكم أو تجهروا به وتسمعوه للملأ ، لأنه تعالى يعلم خواطر قلوبكم ، ومايدب من الأسرار فى صدوركم ، ولو لم تنوطوا بها أجراس الالفاظ فكيف لا يعلم الألفاظ المهموس بها همسا ؟

ثم انتقل الى الاحتجاج على من عساه ينكر ان يكون الله تعالى عالما بالضمائر ، وخفى السرائر ، فنبهه الى أنه تعالى هو الذى خلق البشر وأوجدهم من العدم ، والخالق يعلم البتة ، كيف لا وعلمه قد نفذ الى اسرار المعلومات ، وتبطن غوامض الأمور ؟. هذا اذا جعلنا **(من خلق)** فاعلا ليعلم . فاذا جعلناه مفعوله كان المعنى : كيف لايعلم تعالى الهواجس التى تحيك فى نفوس البشر وهو الذى خلق هذه النفوس ومن كمال العلم بالشىء العلم بما يحتوى عليه ذلك الشىء ؟

بعد أن ذكر تعالى فى الآية السابقة انه لطيف خبير ذكر هنا مثالا من أمثلة ذلك اللطف العجيب ، فهو تعالى خلق البشر ، وعلم دقائق طبائعهم ، وغوامض استعداداتهم ، فأمدهم من صنوف النعم بما يلائم حالهم ، ويسهل عليهم البقاء فى هذه الدار الدنيا . الا يكون هذا الامداد ، وذاك اللطف المشاهدة آثاره بأم العين ـ باعثا على خشية الخالق وتصديق رسله ، والايمان بالغيب الذى أخبر به ؟؟

أصل **(الذلول)** الدابة اللينة السهلة الانقياد . مشتق من الذل بكسر الذال بمعنى اللين ، وهو ضد الصعوبة . والوصف منه ذلول . أما الذل بضم الذال فهو أن يهون أمر الرجل ، ويصغر شأنه بين الناس . وضده العز . والوصف منه ذليل . و **(المناكب)** جمع منكب على وزان مجلس وهو الناحية من كل شىء : فمناكب الأرض أطرافها وجوانبها . ومنكبا الرجل جانباه . والمنكب أيضا فى البعير والانسان اسم للموضع الذى يلتقى فيه عظم عضده بكتفه . وهما منكبان ، فيحتمل أن يكون المراد بمناكب الأرض جبالها وآكامها ، وتكون سميت بذلك لشخوصها وارتفاعها كارتفاع المناكب فى الانسان . وخص الجبال بالذكر فى قوله : **(فامشوا فى مناكبها)** لافادة أن الأرض غاية فى السهولة والانقياد للانسان بحيث يتسنى له الانتفاع بوعورها وحزونها ، فكيف يكون مقدار انتفاعه بسهولها وأريافها المنبسطة ؟ يروى ان بشير ابن كعب العدوى قرأ هذه الآية **(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها)** فقال لجارية له : (ان دريت ما مناكبها فأنت حرة لوجه الله) فقالت : « مناكبها جبالها » فكأنما سفع فى وجهه ، اى كأن لاطما لطمه على وجهه ، خشية أن تكون الجارية أصابت فى تفسير المناكب ، فتعتق عليه ، وتخرج من ملكه ، وهو ضنين بها . فسأل ، فمن قائل عتقت ، ومن قائل لم تعتق . ثم سأل أبا الدرداء الصحابى الجليل رضى الله عنه ، فقال له : « ان الخير فى طمأنينة ، وأن الشر فى ريبة ، فدع مايريبك الى ما لا يريبك » . ومعنى هذا أن خيرا للانسان أن يكون فى حالة طمأنينة وهدوء نفس ، وأن شرا له أن يكون حاله على العكس ، وأن الجارية يحتمل ان تكون أصابت وأن تكون اخطأت ، فبقاؤها فى ملك سيدها مدرجة للشيطان بالوسوسة الى نفسه ، فالأحسن له أن يعتقها ثم يتزوجها ان شاء وشاءت هى . و **(النشور)** مصدر نشر الميت ينشر من باب دخل عاش بعد الموت . ومعنى كون النشور الى الله أن البعث ومرجع الانسان فى نشأته الأخرى اليه تعالى ، فليس من يحاسبه على اعماله سواه .

قلنا آنفا ان هذه الآية تتضمن مثالا من أمثلة لطفه تعالى بالبشر مذ جعل الأرض صالحة لسكناهم فيها ، على أن الآية ربما كانت مسوقة لتهديد المكذبين وتذكيرهم بأن من يسر لهم اسباب البقاء فى هذه الأرض قادر على سلبهم اياها ، فهو يقول لهم :

احذروا هذا التمادى والتكذيب للرسل ومحاولة اخفاء سرائركم ، واذكروا أنه تعالى جعل لكم الأرض سهلة لينة منقادة انقياد الدابة الذلول ، فدعوا اذن العناد والتكذيب جانبا وحافظوا على هذه النعمة ، وامشوا فى الارض مشى المستثمر المستفيد ، وانتفعوا بما هيأه لكم فيها من أنواع الرزق وأصناف القوت . ثم لا تركنوا الى هذا العيش الهنىء ، فتستسلموا الى اهوائكم ، ووساوس نفوسكم ، بل تيقنوا أنكم سوف ترجعون بعد النشور من قبوركم الى الله ، فيحاسبكم وينتصف منكم .

وانقياد الأرض للانسان ظاهر بالأكثر فى الأمم الحية التى عرفت كيف تنتفع بقوى نفوسها ومدارك عقولها الممنوحة لها من قبل العزة الالهية . فهى لم تدع ضربا من ضروب الانتفاع بهذه الأرض الا تناولته ، ولا طريقا من طرق الاستفادة من خيراتها الا سلكته : حللت العناصر وركبتها . صهرت المعادن وطبعتها . عرفت طباع الحيوانات وسخرتها . فقهت خصائص النباتات واستنبتتها . اكتشفت نواميس المادة واخضعتها . اكتنهت أسرار الكائنات واستخدمتها . غاصت فى أعماق الماء . طارت فى أجواز السماء . اذا اعترضتها شوامخ الجبال نادتها بالبخار من تحتها ، أو توقلت بسلالم سكك الحديد من فوقها . وبالجملة فان فى بلوغ البشر هذه الدرجة من الرقى مصداقا لامتنان البارى تعالى عليهم بجعل الأرض ذلولا لهم يمشون فى مناكبها ، ويأكلون من رزقها ، حتى يأتيهم اليوم المقدور ، ثم الى الله يكون النشور .

وقد يقال فى تصوير كون الأرض ذلولا لنا معشر البشر أننا نعيش محمولين على ظهرها ، وهى تسير بنا الهوينا فى فلكها حول الشمس : لاتبطىء ولاتسرع بأكثر مما تستدعيه حال سكانها ، ولاتصادم نجما أو ذنبا لذوات الأذناب السابحة فى الفضاء . فكانت الارض لنا نعمت المطية المدربة ، والذلول المجربة .

لحاق هذه الآية بما قبلها يؤيد ان الأولى واردة مورد التحذير والتهديد كما سبقت الاشارة اليه .

و (**من فى السماء**) هو الله تعالى . ولكن قام البرهان العقلى على أن الاله الأزلى خالق الكل ، وضابط الكل ، لايتصور أن يكون مستقرا فى مكان . فوجب اذن صرف الآية عن ظاهرها ، وحملها على معنى يلتحم مع ما أثبته العقل ، وقام عليه البرهان . والقرآن يفسر بعضه بعضا : فآية (**وهو الله فى السموات وفى الأرض**) تنفى أن تكون ذات الله فى السموات وفى الأرض ، اذ كيف يعقل أن تكون الذات الواحدة فى مكانين فى آن واحد ؟ لاجرم أن يكون المراد بكونه تعالى فى السماء وفى الأرض أن مشيئته وحكمه نافذ فيهما ، وسلطانه وقهره غالب عليهما . والذى يساعد على هذا التأويل ماجرت به عادة البشر حتى الضالين منهم ، فانهم ينتظرون وصول النعم اليهم ، ويحذرون حلول النقم بهم من جانب السماء ، فهى قبلة خوفهم ومحراب رجائهم . وصاروا يفهمون من كون الله فى السماء عند الاطلاق أن السماء مصدر تصرفه ونفوذ مشيئته فى العالم .

وذهب أبو مسلم الأصفهانى (١) الى أن العرب لما كانوا يقرون بوجود الله تعالى ويزعمون أنه فى السماء ـ خوطبوا فى الوحى على حسب اعتقادهم ، فقيل لهم : (**أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ؟**) اى أأمنتم أيها القوم ذاك الاله العظيم الذى تعتقدون أنه موجود فى السماء أن يهلككم ؟ هذا ماقاله أبو مسلم وهو دقيق جدا . وربما ورد فى القرآن أمور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع وارادة حمل المخاطبين على اعتقادها ، وانما تذكر على سبيل الفرض ، وارخاء العنان لهم فى اعتقادها اعتمادا على نصوص أخر بينت فساد هذا الاعتقاد . وقد قال الامام الشاطبى فى موافقاته : ان القرآن لايذكر أمرا باطلا ما لم ينبه على بطلانه وفساد أمره .

و (**خسف**) المكان خسوفا غاب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا غيبه فيها . و (**تمور**) تضطرب وتتحرك بشدة حركة أفقية اى يمينا وشمالا وهى أشد حالات الخسف هولا وتخريبا . وقوله (**أم أمنتم الخ**) اضراب عن التخويف الأول وهو الخسف بهم ، وانتقال الى تخويف أقرب وقوعا ، وأكثر حصولا ، وهو ارسال الحاصب ، و (**الحاصب**) ريح شديدة تثير الحصباء وهى الحصى . و (حصبت الرجل) رميته بالحصباء . و (**نذير**) أصله نذيرى بياء المتكلم ، لكنها حذفت ليشابه الوقوف عليها بالسكون خواتيم الآيات المتقدمة عليها والمتأخرة عنها ومعنى (نذيرى) انذارى ، وهو اسم مصدر لانذر ، أما المصدر فهو الانذار .

ذكرهم تعالى بنعمة صلاحية الأرض لمعيشتهم فيها ، ليبعث هذا التذكير فى نفوسهم فضل خشية ، وزيادة اتعاظ . ثم حذرهم عاقبة التمادى فى الجحود ، وانه ليس من اللائق بهم أن يأمنوا زوال النعم عنهم ، ويذهلوا عن أن الذى أعطاهم هذه النعم وهو الله تعالى قادر على أن يسلبهم اياها . فبعد أن تكون الأرض ذلولا صالحة للانتفاع بها ، تصبح كالفرس الجموح ، أو البعير الصعب ، فلا يعود يمكنهم القرار عليها ، فترجف وتضطرب اضطراب خسف وزلزال وتبتلعهم . ولا ينتهى التنكيل بهم عند هذا الحد ، بل تأخذ بعد ابتلاعهم فى المور والاهتزاز الشديد ، فيكون هذا أدعى لتراكم الأنقاض عليهم ، وصعوبة خلاصهم والخلوص اليهم . وكأن المخاطبين استبعدوا وقوع الخسف بهم لقلة حدوثه ولا سيما فى جزيرة العرب ، فأضرب تعالى عن تهديدهم بالخسف الى تهديدهم بعذاب آخر اقرب حصولا ، وأكثر حدوثا فى جزيرتهم ، وهو ارسال ريح شديدة عليهم تحمل الحصى وصغار الحجارة وتصكهم بها صكا ، فتهلكهم وتستأصل شأفتهم .

ولما كان من المحتمل ان يبقوا على عنادهم واصرارهم بحيث لاتنفعل نفوسهم للتخويف بالخسف والريح الحاصب أيضا ـ سكت عن كل ذلك ، ثم أحالهم

(١) المتوفى سنة ٣٢٢ فى تفسيره المسمى (جامع التأويل لمحكم التنزيل) .

يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

على المستقبل ، فانه وحده الحكم فى هذه المسألة . وفيه يتبين أكان انذار الله لهم وتهديده اياهم بالخسف والريح صادقا أو غير صادق . وهـذا مغزى قوله تعالى : **(فستعلمون كيف نذير)** أى سوف يتجلى لكم أيها المكذبون الحق وصدق الانذار ان بقيتم فى عتوكم وبعيد ضلالكم .

مهما ذكر رجال العلم الطبيعى للخسف والزلزال وهبوب الرياح الزعازع عللا وأسبابا ، فان ذلك لايمنع أن يهلك الله بها أقواما عصوا أمر الله وكذبوا رسله . فاذا هلك قوم بزلزال شديد وكانوا طغـاة فاجرين نقول ان الله أهلكهم بالزلزال لسوء صنيعهم ، وقـد نشأ الزلزال نفسه عن انفجار أبخرة وغازات كانت متجمعة فى تجاويف الأرض ، أونشأعن انخساف احدى طبقـات الأرض المكونة من صخور هشـة رخوة ، فتداعت الطبقـات العليا المتراصة فوقها ، فحدث الزلزال ، فتهدمت البيوت وهلك الناس .

ويمكن أن يتصور المرء هذه المسألة تصورا جليا بمـا نورده له من هـذا المثال التاريخى ، وهو أن المنصور العباسى كان نقم من عم له خرج عليه ، وهو عبـد الله بن على ، وأراد أن يقتله غيلة لا كفاحا ، خشية غضب من شفع به من سائر عمومته ، فبنى له بيتا جعل أساسه من قطع الملح وسـجنه فيه أياما ، ثم سلط المـاء على الملح فذاب وتداعى البناء وانقضت الجدران وخر السقف على الرجل فمات ، وأشاعوا أن موته كان بانهدام السجن عليه . فالذى أهلكه هو المنصور العباسى ، لكنه توسل الى غرضه بسقوط الحجارة الثقيلة عليه ، وتوسل الى سقوطها بانحلال الملح من تحتها ، وتوسـل الى انحـلال الملح بتأثير المـاء فيه . فاذا قال قائل أن الرجـل مات لأسباب طبيعيـة حـدثت فى أساس البنـاء يكون صـادقا . واذا قال آخر أن الرجل مات لأنه غاظ المنصور ومرق من طاعته فأهلكه يكون صادقا أيضا، وهكذا نقول فيما ورد فى القرآن من أن الله تعـالى أهلك الأمم الجاحدة بالريح أو الزلزال أو الطوفان أو انبثاق السد أو غير ذلك . ولله المثل الأعلى .

كان الخطاب فى الآيات السابقة للمشركين أنفسهم من عند قوله **(وأسروا قولكم)** الى قوله **(فستعلمون)** ثم التفت فى هذه الآية : **(ولقد كذب الخ)** الى خطاب النبى صـلى الله عليه وسـلم وتحديثه عن أولئك المشركين الذين كان يخاطبهم وتسليته بأنه سينالهم اذا بقوا على تكذيبهم مانال مكذبى الأمم الذين كانوا قبلهم . و **(نكير)** أصله نكيرى بيـاء المتـكلم لكنهـا حذفت لموافقة رءوس الآيات الأخرى كمـا حذفت من (نذير) . و (النكير) اسم مصدر لتنكر تنكرا . ومعنى تنكر تغير : يقال تنكر الملك لوزيره اذا تغير قلبه عليه ، وتنكر الصديقان اذا تغيرا وانتقـلا من حال تسر الى أخرى تسوء ، وتنكر لى فلان لقينى لقـاء بشعا . فمعنى التنكر قريب من معنى الحقد والسخط على شخص بعد الرضى عنه . ومن تسخط عليـه تنتقم منـه ، وتنزل به العقاب . فالتنكر فى جانب الله لايصح أن يراد منه انفعال النفس ، وانما يراد به لازمه ، وهو الاهلاك وانزال العـذاب ، ومن ثم قال أبو مسلم الأصفهانى : النكير عقاب المنكر . وهكذا يقال فى مكر الله بهم ، وغضب عليهم ، ورضى عنهم ، وضحك اليهم .

يقول تعالى لا تأس يا محمد مما ترى من عقوق قومك وجحودهم وتكذيبهم لك ، فقد كان هذا دأب الأمم الذين قبلهم : كذبوا أنبياءهم ، وتمادوا فى غيهم وعنادهم ، فتنكرت لهم ، وغضبت عليهم ، وأنزلت بهم العـذاب . ولا تزال أخبـارهم وهول ما لقـوا متعالمـا متـداولا بينكم . فكيف كان تنكرى لهم ، وتغيرى عليهم ؟ أى فـكيف كان غضـبى عليهم ، وأخذى لهم ؟ ألم يكن غضبا شديدا ، وأخذا وبيلا ؟

والآية لم تصرح باسم هؤلاء الأقوام الذين أخذهم الله بذنوبهم وجعلهم مثلا وعبرة لمشركى مكة . لكن قوله **(فكيف كان نكير)** يشـعر بأن مانزل بأولئك الأقوام كان معروفا للمخاطبين ، اذ كيف يسـألهم عن خبر ماحل بهم ، ويطلب منهم المصـادقة على هول ما أصابهم وهم لايدرون من امرهم شـيئا ؟ فاذا لم نقل فى تعيين أولئك الأقوام الهالكين انهم عاد وثمود أنفســهم نقول انهم من أمم تعرفها العـرب طغوا وبغوا فأخذهم الله بذنوبهم ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين بهم .

كان المشركون يكذبون النبى صلى الله عليه وسلم ارتيـابا بقوله ، واسـتخفافا بمـا كان يوعدهم به ، فـكانت الآيات تنزل تترى فى الاحتجـاج عليهم ، وتسفيه آرائهم وحضهم على التصديق ، وتخويفهم العذاب ان هم أصروا وكابروا . وكان معظم السبب فى اصرارهم وتكولهم ظنهم أن لاشىء مما أوعدوا به يمكن أن يلحقهم . فاحتج عليهم سبحانه بمـا صـنع بالأمم التى كانت قبلهم وقد كذبت فأهلـكها . ثم أخذ فى هذه الآية **(أو لم يروا الى الطير الخ)** والتى تليها ينبه المشركين الى شمول قدرته ، ويدعوهم الى التفكير فى أنه تعالى قادر على الحاق العذاب بهم ، فان من عجـائب قدرته ما يرونه فى كل وقت وآن من تحليق الطيور فوق رءوسهم ، واستعلائها فى طبقات الهواء ، مع أنها اجسام ضخمة كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمـادة أن تسقط على الأرض . ولكنه تعالى بباهر قدرته ، وعجيب صنعه وحكمته ــ خالف فى أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى لائقة بها ، بحيث يمكنها معها

ان تستعلي في الهواء من دون أن تسقط . من فعل هذا ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟ ما أمسكها الا الرحمن ، الذى رحم هذه الحيوانات فيسر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان الى مكان ــ ما حفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها .

ولا بدع ، فهو تعالى **(بكل شيء بصير)** ، يعطي كلّ شيء من خلقه القوى والسنن اللازمة له ، والمتوقف عليها بقاؤه . وقد ذكر علماء هذا العصر أن اكبر طير يعيش اليوم على وجه الأرض يسمى « الكندر » ثقله سبعة عشر رطلا ، والبعد بين جناحيه اذا صفهما أى بسطهما يبلغ عشر أقدام .

والقصد من هذه الآية تنبيه المشركين المكذبين الى عجيب قدرته تعالى ، وأن من له هذا التدبير في تكوين خلقة الطير لا يعجزه أمرهم ، ولا يفوته بلوغ مايريد من انزال العذاب بهم .

بقي هنا شيء : وهو لماذا قال **(صافات ويقبضن)** ولم يقل (صافات قابضات) أو (يصففن ويقبضن) ، أى لماذا عبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

صف الطائر بسط جناحيه في الجو وهو يطير ، وقبضهما اذا ضمهما وضرب جنبيه ، والأصل الذى يساعد الطير على الطيران انما هو الصف وبسط الجناحين ، واذا ضمهما أحيانا عادفبسطهما للحال ، فهو لا يمكنه أن يبقى قابضا لهما وهو يطير ، بخلاف البسط ، فانه يبقى ملازما له ساعات كثيرة ، فما كان الأصل في الطيران وهو الصف جيء به على صيغة الاسم ، فقيل (صافات) لافادة أن الصف هو شأن الطيور الذى تثبت عليه ، وصيغة اسم الفاعل تفيد الدوام والاستمرار ، ولكنها « أى الطيور » في بعض الأحيان يطرأ عليها وهى طائرة مايدعوها الى قبض جناحيها من حيث انه يساعدها على البسط والتحريك . فلما كان القبض أمرا طارئا وعارضا في الطيران جيء به فيالآية بلفظالفعل المضارع الذىيفيد التكرر والتجدد ، فقيل (يقبضن) ، ويكون مؤدى المعنى هكذا : ان الطيور صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة . أو يقال : ان النكتة في التعبير عن القبض بالفعل المضارع هي تصوير الحالة لأذهان المخاطبين وزيادة تعجيبهم منها ، فانهم حين تقول لهم انظروا الى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم يخف العجب حينما يقع في نفوسهم أنها عند بسط أجنحتها يكون قد دعمها الهواء من تحتها كما يدعم الأجسام الرقيقة المنبسطة فيه ، فاذا نبهناهم الى أن الطير قد يقبض جناحيه في أثناء الطيران ولا يقع تكون قد زدنا في عجبهم ، وهجنا من دهشتهم . والفعل المضارع بما فيه من معنى التجدد والحدوث والزمن يساعد على تصوير الحالة واحضارها في ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفطن لأساليب العرب ، وتأملّ في ملاحن كلامهم .

هذا وان طيران الطيور لم يزل من المشكلات التى لم يحلها العلم الحديث على طول باعه في الاكتشافات ، والوقوف على أسرار خلقة الكائنات . وقد عدوا من أبعد الأمور عن التعقل استمرار الطيور طائرة وأجنحتها مصفوفة موازية للأفق وهي لاتتحرك . وأعلن بعض علماء أوربا منذ سنين أنه اكتشف الناموس الذى به يتمكن الطائر من الطيران ، لكنه لم ينشر تفصيل ماعرفه من أمر هذا الناموس . غير أن العلماء اتفقوا على أن السبب في استمرار الطيور طائرة يرجع الى تقعر اجنحتها وتحدبها وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في طيران الانسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكى أجنحة الطيور وأوضاعها .

ربما يخطر في البال بعد طيران الانسان أن طيران الطيور لم يعد محلا للعجب ، ولا دلالة فيه على القدرة التى أراد الله الاحتجاج بها على المشركين ، ولكني أقول ان طيران الانسان قد يكون أكثر دلالة على قدرة الله تعالى من طيران الطير ، ولو كان الانسان قد اهتدى في عصر النبوة الى الطيران لعجب الوحى المشركين من تحليق الطيارة في جو السماء ، كما عجبهم من سير الفلك على وجه الماء ، مذ عده نعمة على البشر ، وآية على قدرة الله . ولعمرى انه لا فرق بين طيران الطير وطيران الانسان فيأن كلا منهما أثر من آثارقدرة الله ، وعجيب صنعه في خلقه : طار الطائر بقوى ونواميس كامنة في تركيب جسمه وهى من الله ، وطار الانسان بقوى عقله وعمله ودقة ملاحظته ونواميس المادة التى استخدمها في الوصول الى غرضه ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ،ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لاله آخر غير الهنا ، وانما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمنا بالله وما أنزل الينا من عند الله .

قوله **(أمن هذا الذى الخ)** مقابل لقوله قبله **(أولم يروا الى الطير فوقهم صافات)** ، كأنه يقول أولم ينظروا الى عجيب صنع الله في خلق الطير فيعرفوا مبلغ قدرته تعالى على انزال العذاب بهم ؟ أم أنهم تعاموا عن ذلك اعتدادا بأن لهم من غير الله قوة تحميهم ان أراد اهلاكهم ، وترزقهم ان أمسك الرزق عنهم . فالقوة الحامية لهم في زعمهم هي جندهم وسلاحهم ، والقوة الرازقة هي آلهتهم وأصنامهم ، وهذا هو شأن المشركين في زمن البعثة : كان صلى الله عليه وسلم اذا خوفهم البطشة الكبرى ذكروا له من منعتهم ، ونصرة جندهم . واذا حذرهم القحط وأنه تعالى قادر على أن يحبس عنهم المطر ويمنع وسائل الرزق ــ أظهروا التجلد والاستغناء ، وزعموا أن أصنامهم تمدهم من صنوف الرزق بما شاءوا . فوبخهم الله على الأمرين ، وأبطل لهم كلا الزعمين : فلا الأعوان الذين لديهم بقادرين على أن يحموهم ان أراد هو اهلاكهم ، ولا الأصنام التى يعبدونها بالتى يمكنها أن ترزقهم اذا أراد امساك الرزق عنهم .

والاشارة الى الجند والأوثان ، بكلمة **(هذا)** الدالة على القرب مما يفيد في هذا المقام تحقير المشار اليهم

ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ
جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا
فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ
بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ
أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

والانحطاط شأنهم ، كما أن التعبير بذلك الدال على البعد يفيد التعظيم ورفعة الشأن أحيانا نحو قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه) .

والجند العسكر والأعوان : معناه جمع ولفظه مفرد . وقوله فى صفته (**ينصركم**) مراعى فيه جانب اللفظ لا المعنى . وكلمة (**دون**) مقلوبة فى الأصل على (**دنو**) ومعناه القرب . استعملت فى المكان القريب . ومن كان فى مكان قريب منك كان بالضرورة مغايرا لك . ومن ثم كثر استعمال دون أيضا بمعنى (غير) ، فمعنى من ينصركم (**من دون الرحمن**) من يقدر أن ينصركم نصرا واصلا اليكم من غير الرحمن . ويمكن أن نبقى (دون) على معناها الأصلى وهو المكان القريب ، ويكون حل المعنى هكذا : من يمكنه أن يمدكم بالنصر من مكان قريب من الله ، ولاريب أن كل الأمكنة قريبة منه تعالى : أى أنه تعالى عالم بالأمكنة وبمن حل فيها . وليس اقترابه منها كاقتراب بعض الأجسام من بعض ، فكل أحد اذن عاجز عن نصرة المشركين لأن الله ناظر الى من ينصرهم عن كثب متمكن من قهره آخذ بناصيته .

والاستفهام فى قوله (أمن هذا الخ) ينتهى عند قوله (الرحمن) .

وقوله (**ان الكافرون الا فى غرور**) بمنزلة الجواب لذلك الاستفهام : أى لا جند لهم فى الواقع ونفس الأمر قادر على نصرتهم . فليس الكافرون اذن الا قوما مغرورين مخدوعين ، فتكون (ان) نافية بمعنى ليس ، وكذا يقال فى الاستفهام الآخر أعنى قوله (**أمن هذا الذى يرزقكم**) فانه ينتهى عند قوله (**رزقه**) . وقوله (**بل لجوا فى عتو ونفور**) قام مقام الجواب : كأنه يقول كلا لا أحد غير الله يرزقهم . ولم يذعنوا هم لهذا الأمر الجلى بل تمادوا فى تمردهم وكبرهم ، وتباعدهم عن قبول الحق ، واتباع النبى عليه السلام وما أتى به من القول الصدق .

(**كبه**) على وجهه صرعه وقلبه . والرجل الذى انقلب يقال عنه انه أكب . فالمكب اذن هو الذى يعتور مشيه عثار وسقوط من وقت الى آخر ، اما لضعف فى بصره ، أو وعورة فى طريقه . وعكسه (**السوى**) وهو الذى يمشى مستوى القامة ، ثابت القدم . و (**أهدى**) أفعل تفضيل أى أشد هداية وأقرب وصولا الى حيث يقصد .

والكلام تمثيل لحالة أولئك الذين وصفهم بالعتو والنفور فى الآية السابقة مع مقارنتهم بالمؤمنين الذين أذعنوا للحق : قال عن الأولين انهم تمادوا فى تمردهم ونفورهم . والمتمرد اذا نفخ الشيطان فى انفه ضل وعمى عن القصد واعتسف الطريق اعتسافا . وهكذا كان شأن المشركين ، فهم كالماشى المكب الذى يقع على وجهه فى كل خطوة يخطوها . أما المؤمنون فكانوا كالذى يمشى منتصب القامة فى طريق لاحب : لاصخور فيه ولا عواثير . فأى القبيلين أشد هداية ، وأقرب وصولا الى الغاية ؟؟

اذا كان حال المشركين على ما وصف فى الآية السابقة من ركوب التعاسيف والضلال عن طريق الحق كانوا ملومين أشد اللوم ، وذلك لأنه تعالى خلق لهم الحواس والمشاعر ، ومتعهم بالعقل والمنطق ، ويسر لهم وسائل النجاة ، وأسباب الهداية . فلم ينتفعوا بشىء من ذلك ، ولم يشكروا الله على هذه الوسائل والأسباب ، فيستعملوها فيما خلقت لأجله بل ضلوا وحادوا عن طريق الهدى ، الى طريق الردى .

فقوله (**قل**) أى يامحمد فى تبكيت أولئك الذين عتوا وتورطوا فى الضلال : الم تعلموا أن الله الذى يدعوكم للايمان (**هو الذى أنشأكم**) خلقكم وجهزكم بأسباب الرشد والهداية من أسماع وأبصار وافئدة أى قلوب . فلم صممتم عن المواعظ ؟ وعميتم عن الآيات ؟ وأعرضتم عن النظر والتفكير ؟ لا جرم أنكم تعلمون أن الله فاعل جميع ذلك ، لكنكم قوم لاتشكرون ، وبنعم الله تكفرون .

والقلة كثيرا ما تستعمل فى كلام العرب ويراد بها عدم الفعل ونفيه من أصله لا أنه يقع على وجه الندور . ومثل له الجاحظ فى كتاب الحيوان (جزء ٢ ص ٨٣) بقولك « فلان قليل الحياء » قال : وأنت لست تريد أن هنالك حياء ألبتة ، فهم يضعون (القليل) فى موضع (ليس) أى فى موضع النفى ، ومنه الحديث الشريف «كان صلى الله عليه وسلم يقل اللغو » أى انه لا يلغو أبدا .

وأراد (**بالأفئدة**) العقول والمدارك ، لأن العرب كما يسمون العضو ذا الشكل الصنوبرى قلبا وفؤادا يسمون العقل أعنى القوة المدركة قلبا وفؤادا أيضا ، تسمية للحال باسم المحل ، ذهابا منهم الى أن العضو المذكور هو مقر العقل والادراك . والوحى يخاطب العرب بما ألفوه واعتادوه من أساليب التخاطب بينهم . وهذا كانزال القرآن بأصل اللسان العربى لأجل أن يفهموا ،

ولو أنزل أعجميا لكان لهم الحجة . وقد اعترف لهم بذلك القرآن نفسه فى قوله تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته : أأعجمى وعربى ؟) أى أيكون القرآن بلغة أعجمية ومحمد الذى أنزل عليه ذلك القرآن عربيا ؟ أممكن هذا ؟ فانظر كيف أن الله تعالى جعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا.

وقال صاحب الصحاح فى مادة (عبقر) : هو موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنة نسبوا اليه كل شىء تعجبوا منه : ثوب عبقرى وبساط عبقرى لما فيه أصباغ ونقوش ، وظلم عبقرى ورجل عبقرى ، ومنه الحديث « فلم أر عبقريا يفرى فريه » ثم خاطبهم الله بما تعارفوا فقال (وعبقرى حسان) .

وقد أشرنا الى هذا أيضا فى غير ما موضع من هذا التفسير اهتماما به ، وحرصا على فائدته ، ولكونه يحل مشاكل كثيرة فى تفسير معانى الوحى الالهى . قال المفسر الطبرى فى قوله تعالى واصفا حال المعذب المخلد فىجهنم (ثم لايموت فيها ولا يحيى) — : «قيل ذلك لأن العرب كانوا اذا وصفوا الرجل بوقوعه فى شدة شديدة قالوا (لاهو حى ولا هو ميت) فخاطبهم الله بالذى جرى به ذلك من كلامهم » انتهى قول الطبرى ، وقد عزاه الى طائفة من اهل العلم فى تفسير الآية المذكورة . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) : انما نزل هذا فى العرب بناء على عادتهم ، وهى أنهم كانوا اذا أخصبوا تحاربوا ، والى هذا يشير قائلهم :

قوم اذا نبت الربيع بأرضهم   نبتت عداوتهم مع البقل

أمر تعالى نبيه فى الآية السابقة أن يذكر المشركين بما أنعم عليهم من قوى النفس ، ومشاعر الحس . ثم ارتقى فى التذكير الى ماهو الأصل فى كل نعمة ، وأساس كل موهبة : أعنى نعمة الخلق والايجاد والتكاثر وتمهيد سبل الاستعمار أمام هؤلاء المخلوقين، فكانوا كثيرين متفرقين فى جنبات الأرض .

و (الذرء) الخلق . وهو أيضا التكثير : يقال « ذرأ الشىء » اذا كثره . ومنه (الذرية) وقد تركت همزتها ، ومعناها النسل الكثير . على أن الذرء اذا ذكر وأريد به المعنى الأول أعنى الخلق كان مرادا به المعنى الثانى وهو الكثرة أيضا ، فليس معنى **(ذرأكم)** خلقكم فقط ، بل هو أيضا مشوب بمعنى الكثرة ، أى خلقكم وكثركم . ومناط الامتنان على البشر انما هو التكاثر فى الخلق لا الخلق المجرد ، لانه تعالى لو خلق البشر جماعات قليلة ، ولم يودع نوعهم قوة النمو والتكاثر المفضى الى الانتشار فى جنبات الأرض والى احيائها — لعدت عليهم العوادى : من قحط ووباء وزلزال ، أو طاردتهم الضوارى . من ضبع ونمر وأسد رئبال ، فهلكوا وبادوا . لكنه تعالى خلقهم وجعلهم يتكاثرون ويتوزعون قبائل وشعوبا تتسابق فى مضمار الحياة ، وتتبارى فى استعمار الارض ، واستدرار خيراتها ، واستدفاع آفاتها . وهذا هو السر فى قيام مدنيات الأمم ، وارتقاء عمران العالم .

اما ختم الآية بقوله **(واليه تحشرون)** فذلك لأن السورة كلها انما أنزلت لاثبات الحشر ، وتحقيق يوم الحساب ، وحمل أهل مكة المكذبين على التصديق به . فقد أشار تعالى فى فاتحة هذه السورة الى أنه تعالى خلق موت البشر وحياتهم لأجل أن يختبر أمرهم ويعرف المطيع من العاصى منهم . ولا تكون نتيجة ذلك الا اثابة المطيع ومجازاة العاصى فى الدار الآخرة ، فأول ماقررته السورة اذن انما هو تنبيه المشركين الى الايمان بتلك الدار . ولما كان القوم مصرين على جحودها واستبعاد حصول العذاب فيها — تضمنت السورة ضروبا من التذكير بنعم الله تعالى على المكذبين، وأنواعا من الحجج والبراهين على قدرته ، وأنه تعالى لا يعسر عليه ايجاد دار لتعذيب المجرمين ، والتنكيل بالمكذبين . فكان كلما ذكر شيئا من تلك النعم ، وعدد طائفة من هذه الحجج — عاد فقرر أمر الآخرة ، أو نبه اليها تنبيها . وهكذا حتى آخر السورة .

وان آيات هذه السورة ، بل آيات سور القرآن بجملتها كشذور الذهب ، وقد الف بينها بلحام من المناسبات غاية فى الدقة واللطف . وأقرب مانستشهد به على ذلك قوله تعالى هنا (واليه تحشرون) ، فان هذه الجملة لحام دقيق يصل بين الآيات . وبيان ذلك أنه تعالى لما أراد ختم السورة حسن أن يأتى على ذكر الموضوع الذى أشار اليه فى أولها ، وهو انكار المشركين للبعث والحساب، وأنه لم يبق لهم عذر فى النكول والجحود بعد ما مر من آيات الاحتجاج عليهم . فذكر بالموضوع اذ قال : **(ويقولون متى هذا الوعد)** ، لكنه كيف ينتقل اليه مع أن الكلام الذى قبله فى صدد بيان قدرة الله على خلق البشر وتسليحهم بقوى المشاعر والحواس ؟ انتقل اليه على هذا الأسلوب : عبر عن الخلق بالذرء ، والذرء كما قلنا آنفا فيه معنى النمو والتكاثر ، ففعل (ذرأكم) يشير الى أن البشر خلقوا متكاثرين ، وانتشروا فى جنبات الأرض ، وتفرقوا فى أربعة أقطارها . هنا تتساءل النفس: هل فى قدرة الله ان يجمع البشر ليوم الحساب وهذا شأنهم من التفرق والانتشار فى الأرض ؟ فقال تعالى فى جواب هذا السؤال : (واليه تحشرون) فهو قد مهد لذكر الحشر بذكر الذرء ، كما مهد بذكر الحشر لقوله **(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟)** أى ان هؤلاء المكذبين كانوا يسألون سؤال تعنت واستهزاء : متى يقع هذا الحشر والعذاب الذى تعدوننا به أيها المهددون — النبى وصحابته — ان كنتم صادقين فى تهديدكم ، وتصفون الحقيقة فى وعدكم لنا ووعيدكم ؟

كان المشركون يسألون النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن يوم القيامة الذى كانوا يوعدونهم به . وسؤالهم هذا لم يكن الا سخرية وتهكما . ولكن الله تعالى أمر نبيه فى قوله **(قل انما العلم الخ)** أن يجيبهم على سؤالهم ، ويرد عليهم تهكمهم ، بما يفيد الجد فى القول ، والاعراض عن اللغو . وان الرد عليهم بهذا الأسلوب لأشد نكاية ،وابلغ فى حملهم على الاصغاء والتدبر .

صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

طلبوا أن يعرفوا الوقت الذى يحاسبون فيه على أعمالهم ، فأجيبوا بأنه ليست وظيفة النبى سوى تخويفكم عذابا محقق الوقوع فى ذلك اليوم . واذ كان الأمر محققا كان الواجب عليكم الاذعان والتصديق وترك العناد . اما معرفتكم زمن وقوع العذاب فهذا لا دخل له فى التخويف والانذار . علمك بأن القصاص لابد أن ينالك اذا أذنبت هو الذى يأخذ بحجزتك عن الوقوع فى الذنب ، فاذا تحققت القصاص ، بل اذا ظننته ظنا لاق بك أن ترعوى وتكف . اما تساؤلك عن الوقت الذى يقع فيه القصاص فلا يكون لائقا بك ، بل لايكون من اللازم تعيينه لك ، لأن التعيين لغو ، والسؤال عنه مخرقة او مشاغبة ، أو خروج عن الصدد كما يقولون . وكان رؤساء المشركين يقصدون من وراء هذه المشاغبات تضليل أفكار العامة وضعفاء العقول من أهل مكة ، فيتوهم هؤلاء أن العلم بوقت حلول العذاب شرط للتصديق به ، فلا يعودون يخافون العذاب ، ولا يؤمنون بيوم الحساب . فجاء الوحى رادا عليهم ، مبطلا حجتهم ، مشيرا الى أن التصديق بالعذاب لايتوقف على معرفة الوقت الذى يقع فيه ذلك العذاب .

(ازدلفوا) و (تزلفوا) اقتربوا بعد أن كانوا متباعدين . و (الزلفى) على وزن (حبلى) بمعنى الازدلاف . ومثل الزلفى **(زلفة)** على وزان غرفة . والضمير فى **(رأوه)** يرجع الى اليوم المتحدث عنه . وكان الظاهر أن يضع الوصف موضع المصدر فيقول « فلما رأوه مزدلفا » أى مقتربا منهم ، لا (زلفة) أى اقترابا .نعم هذا هو الأصل فى التعبير ، ولكن العدول الى المصدر كثيرا ما أفاد المبالغة والتأكيد ، فان قولك « زيد عدل » أبلغ وآكد من قولك « زيد عادل » . والتعبير بزلفة فى الآية يفيد اشتداد قرب يوم القيامة ، وأنه دان من مواقع ابصارهم .

و **(سىء)** مجهول ساء . والسوء القبح ، يستعمل لازما ومتعديا . مثال اللازم أن يقال « **ساء طبعك** » و « **ساءت أحوال البلاد** » أى صارت سيئة قبيحة . ومثال المتعدى أن تقول « **ساءنى منك أن تفعل كذا** » و « ساء الناس ظلم حاكمهم » . وتقول فى مجهوله سيئوا . وأصل الكلام فى الآية هكذا « **ساء قرب يوم القيامة وجوههم** » ، أى أن قربه ألقى عليها سواد الحزن وآثار الهم والقلق . ومعنى قوله **(سيئت وجوه الذين كفروا)** حصل لها ذلك . وخص الوجوه بالذكر لأن آثار الانفعالات النفسية من حزن وكمد وقلق انما تظهر عليها . والدال فى **(تدعون)** مشددة . من الدعاء بمعنى الطلب والنداء . وقرىء أيضا (تدعون) بتخفيف الدال : أى تطلبون وتسألون : كما يقال «تذكرون وتذكرون » بتخفيف الدال وتشديدها.

بقى أن فعل (دعا) بمعنى طلب وسأل يتعدى بنفسه لا بالباء : فيقال « **دعا حصول يوم العذاب** » ولا يقال « **دعا بحصوله** » ولكن من لاحظ أنه يقال « **أهاب به وهتف به** » بمعنى دعاه وناداه لا يشك فى جواز أن يقال « دعا به » اذا ناداه وطلب حضوره . على أنه لا مانع من جعل **(تدعون)** المشددة فى الآية من الادعاء الذى اسم مصدره دعوى ، وتعديته بالباء يساعد على ذلك ، كأنه يقول : هذا هو يوم القيامة الذى كنتم أيها المشركون تدعون به ، أى تدعون ببطلانه ، وتزعمون أنه لا يأتيكم . فها أنتم أولاء ترونه زلفة أى قريبا منكم .

والأفعال الثلاثة فى هذه الآية وهى (رأوه) و (سيئت) ، و (قيل) — قد جاءت بلفظ الماضى مع أن المتبادر فيها أن تكون بلفظ المستقبل ، لأن يوم القيامة الذى ستقع فيه هذه الأفعال مستقبل لا ماض ، لكنه عدل بها الى الماضى جريا على أسلوب من أساليب بلاغة اللغة العربية ، وطريق من طرق التأكيد والمبالغة فيها . كأنه تعالى يقول : ان هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضية ، فأنا أخبر عنها بصيغة الماضى اشارة الى ذلك . ومثل هذا التعبير كثير الوقوع فى القرآن وفى كلام العرب . وقال أبو مسلم : معنى (فلما رأوه زلفة) فمتى رأوه زلفة .

أصل معنى **(أرأيت)** (1) الاستفهام عما اذا كان المخاطب رأى أو لم ير ؟ ثم سار يستعمل فى مقام (أخبرنى)

كان النبى صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين من عذاب يوم القيامة ، ويهددهم أحيانا بوقوع العذاب عليهم فى دار الدنيا كما وقع بالامم المكذبة قبلهم . فكانوا هم تارة يحاجونه ويستهزئون به ويشاغبونه ، وآونة باللغو واللغط يقاطعونه . أما هو فكان لايثنيه شيء عن النصح لهم ، وتبليغ أمر ربه اليهم . وكان هذا الثبات منه فى دعوتهم يبرمهم ويحرج صدورهم ، فكانوا لايجدون تفريجا لكربتهم سوى الدعاء عليه بالهلاك ، أو أن يقول بعضهم لبعض : اطيلوا بالكم عليه فهو لايلبث أن ينفد عمره ، ويأتيه أجله ، فنستريح منه ومن لجاجته . فالله تعالى فى هذه الآية يشدد عزيمته ، ويلقنه حجته، ويقول له : قل لأولئك القوم : أخبرونى اذا استجاب الله دعوتكم فى وفى صحابتى فأماتنا أو رحمنا فأخر موتنا الى أجل — فماذا يفيدكم

(1) فى مثل قوله تعالى (أرأيت ان كذب وتولى) ومثله فى خطاب الجمع هنا (أرأيتم ان أهلكنى) .

ذلك مادمتم مقيمين على كفركم ؟ هل تحسبون موتنا ينجيكم من العذاب ؟ أو هل تم من يدخلكم فى جواره فتخلصوا من الهول ومناقشة الحساب ؟

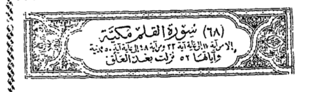
وهذا طريق ثان من الطرق التى علمها الله نبيه فى الرد على المشركين الذين كانوا يدعون عليه بالهلاك تارة ، وينتظرون موته نافدى الصبر تارة اخرى . فهو يقول له : قل لهم يا محمد ان هذا الاله الذى ادعوكم الى عبادته والايمان به رحيم بخلقه ، فهو تعالى لم ينزل عليكم الوحى عبثا ، ولم يرسلنى اليكم سدى ، بل فى ذلك كله مصلحةلكم وطريق لخلاصكم، فكيف يجيب دعوتكم فى ، فيهلكنى انا ومن معى قبل أن تنفذ مشيئته ، وينتشر دينه ، وتعلو كلمته . ولا سيما انا قد آمنا به تعالى ، فلم نشرك به أحدا ، وتوكلنا عليه وحده ،فلم نطلبمنغيره معونة ولامددا. فهل اذا كنا كذلك يكون من الرحمة اهلاكنا ، واجابة دعوتكم فينا ، وترك العالم على ما ترون من شيوع الكفر والفساد فيه ؟

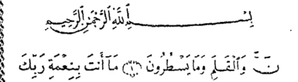
كلا ! لا يتصور أن يهلكنا الله لأجل دعوتكم ، بل هو بالغ أمره فى خلقه . وستعلمون من منا الذى حاد عن طريق الهداية ، وابتعد عن مواقع الحق ابتعادا ظاهرا . وذلك حينما تتم لنا الغلبة عليكم ، وتعلو كلمة الاسلام فى أرضكم .

(غورا) مصدر غار الماء نضب وذهب فى الأرض . وكان الظاهر أن يقول : ان اصبح ماؤكم غائرا . لكنه وصف بالمصدر للمبالغة كما مر بيانه عند قوله **(زلفة)** و **(ماء معين)** أى جار على وجه الأرض منظور بالعين ووزنه (مفعول) من عانه اذا نظره بعينه أو (فعيل) من معن الماء فى جريه اذا اطرد وتسلسل ، فكان ذلك أعون على نقائه وطهارته ، وتخليصه من الشوائب .

لم يشأ تعالى أن يختم آيات التهديد والانذارالتى خاطب بها المشركين المكذبين بغير كلمة تذكير يستميل بها قلوبهم ، ويستلين عرائكهم ، فهو يمن عليهم بالماء الذى جعله يجرى تحت مواقع أبصارهم ، وعلىمقربة من متناول أيديهم . هذا الماء خرج من تحت الأرض وسال على ظاهرها بمحض قدرة الله ومحكمتدبيره ، فلو أراد الله تعالى أن يغيض ذلك الماء ويذهب فى الأرض بحيث لا يمكنهم أن يتوصلوا اليه ــ فمن يقدر على ايجاد ماء لهم يسقى زروعهم ويطفىء عطشهم ؟ وقد مهد لذكر هذه النعمة بذكر الرحمة والتوكل فى الآية السابقة ، فقد ذكر فيها انه تعالى رحمن ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته يتوكلون فى امورهم وسائر تكاليف حياتهم عليه تعالى،فمنرحمته تسهيل أمر السقيا عليهم بخلق الماء وسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم خروجه وجريانه على وجهها .

وكما أن الماء الذى هو مادة حياة البشر ، مثال من أمثلة رحمته تعالى ــ هو أيضا مثال مما يتوكل النبى والصحابة عليه تعالى فى تناوله من مجاريه ، والانتفاع به عن كثب ، فلا جرم أن ينتبه المشركون الى ذلك ، فيتوكلوا على الله تعالى أيضا فى سائر مرافق حياتهم ، كما يتوكل النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، فان ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون.





المراد من **(ن)** أحدحروف الهجاء : افتتح تعالىهذه السورة بحرف النون ثم أقسم بالقلم . كما افتتح سورة اخرى بحرف القاف ثم أقسم بالقرآن مذ قال تعالى :(ق والقرآن المجيد) والدليل على أن المرادبالنون هنا حرف الهجاء المعروف لا مسمى آخر كالحوت أو الدواة ــ كتابتها بصورةالحرف هكذا «ن» وسكون آخرها ، فلم يقل (نونٌ أو نونا أو نونٍ) بالتنوين .

ولو كان المراد بها الحوت أو الدواة ، لكتبت بالحروف هكذا (نون) ولدخلت عليها علامات الاعراب كما دخلتعلى **(والقلم)** المجرورةبحرف القسم . وحجةمن قال : أن المراد بنون فى الآية (الدواة) ــ أن النون ذكر مع القلم والتسطير به ، فمذ أقسمالبارىسبحانه بهما أى (بالقلم وبما يسطرون) ناسب أن يقرن بهما ثالثهما الذى هو الدواة . أما النون بمعنى الحوت فيبعد أن يكون مرادا من النون فى الآية ، اذ لا نسب بينه وبين القلم والتسطير ، ولا علاقة له بهما . غير أن المفسر النيسابورى روى عن بعض الثقات أن أصحاب السحر (١) يستخرجون من بعض الحيتان شيئا أسود كالنقس (أى الحبر) أو أشد سوادا منه يكتبون به ، فيمكن أن يكون المراد من (نون) فى الآية ذلك الحبر (٢) الاسود المستخرج من الحوت المذكور (وقيل هو الاخطبوط) وخصه بالذكر من بين سائر أنواع الحبر المعروفة يومئذ لشدة سواده أولا ولمراعاة رءوس الآى ثانيا .

ويقال فى تأويل (نون) ــ مرادا بها حرف الهجاء

---

(١) أراد بهم رجال الصناعة أو علماء الكيمياء كما نسميهم اليوم.

(٢) واذا أريد من (النون) الحبر على تأويل الحوت جاز أن يراد من الحبر الدواة كما ذهب اليه الحسن البصرى . وقد جاء فى تعريفات السيد الجرجانى ما نصه « النون هو العلم الاجمالى يريد به الدواة ، فان الحروف التى هى صور العلم موجودة فى مدادها اجمالا وفى قوله تعالى (ن والقلم) هو العلم الاجمالى فى الحضرة الاحدية ، والقلم حضرة التفصيل » وهذا ما جعل المستشرق كازيمرسكى مترجم القرآن يفسر فى معجمه العربى الفرنسى النون بقوله : (Résumé de toute les sciences) أى خلاصة جميع العلوم . اهـ . المؤلف .

بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

المعروف ـ ما قيل فى تأويل سائر حروف الهجاء التى افتتحت بها بعض السور ، وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبيه المشركين الى أن القرآن انما ألفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أى من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتى تتلقنها صبيتهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة فى حروفها ، مباينة للمألوف فى مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الاتيان بمثله ؟ وكاعوا (١) عن تركيب جمل كجمله؟ لا جرم أن يكون تعديد حروف الهجاء على هــذه الصورة فى فواتح السور من أبلغ الاساليب فى التحدى والمنازلة ، وأعجبها فى التقريع والمعاتبة .

والأصل فى القسم أن يكون لتأكيد الخبر فى نفس المخاطب ، وازالة الريب الذى يوشك أن يكون خامره فى صدق الحالف ، هذا هو الاصل فى القسم ، ولكنه قد يتضمن احيانا تنبيه المخاطبين الى شرف المقسم به ، وما لهم من ضروب النفع فيه ، وأكثر ما يكون هذا المعنى فى الأقسام الواردة فى كلام الله تعالى ، ففى سورة العصر حلف بالعصر وهو الوقت تنبيها للبشر الى عظم فائدته ، وانه مما لايحسن التفريط فيــه باضاعته فى البطالة واللهو . ومثل ذلك حلفه تعالى بالقرآن ، والسماء ، والليــــل ، والنهار ، والفجر ، والضحى .

قال أستاذنا الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعــالى (والنازعات غرقا) « اذا رجعت الى جميــع ما أقسم الله به وجدته اما شيئا أنكره بعض الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذهل عن موضــــع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة الله فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق الذى قرر الله شأنه عليه ، فيقسم الله به اما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يحتقره، أو تنبيه الشعور الى مافيه عنــد من لايذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضــــله الوهم ، أو خانه الفهم ا هـ » .

أما الحلف بالقلم فهو حلف بأعظم نعمة أنعم الله بها على نوع الانسان ، بعد نعمة النطق والبيان : نعمة النطق مازته عن العجماوات ، ونعمة القلم نشرت بين افراده أنواع الشرائع ، وحقائق المعلومات ، فلولا القلم لم يقم دين ولا كان عمران ، واذا أردت أن تقيس حالة جماعات البشر من حيث الرقى فى معارج المدنية فلا مقياس ادق من انتشار فن الكتابة فيهم ، فهو الذى يحدد درجة كل شعب من الحياة الاجتماعية، ويضعه موضعه اللائق به فى مصاف الامم الحية .

وليس المراد من القلم فى الآية الأداة المعروفة من حيث ذاتها ، بل من حيث عملها والأثر الذى ينشــأ عنها ، أعنى نقل الأفكار والمعانى من نفس شخص الى نفس شخص آخر . يدل على هذا قوله تعالى **(وما يسطرون)** بعد قوله **(والقلم)** : كأنه يقول أحلف بالقلم وبالتسطير الذى يفعله الكاتبون . فما فى قوله **(وما يسطرون)** مصدرية . فهو تعالى يحلف بفن الكتابة التى تعددت وسائطها ، فكان منها القلم وآلات الطباعة وسائر أدوات الكتابة ، كالنساخة المعــروفة باسم « تايب رايتر » ، وكل ما يمكن أن يخترعه البشر ويستعملوه فى الوصول الى هذا الغرض . ولا نزاع فى أن هذه المدنية العبقرية والعمران العجيب الذى توصلت اليه الامم فى عصرنا الحاضر ، انما هو نتيجة من نتائج فن الطباعة واستعمال المطابع المدهشة فى سرعتها ، واتقان صنعها .

فانظر الى قوله تعالى (وما يسطرون) ما أحسنه ! وما الطف ايراده فى هــذا المقام ! ! وهو فى الحسن يشبه قوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) بعد قوله : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) . فهو تعالى يمن على البشر ان هداهم الى وسائط النقل ، فذكر الوسائط الحيوانية المعروفة لديهم فى عهد التنزيل ، ثم اشار الى أن هناك وسائط أخرى يخلقها ولم يعلمها البشر بعد ، فكان من هذه الوسائط السكك الحديدية والاوتوموبيلات وسائر ضروب السيارات ، ولا تنس أدوات النقل التى تسير على وجه المــاء ، كالسفن والوابورات ، أو تخترق طبقات الهواء ، كالمناطيــد والطيارات . وما يدرينا ان سيخلق الله وسائط أخرى للنقل غير ماذكر ، يهدى اليها البشر ، وتكون أعجب من تلك وأعجل ، وأدق فى الصنع وأمثل .

هذه السورة أنزلت فى مكة . وآياتها الأول من اول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (اقرأ باسم ربك) .

لما نزل جبريل على النبى فى غار حراء وقال له : اقرأ ، قال : ماأنا بقارىء ، ثم لقنه سورة (اقرأ باسم ربك الذى خلق) فخف بها الى خديجة رضى الله عنها فأخذته الى ابن عمها ورقة بن نوفل فقص عليه ماجرى له ، وشاع أمر دعواه فى مكة ، وأن ورقة قال له : ان هذا الذى كلمك هو النـاموس الذى كان ينزل على الأنبياء قبلك ، وتمنى ورقة لو يطول عمره فيعززه وينصره ـ لما كان كل ذلك ... أخــذ كفار قريش يقولون انه صلى الله عليه وسلم مجنون ، يريدون بذلك صرف القلوب عنه ، وتزهيد الناس فيه ، فلا يسمعون قوله ، ولا يتدبرون ما أتاهم من عند الله به ،

(١) أى تقهقروا ونكصوا .

فعند ذلك أنزل الله عليه هذه الآيات مثبتا له،ومذكرا بفضل الله عليه .

وقوله (**بنعمة ربك**) مثل (بفضل الله) فيما اذا قلت لآخر أنت بفضل الله غير محتاج الى أحد . والمعنى أن وصف الجنون منتف عنك يامحمد بسبب انعام الله عليك بالأخلاق الحسنة ، ولطفه بك مذ رباك تربية حميدة . وكيف يصح فى العقل ان يكون صلى الله عليه وسلم مجنونا وهو ليوم خروجه من مكة مهاجرا الى المدينة كانت لديه أمانات وودائع لأولئك الذين كانوا يصفونه بالجنون ، وقد خلف سيدنا عليا كرم الله وجهه فى مكة ليؤديها الى أربابها . فهل يكون مجنونا ذلك الذى لم يجدوا من يأتمنونه على ذخائرهم سواه ؟ نفى الله عن نبيه الجنون وأثبت له أمرين يستحيل أن يكون معهما مجنونا : احدهما اتصافه بالخلق العظيم والطبع الكريم ، والمجنون لايكون كذلك . وثانيهما الأجر والثواب الذى أعده الله له يوم القيامة، وقال ان ذلك الثواب (**غير ممنون**) اى غير مقطوع ولا منقوص . كما قال تعالى فى محل آخر (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع . ومن كان له يوم القيامة أجر على مساعيه وأعماله وتحمله المشقات فى سبيل الدعوة الى الله كيف يكون مجنونا ؟ والثواب انما يعتمد العقل ، لأن الثواب يكون على العمل ، والعمل المثاب عليه يعتمد الارادة والاختيار ، والمجنون لا ارادة له ولا اختيار ، وليس هو بمكلف ليثاب أو يعاقب .

وبالجملة فان دعوى اهل مكة أنه صلى الله عليه وسلم مجنون دعوى باطلة لا أساس لها ، ولا حجة تعتمد عليها . وهنا أمر جدير بالذكر والتدبر : ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا ، لايقرأ ولا يكتب ، وأمره فى ذلك متعالم بين قومه مشهور فيهم . ثم لما أنزل عليه الوحى كان أول الآيات نزولا عليه آية (اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم) وآية (والقلم وما يسطرون) والآيتان وردتا مورد الامتنان على الامم بما وهبهم الله من نعمة الخط وصناعة القلم ، والشأن فى من لم تكن له تلك الموهبة أن يكون منتقصا بين قومه مفضولا فيهم ، فهل يعقل أن يفترى محمد صلى الله عليه وسلم على الله بادعاء النبوة ثم يفجأ قريشا قبل كل شىء بما ينبههم الى نقص يحسبونه فيه ، وعيب يعدونه عليه ؟ لا جرم أنه صلى الله عليه وسلم مدفوع الى اعلان ما أتى به من الدين والوحى بسائق سماوى لا يقوى على رده ، ولا طاقة له بكتمانه. ثم لايعزب عن فكر الفطن أن جهل الخط والكتابة ان كان نقصا فى غيره صلى الله عليه وسلم فهو فيه محمدة ومزية وآية كبرى على صحة دعواه الرسالة ، كما أشار تعالى الى ذلك بقوله (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) .

قد يلحق قلب النبى صلى الله عليه وسلم شىء من التأثر والوجد على أولئك المكذبين الذين يصفونه بالجنون ، كما يخيل الى هؤلاء المكذبين أنهم بهذا البذاء والنيل من الرسول ، قد فازوا عليه ، وكفوا مؤونة الاذعان له ، والاهتمام بأمر دعوته . فقال تعالى مسليا له صلى الله عليه وسلم ومذكرا ، ومهددا للمكذبين ومحذرا : سترى عما قريب يامحمد — كما يرى أولئك الذين وصفوك بالجنون — عاقبة أمرك وأمرهم ، وتعلمون جميعا أى الفريقين منكم هو المصاب بالجنون واختبال العقل فى الواقع ونفس الأمر . والعاقبة المنتظرة هى ما يكون للمؤمنين من الفوز والغلبة والفتح ، وما يلحق المشركين من الخذلان والاستسلام . وقد صدق الله وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ومعنى قوله (**بأيكم المفتون ؟**) من منكم هو المجنون ؟ ولكن الوصول الى هذا المعنى يكون بأحد طريقين : اما بجعل الباء صلة زائدة كما هى فى قوله تعالى (وهزى اليك بجذع النخلة) وقول امرىء القيس « هصرت بغصن ذى شماريخ ميال » وقول الأعشى « ضمنت برزق عيالنا أرماحنا » وتكون كلمة المفتون اسم مفعول من فتن اذا أصيب بفتنة أى محنة وبلاء : من ذهاب عقل أو مال أو موت ولد أو حميم . فالمعنى هنا ستروز أيكم الذى فتن وابتلى بالجنون وذهاب العقل . واما بجعل الباء أصلية ومعناها الالصاق ، والمفتون مصدر بمعنى الفتون أى الجنون . وقد ورد المصدر بصيغة اسم المفعول فى ألفاظ قليلة ، كالمعقول والميسور والمجلود بمعنى العقل واليسر والجلادة . أى سترون بأى الفريقين — منا ومنكم — الجنون ؟

ولما كانت زيادة الباء وورود المصدر بصيغة اسم المفعول أمرين نادرين ، كان القولان المذكوران فى تفسير الآية موضعا للنظر . ومن ثم ذهب آخرون الى جعل الباء أصلية بمعنى فى ، وابقاء المفتون بمعنى اسم المفعول ، ويكون حل المعنى هكذا : سترون المفتون والممتحن بالجنون فى أى الفريقين ؟ فى فريق المؤمنين أو فى فريق المشركين . ويكون الكلام مبنيا على التعريض بالمشركين بأن المجنون فيهم ، لا يعدوهم الى غيرهم . ووصفه تعالى لهم بالجنون مشاكلة لوصفهم له صلى الله عليه وسلم بذلك ، والا فهم ليسوا مجانين حقيقة ، بل وصفوا به من حيث اعراضهم عن الحق ، واتباعهم الهوى .

وهذه الآية أيضا من قبيل التعريض بالمشركين الذين آذوا النبى صلى الله عليه وسلم ووصفوه بما هو موصوف بضده من كمال العقل وسلامة الشعور، فلا يمكن لأحد أن يعلم من صفات البشر وأطوار نفوسهم مايعلمه موجدهم الذى خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، فهو تعالى يعلم الذين حادوا عن سبيل رضاه ، كما يعلم الذين سلكوا هذا السبيل وهدوا من صالح أمرهم الى الصراط المستقيم .

ولا ريب أن المكذبين هم الذين حادوا عن سبيل الهدى ، وواقعوا مهاوى الردى ، فما أشبههم أن يكونوا هم المجانين ، لا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم الذى هداه ربه الى حميد الخصال ، وطبعه على مكارم الأخلاق .

مر آنفا أن هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من سور القرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم اذ ذاك لا ناصر له سوى الله، ولا مؤنس

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

سوى الحق ، ولامشايع سوى نفسه . وكان المشركون فى معظم كثرتهم وأوج عزتهم ، وكانوا مع ذلك يتمنون لو يخضع لهم فى القول ، ويصانعهم فى ترك بعض مايدعوهم اليه ، وعبادة بعض ماكانوا يعبدون من الطواغيت ، وهم فى مقابل ذلك يثبتون على مصانعته والادهان له فى بعض مايكلفهم اياه ، ويدعوهم اليه . وهكذا يبنون أمرهم معه على مواطأة وطباق ، ويديلون النفاق من الشقاق .

وقوله (**فيدهنون**) مرفوع على الاستئناف ، أى فهم يدهنون له مذ الآن ، وينتظرون منه أن يدهن لهم جزاء ادهانهم . ولو نصب فقيل (فيدهنوا) كان المعنى : ودوا أن يدهن لهم فيكافئوه على ادهانه بادهان مثله . وليس هذا المعنى مرادا فى الآية .

وقد كان المتفائلون من المشركين يتوقعون فيه صلى الله عليه وسلم الميل الى هذا الرأى من أمر المداهنة والمصانعة وحل المشكلة بينه وبينهم على هذا الوجه . غير انه خاب ظنهم ، وكذب فالهم ، فان الأمر ليس كما يظنون ، وللانقلابات الدينية الكبرى أسرار لايعلمها الا الله والراسخون . ولكن مايدرينا أن تكون تسويلات المشركين وتمويهاتهم قد ألقت فى نفسه صلى الله عليه وسلم بردا من الأمل ، وحببت اليه موافقتهم فى بعض العمل ، فجاءت هذه الآيات تذكى نار همته ، وتشحذ من غرار عزيمته ، فذكره الله فى فاتحة السورة بما كان يصفه به أولئك المتملقون من الجنون واختلال الشعور ، ثم ذكره ثانية بأن القوم يقولون عنه انه كاذب ، فكيف مع هذا يصح منه أن يطيعهم فيما اقترحوه ، ويطمئن الى وعدهم بأنهم يؤمنون ببعض ماجاءهم به . فهذا الاقتراح منهم ليس سوى مراوغة وخداع ، لا جرم أن يبقى موقف النبى صلى الله عليه وسلم ازاءهم — وهذه حالهم — موقف المتشدد فى دعوتهم ، الملح بطلب الايمان منهم . والا فان التساهل معهم يغريهم به ، ويزيدهم جرأة فى الاقتراح عليه ، وبهذه الصورة يتملصون من الدعوة شيئا فشيئا ، وينفض أشياعه من حوله حالا فحالا ، فلا يعود يستوثق للرسالة أمر ، ولا ترسخ للاسلام قدم .

ومن ثم نهاه الله عن اطاعتهم ، ونبهه الى أنهم ينتظرون منه أن يخون أو يتسامح لهم فى تبليغ بعض ماأمر بتبليغه فى مقابل خيانتهم هم أيضا وتسامحهم ، ثم يفسد الأمر عليه أخيرا ، فليكن على حذر من ذلك . وهذا التعليم القرآنى من أحسن مايستفيد منه زعماء الأمم حنكة وتيقظا لما عساه يعترض سيرهم من عواثير التعلات والأمانى . فالقرآن يرشدهم الى وجوب التنحى عنها وعدم الانخداع بها .

أما قوله تعالى (**تدهن فيدهنون**) فهو من الادهان بمعنى المداهنة المعروفة ، وهى ضرب من الخيانة : قال المبرد : « أدهن الرجل فى دينه وداهن فى أمره اذا خان فيه وأظهر خلاف مايضمر » . أما أشتقاقه فمن الدهن . والدهن البل ، يقال : دهن المطر الأرض اذا بلها بلا يسيرا ، فلما كان الدهن وهو البل يلين الشىء بعد يبسه صح أن تشبه المصانعة ولين القول بالدهن والبل ، فان الدهن يلين اليابس ، والمصانعة تلين نفس من تريد خداعه ، وتكفكف من جماحه ونفوره . وربما كان الادهان والمداهنة من الدهن والدهان بمعنى الصبغ والصباغ ، فان الملاينة وكلمات المصانعة جميلة أنيقة فى ظاهرها ، ولكن ليس تحتها حب صميم ، ولا اخلاص صحيح ، فهى مثل دهان تصبغ به الشىء وتلون ظاهره بما يجعله مونقا معجبا فى بادىء النظر ، ثم لايكون كذلك فى الواقع ونفس الأمر .

نهى الله نبيه فى الآية السابقة عن اطاعة المكذبين فيما اقترحوه عليه من مصانعتهم وملاينتهم ، وان يقبل منهم التصديق ببعض مايدعوهم اليه دون البعض الآخر مما لايوافقهم ، ولا يلائم أذواقهم . وقد ذكر تعالى هؤلاء المكذبين ثمة بعنوان عام . أما فى هذه الآية فقد نهى الله نبيه عن اطاعة واحد منهم بعينه تجمعت فيه خصال عشر غاية فى القبح والبشاعة ، معرضا بذلك الشخص تعريضا ، مدخلا له فى كل من كان مثله فى استجماع الخصال المذكورة . ولما كان من المستبعد أن تجتمع هذه الخصال جميعها فى أشخاص كثيرين فان الذهن ينتبه بالضرورة الى أن المقصود واحد بعينه اتفق اتصافه بتلك الخصال وان كانت قضيته مسورة بالسور الكلى ، أعنى كلمة (كل) فى قوله (**كل حلاف**) .

وان ايراد الكلام على هذا الأسلوب ، وافراغ التعريض فى هذا القالب لهو من الحسن والوصول الى الغرض بمكان .

وقد اختلف المفسرون فى الشخص الذى أريد التعريض به ، والأكثرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى(1) .

كان هذا الرجل من رجالات قريش وسادتهم ، وكان فى سعة من المال وكثرة من الولد ، وكان يقول لأولاده وأبناء عشيرته ، كلما آنس منهم ميلا الى النبى : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبدا » فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الايمان به صلى الله عليه وسلم .

---

(1) وسيأتى فى سورة المدثر آيات فى صفات الوليد هذا ، أولها . « ذرنى ومن خلقت وحيدا » . فالمراد بالمخلوق فيها الوليد بن المغيرة نفسه . المؤلف

كان أشراف قريش وفيهم الوليد بن المغيرة يطلبون من النبي أن يتنازل لهم عن بعض مايكلفهم من أمور الدين ، فحذر الله نبيه الوقوع في أشراكهم عامة ، وأشراك الوليد خاصة ، لأن ما في الوليد من الأخلاق والأطوار مظنة ان يؤثر في نفسه صلى الله عليه وسلم انخداعا أو مصانعة ، ولذلك اسهب الوحي في التعريف بالوليد ، ووصف أحواله ، وتصوير مستبشع خصاله بحيث ابرزه للعيان لؤما مجسما ، وشيطانا باللعنات مسموما . تلك الخصال أو اللعنات العشر :

١ — كثرة الحلف بالله تعالى . وسيأتي من جملة خصاله الغيبة والنميمة ، فيبعد الا يكون متصفا بالكذب ، والكذب اخوهما الشقيق . فوصف الله الوليد بأنه (**حلاف**) قد يكون المراد منه أنه كذاب ، وانه من الكذب في اقبح حالاته ، فهو يكذب ويدعم كذبه بالحلف بالله ، ويروج باطله بذكر اسمه تعالى ، وهو استخفاف منه بمقام الألوهية ، وجهل بعظمة الله تعالى ومايجب لاسمه الكريم من التوقير والتعظيم ، ولا يكثر الحلف عادة الا من عرف أن الناس لايصدقونه فيما يقول ، فهو يحلف لهم ليصدقوه . فكثرة الحلف مظنة الكذب . قال الشاعر :

واكذب ما يكون ابو المثنى   اذا آلى يمينا بالطلاق

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون اولادهم اذا سمعوهم يحلفون تعويدا لهم وتقويما لأخلاقهم .

٢ — ومن صفات الوليد أنه (**مهين**) والمهانة الحقارة ، وليست حقارته في نفسه وانحطاط شأنه في قومه ، وانما هي حقارة الراى ، وضعف التمييز ، وقلة التدبر في عواقب الأمور . ولو كان جيد الراى ، وافر التدبر ما آل امره الى الجحود والكفر ، أو ما كان كاذبا ، ثم يقيم دليلا على كذبه كثرة حلفه ، واستخفافه باسم ربه .

وانما قلنا ان المراد من المهانة مهانة الراى لا مهانة الشأن والمكانة ، لأن من جملة خصال الوليد الآتي ذكرها أنه يكثر الوقيعة في الناس ويظلمهم ، ويعاملهم بالقسوة والعنف ، وانه كثير المال والولد ، ومن كان هذا شأنه كان مهيبا مرعى الجانب موفور الحرمة في قومه ، لا محقرا وضيع القدر فيهم . وقد يقال ان الظالم العاتي كثير المال والولد يكون رفيع المنزلة عظيم الخطر في نفوس الجهال والعامة ، أما عند أرباب الفضل والعقل والدين ، فمنزلته منحطة ، وقدره مهين ، فلا جرم أن يكون الوليد مهينا بهذا المعنى ايضا .

٣ — ومن خصاله العشر أنه (**هماز**) ، والهمز في اللغة النخس ، ومنه المهماز للدابة . وهو ايضا الضرب والعض والضغط . قالوا لأعرابي « أتهمز الفارة » يريدون أتنطق بها مهموزة ؟ فحسبهم يقولون : أتعضها وتضغط عليها ؟ فأجابهم : « الهر يهمزها » . ثم استعمل الهمز في الطعن في الناس والغض منهم ، وذكرهم بالمكروه ، وهو اللمز ايضا : يقال هو « همزة لمزة » : كما يقال هماز . وطرق همز الناس وتحقير أمرهم كثيرة متشعبة : يهمزهم الهماز لحين العداوة وثورة الحقد ، أو وقت الهزل والسخرية ، يهمزهم في دينهم واخلاقهم ، أو في هيئاتهم ومختلف اطوارهم ، يهمزهم في حضورهم ، أو وقت غيابهم ، يهمزهم بلسانه ، أو يشير اليهم برأسه أو عينه وبنانه ، كل هذا يدخل تحت الهمز ، ويقال لفاعله انه هماز . وقد روى أن الوليد المذكور من أكبر الهمازين ، فقد كان يهمز النبي صلى الله عليه وسلم ويذكره بالسوء في غيبته ، ويطعن عليه في حضوره ، وكان يلقب الناس بالقاب السوء كما يفعل السفهاء والتحوت .

٤ — ومن خصال الوليد ايضا أنه **(مشاء بنميم)** ، اي يمشي بين الناس بالنميمة ، فينقل حديث بعضهم الى بعض بقصد افساد ذات بينهم ، واثارة الأحقاد والعداوات في صدورهم .

٥ — ومن خصاله الملعونة أنه (**مناع للخير**) ، اي يحول بين الناس وبين فعل مايريدونه من عمل الخير ، والمراد من الخير كل عمل صالح : ايمان بالله ، او اسداء صنيعة ، أو انفاق في وجه من وجوه البر . وقد يكون المراد بالخير الذى يمنعه الوليد ايمان بنيه وبني عمه وعشيرته ، فقد ذكرنا آنفا أنه كان يقول لهم : « لئن تبع دين محمد منكم احد لا انفعه بشيء ابدا » .

٦ — ومن خصاله أنه (**معتد**) ، اي يتعدى حدود العدل والانصاف في معاملة الناس ، فيظلمهم ، ويجور عليهم ، ويهضم حقوقهم .

٧ — ومن أوصافه أنه (**أثيم**) ، اي كثير الاثم ، والاثم الذنب وأن يعمل المرء ما لا يحل عمله .

٨ — ومن ذميم اوصافه ايضا أنه (**عتل**) ، والعتل بضم العين والتاء وتشديد اللام الأكول الشروب القوى الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة ، وقيل هو الأكول المنوع ، وقيل هو الجافي الغليظ . او يقال هو الضخم في جسمه ، والشره في اكله ، الفظ في طبعه ، اللئيم في نفسه ، السيء في معاملته ، وبالجملة هو الذى لايطاق ولا يحتمل ، وعن أبي الدرداء رضى الله عنه : « العتل كل رغيب الجوف ، وثيق الخلق ، اكول شروب ، جموع للمال ، منوع له » اهـ . ورغيب الجوف : واسعه .

وربما كانت كلمة (العتل) اجمع كلمات اللغة العربية لمساوى الاخلاق ، حتى ان اللؤم نفسه اصبح معنى من معانيها ، ولطخة من مخازيها .

٩ — ومن خصال الوليد (**بعد ذلك**) اي وراء كل ماتقدم من خصاله القبيحة أنه (**زنيم**) و (الزنيم) هو الذى يندس في القوم ويستلحق بهم في النسب ولا يكون منهم ، فهو معلق بهم كالزنمة في عنق العنز ، والزنمة هنة تنتأ في جلد العنز وتتدلى من عنقها كالقرط ، وهو خلقي فيها ، اما هو في الضائنة والناقة فليس خلقيا ، وانما هو فيهما أن تقطع من اذنيهما جليدة فتترك معلقة لتكون علامة تميز بها النعجة الكريمة او الناقة الكريمة عن سائر النعاج والنياق .

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟

وقد ذكروا أن الوليد لم يكن ذا نسب صحيح في قريش ، وانما استلحقه أبوه بعدمضى ثمانى عشرة سنة من عمره ، فهو اذن زنيم دعى ملصق . ومن معانى (الزنيم) الرجل الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره ، فهو ممتاز فيهم بصفاته هذه كما تمتاز الشاة عن بقية أخواتها بزنمتها المتدلية فى أذنها ، فمعنى كون الوليد زنيما على هذا أنه مشهور فى قومه باللؤم والشر . وربما كان تفسير كلمة زنيم فى القرآن بهذا المعنى أشبه به ، وأنزه له .

١٠ ـ بقى من خصال الوليد الخصلة العاشرة ، وهى استخفافه بآيات الله ، وتسميته لها (**أساطير الأولين**) ، أى أكاذيب يتداولها الناس بينهم من أخبار الأقدمين ، ليست صحيحة ولا تحدث فى النفس أثرا ، وانما تقال تفكهة وتسلية . وقد كان الوليد بن المغيرة كلما تليت عليه آيات القرآن رجاء النظر فيها والايمان بها ـ سخر منها وقال : انها (أساطير الأولين) .

وقوله تعالى : (**أن كان ذا مال وبنين**) علة لما قاله الوليد ، أى انما قال الوليد هذا القول المنكر فى القرآن لفرط غروره بأمواله وأولاده ، فان المتقوى بماله ورهطه يطغى ويبغى ، ويتجاوز الحدود فى الكفر والجحود ، وهكذا كان شأن الوليد .

ويحتمل أن يكون المعنى على العتاب المشوب بشىء من التوبيخ والتقريع ، كأنه تعالى يقول : أمن أجل أن كان الوليد منعما عليه من قبلنا بالمال والبنين أخذ يفترى على آياتنا كلما تليت عليه ويقول عنها انها أساطير الأولين ؟ أهذا جزاء الاحسان ؟

وأظلم خلق الله من بات حاسدا
لمن بات فى نعمائه يتقلب

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (ان كان ذا مال وبنين) متعلقا بما قبله ، وهو قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف) الخ وليس متعلقا بما بعده وهو قوله تعالى : (اذا تتلى عليه آياتنا قال) . وحل الآية على تعلقه بما قبله : لا تطع يا محمد من كان متصفا بهذه الأخلاق الرذلة ، مراعاة لكثرة ماله،وتعدد ولده، فان اتصافه بما ذكر من الأخلاق يستدعى النفرة منه ، والزراية عليه ، مهما أوتى من المال والولد ، لا المراعاة له ، والمجاملة الى حد الاطاعة .

وبعد أن عدد الوحى مثالب هذا الجاحد المعاند أراد أن يسجل عليه الخزى الأبدى فقال (**سنسمه على الخرطوم**) .

(الوسم) هو أن تضع علامة على الشىء تميزه بها عن غيره ، و (الخرطوم) الهنة المستطيلة فى موضع الأنف من الفيل ، وتقوم له مقام اليد يتناول بها حاجاته . ويطلق الخرطوم أيضا على مقدم أنف الخنزير ، وربما كان استعمال الخرطوم فى الآية بمعنى الأنف منقولا عن المعنى الثانى أعنى خرطوم الخنزير ، تحقيرا لذاك الجاحد وتهكما به ، كما تهكم هو بآيات الله مذ وسمها بأساطير الأولين . (والوسم) على الخرطوم كناية عن الاذلال والخذل . قال المتلمس وهو من أقدم شعراء الجاهلية :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى
جعلت لهم فوق العرانين ميسما

أى أذللتهم وقهرتهم . وانما خصوا الأنف بالذكر دون سائر الأعضاء لكونه موضع ظهور أثر العزة والحمية والشمم ، فاذا أرادوا أن يصفوا انسانا بذلك قالوا : « فلان شامخ العرنين » ، « وحمى أنف فلان » أى غضب وتعزز . واشتقوا من الأنف (الأنفة) بمعنى العزة والاستنكاف . واذا أرادوا أن يصفوا أحدا بالذلة والمهانة عكسوا وقالوا : « فعلت ذلك على الرغم من أنفه » أى قهرا عنه . و « أرغم فلان أنف فلان » أذله وقهره . واصل معناه أن يلصقه بالرغام وهو التراب و « جدع أنف فلان » دعاء عليه أو اخبار عنه بالذلة والمهانة . والجدع القطع . ويقولون « فلان وسم فلانا ميسم سوء » اذا سبه مسبة قبيحة باقية بحيث تلصق به ، وتصبح كالسمة له .

ومعنى الآية أن الوليد بن المغيرة بما كان منه من التكذيب وايذاء النبى صلى الله عليه وسلم ، والتمادى فى قبيح الخصال ـ استحق أن نسمه على خرطومه أى نلحق به ذلا وعارا يلزمه لزوم السمة فى خرطوم الخنزير ، ويجعله مذكورا بهذا الوصف القبيح على ألسنة الأنام ، مدى السنين والأعوام .

وقد تحقق قول الله ، ونفذت مشيئته فى الوليد ، فان اسمه سيبقى مقرونا بالخزى والعار على كر الأيام والسنين ، وما تليت تلك الآيات التى سماها أساطير الأولين .

ومغزى الآية تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمله على اليأس من ايمان هؤلاء المكذبين لا سيما الوليد ، وتنبيهه صلى الله عليه وسلم الى أن من كان كالوليد فى قبيح خصاله ، وسيىء فعاله ـ يصبح من المعذر انتظار الايمان منه ، ورجاء الخير فيه . فلا تشغل قلبك أيها الرسول الكريم بمثله ، واتكل على معونة الله وفضله .

الضمير فى (بلوناهم) يرجع الى أهل مكة الذين سماهم الله المكذبين فى قوله (فلا تطع المكذبين) وذكر من أوصاف أحدهم وهو الوليد ماذكر ، ومن أوصافه المقوتة أنه كان يسمى آيات الله (أساطير الأولين) كبرا وعتوا واعتدادا بكثرة ماله وولده . والمال والولد نعم أنعم الله بها عليه ، وكان من حقها أن تورث نفسه

اخباتا وخضوعا ، وتقوده الى الاسلام بزمام الشكر ومعرفة الجميل ، لكنها على العكس كانت سبب كفره وجحوده ، وتماديه فى غيه وضلاله .

الوليد بن المغيرة وأمثاله من سادات مكة الذين انعم الله عليهم بالنعم المختلفة فقابلوها بالجحود والكفران ، وبادروا نبيه بالتكذيب والاستخفاف والعصيان ، حتى كان هذا منهم سببا لسلخ النعم عنهم ، وانزال النقم بهم ــ يشبه حالهم حال أصحاب الجنة ، ويصح أن يضرب غرور أصحاب الجنة مثلا لهم . والمراد من الجنة هنا معناها اللغوى ، وهو الأصل فيها ، أعنى البستان كثير الزروع والأثمار والأغصان الملتفة . والناس فى زماننا اذا أرادوا هذا المعنى سموه بستانا أو جنينة ، ويخصون الجنة بفراديس النعيم الأخروى ، وهى أكثر ما تطلق على ذلك فى نصوص الدين .

وتعريف الجنة واضافة الأصحاب اليها يشعر بأنها وأصحابها معهودة للمخاطبين ، وان حكايتها وحكايتهم مستفيضة فيهم .

ولما أراد الله أن يذكر أهل مكة بما كان من اسباغه النعم عليهم ، وما كان منهم من التكذيب فى مقابل هذه النعم ثم زوالها عنهم ــ ضرب لهم مثلا قصة أصحاب البستان المتداولة بينهم فى ذلك العصر ، ليكون ذكرها أتم فى التصوير ، وأبلغ فى التذكير والتأثير . وسواء أكانت قصة أصحاب الجنة مما حدث فى زمن العرب أم فى زمن غيرهم من أهل الكتاب ، فذلك ما لا تهم معرفته مادام القصد من سرد القصة مغزاها، وأحداث الوعظ والتذكير بها . على أن بعض المفسرين روى أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا أناسا من الحبشة من أهل الكتاب ، وكان أبوهم شيخا صالحا ، وله جنة فيها نخل وزروع ، فكان يمسك قوت سنته ، ويطعم منها المساكين ويتصدق بالفضل ، فكان بنوه ينهونه عن ذلك فلا يلتفت اليهم . فلما مات قالوا : والله أن كان أبونا لأحمق حين يطعم المساكين ، وان لنا عيالا كثيرين ، والمال قليل ، فلو فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا العيش . ثم كان منهم ما قصه الوحى علينا فى هذه الآيات مذ قال **(انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة)** .

والبلاء والابتلاء الاختبار والامتحان ، فاذا نسب الى غير الله تعالى كان المراد أن يعرف المبتلى (بكسر اللام) ما جهل من أمر المبتلى (بفتح اللام) ، واذا نسب الى الله كأن المراد كشف الأمر وأظهاره للذين يجهدونه ويمارون فيه .

وابتلاء الله البشر قد يكون باغداق النعم عليهم ، فيكفرون أو يشكرون . وقد يكون بانزال المصائب بهم ، فيجزعون أو يصبرون . ويسمى هذا الابتلاء أيضا امتحانا وفتنة ، ويسمى فى الأسفار المقدسة تجربة وتجارب . وقد ورد فى ادعية تلك الأسفار خطابا لله تعالى « لا تدخلنا فى تجربة » . ومن استعمال الفتنة فى القرآن قوله تعالى : (ا لم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . وابتلاء الله لكفار قريش كابتلائه لاصحاب البستان ، فانه تعالى أغدق على الفريقين صنوف نعمه ، فكفروا بها ، ولم يرعوها حق رعايتها .

قلنا ان أصحاب الجنة قوم كانت لهم أرض ذات نخل وزروع وريع ، فلما حان صرامها (بفتح الصاد وكسرها وقت جنى ثمرها) ، تواطئوا فيما بينهم ، وأقسموا ألا يصرموا الجنة ولا يجنوا ثمارها ، الا فى صباح اليوم التالى . والكلام فى أسلوبه هذا يشعر بأن قوما آخرين ينازعون اصحاب البستان ، ويريدون أن يشاركوهم فى قطف ثمراته وتناول شىء من خيراته، وبذلك اضطروا اصحابه الى ان يتواصوا هذا التواصى، ويعقدوا العزم بينهم على الذهاب الى بستانهم فى وقت لا يتيسر لأولئك المنازعين أن يصحبوهم فيه ، وهذا الوقت هو وقت الصباح ، وقت استغراق الناس فى نومهم . ويستدل من قول أصحاب الجنة الآتى : (لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) على أن هؤلاء المنازعين الذين يخفى الصرام عنهم ، هم المساكين .

ويفهم من تقاسم أصحاب البستان ، وتعيينهم وقت الصبح لمباشرة عملهم ــ أن للمساكين شأناخاصا فى ذلك البستان ، والا لم يحتج الامر الى أن يتعاهد أصحابه على صرم أثماره المملوكة لهم خفية ، اذ كيف يسوغ لأحد أن يعارض آخر فى ملكه ، ويحول بينه وبين الانتفاع بثمره ــ لو لم يكن لذلك المعارض حق أو شبه حق فى هذا الثمر ؟

أما الحق او شبه الحق الذى كان للمساكين فهو أن صاحب الجنة ومالكها قبل أصحابها هؤلاء ، كان قد جعل فى ثمارها نصيبا مفروضا لأولئك المساكين الذين يعيشون معه فى القرية ، فكان بذلك يكسب ثناءهم ، ويستل سخائمهم ، ويكف بدهم عن العدوان بالسرقة على بستانه وبساتين أهل القرية ، ويكون من جهة ثانية قد قام بالشكر الواجب لله تعالى على ما انعم من الرزق الطيب والعيش الهنىء . ولا جرم أن يكون هذا الصنيع منه مدعاة المزيد ، ووسيلة الى دوام النعم واستمرارها ، وعدم وجود منغص لها . أما خلفاء هذا المحسن البار على تلك الجنة فانهم لم يطيقوا أن يجعلوا للمساكين حظا فى جنتهم ، ولم يفعلوا ما كان يفعل سلفهم من اعلان وقت الصرام ، ليقبل المساكين، ويتناولوا حصتهم ، بل رأوا فى ذلك مضيقا لرزقهم ، مقللا من أنصبائهم ، وغفلوا عن أن زكاة المال تطهره وتزيده نماء ، وتطيل مدة التمتع به . فهم من أجل ذلك عقدوا النية على حرمان المساكين ، ومنعهم ماكانوا يتبلغون به من ذلك البستان ، ورأوا أن يتوصلوا الى ذلك بمباشرة صرم ثمرات النخيل وقت السحر ، اذ يكون أولئك النفر من المساكين مستغرقين فى نومهم ، مستسلمين الى غفلتهم .

هذا معنى **(اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين)** . ومعنى قوله تعالى : **(ولا يستثنون)** ــ أنهم كانوا يحلفون على مباشرة الصرم وحرمان المساكين ، واثقين من مواتاة الأقدار لهم ، غافلين عن قدرة الله تعالى ، فكانوا لايستثنون فى اليمين ، ولا يقولون الا أن يشاء الله . وهذا منهم دليل الغفلة والغرور ، وترك التفكير

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ

فى عجائب المقدور ، والاستثناء فى اليمين أن تقول : « لأفعلن كذا الا أن يشاء الله » وهو آية من آيات الايمان بالله تعالى ، ودليل الثقة بقدرته وتفويض المشيئة اليه (١) .

لما وطن أصحاب البستان نفوسهم على منع المساكين حقوقهم فى ذلك البستان ، وأكدوا الأيمان فيما بينهم على ذلك غير مستثنين ، ولا حاسبين حسابا للاقدار وتصاريفها وحكمة الله وتعاجيبها ــ ذهبوا الى مضاجعهم وهم ينوون التبكير الى الجنة ، واذا (**طائف من ربك**) أى بلاء عظيم حصل بمحض قدرة الله من دون دخل للبشر فيه ، طاف عليها ليلا ، وتتبع أشجارها ، فأتلفها وأحرق عذوقها ، وافسد أثمارها ، بحيث يحسبها الناظر اليها (**كالصريم**) أى كالبستان الذى صرم أصحابه ثمره ، وقطعوا عذوقه ، ولم يبقوا على شىء منه . وهذا الطائف الذى ألم بالجنة ليلا فأتى عليها ، هو من قبيل الآفات السماوية التى تفجأ الأغراس والمزروعات فى بعض السنين فتتلفها، وتلحق الخسار بأصحابها . ولا يلزمنا أن نعين جنس ذلك الطائف ، وانما نقول ان استئصاله لثمار الجنينة وافساده فيها كان بالغا حده بحيث يحكم المتأمل فيه أنه حصل بصورة خارقة للعادة من شأنها أن تحدث فى النفوس الغافلة الرهبة والازدجار .

ومعنى (طاف عليها طائف) طرقها فى الليل من

---

(١) يصح أن يكون المعنى : « ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل ابوهم » ولعله المتبادر . المصحح

أمر الله طارق . ولا يكون الطائف فى كلام العرب غالبا الا ليلا كالطارق . ومنه الطائف للعسس . ومعنى (**الصريم**) المصروم ثمره أى المقطوع المجذوذ. وللصريم معان أخر : منها الليل المظلم البهيم ، والأرض السوداء لاتنبت شيئا ، والقطعة من معظم الرمل ، وكلها تصلح فى تفسير الآية . ومن شبهها بالليل جعلها بعد أن احترق نباتها ، وتصوحت أوراقها ، وزالت خضرتها ــ سوداء كالليل البهيم .

لما أفاق أصحاب البستان من نومهم جعل بعضهم ينادى بعضا قائلين : هلموا الآن ، أى فى وقت الصبح الذى لا يبكر فى مثله المساكين عادة ، فاذهبوا الى بستانكم ان كنتم تريدون صرم ثماره من دون أن يشهد صرمكم أحد من أولئك المساكين .

(والحرث) الزرع ، والمراد به موضع الزرع وهو البستان حيث الأثمار والأعناب ، فهو كقوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم) أى موضع حرث .

(والغدو) يتعدى بالى من حروف الجر . يقال : « غدا الى موضع شغله » ، أى ذهب اليه وقت الغداة . لكنه عداه هنا بعلى مضمنا له معنى أقبل ، كأنه يقول : « أقبلوا على حرثكم » .

وقد وصف فى قوله تعالى (**فانطلقوا وهم يتخافتون ...**) حالة خروجهم الى الجنة ، كما وصف فى سابقتها حالة نهوضهم من النوم ، أى اتخذوا طريقهم الى الجنة وهم يتكلمون بكلام خافت مهموس لئلا يسمعهم المساكين فيتبعوهم ، يقول بعضهم لبعض . لن ندع احدا من أولئك المساكين يدخل جنتنا ، ويشاركنا فى رزقنا ونعمتنا .

وقوله (**وغدوا على حرد قادرين**) أى وظلوا بعد أن قالوا ما قالوا جادين فى سيرهم ، حاسبين فى نفوسهم أنهم قادرون على حرد ، أى منع أولئك المساكين نصيبهم من ثمرات الجنة ، فقوله (على حرد) متعلق بقادرين مقدم عليه . و (قادرين) حال من فاعل (غدوا) لا خبر لغدوا : لأن (غدا) هنا فعل تام بمعنى ذهب وقت الغداة ، لا فعل ناقص بمعنى صار أو أصبح .

و (الحرد) له معان كثيرة ، أنسبها هنا ماذكرناه ، وهو المنع . يقال : « حرد زيدا » اذا منعه و « حارد فلان » اذا كان يعطى ثم منع . و « حاردت الناقة » منعت لبنها . و « حاردت السنة » منعت مطرها .

ورجح بعضهم أن يكون (الحرد) هنا بمعنى القصد . يقال « حردت حردك » ، أى قصدت قصدك . ومنه قول الشاعر :

أقبل سيل جاء من أمر الله   يحرد حرد الجنة المغلة

أى يقصد قصد الجنة ذات الغلة ، وجهتها . ويكون الحرد فى الآية بمعنى القصد المعزوم عليه فى النفس ، فيصير المعنى : ان هؤلاء القوم جاءوا جنتهم غدوة النهار على أمر قصدوه واعتمدوه وبيتوه فيما بينهم ، شاعرين من أنفسهم القدرة على انفاذه .

والحاصل أن القوم بيتوا النية ليلا على منع المساكين ، وهبوا من نومهم صباحا وهم يتحاضون على الثبات فى هذه النية ، ثم ساروا الى الجنة وهم يتهامسون بلزوم انفاذ ما صمموا عليه ، شاعرين

من أنفسهم بالقدرة على هـذا الانفاذ . وما علموا أن الله الذى لم يشكروا نعمه ، ولم يرحموا عياله ــ من ورائهم محيط ، وعلى احباط كيدهم قادر .

أن القـوم بقوا مصممين النيـة عـلى الحـرد ، حتى وصلوا الى الجنـة التى طاف عليهـا طائف الآفة السماوية فأحرقها ، وصوح نبتها (**فلما رأوها**) على هذه الحالة عرفوا أنهم كانوا على ضلال من جهتين : من جهة منعهم المساكين حقوقهم ، ومن جهة غفلتهم عن قدرة الله ، وسرعة انتقامه ممن نابذ أوامره الالهية وخالف سننه الكونية .

وبعد أن سجلوا على أنفسهم الضلال ، وحكموا عليها بالغفلة ــ ذهبوا فى الحكم عليها الى ابعد من هذا ، فعلموا أن المساكين الذين ارادوا حرمانهم من الرزق ليسوا فى الحقيقة محرومين ما داموا فى رحمة الله ، وتحت كلاءته ، وانما هم المحرومون على مايظهر ، لانهم استحقوا مقت الله وغضبه بخروجهم عن سننه ، وقسـوة قلوبهم على عباده ، ولذلك أتلف جنتهم ، وأفسد عليهم معيشتهم . ويحتمل أن يكون المراد من حكمهم على أنفسهم بالضلال ، ضـلال الطريق الى جنتهم مـذ رأوها محترقة لا نبت فيهـا ولا ثمر ، ولا أثر من آثار الحيـاة ، مع أنهم تركوها بالأمس مثمرة مورقة وارفة الظل ، فحسبوا أنهـا غيرها ، وانهم أخطأوا طريق الوصول اليها . ثم بعـد هنيهة تبين لهم أنها هى هى ، فاضربوا عن ظنهم الاول قائلين : (**بل نحن محرومون**) ، أى لم نضل طريق جنتنا ، وانما حرمنا الله اياها بشؤم طالعنا ، وتغير نيتنا .

لما ظهر لاصحاب الجنة خطؤهم ، وأنهم فى ضلال من سعيهم ــ انبرى واحد منهم كان وعظهم من أول الأمر ، ونصح لهم ان يرعوا ويكفوا ويراقبوا الله : فلا يجحدوا فضله ، ولا يكفروا نعمتـه ، ولا يمنعوا المساكين حقهم ، فلم يبالوه ولم يكترثوا له ، فأخذ الآن يذكرهم بما كان من نصيحته لهم ، ويؤنبهم على ما كان منهم من المخالفة والعناد والكفران . وكان هذا الناصح أوسط رفاقه ، أى خيرهم واعدلهم رأيا ، وأمثلهم طريقة ، وأسرعهم رجعة الى الله . والوسط من كل شيء خيره وأعدله . ومنه قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(**قال**) لهم (**اوسـطهم : ألم أقل لكم الخ**) اى اتذكرون أننى كنت حذرتكم عاقبة الجحود، وحضضتكم على تسبيح الله ، أى تنزيهه من كل سوء . وتنزيهكم له يكون بالاستثناء ورد المشيئة اليه تعالى ، وأنتم لم تستثنوا مذ عزمتم على صرم جنتكم ، وانما صممتم عليه ، غافلين أو متغافلين عن عجيب قدرة الله تعالى . ويكون التنزيه أيضا بالايمان بالله والخوف من بطشه ، واعتقاد انه تعالى يغار على خلقه الذين هم عياله ، فلا يرضى أن يبخسوا حقوقهم . فأنتم لما لم تؤمنوا به ، ولم تخافوا بطشه ، ولم تحسنوا معاملة خلقه ــ كنتم معتقدين فيه تعالى العجز والضعف والخرق ، فلم تكونوا مسبحين ولا منزهين له عن صفات النقصان . وكان خطيبهم وهو يأمرهم بهذا يلح عليهم فى طلب التسبيح ، لأنه استعمل كلمة (لولا) وهى مثل (هلا) فى افادة الحض والحث .

ويظهر ان هذا الخطيب لما نصح لهم فلم يقبـلوا نصحه ، فضل أن يبقى فى جملتهم ، ومشاركا لهم فى عملهم ، على حد قول دريد بن الصمة :

وهـل انا ألا من غزية ان غـوت
غويت وان ترشـد غزية أرشـد

وكذلك لما ظهر للقوم خطؤهم فى مخالفة خطيبهم عاتبهم بقوله (**ألم أقل لكم لولا تسبحون**) . فكان هذا القول منه على حد ما قاله دريد أيضا فى عتاب قومه فى القصيدة نفسها :

محضتكمو نصحى بمنعرج اللوى
فلم تستبينوا الامر الا ضحى الغد

وقد يكون للعقـلاء الناصحين مأرب فى بقائهـم مشاركين لقومهم فى عمل مانهوهم عنه ، مثل اجتناب التفرق والانشقاق الذى يعقبه الفشل وطمع العدو ، ومثل أن يأخذ اولئك العقـلاء الناصحون بحجزات قومهم وقت التهور واشتداد الازمات ، ومثـل أن ينبهوهم الى سوء صنيعهم ونتيجة مخالفتهم وقت الوقوع فى الهلكات ، فيكون تذكيرهم لهم اذ ذاك أشد تأثيرا فى نفوسهم ، وأعون على تقويم اعوجاجهم ، ولم شعثهم . اعتبر هذا فيما كان من أصحاب البستان اذ (**قالوا**) فى جواب اوسطهم الذى كان نصح لهم : (**سبحان ربنا انا كنا ظالمين**) . فانظر كيف اعترفوا من فورهم بظلمهم للمساكين ، وتركهم رد المشيئة الى الله ، وجأروا بتسبيحه تعالى وتنزيهه ، ولـكن بعد حلول الدبرة ، وخراب البصرة .

ثم بعـد أن أقر القوم بذنوبهم ، ورجعـوا الى الصواب فى تنزيه خالقهم ــ أقبل كل واحد منهم على صاحبه يلومه ، ويزعم أنه هو الذى أغراه بالعصيان ، وحثه على التمادى فى مخالفة الناصح أو عدم الاعتداد بحقوق المساكين ، وترك اطعامهم من جنتهم . فيقول أحدهم : أنت أشرت علينـا بهـذا الرأى المعكوس ، ويجيبه الآخر : بل أنت خوفتنا الفقر وعاقبة الانفاق على المعوزين ، ويقول الثالث : أنتم الذين لم تسمعوا قولى ولم تصغوا الى نصحى، وهذا معنى(**يتلاومون**). ثم أنهم لم يكتفوا باستقباح عملهم ، والوقوف به عند حد الاقرار بالخطأ والتلاوم ، بل جعلوا يدعون على انفسهم بالويل والهلاك ، وصرحوا بأنهم جـديرون بذلك ، لما أنهم كانوا (**طاغين**) ، بل متجاوزى الحد فى المخالفة والعصيان ، وهذا هو معنى الطغيان .

وهذا السخط على أنفسهم ، واعلانهم فظـاعة عملهم ، وتصريحهم بأنهم ظلموا وتجاوزوا كل حد ــ انما أرادوا به التوصل الى استنزال عفو الله والتعرض لنفحاته ، وأن يعوضهم خيرا مما فقـدوه ، ولذلك نسمعهم يقولون فى ختـام حديثهم (**عسى ربنـا أن يبدلنا خيرا منها**) ، اى نرجو الله أن يعوضنا جنـة تكون خيرا من تلك الجنة التى بارت وتصوحت ، ثم قالوا انهم لا ملجأ لهم ولا مستغاث الا الله ، وهـذا معنى قولهم (**انا الى ربنا راغبون**) ، لأن فعل(رغب)

أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن

اذا تعدى (بغى) كان معناه ارادة الشيء ، والطمع فى الحصول عليه ، واذا عدى (بعن) كان معنـاه على العكس أى الكراهة للشيء والنفرة منه ، واذا عـدى (بالى) كان معناه الضراعة والابتهال . وهنا قـدم الجـار والمجرور على الفعل فأفاد الحصر . ويكون المعنى اننا مبتهلون ضارعون فى قضاء حاجتنا ، وفى أن يبدلنا خيرا من جنتنا ــ الى ربنـا لا الى غيره . ويكون هذا منهم منتهى التسبيح والايمان ، بعد ذلك الجحود والـكفران . وهل يعتبر قولهم هـذا توبة نصوحا ينالون بها من الله العفو والصفح والتعويض عن جنتهم ؟ لانعلم كيف كان أمرهم فى ذلك . وقد سئل قتادة عنهم : أمن أهل الجنة هم أم من أهـل النار ؟ فقال للسائل : « لقد كلفتنى تعبا » يريد أن الأفضل التوقف فى أمرهم . ويمكن أن يقال أن الآية التى ختم الله بها القصة تشعر بالتهديد والوعيد مما يدل على ان فى توبتهم شائبة رياء ونفاق .

فقوله : (**كذلك العذاب**) معناه ان العذاب الذى نرسله فى دار الدنيا على الطاغين المخالفين ، والذى من شأنه أن يؤثر فى النفوس ازدجارا واتعـاظا ــ انمـا يكون مثل ذلك العذاب الذى نزل بأصحاب الجنـة فأهلك حرثهم ، وأباد خضراءهم ، ونغص حياتهم . على أن عذاب الآخرة المعد لكل من طغى وبغى أشـد وأعظم من عذاب الدنيـا ، فياليت الطاغين ــ ومن جملتهـم مشركو مكة ــ يعلمـون ذلك فيزدجـروا ويتعظوا . وهذا معنى قوله : (**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**) .

ومغزى هـذه الآية أو القصة التى تضمنتهـا أن الله تعالى عامل كفار قريش معاملة المبتلى المختبر ، ليظهر حالهم ، ويكشف عن عوارهم . فهو تعالى قد أمدهم بالنعم ، ويسر لهم أسباب الخفض والدعـة وليان العيش ، فطغوا وبغوا وغفلوا عن القيام بواجب الشكر نحو مفيض هـذه النعم عليهم ، فـكان ذلك سببا لنزول البلاء والشـدائد بهم ، وقد أشبهت حالتهم حالة أصحاب الجنة حذو القذة بالقذة .

وقد ذكروا ان الوليد بن المغيرة الذى نزلت فيه هذه الآيات كان فى سـعة من العيش والرزق حتى كانت له البساتين من مكة الى الطائف ، ومن جملتها بستان لاينقطع نفعه شتاء ولا صيفا ، ثم ذهب كل ذلك كأمس الدابر جزاء كفره .

أما البلاء الذى نزل بأهل مكة فهو الجوع والقحط الذى دام فيهم سبع سنين حتى أكلوا العظام والجيف . ومن البلاء أيضا مانزل بهم فى وقعـة بدر من الأذى والقتل والأسر والتصفيد (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) .

(**المتقون**) هم المسـلمون الذين أذعنوا لأمر الله ونهيه ، واتقوا عقوبته باجتنـاب معـاصيه ، وأداء فرائضه . أما فريق (**المجرمين**) فهم الذين خالفوا الفريق الأول ، فلم يذعنوا ، ولم يتقوا ، بل جحدوا وكذبوا ، واستكبروا عن اتباع الرسول وأبوا . وهم الذين سماهم المكذبين ، ونهى نبيـه عن اطاعتهـم والخضوع لما داوروه عليه من ادهانهم ومصانعتهم .

هؤلاء المجرمون المكذبون من صناديد قريش كانوا يسلكون فى مقاومة البعثة وافساد الأمر على المسلمين كل طريق : طورا بالشدة ، وطورا باللين . تارة بالجد والتحكم ، وتارة بالهزل والتهكم . من ذلك قولهـم للمسلمين : ان صـح اننا نبعث فى دار ثانيـة كمـا تقولون ــ فلن تكون حالـكم وحظـكم فى تلك الدار بأحسن من حالنا وأوفر من حظنا فى هذه الدار . فان الذى فضلنا عليكم فى هذه الدنيا ، وجعل حظوظنـا خيرا من حظوظكم فيها ــ هو الذى بيـده الأمر فى الآخرة ، فيفعل كذلك أو يساوينا بكم على الأقل . يقولون هذا مذ يرون ماهم فيه من البلهنية والغنى وسعة الرزق ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم من القلة والشظف وضيق العيش . وهذا القول منهم بالهزل والمغالطة ، أشبه منه بالجد والمناقضة (اى رد الحجة بالحجة) ، والا فان دار الدنيا ليست دار ثواب وجزاء . وانما هى دار عمل وابتـلاء . يعرف فيها المطيع المتقى من المجرم الشقى . فمن شـغله اجرامه عن طاعة الله وممارسة الفضيلة ، والعمـل الطيب فى هذه الدار ــ فهو محارف محروم فى الدار الآخرة مهما كان مجدودا موسع الرزق فى الدنيـا .

ولا يضر المتقين المطيعين ان يكونوا منقوصى الحظوظ من حطام الدنيا ، لأن تحصيل حطامها يكون بأسباب وطرائق كثيرا ماتيسرت للمـكذبين العاصـين الذين يمارسونها ، وتعسرت على المتقـين الطائعين الذين يعرضون عنها . والفوز برضاء الله وحلول داركرامته فى النشأة الآخرة انما طريقه العمل الصالح وممارسة الفضائل والطاعات فى هـذه الدار ، ولا يكون بسعة الرزق وكثرة الحطام وكنز النضار .

وهذا معنى قوله تعالى (**ان للمتقين**) الآية ، أى أن للمتقين المسلمين لا لغيرهم من المـكذبين الجـاحدين جنات النعيم . تلك الجنات الكاملة فى نعيمهـا والتى أشرف أحوالها ، وأكرم صفاتها ، أنها عند الله وبالقرب

منه سبحانه . فمهما كان فى هذه الجنات الأخروية من صنوف النعيم التى قد تشبه من بعض الوجوه نعيم دنياكم أيها المكذبون ـ فان قربها من الله سبحانه، وكونها فى جواره الأقدس ـ يجعلها ممتازة على غيرها، وجديرة بأن تكون للذين اتقوه وأطاعوه وآمنوا برسوله.

فهل يتصور أو يجول فى نفس عاقل أن يجعل الله جنات قربه، ومنازل كرامته ـ للمكذبين الجاحدين، ويحرم منها المتقين المسلمين، أو يجعلهم فى حظوظها شرعا متساوين؟ كلا! ما الله بفاعل ذلك. وهذا معنى قوله تعالى: (**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**) ، يعنى فى الحظ والقسمة والكرامة والقرب منه تعالى.

ثم عاد فأثار خامد العقل فى نفوسهم بأسلوب آخر قائلا: (**مالكم كيف تحكمون ؟**) أى أين ذهب بكم، وكيف ضل ضلالكم حتى حكمتم هذا الحكم الغريب، فجعلتم الأعداء كالأولياء، وأحللتم الفجار، منازل الأبرار.

يظهر من سياق هذه الآيات وتلوين الخطاب فى الرد على المجرمين، وتخطئتهم فى زعمهم ـ من أن لهم حظا من جنات النعيم مثل او أوفر من حظ المتقين ـ ان أولئك المجرمين كانوا متشددين فى حكمهم، مصممين فى رأيهم، ولذلك وبخهم الوحى أشد توبيخ، ورد عليهم أبلغ رد.

(**تدرسون**) من درس الكتاب، اذا أقبل عليه يقرؤه ويتفهم مافيه. وكان حق همزة (**ان**) فى قوله (**ان لكم**) الفتح لكونها واقعة فى مفعول تدرسون، لكنها كسرت لدخول اللام فى خبرها. و (**تخيرون**) أصله تتخيرون. من تخير الشيء واختاره بمعنى أخذ خيره وأحسن مافيه، كما يقال تنخله وانتخله، بمعنى أخذ منخوله وصفوته.

وقوله: (**أم لكم أيمان علينا**) ، أى أم عندكم الايا وعهود ومواثيق ثابتة علينا، كنا قدمناها لكم بدخولكم جنات النعيم مع المتقين؟ يقال: «لفلان على يمين بكذا» اذا كنت ضمنته له، وحلفت له على الوفاء به. وقوله (**بالغة**) أى مغلظة مؤكدة متناهية فى الشدة، أو المعنى أن تلك الأيمان تبلغ يوم القيامة كاملة وافرة بحيث يقع البر بها من دون أن يحنث بشيء منها. وجواب هذا القسم المحكى أعنى (**أيمان علينا**) هو قوله (**ان لكم لما تحكمون**) ومن ثم كسرت همزة (**ان**) على ان وقوع اللام فى خبرها مما يقتضى كسرها أيضا كما قلنا فى (**ان**) السابقة.

وقوله (**الى يوم القيامة**) متعلق ببالغة او بالظرف المستقر، أعنى متعلق علينا، أى أيمان استقرت وثبتت علينا الى يوم القيامة.

و (**زعيم**) بمعنى كفيل. والزعيم عند العرب هو الضامن للشيء المتكفل به، ويكثر استعماله فى الذى يتكلم عن القوم ويحتج لهم، ويحامى عن حقوقهم ومصالحهم ضامنا لهم النجح والغلبة. يقول تعالى: أعندكم أيها المكذبون الزاعمون ان حظوظكم من دار الكرامة يوم القيامة مثل حظوظ المتقين أن لم تكن أوفر ـ كتاب سماوى أو غير سماوى يطمئن القلب الى صحته، فأنتم تقرءون فيه هذه البشارة، من أن لكم أن تختاروا من حظوظ دار الآخرة ماتحبون، وتحلون من بحابحها ومنازل كرامتها حيث تشتهون؟ وهذا كقوله تعالى: (أم لكم سلطان مبين؟ فأتوا بكتابكم) ، وكقوله: (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) .

بل اذا لم يكن لديكم مثل هذا الكتاب فهل كنا أقسمنا لكم قسما نحن مطالبون بالوفاء به اليوم ويوم القيامة، وهو أن يكون لكم حكمكم يومئذ فنعطيكم ما تتمنونه وتحكمون به لأنفسكم من مساهمة المتقين فى انصبائهم، ومزاحمتهم فى دار ثوابهم وجزائهم؟

(**سلهم**) يامحمد (**أيهم بذلك زعيم**) : من منهم الزعيم والمدرة الذى يمكنه أن يحتج علينا بأنا كنا أقسمنا لهم على تلك المزاعم التى زعموها، وأعطيناهم العهود والمواثيق على الوفاء بها.

لم يدع الخطاب الالهى لهؤلاء المكذبين الجاحدين دليلا الا نقضه، ولا متكأ يستندون عليه فى مزاعمهم الا قوضه، فنفى أولا أن يكون لهم دليل عقلى على صحة ماذهبوا اليه، فقال لهم: (افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون؟) . ففى هذا القول رجوع الى العقل وتحكيمه فى المسألة، ولاجرم أن العقل لايحكم بأن المسلم كالمجرم، وأن العاصى لله بمنزله المطيع له فى الثواب والزلفى منه تعالى. ثم نفى الخطاب الالهى أن يكون لهم دليل نقلى بذلك فقال: (أم لكم كتاب فيه تدرسون، ان لكم فيه لما تخيرون) . والقوم لم يكن أنزل عليهم كتاب يعتقدون صحته، يبشرهم بأن لهم من منازل الكرامة وبحابح السعادة مااختاروا وأحبوا، فاذا لم يكن هناك دليل عقلى ولا نقلى بقى الظن فى انه تعالى تألى لهم واقسم أن يعطيهم يوم القيامة مايحكمون ويشاءون. وهذا أيضا لم يقع لأن رب العزة ذاته سبحانه ينفى أن يكون وقع ذلك منه، واذا كانوا يدعون وقوعه فمن من زعمائهم يجرؤ على اثباته والاحتجاج له؟

ولم يبق للقوم من عذر سوى قولهم: أن (**لهم شركاء**) يشهدون لهم، ويذهبون مذهبهم فى ان لهم نصيبا مفروضا من جنات النعيم كما للمتقين.

والمراد بهؤلاء الشركاء: اما الأصنام والطواغيت التى يعبدونها من دون الله، وهذه خشب مسندة لاتنطق ولا تعرف كيف تثبت وجودها، بل لاتعرف أنها موجودة فضلا عن أن تشهد لغيرها، واما أن يكون المراد بالشركاء عقلاء البشر ممن درس الحكمة وتلقى تعاليم الأديان القديمة فتتبع آثارها، واستبطن أسرارها ـ يأتون يشهدون للمشركين من قريش بأنهم ناجون عند الله، وان لهم حظا من جنات النعيم.

فالله تعالى يقول لأولئك المشركين: ان كان لكم شركاء يشهدون لكم هذه الشهادة فأتوا بهم أن كنتم صادقين فى أنهم لديكم. لاجرم أن المشركين لا شهداء لهم من هذا القبيل، وبذلك تكون قد بطلت حججهم، وانقطعت معاذيرهم، وحقت الكلمة عليهم.

(**يوم**) ظرف متعلق بقوله قبله (فليأتوا بشركائهم) أى اذا كان لدى أولئك المشركين المكذبين شركاء يشهدون لهم بأنهم ممن يدخل جنات النعيم مع المتقين فليأتوا

سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ

بهم فى ذلك اليوم ، وهو يوم كشف الساق ، أى يوم القيامة . وهذا تهكم بالمكذبين وأشارة الى ان معاذيرهم وشفعاءهم غير نافعتهم فى ذلك اليوم شيئا .

أو أن الكلام لاتعلق له بالاتيان بالشركاء ، وانما هو كلام مستأنف يتهدد الله به المكذبين المجرمين الذين ذكر نموذجا منهم الوليد بن المغيرة ، ووصفه بقوله : (ولا تطع كل حلاف مهين) وذكرنا ثمة ان الوليد كان يقول لبنيه وعشيرته كلما آنس منهم ميلا له صلى الله عليه وسلم وارتياحا الى دعوته : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء ابدا » مدلا بثروته وسعة رزقه . فهذا وأمثاله يذكرهم الله تعالى بذلك اليوم ، يوم كشف الساق وأهواله العظام .

و (كشف الساق) فى كلام العرب يراد به اشتداد الهول وعظم الأمر . والأصل فى ذلك أن المرء اذا نزلت به نازلة ، أو اهتم لمباشرة أمر من الأمور والمضى فيه — شمر عن ساعديه ، أو أدار ذلاذله (أطراف ثوبه المتدلية) فى وسطه ، ومنه قولهم : « فلان كميش الازار » أى مشمره ، قالوا : وهو مثل فى الجد والمضاء وقوة الارادة . يفعلون ماذكر من التشمير عن السواعد والسوق عند الشروع فى العمل الجد ، ومباشرة مايهم من الأمر ، ولا سيما ما فيه مخاطرة بالنفس ، كمنازلة بطل ، أو مصارعة اسد ، أو اطفاء حريق ، أو انتشال غريق . وقد يفعلونه يوم الخوف والذعر والهزيمة .

قال ابن قيس الرقيات يصف شدة :

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى
عن خدام العقيلة العذراء

والخدام بكسر الخاء : الخلاخيل ، واحدها خدمة . فالعذراء انما تكشف عن ساقها فى ذلك الوقت ليكون مساعدا لها على التملص والفرار .

اما المعنى الأول فهو الأعم الأغلب فى استعمالهم ، فيقولون : « قامت الحرب على ساق » أى اشتدت وتعاظمت ، وقال حاتم :

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها
وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

أى : وأن اشتد هول الحرب شمر لها ، واصطلى نارها . وقال سعد بن مالك جد طرفة بن العبد فى أبياته المشهورة :

والحرب لايبقى لجا حمها التخيل والمراح
الا الفتى الصبار فى الـ نجدات والفرس الوقاح

الى أن قال :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

فالأصل فى هذا التعبير — أعنى كشف الساق مرادا به الشدة والهول — أن يكشف عن الساق بالفعل عند الخطب واشتداد النازلة ، ثم كثر واستفاض حتى صار يفهم منه اشتداد الأمر ، واستفحال الخطب ، ولو لم يكن ثمة ساعد ولا ساق ، ولا كشف ولا تشمير .

وكذلك الشأن فى كل ما ذهب مثلا من الجمل والتراكيب ، كقولهم : « فلان يده مغلولة » كناية عن كونه ممسكا شحيحا ، ومنه قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) ، أى لاتمسكها عن الانفاق كل الامساك ، وأصله اعتقال اليد بالغل وهو القيد ، فلا تنطلق فى العمل ، ولاتتصرف فى بذل المال ، لكن هذا التركيب (اعنى مغلول اليد) يستعمل فى وصف البخيل ولو كان أقطع لا يد له ، ولا غل يغلها ، ومثل ذلك ماحكى الوحى عن اليهود من قولهم (يد الله مغلولة) أى مقبوضة عن ادرار الرزق عليهم ، وهو كناية عن وصفهم له بالبخل تعالى وتقدس .

وهكذا استعمال (كشف الساق) فى هول يوم القيامة ، يراد به الهول وفظاعة الأمر ، وان لم يكشف عن السوق بالفعل ، فان يوم القيامة — وان تكن فيه سوق — لا ثياب تلبس ولا ذلاذل تكشف فى ذلك اليوم العصيب ، كما ورد الحديث فى وصفه : « يحشرون حفاة عراة غرلا » .

وانما اطلنا الكلام فى هذا تنبيها الى ان أفضل مايحمل عليه كلام الله المعجز من الأساليب ماعرف عند بلغاء العرب وتداولته ألسنتهم ، وشاع استعماله بينهم . والعدول عن هذا المعنى الكنائى الى غيره — كالقول بأن المعنى : يكشف عن ساق (الرحمن) تعالى وتقدس ، اعتمادا على بعض الآثار الواردة فى ذلك ، أو عن ساق (العرش) ، أو ساق (ملك مهيب) من الملائكة — كل ذلك لا حاجة اليه بعد الشواهد التى ذكرناها من أقوال فصحاء العرب ، ومختلف أساليبهم فى بليغ تراكيبهم ، مما يدل دلالة واضحة على ماقلناه . ويكفى شاهدا نقلنا عليه أن ابن عباس كان يقول فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يكشف عن أمر عظيم ، الا تسمعون العرب تقول : « وقامت الحرب بنا على ساق » وتقول « كشف هذا الأمر عن ساقه » اذا صار الى شدة .

بقى أن يقال : وما ذلك اليوم الذى يكشف فيه عن ساق وقد خوف الله به المكذبين ؟ أيوم القيامة هو ؟ أم يوم من أيام الدنيا؟ والمتبادر من الكلام والمفهوم من السياق أنه يوم القيامة ، وأى يوم يوصف بانه يكشف فيه عن ساق ، وان ابصار الجاحدين فيه خاشعة ، وترهقهم فيه ذلة — غير يوم القيامة ؟؟

وذهب أبو مسلم الأصفهانى مذهبا فى تفسير هذه الآيات لا أراه بالبعيد ، فقد قال : ان ذلك اليوم فى الدنيا ، لأن الله تعالى قال فى وصفه : **(ويدعون الى السجود فلا يستطيعون)** . ويوم القيامة لايدعى فيه

الى عبادة ، ولا يكلف أحد سجودا ، فلا جرم أن يكون ذلك اليوم الذى يكشف فيه عن ساق هو أيام العجز والشيخوخة ، أو ساعات النزع والحشرجة التى تلم بأولئك المكذبين على حد قوله تعالى (فلولا اذا بلغت الحلقوم) . هذا ماقاله أبو مسلم .

وحل معنى الآية على قوله هذا : اذكروا أيها المعاندون المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم يوم الهول العظيم الذى ينزل بكم عند آخر يوم من أيام حياتكم : يوم يعول ذووكم ، وتندب نساؤكم ، فيمزقن ثيابهن، ويقطعن شعورهن ، اذكروا أنكم اذا دعيتم فى تلك الساعة الى الايمان بالله والسجود له ، وقد ظهرت لكم أمارات القيامة وصدق نبيكم الذى كنتم تكذبون به فى حال صحتكم ــ فلا تستطيعون السجود ، لما نزل بكم من الموت ، وحل بجسمكم من الوهن والضعف . فى ذلك اليوم تضعف أبصاركم عن الحركة فتخشع ، ويغشى وجوهكم الذل فتسفع . فى ذلك اليوم تتذكرون أنكم كنتم تدعون الى السجود وأنتم صحيحون قادرون فتأبون وتستكبرون ، فذوقوا اليوم ماكنتم به تكذبون .

فأنت ترى ان حل الآيات على هذه الصورة لا مانع منه ، ولا منافى له ، لا من السياق ، ولا من اللحاق .

أما حلها على أن المراد به يوم القيامة ، فالأمر فيه ظاهر أيضا . ويكون المعنى هكذا : على هؤلاء المكذبين أن يذكروا ذلك اليوم العظيم الذى يشتد فيه الكرب ، ويفدح الخطب ، يوم يوبخون على مافرطوا فى جنب الله ، وكذبوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لهم : هاكم قد تبين لكم صدق الرسول ، وما دعاكم اليه ، فقوموا فاسجدوا لله ربكم ، ان كنتم فاعلين !! ومن أين لهم الاستطاعة يومئذ على السجود وقد حيل بينهم وبينه بما علموا أن هذا غير نافع فى ذلك اليوم ، ولا الوقت وقته ، وأن طلب السجود منهم انما هو طلب توبيخ وتعنيف لا طلب تشريع وتكليف . فتخشع اذ ذاك أبصارهم فلا تعود ترفع ، ويغشى سواد الذل وجوههم بعد أن كانت بوميض العظمة والكبرياء تضيء وتلمع ، ويذكرون أنهم (**كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون**) خالون من مثل هذه الموانع التى اعترضتهم يوم القيامة فيستكبرون ، وبكتاب الله يكذبون ، فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ؟

كان صلى الله عليه وسلم يضيق صدره أحيانا من عناد المشركين وتكذيبهم له وصدهم الناس عن الدخول فى الاسلام ؛ كما مر عن الوليد بن المغيرة الذى ذكر التنزيل طرفا من عناده وصده وسوء أخلاقه . وكثيرا ماشغل قلبه الشريف بالفكر فيهم ، والتمنى لو أن الله يكفيه شرهم ، ويكف عنه عاديتهم . فكان الله تعالى يحض نبيه على الصبر والثبات ، ويذكره بما أنعم الله به عليه من صنوف النعم وعظيم الآلاء ، ويصف له ماسوف يلاقيه أولئك المشركون من شديد العذاب على تكذيبهم له واعراضهم عن الاسلام ، ويضرب له مثلا اخوانه من الأنبياء والمرسلين وما لاقوا من عناد أممهم ، وكيف كانت العاقبة لهم ، مسليا له ، وملقيا روح الرجاء والأمل فى قلبه الشريف .

ومن ضروب التسلية قوله فى هذه الآية ــ وكأنه قد آنس منه شيئا من القلق واضطراب القلب بشأن أولئك المكذبين وفرط مقاومتهم له ــ (**فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث**) .

و (الحديث) القرآن والوحى والآيات التى كان يتلوها صلى الله عليه وسلم على المشركين مذكرا ومحذرا . ومعنى (فذرنى ومن يكذب) دعنى وأياه ، وثق بى ، وفوض أمر الانتقام منه الى ، فانى كافيك ذلك ، وقادر عليه ، وعالم بطريق الوصول اليه . فأرح نفسك من جهته ، ولا تشغل قلبك به . وفى هذا الأسلوب من تهديد المكذبين وتخويفهم ما فيه .

وكان قائلا يقول : وما أنت صانع بهم يارب ، وعلى أى طريقة من طرائق الأخذ والنكال تسير بهم ؟ فقال : (**سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم ..الخ**)

و (الاستدراج) أن تنزل بالمرء درجة فدرجة الى حيث تريد به . فقوله (سنستدرجهم) سننتقل بهم من طور الى طور ، ومن حالة الى حالة يعجبهم ظاهرها ، ثم لايشعرون بما خبيء لهم فى طيها ، حتى يردوا العذاب ، ويتورطوا فى الشقاء .

وقوله (**وأملى لهم**) اى امهلهم وأؤخرهم ، فيكون مشتقا من (الملاوة) وهى البرهة من الدهر ، ويكون المعنى : أنى أفسح لهم فى أعمارهم ، وانسأ فى آجالهم برهة من الزمن ، ثم أنزل بهم انتقامى أخيرا .

ويحتمل أن يكون معنى (أملى لهم) أرخى لهم العنان : يسرحون ويمرحون كما يشاءون ، ثم لايشعرون بأنفسهم الا وهم فى العذاب والبلاء متورطون ، فيكون (أملى) على هذا مشتقا من (الملا) وهو المتسع من الأرض . يقال : أمليت للبعير اذا وسعت له فى قيده أو زمامه ، وارخيته له بحيث يسهل عليه الرعى أنى شاء .

وكلا التعبيرين (الاستدراج)و(الاملاء) ، تمثيل لتأخير انتقام الله من أولئك المكذبين ، وتمتيعه اياهم بالصحة والبنين والرزق ورغد العيش والوان النعم ، فيشغلهم كل ذلك عن النظر فى آيات الله واتباع الرسول والايمان به . وقد قامت لديهم الأدلة وتكاملت حجج الله على صدقه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم تمادوا فى غفلتهم هذه حاسبين أن تأخير العذاب عنهم ، وانساء حلول البلاء بهم ، لمزية فيهم اقتضت ذلك ، بل ربما ظنوا ــ كما أشار الله فى الآيات السابقة ــ أن سيكون لهم يوم القيامة نصيب من بحابح الجنان كما يكون للمسلمين المتقين ، بحجة ان هؤلاء لا يفضلونهم بشيء ، وانهم هم لو لم يكونوا على خير وزلفى من الله لما متعهم بصنوف النعم ، ورغد العيش ، والمد فى العمر . ويبقون هكذا فى غرورهم ، وغفلتهم عن سنن الله فى خلقه ، ومثلاته فى الأمم قبلهم حتى تنزل بهم أشباه تلك المثلات بغتة وهم لايشعرون ولا ينتظرون ، وهذا معنى قوله (من حيث لايعلمون) .

إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن

وهكذا كان شأن مشركي العرب الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وجحدوا نبوته ، فانهم ما زالوا فى غيهم ، وفرط عنادهم ، حتى نزل بهم البلاء ببدر وبقية المواطن ، ثم كان الفتح وظهور الاسلام .

وقد سمى الله تعالى تأخير العذاب عنهم ، وتمتعهم بالصحة والرزق وطول العمر — وهو فى طى ذلك قد قدر عليهم الشقاء ، وارصد لهم الانتقام — سماه (كيدا) لمشابهته الكيد فى الظاهر ، والا فان الكيد من صفات العاجز الذى يحتال على عدو له قوى لا يقدر على مباداته بالبطش ، ولامصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقـا ، ولين جانب ، وهو فى خلال ذلك ينصب حبائل الشر حتى يقع فيها . هذا هو الكيد ، والله تعالى منزه عنه ، وانما الكلام تمثيل ، وتسمية للشىء باسم ما يشبهه ، وما هو فى صورته .

(المغرم) و (الغرامة) أن يلتزم الانسـان اداء ما ليس عليه ، فيعطيه وهو كاره ، (وأثقله) حمله شيئا ثقيلا ، والمراد من (الغيب) ما ثبت فى الغيب ، وقدر فى علم الله ، وقوله (**يكتبون**) أى يكتبون من ذلك المقدر فى الغيب ، وينسـخون منـه ، ويقرؤه بعضهم على بعض احتجاجا به واستنادا اليه ، و (أم) للاضراب والانتقال من حديث الى حديث آخر يجدر بالمخاطب أن يفكر فيه ، ويهتم به أشد من اهتمامه بالحديث الأول ، كأن المحدث يقول : دع هذا الذى حـدثتك به واسـمع ماهو أعجب وأغرب وأولى بالاهتمام .

والخطاب الالهى بعد أن هدد المشركين المكذبين ذلك التهديد المخيف مذ قال تعالى : (فذرنى ومن يكذب) أصبح من المحتمل أو المنتظر أن يكون قد خامر أولئك المكذبين خوف أو خشيـة مهـدت فى نفوسهم طريقا لقبول الحق ، وموضـعا للتأثر بالوعظ والارشـاد ، فرجع الوحى الى الانة القول لهم بمـا يشبـه العتاب ، لتحريك عاطفة التناصف فى قلوبهم ، فقال تعـالى : (أم تسألهم الخ) أى بل الأعجب من كل ذلك يا محمد أن القوم يأبون قبول ما أتيتهم به من الحق والهداية حتى كأنك تطلب منهم عليهما أجرا يبهظهم ، ويثقل عواتقهم .

ثم عجب من حالهم بأسـلوب آخر فقال : (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) ، أى اذا كانوا لم يظنوا أنك تتقاضاهم أجرة باهظة ، فلم يعاندون كل هذا العناد ؟ أعندهم اطلاع على علم الغيب ، وما أثبت فى اللوح المحفوظ ، فهم ينسخون عنه من ضروب الحجج ما يساعدهم على النجاة والتفلت من التبعة ، ويضمن لهم الفوز ودخول جنات النعيم مع المتقين ! !

والى هنـا يكون قد انتهى الـكلام مـع أولئك الجاحدين بمـا يفحمهم ، ويقطـع حجتهم ، ويجعل الحوار معهم ضربا من العبث واللغو ، فلم يبـق الا تثبيت قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمله على الصبر والاعتصام بالله فى انجاز وعده ، واتمـام أمر دعوته ، فلا يمل ولا يضجر ولا يكون منه ما كان من سيدنا يونس النبى عليه الصلاة والسلام . وقد قص الوحى علينا فى هذه السورة موجزا من خبره فقال: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) الآية .

(حكم الله) الذى طلب تعالى من نبيه أن يصبر عليه هو الاملاء للمكذبين وتأخير انزال العقوبة بهم حسبما أشار اليه بقوله (سنستدرجهم) (وأملى لهم) . وقيل أن ثقيفا لما آذوه صلى الله عليه وسلم ، وسلطوا عليه عبيدهم وأشرارهم ، أراد أن يدعو عليهم، فأنزل الله عليه (**فاصبر لحكم ربك**) أى لاتعجل فى الدعاء على القوم بالعذاب ، واصبر حتى يحين وقته المقدر .

وذهب جمع من المفسرين الى ان (حكم الله) الذى كلف تعالى نبيه (الصبر عليه) ما كان من رماة النبل فى وقعة أحد : من مخالفة أمره صلى الله عليه وسـلم وانكشـاف آخرين عنه ، حتى هم من أجله بالدعاء عليهم ، فنهاه ربه قائلا له : (فاصبر لحكم ربك) ، فأن ما فعلوه حكم قضاه ربك تعالى ، وفى طى فعلهم حكم وأسرار ، فاصبر ولا تعجل . غير أن قوله تعالى لنبيه : (**ولا تكن كصاحب الحوت**) وهو يونس النبى عليه السلام ربما أيد القول الأول ، من أن المراد بحكم الرب هو عناد المشركين ، وتكذيبهم للنبى صـلى الله عليه وسلم ، وتأخير نصرته عليهم . وان خبر يونس مع قومه ، ومغاضبته بسببهم ، وضيق صـدره من عنادهم ، وعدم نزول العذاب بهم — يشـبه بعض الشبه أمر نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه. فانهم لجوا فى مقاومته ، وأكثروا من مكايدته ، والتهكم بما كان يوعدهم به من العذاب . فـكان صـلى الله عليه وسلم يرى أحيانا أن قد حان الوقت لحلول عقوبة بهم تفسح الطريق أمام الدعوة وانتشار الاسـلام ، وآونة كان يضيق صـدره الشريف من تأخر ذلك عنهم ، غير أن الحق تعالى قال له أولا : ذرنى واياهم، وثق بأنى قادر على اهلاكهم ، فأرح قلبك من هـذا القبيل ، وقال له ثانيا : ان لربك سننا حكيمة لاتتغير فى أمثال هؤلاء الأمم المكذبة ، فاصبر لحكمها يا محمد ولا تعجل ولا تغضـب ولا تكن كالنبى يونس . ثم وصف تعالى لنبيه ماوقع ليونس مـع قومه قائلا : (**اذ نادى وهو مكظوم**) ، أى لاتكن مثـله فى الضجر والمغاضبة وقت أن رفع صوته بالدعاء على قومه ، وهو مغموم مملوء غيظا منهم ، وهـذا معنى قوله (مكظوم) ، فانه اسم مفعول من كظم غيظه اذا رده وحبسـه ، وأصله من كظم السقاء اذا ملأه .

ثم أن الله أخبر بأن يونس (تداركه) فى آخر الأمر **(نعمة من ربه)** ، وهى لطفه به مذ وفقه الى التوبة والانابة ، فعفا عنه ، واستخلصه لنفسه ، وقال : انه لو لم تتداركه تلك النعمة **(من ربه لنبذ بالعراء)** وهى الأرض الفضاء لا ساتر فيها **(وهو مذموم)** ، أى ملوم على ما كان منه ، لكنه لما تاب نبذه الحوت بالعراء من دون أن يكون مذموما . وقد قال تعالى فى سورة الصافات بشأن يونس أيضا (فالتقمه الحوت وهو مليم) ، أى التقمه وهو متلبس بما يلام عليه . وقال فى سورتنا هذه لولا أنه تاب (لنبذ بالعراء وهو مذموم) فأفاد أنه حينما نبذه الحوت لم يكن مذموما، وهو بمعنى لم يكن مليما أى لم يكن مستحقا للوم . فهو صلوات الله عليه دخل بطن الحوت ملوما ،وخرج منه غير ملوم ولا مذموم ، فالعمدة فى جواب قوله (لولا أن تداركه نعمة) ليست هى قوله (لنبذ بالعراء) اذ لو كان النبذ بالعراء هو العمدة لأفاد انه لم ينبذ مع أنه نبذ بالفعل ، وانما العمدة فى الجواب هى الجملة الحالية ، وهى قوله : (وهو مذموم) ، فالنبذ فى العراء حصل ، ومداركة النعمة ليونس كانت فى توبته مذ كان ببطن الحوت بحيث كان وقت أن نبذه الحوت غير مذموم ولا ملوم .

ولفظ **(النعمة)** تأنيثه غير حقيقى ، وقد فصل بينه وبين فعله بضمير المفعول ، ولذلك جاز تذكير فعله فقيل (تداركه) . على أن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما قرآها (تداركته) بالتاء .

وقوله : **(فاجتباه ربه فجعله من الصالحين)** معناه أنه تعالى بعد أن تداركه بنعمته اصطفاه لنبوته، وجعله من الصالحين أى الأنبياء المرسلين العاملين بما أمرهم ربهم ، والمنتهين عما نهاهم عنه .

قلنا ان الوحى قص علينا خبر يونس فى هذه السورة بموجز من القول ، لكنه فى مواضع أخر من القرآن ذكره بأكثر أسهاب ، وها نحن نورد الخبر بأطرافه مقتصرين فيه على ما ثبت وصح فى النصوص من دون حكاية ما زاده القصاص :

انفصل نبى الله يونس عن قومه مغاضبا ظانا أن الله غير مؤاخذ له ، وظل سائرا كهيئة الهارب حتى بلغ شاطىء البحر ، فركب سفينة مشحونة للسفر . وفى أثناء مخر هذه السفينة فى البحر جرى من الأمر ما أدى الى الاقتراع والمساهمة بين ركابها ، فوقعت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه احد حيتانه ، ولم يخبرنا الوحى عن سبب خروجه من قومه مغاضبا ، وانما أشار تعالى بقوله : (فظن أن لن نقدر عليه) الى أن غضب يونس لم يكن مرضيا لله تعالى .

أما الاقتراع بين ركاب السفينة الذى ألجأ يونس الى القائه نفسه فى البحر ، فسببه — والله أعلم — اكتظاظ السفينة بركابها وأثقالها ، وغلبة العواصف واعتلاج الأمواج عليها ، فرأى أهلها أن يخففوا عنها فألقوا أثقالها ، ثم لما لم يف ذلك بالحاجة ، اضطروا أن يلقوا بعض الركاب أيضا، ورأوا من العدل أن يقترعوا بينهم على من يلقونه ، فأصابت القرعة يونس ، فألقى نفسه مكرها أو مختارا . ولم يكن وقوع القرعة عليه من دون سائر رفاقه ، والتقام الحوت له — أثرا من آثار الاتفاق المحض ، وانما هو لعمرى أثر من آثار المشيئة الالهية : ليكون ذلك جزاء لمغاضبته ، ومنبها له على فعلته . ثم ان يونس لما استقر فى بطن الحوت ، وتجرد بالكلية عن عالم الأسباب الى عالم الملكوت ، وشعر بخطر ما هو فيه ، وخطأ ماكان منه، انتبه الى وجوب الرجوع الى ربه بالتوبة والانابة ؛ فرفع صوته فى تلك الظلمات قائلا : (لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) . وكأن المعنى فى هذه الاستغاثة : انى يا رب قد ظلمت مذ غفلت عن بعض سننك الكونية فى ايمان الأمم وجحودها ، وانحطاطها وصعودها ، وانتعاشها وخمودها . فسألتك لأمتى « اهل نينوى » مالم تجر عادتك به ، وما هو مدابر لسننك الحكيمة ، ومشيئتك القديمة ؛ فسقتنى يا رب الى هذه الظلمات ، وجعلتنى فى هذا القبر المتحرك قبل ابان الممات ، منبها لى بذلك الى أن تأخير انتقامك عن قومى لم يكن ضعفا منك ، ولا عجزا عن تبديل السنن والنواميس الكونية ، وانما هو اطراد لها ، فلا يختل نظام الكائنات ، وتنبيه للبشر الى لزوم مراعاتها ، فلا يعتسفون المتاهات ، أو يقعون فى الضلالات . وانك يا رب اذا شئت غيرت سنن الكون ونواميسه ، كما غيرت نواميس الهواء والحياة والتنفس ودورة الدم فى الجسد ، مذ حفظت على حياتى ، ودبرت لى معيشتى وأنا فى بطن الحوت.

فلا غرو أن تكون تلك التسبيحة من سيدنا يونس ، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين ، خير وسيلة لقبول توبته وعفو الله عنه .

وقد ذكر الله فى كتابه فى تتمة خبر يونس هذا : أنه تعالى لبى دعوته ، وقبل توبته ، ولولا ذلك لبقى فى بطن الحوت الى يوم القيامة .

وقد الهم تعالى ذلك الحوت فنبذ يونس الى أرض فضاء لا سترة فيها سوى شجرة من فصيلة النباتات التى لا ساق لها مما يمتد على وجه الأرض : كالقثاء والبطيخ والقرع ، وهو الذى غلب عليه فى أيامنا اسم اليقطين ، فالله أعلم أية ذلك كانت تلك الشجرة اليقطينية . غير أن قوله تعالى (وانبتنا عليه) يشعر بأن تلك الشجرة قد تعرشت على قائم شاخص كجذع شجرة مثلا بحيث أمكن ليونس ان يأوى اليها ، ويستقر تحتها . ويشير السياق الى أنه قد انتفع بها . ولم يصرح الكتاب بأية الطرائق كان ذلك الانتفاع . ولعل قوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) يشير الى أن الانتفاع كان علاجا لسقمه . ثم ان يونس رجع بعد ذلك الى قومه الذين فارقهم مغاضبا، فآمنوا به ، وتلقوا الهداية عنه ، حتى أذن الله بانقراضهم .

هذا هو خبر سيدنا يونس حسبما أخذناه من النصوص الصحيحة ، وليس فيه ما يستبعد وقوعه،

وَبِهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

اللهم الا التقام الحوت له ، ومكثه فى بطنه حينا من الزمن حيا يرزق ، ثم نبذه فى ذلك الفضاء .

على انه ان حق لاهل القرون الماضية أن يستبعدوا خبر صاحب الحوت ، فلا يحق لأبناء عصرنا ذلك الاستبعاد ، بعد أن رأوا بأعينهم سبح الكثيرين منهم فى بطون الغواصات أياما متطاولات ، تحت البحار الطاميات ، وطيرانهم مثل ذلك فى أجواز السموات . فالاله الذى خلق العقل البشرى ، ومهد له سبيل الوصول الى مثل هذه العجائب ، ألا يكون قادرا على أن ييسر حصول مثله لعبده يونس ببعض الأسباب التى لم تزل مجهولة لنا ؟ ؟

هذا ما نقوله للمتسائل المتعجب . اما نحن معشر المسلمين فنؤمن بما ورد فى الكتاب مادام انه غير محال فى العقل ، ونرى أن الارتياب فيه لمخالفته نواميس المادة المعروفة اليوم لا يليق بمسلم يعتقد بخالق هذه المادة ، ومبدع تلك النواميس .

اما ما روته الأسفار القديمة من خبر يونس الذى تسميه « يونان » فهو انه من بنى اسرائيل من قرية « مشهد » على مقربة من الناصرة ، قد أرسله الله الى الأشوريين فى نينوى نحو سنة ٨٢٥ قبل المسيح ، يدعوهم الى عبادة الله وحده ، فتقاعس يونس عن الذهاب اليهم ، بغضا فيهم ، وذهب الى يافا ، فركب سفينة مسافرة الى طرسوس « ترسيس » ، فأثار الله عليه انواء البحر قصاصا له . فلما ألقى النوتية القرعة ليعرفوا من هو السبب فى هذه المصيبة وقعت القرعة على يونس ، فاعترف بذنبه ، وقال لهم القونى ، فالقوه ، فابتلعه حوت ، وصلى وهو فى جوفه صلاته المعروفة ، وبعد ثلاثة أيام قذفه الحوت الى البر ، وكرر الله عليه الأمر بالذهاب الى نينوى وانذار أهلها ، فذهب اليهم ، وانذرهم الهلاك بعد أربعين يوما ، فآمنوا وتابوا ، فمنع الله عنهم الهلاك الموعود ، فغضب يونس لظنه أن ربه جعله كاذبا فى نظر الأشوريين ، أو لأنه تعالى عفا عن القوم ولم يعذبهم ، وخرج يونس من نينوى ، واتخذ لنفسه مظلة جلس تحتها ريثما يرى ماذا يصيب المدينة ، فأنبت الله يقطينة عرشت على المظلة ، ووقته حر الشمس ، فسر يونس بها لكنها لما يبست ، ولذعه الحر ، تمنى لو مات واستراح ، فأوحى الله اليه : « يا يونس ! أشفقت على اليقطينة ، التى لم تربها ، ولم تتعب عليها ، وهى بنت ليلتها ، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى فيها اثنتا عشرة ربوة (١) من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم ، عدا ما فيها من البهائم الكثيرة » ! ! ! فخجل يونس من هذا التأنيب ورجع الى بلاده ، فاعتزل مع أمه فى محل قريب من « صور » حتى مات ، وبين بيروت وصيدا اليوم مزار يقال له « النبى يونس » وعلى مقربة من نينوى تل يسمى « تل النبى يونس » و « تل التوبة » .

قالوا : وأما الحوت الذى ابتلعه فلا يعرف نوعه ، وذهب الكثيرون الى انه من النوع المسمى كلب البحر ، وقد عثر على واحد من هذا النوع عند رأس بيروت طوله عشرون قدما كما عثر على واحد آخر فى جزيرة القديسة « مرغريت » فى فرنسا وفى بطنه فرس كامل الأعضاء ، فلا يستغرب اذن أن يبلع الحوت المذكور يونان النبى ا هـ .

وفيما ذكرته هذه الأسفار من خبر يونس ما لا يجوز لنا معشر المسلمين التصديق به مثل امتناعه عليه السلام عن تبليغ الرسالة الى الأشوريين بغضا فيهم ، ومثل غضبه على ربه لأنه عفا عنهم .

(ان) هذه هى المؤكدة ، كانت مشددة فخففت ، وبعد التخفيف بطل عملها وبقى تأكيدها . واللام فى **(ليزلقونك)** هى اللام الفارقة الدالة على كون (ان) هذه مؤكدة لا نافية .

ومعنى (يزلقونك) يجعلونك تزلق وتزل : زلقت قدمه زلت ، وزلقه غيره وازلقه أزله ، والموضع الذى تزلق فيه القدم وتزل يسمى « زلقا » و « زلا » . و (ليزلقونك) قرىء ثلاثيا ورباعيا . وهما بمعنى واحد كما قلنا . **وأزلق فلانا ببصره نظر اليه نظر** متسخط كاره ، كأنه من شدة التحديق اليه وفرط القاء النظر الشزر عليه يكاد يزلق قدمه ويرميه ، فتلك النظرات المعنوية أصبحت لشدتها وحدتها كأنها مادية محسوسة ، تصيب الشخص فتدفعه دفعا ، ثم تصرعه صرعا . ومنه قول الشاعر :

يتقارضون اذا التقوا فى موطن
نظرا يزل مواطىء الاقدام

والضمير فى **(سمعوا)** يرجع الى الكافرين المكذبين المتحدث عنهم من أول السورة . و **(الذكر)** هو الوحى والقرآن ، وسمى ذكرا لتضمنه موعظة وتذكيرا وارشادا .

---

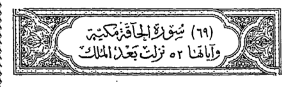
(١) الربوة بكسر الراء الجماعة العظيمة من الناس نحو عشرة آلاف . أما الربوة بفتح الراء فهى فى اصطلاح الحساب اليوم عشر كرات . والكرة عندهم مائة ألف . المؤلف .

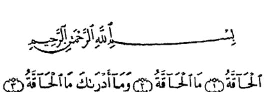
أمر الله نبيه بالصبر ، وانتظار حكم الله فى أعدائه الذين يبغون به العنت ، ويتقــولون عليه الاقاويل ، ووعظه بألا يكون كصــاحب الحوت فى الضجر وحب الانتقام من قومه . ولمــا جاء الى ختم السورة ختمها بما يذكر بفاتحتها ، ويربط نهايتها ببدايتها ، فكانت هذه الخاتمة كفذلكة الحساب ، تجمل ما تقدمها من التفصيل والاسهاب .

وبيان ذلك أن الله تعالى نفى فى أول السورة عن نبيه ما يرميه به مشركو مكة من الجنون والفتون ، حينما يسمعون منه تقبيح عبادتهم ، والتهكم بآلهتهم ، وما كان ينذرهم به من البعث والحســاب ، والجنة والنار ، وغريب أوصافهما . فكانوا يثيرون عليه صلى الله عليه وسلم جلبة وضجيجا ، ويصفونه بما هــو براء منه ، لتنصرف قلوب الناس عنه ، ولا يألون فى تكذيبه وانكار ما أتاهم به من الوحى والقــرآن . وكانت جميع آيات هذه السورة حوارا وجدالا مــع أولئك المكذبين ، وقد تضمنت من أساليب التذكير أبلغها ، ومن الأمثال أغربها وأعجبها ، كقصة أصحاب الجنة : ضربهم الله مثلا للمكذبين الذين كفروا نعمة الله عليهم ، وكخبر صاحب الحوت : ضربه الله مثلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، يحذره فيــه أن يفعل فعله .

ثم عاد فحقق أصــل الدعوى ، وأتى بنتيجـة مافصل من المقدمات ، فقال : (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك) الآية . والمعنى أن المكذبين انما يبغضونه صلى الله عليه وسلم ويحسدونه على ما اختصــه الله به من الوحى ، وآثره من النبوة والكرامة . فهم حينما يسمعون منه الذكر ، وهو القرآن يتلوه عليهم منذرا ومحذرا ، كانوا يوجهون اليه من شدة الغيظ والحنق نظرات أصبحت من حدتها وقوتها بحيث تكاد تصرعه صــلى الله عليه وسلم ، وتلقيه على الأرض . وهذا من أبلغ مايقال فى وصف نظر الغيظ والحقد .

وقوله تعالى **(ويقولون انه لمجنون)** أى يحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم على ما أوتى من فضيلة الوحى ، وكرامة النبوة ، وهم مع هذا يقولون عنه انه مجنون ، وهذا القرآن الذى جاءنا به من الهــذيان الذى يهذى به فى جنونه ، فكيف يتفق هذا القول مع نظراتهم الدالة على شدة غيظهم ، وفرط حنقهم ؟ ! ! وهل تشــغل النفوس بالحقد والحسـد ، وتســجر القلوب بنــار الغيظ والحرد على المجانين الى هــذا الحد ؟ . كلا ! ماهو عليه الصلاة والسلام بمجنون ، وما قرآنه والوحى المنزل عليه بهذيان ولا فتون ، **(وما هو الا ذكر للعالمين)** . والمشركون يعلمون ذلك ، لكنهم من فرط حسدهم وعداوتهم وحيرتهم يريدون أن ينفروا النــاس منه صــلى الله عليــه وســلم ، ويصرفوهم عن الاصــغاء الى ما أتى به من الحكمــة والهدى والحق ، فلم يجدوا أسهل من أن يقولوا : انه ــ وحاشاه ــ مجنون .





ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾

(الحاقة) تأنيث الحاق ، اسم فاعل من حق فلان الأمر بمعنى حققه وأوجبه وأثبته . واذا كان معنى (الحاقة) ماذكرنا كان لها موصوف ومفعول محذوفان . والتقدير الساعة الحاقة لأمور الحســاب ، ولمــا يتلو ذلك من الثواب والعقاب . فتلك الساعة ــ وهى يوم القيامة ــ تحقق كل ذلك وتثبته بحيث لا يعود يقع فيه ريب للمرتابين ، ولا تعلة للمــكذبين . ويقول الرجل لأصحابه اذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه : « انا أحق لكم هــذا الخبر » ، أى أعلمــه لكم ، وأقف على حقيقته .

وكما أن (حق) الثلاثى يكون متعديا بمعنى حقق يكون لازما بمعنى وجب وثبت وتحقق فى نفسه ، ومنه (حقت كلمة ربك) و (حقت عليهم كلمة العذاب) اى وجبت وثبتت . ويجوز تفسير (الحاقة) فى لآية بذلك ، ويكون معناها الساعة الثابتة المتحققة الوقوع .

وقد أصبحت (الحاقة) اسما من أسماء يوم القيامة ، ولم يعد يلاحظ فيها موصوفها ، كما أن (القارعة) و (الواقعة) و (الطامة) و (الصاخة) كذلك ، فكل هذه الأسماء كانت أوصافا ، ثم غلب استعمالها أسماء بل أعلاما ليوم القيامة .

وقوله **(ما الحاقة ؟)** استفهام يقصد به تهويل تلك الساعة التى سميت الحاقة ، كأنها لغرابة أمرها ، وفظاعة هولها أصبحت النفس من دهشتها تتساءل عنها قائلة : « ماهى تلك الحاقة ؟ » . وهذا كما اذا فاجأ المرء مصاب فادح ، فانه يلتفت الى جليسه قائلا : ما هذا ؟ مع أن المصاب يكون معلوما لهما ، بل يكون أحيانا تحت مواقع أبصارهما .

وكان الظاهر أن يقول «ماهى ؟» مكان (ما الحاقة ؟) لــكنه عدل عنه الى الاسم الظاهر لزيادة التهويل به فوق التهويل بالاستفهام . أما اعرابه : فالحاقة مبتدأ ، وقوله (ما الحاقة) ما استفهامية خبر مقدم والحاقة مبتــدأ مؤخر ، والجملة منهما خبر للحاقة الأولى ، والحاقة الثانية بمنزلة الضمير والكناية عن الحــاقة الأولى ، كأنه يقول « الحاقة ما هى ؟ » كما يقال : « زيد ما زيد ؟ » اى ان أمره عجيب ، ومثل الآية فى العدول الى الظاهر قول أم زرع فى حديثها المشهور : « أبو زرع وما أبو زرع » ، « أم أبى زرع فما أم أبى

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾

زرع ؟ » ، « ابن أبى زرع فما ابن أبى زرع ؟ » وهكذا، والمعنى أن أمر ذلك عجيب ، وشأنه مستغرب .

ثم عاد الوحى فاستفهم معجبا من أمر الحاقة على اسلوب ابلغ فقال : **(وما أدراك ما الحاقة ! !)** كأنه يقول : انه لا أحد يدرى أمرها ، أو يقدر أن يحيط وهمه بما هى عليه من الفخامة ، وجلالة الشأن . واذا كان الخطاب فى (وما أدراك) لمطلق انسان ، الشامل للمكذبين للقيامة - يكون فيه تعريض بالمكذب ، وانه يكذب بما لايعلمه ، ولا يقدر على اكتناه أمره . والاستفهام فى هذا الأسلوب جار على عادة العرب فى التخاطب ، والا فان العليم الخبير سبحانه وتعالى لا يجهل حتى يستفهم .

قبل أن يأتى الوحى على وصف تلك الساعة واخبارها ، وما يكون فيها لفريقى الأبرار والفجار - ذكر للمخاطبين موجزا من اخبار بعض الامم الماضية الذين كذبوا بها فهلكوا ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين بها من مشركى العرب ، فقال : **(كذبت ثمود وعاد بالقارعة)** ، وكان الظاهر أن يقول مكان (بالقارعة) : (بها) ، اى بالحاقة ، لأن الحديث عنها ، وتكذيب عاد وثمود انما هو بها ، لكنه عدل عن ضميرها الى اسمها الظاهر توصلا الى نعتها بوصف آخر غير (الحاقة) وهو أنها (القارعة) التى تقرع القلوب بهجومها ، ومفاجأة أهوالها .

و (القرع) ضرب الشىء الصلب والنقر عليه بشىء مثله ، يقال : قرع الباب والناقوس ، وقرع رأسه بالعصا ، وقرع السهم الهدف ، وهكذا ، واذا فجأ الهول القلب اضطرب ووجب كأن قارعا قرعه . على أن الساعة كما تقرع القلوب والنفوس بالافزاع ،تقرع الأرض والسموات بالدك والنسف والانصداع ، فهى القارعة بالمعنى الأعم الأشمل .

و (ثمود) و (عاد) من قبائل العرب البائدة ، وكل هذه القبائل عند العرب من نسل ارم ، فهم ارميون اى آراميون كما نسميهم اليوم . ويقولون «عاد ارم» و « ثمود ارم » تمييزا لهم بهذا الوصف عن غيرهم ، أو كشفا لهم ، فتعرف به نسبتهم .

وفى التوراة أن عادا وثمود تنتسبان الى آرام بن سام بن نوح عليه السلام ، فثمود جد قبيلة ثمود هو ابن « جاشر بن آرام » ويسميهما مؤرخو العرب « كاثر بن ارم » ، وعاد جد قبيلة عاد هو ابن« عوص ابن آرام » .

وكانت القبيلتان تسكنان اليمن ، ثم أن ملوكها الحميريين طردوا ثمود منها فسكنت الحجر من بلاد الحجاز فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى الى مكة، وتمر بها السكة الحجازية ، وهى مدائن صالح المشهورة ذات البيوت المنحوتة فى الجبال نحتا فى غاية الاحكام وحسن الصنعة ، وكان اليهود يسكنونها قبل ظهور الاسلام .

وقد أرسل الله الى قوم ثمود سكان هذه المدائن نبيا منهم ، وهو سيدنا صالح عليه السلام ، وكان صالح فيما يقال على طريقة سيدنا المسيح ، يمشى حافيا ، ولا يتخذ حذاء ، ويعيش متقشفا فلا يتبوأ مسكنا ولا بيتا ، ثم ان قومه كذبوه ، وعقروا ناقته ، واغرقوا فى الكفر والجحود حتى أهلكهم الله . وقد قص تعالى علينا أخبارهم فى غير موضع من كتابه ، وذكر فى هذه السورة موجزا من طريقة هلاكهم .

أما أبناء عمهم (عاد) فكانوا يسكنون الأحقاف من بلاد اليمن ، والحقف فى اللغة الرمل المستطيل المعوج، وهذه الأحقاف كانت ممتدة فى بلاد حضرموت بين عمان شرقا ، وبلاد اليمن غربا ، وساحل بحر العرب جنوبا . ويوجد فى تلك البلاد على كثرة رمالها جبال وأودية من أخصب بلاد الله ، ذات مياه وأشجار وزروع ، لاسيما فى نواحى حضرموت والشحر من بلاد اليمن ، وكانت « عاد ارم » تسكن فى تلك الجهات، وكانوا فيما يقال نحو ثلاث عشرة قبيلة فطغوا وبغوا ، فأرسل الله اليهم هودا عليه السلام ، فحذرهم وانذرهم ، فكذبوه وتمردوا عليه ، ثم كان من أمر هلاكهم أخيرا ماقصه الله علينا فى هذه السورة .

ويقول علماء الآثار اليوم (1) ان مؤرخى اليونان ذكروا فى جملة قبائل اليمن حوالى ميلاد المسيح قبيلة يكتبونها بلفتهم هكذا (Adramitai) أى العادراميون ، ولا غرو أن يكون العادراميون هؤلاء هم الذين سماهم العرب « عاد ارم » أو «عاد آرام» .

قالوا : وأما قبيلة ثمود فذكرت فى جملة البلاد التى غلبها « سرجون » ملك أشور سنة ٧١٥ قبل المسيح ، وكانت بجوار مكة فى الجهة الجنوبية من مدائن صالح ، وذكر مؤرخو اليونان ثمود حوالى زمن المسيح وبعده ، وجعلوا منازلها المدائن المذكورة ، ويسمونها ثمودينى (Thamudini) .

ودخلت « مدائن صالح » فى حوزة ملوك بطرا « أو البتراء وهى وادى موسى » قبل المسيح ، وقد وجد على أطلال المدائن كتابات ونقوش تدل على هذا المعنى ، ودونك هذا المثال من تلك الكتابات بالحرف النبطى وتاريخه حوالى عهد المسيح :

« هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلبية ابنتها لأنفسهن وذريتهن ، فى شهر طيبة من السنة التاسعة للحرث ملك النبطيين ، محب شعبه ، فعسى ذو الشرى وعرشه (؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أويدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها ، ومن يخالف

(1) ملخص من كتاب (العرب قبل الاسلام)

ما كتب عليه فليلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها الف درهم حارثى ، الا من كان بيده اذن من يد كمكم أو كلبية ابنتها بشأن هذا القبر ، والاذن المذكور يجب أن يكون صحيحا ، صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة اهـ ».

واللغة المنقوشة على أطلال مدائن صالح آرامية مثل لغة « بطرا » النبطية ، وكأن ثمود سكان هذه المدائن كانوا يستعملون لغة سادتهم النبطيين وكتابتهم أحيانا ، والا فان لغة ثمود الأصلية هى لغة بلادهم « اليمن » التى هاجروا منها ، أعنى اللغة الحميرية،وكتابتهم بالحرف المسند الحميرى لا النبطى. وقد عثروا على فروع من القلم المسند فى عدة أماكن من بلاد الحجاز ، أهمها ماوجد فى « العلاء » جنوبى مدائن صالح ، أوائل الميلاد . من ذلك :

١ ـ كتابة سموها « لحيانية » مذ رأوا فيها أسماء ملوك لحيان الذين يظن انهم بقايا قبيلة ثمود .
٢ ـ كتابة سموها « ثمودية » وهى تختلف عن « اللحيانية » بعض الاختلاف .
٣ ـ كتابة سموها « صفوية » وهى التى وجدوها فى جبل الصفا بحوران .

(الطاغية) من الطغيان : الافراط ومجاوزة الحد وهى صفة لمحذوف . كأنه يقول : اخذوا بأخذة من اخذات العذاب جاوزت كل حد فى عنفها وشدتها .

وقد كانت تلك الأخذة صيحة من السماء : امتلخت (١) قلوبهم ، وأهمدت نفوسهم ، بدليل ماجاء فى سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ويعنى بالذين ظلموا قوم صالح عليه السلام . والكتاب لم يعين هذه الصيحة ، ولم يفصل أمرها بأكثر من وصفها بالطغيان ومجاوزة الحد ، كما قال فى آيتنا التى نفسرها . وقد قال فى سورة الشعراء (فأخذهم العذاب) ، وفى سورة الفجر (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، وفى سورة الشمس (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) ، ومعنى (دمدم عليهم) أهلكهم ، ومعنى (فسواها) سوى قبيلة ثمود بالأرض ودمرها ، أو سوى بين آحادها فى لحاق العذاب بهم ، فلم يفلت منهم أحد .

أما السبب الذى أخذ به قوم صالح هذه الأخذة فهو تكذيبهم لنبيهم ، ومخالفتهم أمر الله فيما امتحنهم به ، من أمر الناقة . فقد أمرهم أن لايمسوها بسوء ، ثم يكون لهم شرب ، أى يوم يشربون فيه من المورد كفايتهم ، ولها هى يوم تشرب فيه وحدها ، على أن يملئوا فى يومها كل وعاء واناء لهم من لبنها .

ثم ان جهلة القوم برموا بالناقة وشربها، وحرمانهم الماء فى يومها ، فانبعث أشقاهم فعقرها ، ولم يأخذ قومه على يده ويمنعوه من جرمه ، فنسب العقر اليهم كلهم ، لرضاهم به وسكوتهم عليه ، فعمهم العذاب ، واخذوا بهذه الأخذة الطاغية التى جاوزت الحد المعتاد فى القوة والاشتداد ، كما جاوزوا هم الحد فى المخالفة والعناد .

(١) (امتلخت) انتزعت .

هذا ذنب ثمود وعذابهم . **(وأما)** أبناء عمهم **(عاد)** ـ وهم الذين يسمون أيضا « عاد أرم » و « ارم ذات العماد » ، والعماد الأبنية الرفيعة ، وسيأتى وصف أبنيتهم ، أو هو كناية عن قوتهم ومنعتهم وعلو جانبهم ، وقلنا ان مساكنهم الأحقاف من بلاد حضرموت ـ فقد وصف الله فى غير ما موضع من كتابه مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم لنبيهم هود عليه السلام ، واستخفافهم به ، وبالأوامر الالهية التى كان يبلغهم اياها ، وهم الذين كانوا يقولون له : (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) مذ كان يقول لهم : (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) .

وقد انضم الى كفرهم هذا بالله مآثم ومناكر غاية فى البشاعة : من ذلك أنهم كانوا يبنون قصورهم على قارعة الطريق وفوهات المعابر ، وكانوا يتنافسون فى بناء تلك القصور وتشييدها حتى يصبح القصر آية وعلامة على عظمة صاحبه ومبلغه من الغنى والثروة ، وتفوقه على أبناء عشيرته. فكانت تلك القصور وسيلة للمباهاة والتفاخر وتأريث الفتن والعداوات ، ولم يكن لهم فى تلك القصور عمل سوى العبث واللعب والافساد فى الأرض . فكان بعضهم يتخذ فى أعلاها أبراجا للحمام ويضيع الوقت سدى فى اطارته ، وايذاء الجيران به . وكان آخرون يطلون من قصورهم على الغادين والرائحين ، من تجار وأكارين ، فيعبثون بهم ، ويدبون بالأذى اليهم . وكان بعضهم يرصد الذين يفدون على نبيهم هود للايمان به ، وتلقى الهداية من قبله ، فيتناولونهم بأنواع السباب والشتائم ، ويحولون بينهم وبين مايريدون من الايمان بهود عليه السلام . وكل ماذكرنا هو عبثهم الذى كان يوبخهم عليه سيدنا هود مذ يقول لهم : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) ثم يقول : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ، أى تبنون المبانى المتينة من دور وقصور وحصون وصهاريج للماء ، حاسبين أنكم تعيشون الى الأبد ولا يدرككم الموت وأنتم فى تلك القصور المشيدة ، وتنجون من عذاب الله على فظائعكم وآثامكم ؟؟ وأشد ماكان يوبخهم عليه نبيهم أنهم كانوا اذا غضبوا على احد من الناس بادروا الى تعذيبه ، والايقاع به ، قتلا بالسيوف أو جلدا بالسياط ، من غير تفكير ولا تدبر فى العواقب، وقد لايكون للمسكين ذنب يستحق عليه كل هذا العقاب ، فكان نبيهم هود يقول لهم معددا فظائعهم (واذا بطشتم بطشتم جبارين) .

هذا ما قصه الله علينا من خبر هذه الأمة العاتية . فلا بدع اذا أنزل بها شديد عقابه ، وأليم عذابه ، مذ قال تعالى واصفا ذلك فى كتابه **(وأما عاد فأهلكوا)** الآية . و (الصرصر) وصف للريح يجمع بين شدة صوت هبوبها فى الآذان ، وشدة لذع بردها على الأبدان ، فان من معانى هذه المادة (الصر) الصوت الشديد . يقال : (صر صرا وصريرا) ، والبرد الشديد يقال (ريح صر) اذا كانت شديدة باردة . وقوله **(عاتية)** العتو فى الرجال : مجاوزة الحد فى الكبر والبطش وقسوة القلب . والعتو فى الرياح : مجاوزة

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ

الحد فى العصف والهبوب وقهر من اراد التوقى منها بحيلة ما : فهى تدمر عليه مكمنه ، أو تنتزعه منه بلا رحمة ، وفوق ذلك هى عقيم ، لاتلقح شجرا ، ولا تبقى ثمرا .

هذه الريح التى ارسلها الله على عاد **(سخرها عليهم)** أى سلطها وجعلها مسخرة لأمره فى ابادتهم ، والانتقام منهم مدة **(سبع ليال وثمانية أيام حسوما)**.

و (الحسم) فى اللغة يدور حول ثلاثة معان :

١ ــ القطع باستئصال . يقال (احسم العرق) اى انزعه من اصله ، ثم اكوه لئلا يسيل دمه .

٢ ــ الشؤم الذى لايكون معه خير . ومنه (أيام حسوم) أى تحسم الخير والبركة عن أهلها ، وهو يرجع الى المعنى الأول .

٣ ــ الدؤوب فى العمل والأخذ فيه من دون فتور ، وهو يرجع الى المعنى الأول أيضا ، لان الذى يريد حسم العرق مثلا يتابع العمل ويعيد الكى على العرق المرة بعد المرة حتى ينحسم .

وقد وصفت تلك الريح بكونها (حسوما) وفسروها بكل هذه المعانى ، فهى قد استأصلت القوم وأبادت خضراءهم ، وكانت شؤما عليهم مذ استأصلتهم ، وكانت فى الحاحها فى عملها وابادتها دائبة متتابعة لم يعترها فتور ولا ونى .

ولفظ (حسوم) اما مصدر كجلوس ، وهو راجع الى الريح أو الى الأيام والليالى ، ويكون التقدير : بريح ذات حسوم ، أو أيام وليال ذوات حسوم . أوهو جمع حاسم كجلوس وشهود جمع جالس وشاهد ، فيكون حينئذ من صفة الليالى والأيام .

ويقال : ان هذه الأيام هى المعروفة الى اليوم بأيام العجوز، تأتى فى أواخر فصل الشتاء ويشتد فيها البرد: أربعة من آخر شباط (فبراير) ، وثلاثة من أول آذار (مارس) . سميت بذلك ــ فيما زعموا ــ لأن عجوزا من قوم عاد المذكورين توارت من خوف الهلكة فى سرب فانتزعتها الريح الصرصر فى اليوم الثامن فأماتتها .

وقيل أن اسمها (أيام العجز) أى أيام آخر الشتاء ، فان عجز الشىء مؤخره . ثم حرفوها وقالوا (أيام العجوز) قال صاحب التاج : والصحيح انها (عجوز) بالواو كما فى دواوين اللغة قاطبة .

و **(صرعى)** مطروحين على الأرض . و **(أعجاز النخل)** اصولها وجذوعها . و **(خاوية)** نخرة فارغة تأكل جوفها وبلى وتفتت ، فما أسرع أن سقطت على الأرض .

هذه الجذوع النخرة الممددة هنا وهناك هى مثال طبق لقوم عاد ، مذ صرعتهم الريح الصرصر فى أفنية دورهم ، وعراص مساكنهم ، مبعثرين مبددين . وانك لو طفت معابدهم ، وجست خلال دورهم ، بعد أن فعلت الريح بهم مافعلت ــ **(فهل)** كنت **(ترى لهم من باقية)** ، أى بقية أفلتت من الهلاك؟ او المعنى هل كنت ترى لهم نفسا باقية لم يشملها الهلاك ؟ ؟

قوله : **(وجاء فرعون)** معطوف على قوله تعالى : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) . بعد أن وصف الوحى موجزا من هلاك عاد وثمود ذكر طوائف من أمم قديمة أخرى كان من خبرها وتكذيبها مثل ما كان من خبر عاد وثمود ، فعد منها(فرعون) ويعنى فرعون وقومه ، وقد اجتزأ عن ذكرهم بذكره ، اذ كان رئيسهم ، وولى أمرهم ، كما اقتصر عليه أيضا فى قوله : **(هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود)** . ولو قال قائل : ان المراد بفرعون الفرعونيون أى المصريون القدماء المنسوبون اليه ــ ماكان مباعدا ، كتميم مثلا فانه فى الأصل اسم لجد القبيلة ، ثم غلب عليها كلها .

وقوله : **(ومن قبله)** قبل بفتح القاف وسكون الباء ، أى وجاء أيضا من الأمم من كان قبل فرعون وسبقه فى الزمن . ولم يعين الكتاب لنا هذه الأمم السابقة ، وما علينا الا نعلمهم ونعنى بتعيينهم . وقد مثل لهم بعض المفسرين بقوم نوح وقوم نمرود .

وقرأ بعض القراء (ومن قبله) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى جاء فرعون والذين هم عنده وجهته ، يعنى جنوده وأتباعه المقيمين حيث أقام ، والراحلين حيث رحل . يقال (أتانى من قبل فلان رسالة) أى من عنده أو من جهته . و (لى قبل فلان دين) أى عنده . ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله بن مسعود وابى بن كعب (وجاء فرعون ومن معه) ، ولا يكون معه الا جنوده وأتباعه ، وهو معنى (ومن قبله) . ويشهد لها أيضا قراءة أبى موسى الأشعرى (وجاء فرعون ومن تلقاءه) . و (تلقاء) بمعنى (لقاء) فى الأصل ثم توسع فيها فصارت بمعنى (عند) و (جهة) .

(والمؤتفكات) جمع المؤتفكة أى المنقلبة ، وموصوفها محذوف ، أى القرى المنقلبات أو الأراضى المنقلبات . يقال ائتفكت البلدة بأهلها اذا انقلبت ، ومنه الافك ، بمعنى الكذب لأن الكاذب يقلب الحقيقة ، ويظهرها فى غير صورتها الصحيحة . والمراد بالمؤتفكات مدن قوم لوط التى انقلبت عليهم ، وصار عاليها سافلها ، بما

كانوا يرتكبون من الفجور والمنكر. والذى جاء بالخاطئة أهل المؤتفكات لاهى ، لكن تجوز بها عنهم اعتمادا على فهم السامع على حد قوله تعالى (واسأل القرية) أى أهلها .

ويقال ان البحيرة التى تسمى اليوم بحيرة لوط والبحر الميت ـ تغمر الأماكن التى كانت قائمة فيها قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم ، وعمورة ، وادمة ، وصبوييم ، وبالع وتسمى صوغر . ولما أراد الله اهلاك هذه القرى أمطرت بحمم النار والكبريت ، وتغشتها سحب من الأبخرة المنبعثة من جوف الأرض ، ثم تحللت تلك الأبخرة الى ماء كريه الطعم ، استنقع فى ذلك الغور ، وتكونت منه تلك البحيرة .

و **(الخاطئة)** صفة لمحذوف ، أى بالفعلة الخاطئة ، أو الأفعال الخاطئة ، أى ذات الخطيئة والاثم والذنب . يقال : خطىء ، اذا اثم واذنب فهو خاطىء ، وقال بعض أهل اللغة : لا يكون ذلك الا عن عمد وتصميم ، بخلاف أخطأ فهو مخطىء ، فانه الذى يفعل الشر غير متعمد له . والخطأ من أخطأ ، والخطيئة من خطىء .

وقوله **(أخذة رابية)** أى شديدة زائدة فى شدتها ، من ربا اذا زاد ونما وتضاعف عدده أو حجمه ، فهذه الأخذة التى نزلت بقوم فرعون مذ اغرقوا فى اليم ، وبقوم لوط مذ قلبت بهم قراهم ، وتراكمت عليها الحمم وحجارة الكبريت وسحب الأبخرة ـ كانت ولا ريب أخذة زاد فيها العذاب ونما ، واشتد بها الكرب على الفريقين وطما .

ولا حاجة الى ذكر ماجاء به قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام ، وعصيان موسى ولوط عليهما السلام ، ووصف ما كان من أمرهم ، والعذاب الذى نزل بهم ، فهو على الاجمال معروف ، وقد ذكر فى التنزيل أكثر من مرة . غير أنا نذكر موجزا من تاريخ حياة (لوط) حسبما ورد فى الأسفار القديمة : قالوا : هو ابن حاران أخى ابراهيم الخليل عليه السلام ، وقد هاجر مع عمه ابراهيم من بلاد مابين النهرين الى أرض الميعاد (فلسطين) ، وبعد رجوع ابراهيم من مصر كانت مواشيه ومواشى لوط قد ازدادت جدا ، وكثر الخصام بين رعاتها ، فاقترح ابراهيم على لوط أن يفترقا منعا للنزاع والخصام ، وخير ابراهيم لوطا فى الأرض التى يريدها ، فاختار دائرة نهر الأردن بقرب سدوم وعمورة . ثم غزا (كدر لاعومر) ملك عيلام هذه المدن ، وأذل ملوكها ، واسر طائفة من سكانها ، كان فيهم لوط عليه السلام ، وافلت من القوم من أخبر سيدنا ابراهيم بهذه النازلة ، فأسرع بثلاثمائة وثمانية عشر من أهله وحشمه عدا حلفائه الآموريين وجد فى اثر الغزاة حتى أدركهم بالقرب من بانياس فى قضاء القنيطرة من ملحقات دمشق ، فنازلهم وشتت شملهم ، ثم تبعهم الى (صوبا) فى محل قرية (المزة) على مقربة من دمشق كما حققه بعضهم ، وهناك استرد الأسلاب ، وانقذ الأسرى ولوطا ابن أخيه ، ثم كان ماكان من أمر القرى الخمس وتدمير الله لها ، فانتقل لوط الى جبال (موآب) فتوطنها ، ثم كانت من بعده لنسله الموآبيين والعمونيين .

قص الوحى علينا أخبار الأمم المكذبة المذكورة ، وحلول العقوبة الالهية بها ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين من قريش . وقد قدم هذه الأخبار بين يدى ذكر يوم القيامة ، وما يحدث فيه من الأهوال ، بعد أن افتتح السورة بوصف يدل على هول ذلك اليوم ، وعظم أمره . وكانت تلك الأخبار تذكر على نسق واحد ، لكنه لما انتهى الحديث الى خبر أمة نوح عليه السلام وهلاكها بالطوفان خالف فى الأسلوب ، ولون الخطاب بلون آخر ، وبدل أن يقول مثلا : ان قوم نوح كذبوا فاغرقوا بالطوفان ـ وجه الخطاب الى مكذبى قريش الذين هم من سلالة الناجين من الغرق مع نوح ، مذكرا لهم بنعمته على آبائهم . ويكون فى ايراده الكلام على هذا الأسلوب قد جمع بين خبر الفجار المغرقين ، وخبر الأبرار الناجين ، كما قرن بين تحذير مكذبى قريش أن يصيبهم ما أصاب أولئك المغرقين ، وبين الامتنان عليهم بحمل آبائهم فى السفينة ، فكان ذلك سببا لنجاتهم ، وانتشارهم فى الأرض ، وبثهم ذرياتهم فى جنباتها . وكان مكذبو قريش المخاطبون ـ من هذه الذريات ، أفما كان الواجب عليهم أن يدعوا العناد والتكذيب ، ويشكروا الله الذى مهد لهم سبيل الوجود بهذا التدبير العجيب ؟ وقد خالف فى أسلوب الكلام على هذه السورة لينتقل بذلك الى البعث وأحواله ، ووصف يوم القيامة وأهواله .

ومعنى **(طغى الماء)** : طما وارتفع وتجاوز حده المعروف ، وطاف على الأرض اليابسة فغمرها ، وكان منه الطوفان الذى أباد الله به أهل ذلك الزمان .

وقوله **(حملناكم)** أى أنتم يامعشر قريش المخاطبين اليوم ، وانما جعل حمل أجدادهم حملا لهم ، لأن أولئك الآباء كانوا جرثومة لهؤلاء الأبناء ، ففى حفظ الجرثومة حفظ لقوتها النامية بل حفظ لما فى طيها من الذرارى الكامنة ، وهذه الذرارى العاقلة يجب عليها أن تشكر للذى حفظ أصلها ، وصان جرثومتها من الضياع والفناء ، فكان ذلك سببا لوجودها وتمتعها بالحياة والنماء ، و **(الجارية)** السفينة .

وقوله **(لنجعلها)** أى لنجعل السفينة ، وقصتها العجيبة ، أو لنجعل تلك الفعلة ، وهى نجاة الأبرار ، وهلاك الفجار ، **(تذكرة)** عبرة وعظة تحملكم أيها المكذبون على التوبة والانابة وترك التكذيب . **(وتعيها أذن واعية)** ، أى ولأجل أن تحفظ تلك التذكرة وما تتضمنه من الموعظة والعبرة ـ اذن حافظة لها . والمراد بحفظها تعقلها وتدبرها والانتفاع بها فى اجتناب الفسوق والعصيان ، واتباع سبيل أهل التقى والايمان . وقد أراد بالاذن صاحبها لا الجارحة نفسها ، وتكرها وجعلها واحدة للاشارة الى أن الآذان التى تعى الحكم والمواعظ وعى تدبر وانتفاع ـ قليلة النسبة الى التى لاتعى ولا تتدبر . على أن فى تنكيرها المفيد لتقليلها ايذانا بتعظيم شأن تلك الآذان القليلة وتفخيم أمرها ،

فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ

وانها على قلتها هى الكثيرة الطائلة والقوة العاملة ، على حد قول القائل :

يا خالدا يا خالدا الفـا وتدعى واحدا

هذا هو وصف يوم القيامة الموعود به ، والمرموز اليه من أول السورة بقوله تعـالى (الحاقة ما الحاقة) والذى كذبت به تلك الأمم ، فأهلكها الله جزاء تكذيبها، وحذر قريشا أن تسلك مسلكها فى التكذيب ، فيصيبها ما اصابها .

و (النفخ فى الصور) فى لسان الشرع : قد يكون تمثيلا وتصويرا لبعث الأموات وانبعاثهم من أرماسهم بسرعة تحكى سرعة المجتمعين وقد هتف بهـم مـن بوق عظيم ، وهذه (النفخة الواحدة) هى النفخـة الثانية أو الدعوة الثانية التى يكون من أثرها صعق الخلائق وخمود حياتها ، وخراب الكائنات ووقوف حركاتها (١) ، والا فأنه يسبقها نفخة أولى أو دعـوة أولى يكون من أثرها ذعـر الخلائق واضطرابهـم ، واختلاط حابلهم بنابلهم . ونحن نـؤمن بذلك كله حسبما ورد فى الشرع . أما التعمق والتطلع لمعـرفة ما وراءه فهذا ما لم تكلفه رحمة بنا ، وأن البحث فيه مضلة ، والسؤال عن كنهه مخرقة .

(وحملت الأرض والجبال) أى رفعتا وسـيرتا ، كما قال تعالى فى سورة التكوير : (واذا الجبال سيرت) .

والتثنيـة فى قوله (دكتـا) باعتبار أن (الأرض) و (الجبال) مجموعتان متمايزتان : مجموعة الأراضى المنبسطة التى هى السهـول ، ومجمـوعة الأراضى المرتفعة التى هى الجبال والحزون . فقوله (دكتا) أى هاتان المجموعتان ، سهولا وحزونا ، هدتا وسويتا على تسطيح واحد .

(والدك) والدق متقاربان ، غير أن الدك أبلغ ، وهو أن تأتى الى حائط أو كومة مرتفعة مختلطة بحجر ومدر وتراب مثلا فتضربها بعضها ببعض ، وترصها رصا منكرا بحيث يتكون منها بقعة ممهدة السطح لا تضاريس فيها ولا اعوجاج، ولا ارتفاع ولا انخفاض. واحسب أن الباعة والتجار كانوا يفعـلون ذلك مـن التسوية والرص والدك فى البقعة التى يفرشون عليها بضائعهم فى جنبات الطريق ، يعرضونها تحت أنظار المارة والمشترين ، وكانوا يسمونها دكانا ، ثم شاعت هذه الكلمة حتى صارت تطلق على المكان الذى يبيع فيه التاجر أشياءه ولو لم يكن للدك فيه أثر .

وقوله **(دكة واحدة)** أى أصبحت الأرض والجبال بعد دكهما كتلة واحدة لا ميزة فيها لأرض على جبل ، ولا لجبل على أرض . أما هذان : الرفع والدك اللذان وصفناهما فبأية قوة كانا ؟ لم يذكر الله فى كتابه الا انهما حصلا ، وبديهى أن ذلك يكون بقدرة الله مباشرة من غير سبب ظاهر ، أو بواسطة سبب أو ناموس . الله أعلم بما يكون من ذلك .

وقوله : **(فيومئذ وقعت الواقعة)** ، أى ويوم أن يقع ماذكر من النفخ والحمل والدك ـ تكون قد وقعت الواقعة وحقت الحاقة ، وقامت القيامة التى كنتم تكذبون بها أيها المكذبون .

ثم ذكر الوحى بقية مايقع فى ذلك اليوم من تخريب العالم العلوى بعد أن ذكر تخريب العالم السفلى فقال : **(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية)** . وانشقاقهـا كناية عن انصداعها ، وتبدل أوضاعها، وذلك بأن يسلب الله منها ذلك الناموس الأعظـم الذى كان يمسـكها ، ويربط بين أجزائها ، فلا يبقى جزء منها مستقرا فى مكانه ، ولا كوكب من كواكبها على المعهود من حركته ودورانه ، وهذا معنى (واهيـة) : باليـة متداعيـة لاتماسك فيها .

واذا كانت أرضنا على صغرها وحقـارة أمرهـا بالنسـبة الى العالم العلوى ـ قد خلق الله فيها أنواعا من المخلوقات ، وصنوفا من الأحيـاء التى أرقاهـا الانسان ـ أفيدع سبحانه تلك السموات العلى مجردة عن خلائق يذرؤهم فيها ، يصـلون له ، ويمجـدون اسمه ؟ كلا ، وقد ورد الشرع بتسمية هذه الخلائق السماوية (ملائكة) .

فكيف تكون حال هذه الملائكة فى ذلك اليوم : يوم القيامة ، وقد انشقت السماء التى تقلهـم ، وتقطعت أوصـال الأجـرام التى تضمهـم ؟ ؟ قال تعـالى : **(والملك على أرجائها)** .

---

(١) روى عن ابن عباس أن المراد بهذه النفخة ، النفخة الاولى التى يكون عندها خراب العالم ، وعن ابن المسيب ومقاتل : أنها النفخة الآخرة . وقد اقتصر ابن جرير على الاول ، ورجحـه الفخـر الرازى والآلوسى : قال الآلوسى : « والأول أولى ، لأنه المناسب لمـا بعد ، وان كانت الواو لا تدل عـلى الترتيب ؛ لـكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة اليه » . وقال الفخر الرازى: « فان قيل : لم قال بعد ذلك : يومئذ تعرضـون ـ والعرض انما يكون عند النفخة الثانية ـ قلنا : جعل اليوم اسـما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قال : يومئذ تعرضون ، كما تقول : جئته عام كذا ، وانما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته » . وقد جرى المؤلف فى كلامه على اعتبار النفخات ثلاثا ، وسيـأتى الكلام فيه . المصحح .

وقوله : (**والملك**) أي جماعة الملائكة ، فال فيه للاستغراق . وضمير (**ارجائها**) يرجع الى السماء التى قد تصدعت وتشققت . والمعنى أنه اذا لم تعد السماء بعد وهيها وانشقاقها صالحة لأن تكون مثابة وامنا لأولئك الملائكة ـ انتشروا هنا وهناك ، وانضووا الى أرجاء السماء أى أقطارها وجوانبها . وخراب المكان وتزعزع أركانه لا يستلزم الا تبقى له أرجاء ، فان (الرجا) الناحية والجانب ، وهو لازم للمكان من حيث هو مكان .

لاتكاد نفس السامع تصل الى هذه النقطة من وصف خراب العالم ، وانتكاث فتله ، وتعاظم هوله ـ حتى يتمثل لعينيه مبلغ السلطان الالهى ، وعظمة ذى الجبروت الأزلى ، فيشهد اذ ذاك أنه الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، وأن جميع ماتتابع على مسرح الوجود من هذه الخلائق لم تكن سوى خيال ، أو ظلال تقلصت اثر ظلال . والى هذا يشير تعالى فى قوله : (**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**) .

وضمير (فوقهم) يرجع الى الملك الذى قلنا انه أن كان مفردا فى لفظه فهو جمع فى معناه .

وهل المراد من كلمة (فوق) العلو والارتفاع ، أى ان ثمانية يحملون عرش الرب تعالى فى مكان فوق مكان الملائكة الذين على أرجاء السماء الواهية ؟ أم معنى (فوقهم) زيادة عليهم : كما تقول لآخر وقد أعطيته مئة درهم : (لك عندى فوقها مئة أخرى) ، وقد تقول (لك عندى وراءها مئة أخرى) ، وكلاهما بمعنى غيرها وزيادة عليها ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يحمل عرش الرب يومئذ ثمانية هم غير الملائكة الذين على الأرجاء وزيادة عليهم (١) .

أو ضمير (فوقهم) يرجع الى الثمانية الذين يحملون العرش ، وهو متأخر فى اللفظ لكنه متقدم فى الرتبة ، ويكون المعنى حينئذ : ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم ، فهم يحملونه فوق رءوسهم أو على ظهورهم ، وليس معلقا فى أيديهم مثلا .

والمراد من الثمانية مسكوت عنه ، فهم ثمانية ملائكة ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية قوات الهية أخرى تحمل عرش الرب فوق رءوس ملائكة الأرجاء ، أو تحمله زيادة عليهم ، بحيث يكون الجميع مشتركين فى الحمل ـ كل ذلك يحتمله لفظ الآية . فلا يحسن القطع بشىء منه .

أما (العرش) فى اللغة العربية فله معان غير السرير الذى تجلس عليه الملوك : منها العز والملك والسلطان ، ومنه قولهم « فلان ثل عرشه » يريدون زال ملكه ، وذهب سلطانه . وقال الشاعر : « تداركتما عبسا وقد ثل عرشها » ، أى ذهب عزها ، وضعف أمرها ، كما يقولون فى عكس ذلك « فلان توطد عرشه » ، أى استقر ملكه فى البلاد ، ورسخ سلطانه على العباد .

وحمل عرش الرب فى الآية قد يكون تمثيلا لكمال عزته سبحانه ، وانفراده بالجلالة والعزة والملك فى ذلك اليوم ، وأن تأثير هيبته سبحانه وتعالى فى القلوب فى ذلك اليوم يحكى تأثير ملوك الدنيا ـ وهم على عروشهم التى تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم ـ فى قلوب رعيتهم المستعبدين لهم . وأين هذا من ذاك ، ولله المثل الأعلى ، وانما هو تنزل لأفهام المخاطبين ، وافراغ للمعانى الغيبية فى قوالب ما ألفوه من تراكيب لغتهم العربية ، واصطلحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها . والا فان خالق الكون تقدست أسماؤه ليس جسما يحمل على العروش ، ولا مخلوقا تزدهيه الزخارف والنقوش .

وكل ماذكر فى هذه الآية من أمر تخريب الكائنات يوم القيامة ، ووصف أهواله ، وأحوال الملائكة فيه ، وما ينسب الى الذات المقدسة الالهية فى ذلك اليوم من الأوصاف والأطوار ـ نؤمن بما ورد منه فى القرآن ، وعلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام ، بعد التحقق من صحته ، من دون زيادة عليه ، ولا تفنن فى ايراده ، حسبما دل ظاهره ، ونكل أمر كنهه وحقيقته الى قائله ومنزله سبحانه ، ونجتهد فى أن نربى انفسنا التربية الدينية التى يرمى اليها الوحى السماوى والوعظ الالهى ، فنشعر قلوبنا الايمان والتقوى ، ونتمسك فى حب الخير والفضيلة وتجنب الشر والرذيلة بالسبب الأقوى ، مراقبين فى جميع أحوالنا جلال الله وعظمته ، محاذرين عقوبته وسطوته ، فى يوم تعرض فيه الخلائق ذلك العرض العظيم ، (يوم لاينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم) .

(**يومئذ**) ، أى فى ذلك اليوم الذى سبق وصفه . وانما أعاد ذكر كلمة (يومئذ) المرة بعد المرة خلال سرد أحوال ذلك اليوم ـ زيادة احضار له فى أذهان المخاطبين ، وتصويرا لهوله فى نفوسهم حتى كأنه ماثل أمام أعينهم .

(**تعرضون**) ، أى على ربكم أيها البشر للحساب ، وتوفية كل عامل جزاءه من خير وشر . ومن جملة البشر المخاطبين بهذا الخطاب أولئك المعاندون من مشركى مكة الذين ينكرون الرسالة ، ويكذبون بيوم الدين .

وهذه الآية كما قلنا لبيان الحساب والشروع فى اعماله بعد أن استوفت الآيات السابقة ذكر قيام الساعة ، وخراب العالم . وظاهر السياق أن كلا الأمرين ـ خراب الكون وعرض الخلائق للحساب ـ يقعان فى يوم واحد ، لكن هناك مايدل على أن العرض للحساب ومباشرة أعماله يكون وقته بعد الوقت الذى يحصل فيه خراب الكون بالنفخة الثانية ، فهما وقتان أو يومان ، فالنفخات ثلاث :

١ ـ نفخة الفزع الأكبر ، وقد أشير اليها فى آية النمل وهى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) .

٢ ـ نفخة الصعق ، وهى التى يكون بها موت الخلائق وخراب الكون ، والوقت خلال هاتين النفختين

---

(١) لا وجه لهذا القول فيما نرى ، فان اضافة عدد معلوم الى عدد مجهول يبقى معه المجموع مجهولا ، وحينئذ يخلو ذكر عدد الثمانية من الفائدة . المصحح .

كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ

من يوم القيامة ، وقد تكفلت الآيات السابقة ببيان ما يحصل فى هذا الوقت بضرب من الايجاز اعتمادا على آيات أخرى اتت على وصفه بأوفى بيـان .

٣ ـ نفخة البعث والنشور ، وقوله تعالى هنا (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) هو بيان لذلك وشروع فى وصف ما يقع بعد تلك النفخة الثالثة من العرض والحساب (١) .

ولم تذكر هذه النفخة صراحة لعلم المؤمن بها من آيات وأحاديث اخر . على ان الوقت منـذ النفخـة الأولى الى دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ـ يعتبر أحيانا كيوم واحد ، من حيث اتساق أحواله ، وتسلسل أهواله .

و (**العرض**) هنا معلوم المعنى ، وهو من عرض الجند على الأمير اذا مروا أمامه فتعهد أمرهم وتفقد أحوالهم .

وقوله (**خافية**) ، أى حالة خافية كنتم تسترونها عن الناس أيها البشر ، فهو سبحانه وتعالى لا تخفى عليه ، وانما هو عالم بأحوالكم ، محص لجميع أعمالكم ،

فيجازى كلا منكم بحسب عمله : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . وقد فصل ذلك بقوله : فأما من اوتى ... الآيات .

قوله : (**فأما الخ**) تفصيل لنتيجة العرض والحساب اللذين ارسلا مجملين فى الآية السابقة ، وقوله : (من أوتى) كناية عن المؤمن الناجى ، و (**كتابه**) صـحيفة عمله التى أثبت فيها ما قدم فى حياته الأولى من خير وعمل صـالح ، واعطاؤه كتابه بيمينـه كناية عن فوزه فى الحساب ونجاته يوم العرض .

و(**اليمين**) هى اليد اليمنى ، لكن العرب تكنى بها عن اليمين والخير والبركة والنجح فى الأمور . وأصل ذلك أنهم كانوا يستخيرون بزجر الطير واثارتها من وكناتها ومواقعها ، فاذا طار الطائر وأخذ ذات اليمين تفاءلوا وتيمنوا ومضـوا فى أعمالهم التى كانوا فيهـا مترددين ، وسموا ذلك الطائر سانحا ، واذا طار الى جهـة الشمال تشاءموا وتطيروا وأحجموا عن العمل ، وسموا ذلك الطائر بارحا . ولقد توسـعوا فى هـذا الاستعمال حتى سموا العمل نفسه باسم الطائر ومنـه قوله تعالى : (وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه) أى عمله ، فهو مطوق به يوم القيامة ، ولا طائر ثمة ، ولا طيران .

وكما كانوا يتيمنون باليد اليمنى والجهة اليمنى كانوا يتشاءمون باليد اليسرى وجهة اليسار والشمال ، بل سموا اليـد اليسرى والرجل اليسرى ـ شـؤمى ، فيقولون : « مضى فلان على شـؤمى يديه » أى من جهـة الشمال ، و « اعتمد على رجله الشـؤمى » اى وقف عليها .

وكل هذا من مسألة السانح والبارح فى زجر الطير والتكهن عن المستقبل بواسطته . ومن هذا الاستعمال قوله تعالى : (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ؟) : فالمشأمة والتشاؤم مأخوذ من اليد الشؤمى ، أى اليسرى ، كما أن الميمنة والتيامن من اليد اليمنى . والمراد من أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة : فريقا السعداء الميامين على أنفسهم ، والأشقياء المشائيم عليها .

وعلى هذا فقوله تعالى هنا (فأما من اوتى كتابه بيمينه) معناه أما من كان من فريق أهـل السعادة ، وقوله فى الآية الآتيـة (**وأما من أوتى كتابه بشماله**) معناه أما من كان من فريق أهل الشقاوة .

ومن قبيل اعطاء الكتاب بالشمال الدال على الشقاوة والخسران ـ اعطاء الكتاب من وراء الظهر فى آية (**وأما من أوتى كتابه وراء ظهره**) . وللظهر استعمالات مجازية جرى عليها التخاطب بين أهل اللسـان كما قلنـا فى اليمين والشمال : من ذلك قولهم « لاتجعل حاجتى منك بظهر » أى لا تنسها . وقوله تعالى : « **فنبذوه وراء ظهورهم** » ، أى أهملوا الميثاق ، ولم يفوا به .

ولا يخفى أن الوحى انمـا هو خطـاب الله للعرب مباشرة . ولا يصح أن يسمى خطابا لهم الا اذا كان واردا على أسلوبهم ، ومناحى كلامهم ، والا فلهم أن

---

(١) ماذهب اليه المؤلف : من عد النفخات ثلاثا ـ هو اختيار ابن العربى ، ونقل الآلوسى عن القاضى عياض أنها اربع ، واختار بعضهـم أنها اثنتان ، ثم اختلف هؤلاء فى نفخة الفزع : الأولى هى ام الثانية ؟

ونقول : انه لم يتعرض لعد النفخات فى الكتاب الكريم الا قوله تعالى (٦٨ : الزمر) : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون) وهو قاطع فى وقوع النفخ مرتين : مرة واحدة للصعق ، ومرة واحدة أخرى للبعث . وامور الآخرة مما لايثبت بغير دليل قاطع . فلا وجه للقـول بنفخة ثالثة هى نفخة الفزع . وقوله تعالى (٨٧ : النمل) : (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله) ـ ليس المراد به نفخة ثالثة ولا احدى النفختين السابقتين ، بل المراد به كل منهما ، فان النفخة الاولى تفزع الناس وتصعقهم ، والنفخة الثانية يقوم النـاس بها من قبـورهم مذعورين ، فالفزع واقع فى النفختين ، ولذلك عبر فى آية الفزع بالمضارع الذى يدل على تكرر الوقوع ، فهو يقول : « حين ينفخ فى الصـور يفزع الناس » . وانما قال فزع بصيغة الماضى للاشارة الى تحقق الفزع كلما حصل نفخ فى الصور . والله اعلم . اهـ : المصحح .

يقولوا له صلى الله عليه وسلم : مافهمنا ماتقول ، ولا ماتدعونا اليه ، ثم وجدوا من ذلك سبيلا الى الطعن فيه وفى رسالته. ولم ينقل الينا انهم طعنوا فى القرآن من جهة عدم فهمه ، وغموض أساليبه ، فدل هذا على ما قلنا . ونقل الأصمعى عن العرب أنهم يقولون : « فلان عندنا باليمين » أى بالمنزلة الحسنة ، و « فلان عندنا بالشمال » اذا خست منزلته . وقال الشاعر :

أبينى : أفى يمنى يديك جعلتنى
فأفرح أم صيرتنى بشمالك ؟

وسئل نفطويه عن قول جرير :

وانى لعف الفقر مشترك الغنى
سريع ــ اذا لم أرض دارى ــ احتماليا
وباسط خير فيكمو بيمينه
وقابض شر عنكمو بشماليا

فقال : ان العرب تنسب كل خير اليمين وكل شر الى الشمال ، ثم استشهد على ذلك بهذه الآية (فأما من أوتى الخ) .

وقول جرير (احتماليا) يريد به سفره وتنقله الى دار أخرى يرضاها ، وهو فاعل لقوله (سريع) .

أما أن الانسان يأتى يوم القيامة وأعماله محصاة عليه فى كتاب لايغادر منها صغيرة ولا كبيرة بحيث يضطر الى الاعتراف بها ــ فهذا مالا ريب فيه . وهو من عقائد الاسلام ، لكنا لانكلف معرفة ما اذا كان الكتاب على مثال اللوح أو الورق أو الرق أو غير ذلك، وما اذا كانت الكتابة بمداد وقلم أو بأداة أخرى ، وما اذا كان الخط بنقوش وحروف ، أو بتجلى الأعمال للعاملين ، وظهورها لهم ظهورا بينا كأنها مثبتة فى ضمائرهم ، ومنقوشة على ألواح نفوسهم : بحيث لا يقدرون على انكارها ، والتملص من تبعتها ، وهو المعنى الذى فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ــ كل ذلك لا يكلفه المسلم ، وانما يكلف اعتقاد صدق الخبر اجمالا ، ثم تفويض أمر تفصيله الى الله تعالى .

وقوله (**هاؤم**) اسم فعل أمر بمعنى خذوا خطابا للجمع ، وتقول لمفرد المذكر (هاء) بفتح الهمزة ، وللمؤنثة (هاء) بكسرها ، وللمثنى (هاؤما) ، وللنسوة (هاؤن) والهاء فى (**كتابيه**) و (**حسابيه**) و (**ماليه**) و (**سلطانيه**)هاء السكت، فيرتاح القارىء فى انقطاع نفسه عندها . ولا كذلك اذا وقف على ياء المتكلم مفتوحة ، لاسيما والآيات مراعى فيها الازدواج مع كلمات (راضيه) و (عاليه) و (خاليه) التى هاآتها هاآت تأنيث لا هاآت سكت .

وكان حق هاء السكت أن تحذف من الآيات حين الوصل ، لكنهم يؤثرون النطق بها فيه أيضا ، لكونها ثابتة كتابة فى المصحف الامام .

ومعنى (**ظننت**) هنا علمت وتيقنت ، اذ لايكتفى من المؤمن بالله أن يظن ملاقاته للحساب ظنا ، وانما يجب عليه أن يعتقده اعتقادا ، ولعل النكتة فى العدول عن التعبير بالعلم الى التعبير بالظن ، هى افادة أن مجرد الظن بيوم الحساب كاف فى حمل العبد على الايمان والطاعة ، فما بالك اذا كان يعلمه علما . ومن الظن بمعنى العلم قوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) .

وقد يقال : كيف تكون (العيشة راضية) ؟ وكيف يصح أن يتصور وقوع الرضا منها ؟ وأجيب بأن (راضية) بمعنى مرضية ، وانه اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل . وقالوا أن أكثر من يستعمل ذلك من أحياء العرب سكان الحجاز فيقولون « ماء دافق وسر كاتم » أى مدفوق ومكتوم ، وقيل هو من باب قولهم « لابن وتامر » ، يعنى أن صيغته هذه صيغة نسبة من دون الحاق يائها ، فمعنى « لابن » ذو لبن و « تامر » ذو تمر ، و « دارع » ذو درع ، و « نابل » ذو نبل . وهذا بدل ان تقول لبنى وتمرى ودرعى ونبلى . و (**راضية**) بمعنى ذات رضا ، أى أن الرضا واقع عليها لا منها .

والمحققون على أن (الراضية) هى العيشة نفسها، وأن نسبة الرضا اليها مجاز معهود مثله فى كلام العرب من حيث يقصد به المبالغة فى رضا صاحبها ، وأن الرضا تمكن من نفسه حتى انتقل أثره الى عيشته نفسها فأصبحت راضية أيضا .

و (**جنة عالية**) أى مرتفعة ارتفاعا حسيا ، فيكون ذلك أطيب لها وأكرم . أو المراد بعلوها علو شأنها ، وارتفاع قدرها ، وتنزهها عن النقص والسوء ، أو عن المشابه والنظير .

وقوله (**قطوفها دانية**) أى لا حائل يحول بين ثمار تلك الجنة وبدى جانيها كارتفاع وشوك مثلا ، وانما هى مهدلة قريبة من متناول الأيدى . و (**القطوف**) جمع قطف بكسر القاف : الثمر الذى نضج وحان زمن قطفه ،وقيل هو الثمر ساعة قطف.

والقارىء يفهم من سياق قوله (**كلوا واشربوا الخ**) ان قائلا يقول لهم ذلك يمتن به عليهم ، ويذكرهم بحسن صنيع الله بهم ، أو أنهم انفسهم يقول بعضهم لبعض ذلك تلذذا وتباهيا . ولا يخفى أن (من)فى قوله (فأما من أوتى) لفظه واحد لكن المراد به جماعة الناجين ذوى العيشة الراضية .

على أنه ليس المراد بـ (كلوا واشربوا) أمر أهل الجنة بالأكل والشرب فقط ، وانما هو أسلوب بليغ يقصد به الاباحة للمأمور أن يمرح فى النعيم ويتمتع بما فيه ، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه من دون معارض . ألا ترى أنك تعطى ابنك المطيع لك مالا وقصورا ودورا وحدائق ثم تقول له « اذهب يا بنى فكل واشرب وكن قرير العين بما أعطيتك جزاء برك بى ، وطاعتك لى » . وأنت لاتريد بأمره بالأكل والشرب الا اطلاق يده ، وتذكيره بالنعمة ، وطلب دوام شكره عليها . ويؤيد ذلك قوله بعده : (**بما أسلفتم فى الأيام الخالية**) أى تمتعوا بما أعطيتم بسبب ما كان منكم فى أيام حياتكم الماضية فى الدنيا. فباء (بما) متعلقة (بكلوا واشربوا) ، والمعنى تمتعوا

كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

وتلذذوا بالنعم الالهية التى من أجلها واعظمها القرب منه تعالى ، ورؤية وجهه الكريم . والا فأن مجرد الأكل والشرب لا يرضى بهما الكريم ثوابا لمن قام بما أمره به ، واجتنب ما نهاه عنه . ولعمرى أن الأكل والشرب فى الجنة من أقل ما يحتفل به فى مكافأة أهلها ، واثابتهم على ايمانهم وطاعتهم وحسن أعمالهم ، واذا لم ينتظر العاملون من دخول الجنة الا ان يأكلوا ويشربوا فما أخس جنتهم ! ! وما أخسر صفقتهم ! ! فعلى المؤمن المحمدى أن ينتبه لما قلنا ، وينسج على منواله فى فهم ماوردت به النصوص من هذا القبيل ، وتفسيره تفسيرا يلتحم مع ماتقرر فى الشرع وأيدته علوم الحقيقة ، وصرح به كبار علماء الاسلام كالغزالى : من أن المؤمن فى الجنة تتغلب فيه الروحانية على الجسمانية ، والنورانية على الظلمانية ، ويكون أكبر حظوظه وقتئذ التمتع بمعانى الأحدية ، والتلذذ بجمالها ، والاستغراق فى سبحات الذاتية ، والتخشع لجلالها ، والا فكيف يتمكن من الطيران ، ويدنو له البعيد ،ويختصر له الزمان، ويفعل مايريد. آمنا بالله ، وتقدست أسماء الله . وسيأتى لهذا البحث زيادة تفصيل فى الكلام على الآيات التى تصف نعيم الجنة وأسباب اللذوى فيها من سورة « هل اتى » .

ثم انتقل الى بيان ما يكون من نصيب الجاحد المكذب بعد حسابه وعرضه على ربه . وشأنه على العكس من شأن المؤمن . فهو ممن يؤتى كتابه بشماله، أى يكون من أهل الشقاء والخسران . وما قلناه فى تفسير (أوتى كتابه بيمينه) يقال فى تفسير **(أوتى كتابه بشماله)** . وهذا المكذب لا يلبث اذا علم أنه من فريق الأشقياء أن يحزن ويتحسر ويقول **(ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه)** كأنه يتمنى ألا يكون من فريق الأشقياء ، أو يتمنى الا يكون خلق ولا حوسب ، ولا أوتى كتابا ، ولا درى حسابا . على حد قوله فى آية أخرى (ياليتنى كنت ترابا) .

والضمير فى (يا ليتها) يرجع الى الموتة التى ماتها فى الدنيا ، فهو يسخط عليها لكونها لم تكن قاضية عليه الى الأبد ، فلا يحيا بعدها فى جهنم هذه الحياة المرة ، التى يموت فيها كل يوم الف مرة . ويحتمل أن يرجع الضمير الى الحالة السيئة التى أصبح فيها بعد البعث والحساب ، فهو يتمنى لو أن ماهو فيه من الشقاء والآلام يقضى عليه فيرتاح : يعنى أنه يتمنى الموت فى ذلك الوقت مع أن الموت كان أكره شىء عليه فى الحياة الدنيا .

ثم يتذكر ذلك المعذب من امر دنياه ورغده فيها ما يزيده حسرة وكآبة فيقول **(ما أغنى عنى ماليه)** ، فهو ينفى أن يكون ماله قدأغنى عنه شيئا ، أويستفهم استفهاما . والقصد منهما كليهما اظهار التأسف واللوعة ، وأن كنوزه التى جمعها فى دار الدنيا ، ولم يقم بحق الله فيها ــ لم تدفع عنه من أمر الله شيئا .

(هلك عنى سلطانيه) السلطان مصدر بمعنى السلطة ونفوذ الأمر ، كالغفران والرجحان . ومعنى (هلك عنى) غاب عنى وزال عنى . يقول ان ملكه وتسلطه الذى كان فى دار الدنيا ضل عنه وذهب فهو يتحسر ويتحزن ، لأنه شغل بملكه وسعة سلطانه عن طاعة ربه ، والعمل لآخرته .

وكان قتادة ينكر ان يكون تفسير الآية ما ذكر ويقول : « أما والله ما كل من دخل النار كان أمير قرية يجبيها » ، يريد أن قوله تعالى (هلك عنى سلطانيه) هو من مقول المكذبين سواء أكانوا سلاطين أم غير سلاطين . وغير السلاطين من سائر الناس لا يمكن ان يقولوا (هلك عنى سلطانيه) بمعنى الملك والتسلط على الرعية ، وانما السلطان هنا القدرة والطاقة أو الحجة والبينة ، ولا جرم أن كل واحد من فريق أهل الشقاء يقول هذا القول ويتحسر لبطلان حجته التى كان يحتج بها فى الدنيا وعدم نفعها فى درء العذاب عنه فى ذلك اليوم .

وقد يقال : قلما يوجد فى الدنيا من لم يكن له شىء من السلطة على غيره ولو على زوجته وولده كما قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، فالمعذب فى الآخرة يتذكر أنه كان ذا سلطة يمكنه أن يستعملها فى الخير والطاعة ورضاء الله عز وجل ، لكنه بالعكس استعملها فى الشر والفساد ، فهو يحزن ويتحسر لذلك .

يحكى أن عضد الدولة بن بويه نظم شعرا جاء فيه قوله فى صفة نفسه :

عضد الدولة وابن ركنها   ملك الأملاك غلاب القدر

ثم أصيب بعد بشىء من الخبل والوسواس وفساد المزاج ، فكان لاينطلق لسانه الا بقوله : « ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » وجعل يرددها الى أن مات سنة ٣٧٢ هـ .

وكما يقال لفريق السعداء أصحاب العيشة الراضية من الكلام ما تطيب به انفسهم ، وتهنأ معه معيشتهم مثل (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) ــ يقال لفريق أهل الشقاء من كلم التحقير والتعيير ما يزيد به شقاؤهم ، ويعظم معه بلاؤهم : من ذلك أن يقول قائل على مسمع من أحدهم : **(خذوه فغلوه)** أى ضعوا فى يديه ورجليه

الغل ، والغل مايكبل به الاسير من القيود والسلاسل.

و (**الجحيم**) أشد أماكن النار تأججا . و (**صلوه**) بفتح الصادمن التصلية ، وهي حرق الشيء على النار: أي اجعلوه في الجحيم يصلاها : أي يحترق بها ، ويقاسي حرها . و (السلسلة) هنا هي الغل ، والمراد من كونها سبعين ذراعا أنها طويلة جدا . وعدد (السبعين) يستعمل في كلام العرب عند ارادة الكثرة، وعليه قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقوله (**فاسلكوه**) أي فادخلوه بين ثناياها وأطوائها . وانما قال ذلك لأن السلسلة لطولها والتواء بعض اطرافها على بعض تكون كأنها وعاء يدخل فيه ذلك المعذب . وسلك الشيء في الشيء : أدخله فيه كما تدخل اليد في الجيب ، والخيط في خرم الابرة .

وقدم (الجحيم) على (صلوه) و (في سلسلة الخ) على (فاسلكوه) لمراعاة الفواصل ، أو لارادة الحصر : كأن المعنى انكم أيها المأمورون بعذاب ذلك الجاحد لا يسمح لكم أن توردوه من طبقات النار الا اشدها حرا ، وأقواها اشتعالا ، ولا أن تعذبوه من آلات العذاب الا بأعظمها هولا ، وأبينها طولا .

قالوا : و (ثم) في الآية ليست لافادة الترتيب في الزمان ، وانما هي لافادة التفاوت في المرتبة فيستفاد منها أن المتأخر في الذكر أهم وأكمل في نوعه مما قبله.

ولنا ان نقول ان سلكه في السلسلة هو نفس تغليله في الغل ، فما القصد من التكرير ؟ وقد يجاب بأنهم امروا أولا بسوقه الى الجحيم مغلولا وهناك يعاد تكبيله بكبل أطول وأعظم ، وعلى هذا لايبعد أن يكون قد لوحظ في (ثم) افادة التراخي الزماني : فهو يغل اولا ويقاد الى الجحيم فتمر عليه وهو يقاد اليها مدة يظنها لطولها سنين ، ثم اذا ورد الجحيم تمر عليه مدة طويلة ايضا قبل أن يكبل بالسلسلة فيحسب أن ماهو فيه من العذاب آخر ألوانه . حتى اذا سلكوه في تلك السلسلة عرف أن هناك أنواعا منه اشد هولا ، فيشتد حزنه ويعظم كربه .

وبعد فان ما أتى على ذكره كتاب الله من وصف دار النعيم والمنعمين،ودار العذاب والمعذبين ــ انما هو تنزل في الخطاب الى مااعتدناه من الأساليب ، وتقريب لحقائق الغيب في مألوف التراكيب ، والا فان افهامنا ذلك بالكنه والحقيقة متعذر مادام العالم الأخروى مباينا لعالمنا في سننه ونواميسه وطبيعته التي ركبها الله فيه ، وكما يستحيل على الكاتب ــ مهما تفنن في الوصف ــ أن يفهم غلاما فاقدا احدى الملذوذات الجسدية حقيقة تلك اللذة قبل بلوغه زمنها ، كذلك يستحيل علينا ان نفهم حقيقة نعيم الدار الآخرة وعذابها قبل بلوغنا زمنهما .

ثم ان عجزنا عن تعقل الجنة والنار بكنههما وحقيقتهما لايستلزم انتفاء وجودهما مادام الوارد بشأنهما غير محال عقلا ، اذ كم من امر ثابت الوجودفي دنيانا هذه ، بل يكون علمنا به بديهيا أحيانا ــ لانقدر أن نتعقله بكنهه ، وانما نتعقله بأثره الصادر عنه والدال عليه . لا نمثل لك بالكهربائية والأثير والمادة وأجزائها الفردة التي تتركب منها مما لايزال مجهول الحقيقة في العلم الطبيعي ، وانما نحيلك على نفسك التي بين جنبيك ، فانك بالطبع تعترف بأنها موجودة ، لكنك تعجز وتفحم اذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا الى كنه أمرها ، وحقيقة سرها . وكل ما تقدر عليه من التعريف بها ،هو قولك انى أريد وافعل ، وأهم وأعمل، وأنسى وأتذكر ، وأفكر وأتصور ، وكل ذلك لايكون الا بقوة موجودة بالفعل في بدني ــ تصدر عنها تلك الآثار الموجودة ، اذ لايصدر موجود عن معدوم ، ولا سيما أن تلك القوة اذا زايلت بدني لم تعد تلك الآثار تصدر عنها ، مع أن البدن سالم لم ينقص منه شيء . تأمل يا أخي هذا ! ثم اعترف معي بأن للدين مجهولات كما أن للعلم مجهولات ، وأنه ليس من الانصاف أن نطاطىء رءوسنا بين يدي الثانية ، ثم نشمخ بأنوفنا أمام الأولى .

قوله (**انه كان لايؤمن بالله**) الخ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر ــ كأن قائلا يقول : ولم استحق كل هذا العذاب يارب ؟ قال : (انه كان لايؤمن ... ولا يحض ..) الخ ..

والايمان بالله أصل في سلامة العقائد ، كما أن العطف على المساكين ومواساتهم بفضل المال اصل في سلامة الاخلاق . ومن ثم قرن الله بين الأمرين في هذه الآية ، وقال ان السبب في تعذيب ذلك المعذب هو كفره وشحه : خلو نفسه من التصديق والايمان ، وخلو قلبه من الرحمة والحنان ، وهذا كما قرن الكتاب مرارا بين الصلاة والزكاة ، فان الصلاة من أكبر آيات الايمان ، كما أن الزكاة من أكبر آيات الرحمة وحب الاحسان .

ولم يعذب الله هذا المعذب بتركه اطعام المساكين ، بل بتركه حض الآخرين على اطعامهم . فانظر كيف ان الاسلام لم يكتف من المؤمنين بأن يحبوا المساكين ، ويعطفوا عليهم ، ويحسنوا اليهم فقط، بل هو يأمرهم بأن يأمروا غيرهم أيضا ، ويحضوا المتقاعدين عن ذلك حضا .

ومن مظاهر الحض وصوره أن يدعو المسلم اخوانه المؤمنين اليه ، ويكلفهم مساعدته فيما يبغيه : من العناية بالفقراء ، وازاحة عللهم ، وتيسير أسباب المعيشة عليهم،وتمهيد طرق الحياة الطيبة بين أيديهم . فان الكتاب ان كان اقتصر من ضروب العناية بالفقراء على ذكر الطعام وحده ، فانما ذكره كنموذج ومثال، والا فالاسلام يأمر بايوائهم والباسهم ، وقاية لهم من أذى البرد، ويأمر بتعليمهم وارشادهم الى مابه صلاح دينهم ودنياهم من علم وصناعة. يدلك على هذا ماقاله المفسرون في قوله تعالى : (واما السائل فلا تنهر) : ان السائل يشمل سائل العلم المحتاج الى المعرفة كما يشمل سائل الصدقة ، بل خصه بعضهم بطالب العلم

بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾

وقال : (أما انه ليس بالسائل المستجدى ، ولكن طالب العلم اذا جاءك فلا تنهره) .

واذا دعا المؤمن اخوانه المؤمنين الى ماقلنا من التعاون فى شأن الفقراء والمساكين على الوجه الذى يكون فيه سداد من عوز أبدانهم ونفوسهم — كانت دعوته هذه هى الحض الذى أوعد الكتاب على تركه هذا الوعيد الشديد .

ثم اذا دعا واجابه اخوانه وعملوا باشارته من التزام العناية بالفقراء آنا فآنا — كانت عنايتهم هذه واجتماعهم عليها هى ما يسميه أهل هذا العصر (الجمعيات الخيرية) و (جمعيات البر والاحسان) و (جمعيات التعاون) . فاذا قلنا لاخواننا المسلمين : ان كتابنا السماوى يرصد لنا الوعيد على تركنا تأليف (جمعيات زكاة) يمكننا بواسطتها انتشال اخوتنا الفقراء من مهاوى التعاسات — لم نرد أن القرآن وضع لذلك قانونا سرد فيه الأعمال مادة مادة ، وانما أردنا أنه رمز وأشار ، وأمر بالقياس والاعتبار ، وأن نراعى فى أعمالنا ومساعينا اختلاف الاعصار والامصار .

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا
واللحن يفهمه ذوو الألباب

وأن الناقص الايمان ، الذى كان من آيات نقص ايمانه قسوته على المساكين ، واهمال امرهم ، وتركه الحض على مواساتهم وسد خلتهم — لجدير بمقت الله وغضبه ، وأن تسوء والعياذ بالله عاقبته ، فلا يكون له فى النشأة الأخرى (**حميم**) أى قريب أو صديق يهتم بأمره ، أو يدفع عنه ، أو يغيثه مما هو فيه من البلاء والشقاء ، ليكون ذلك جزاء له من مثل عمله : تخلى عن اخوانه الفقراء فى دنياه ، فتخلى اخوانه عنه فى آخرته . تصام عن سماع شكوى أولئك الفقراء فى هذا اليوم ، فتصام أخلاؤه عن شكواه يوم القيامة . منعهم نثارة خزائنه ، وفتات موائده فى دنياه ، فحرمه الله شهى الطعام فى آخرته — فلم يكن له (**طعام**) يومئذ (**الا من غسلين**) . قال قتادة : « هو شر الطعام وأخبثه وأبشعه » . ولعله انما سمي بذلك من الغسل ، لأن شر الطعام وأقذره هو البقية التى تعلق فى صحاف الموائد بعد الفراغ من أكل ماكان فيها ، فتسلت تلك الفضلة ، وتغسل منها الصحاف . فهذه الفضلات الخبيثة التى تشمئز منها النفوس الكريمة ، هى التى يستحق ان يطعمها ذلك الباخل على الفقراء بالطعام ، حتى اضطرهم الجوع الى ارتكاب الشرور والآثام . وطعامه هذا (**لا ياكله الا الخاطئون**) المذنبون قساة القلوب امثاله . و (الخاطىء) متعمد الخطيئة وهى الاثم والذنب ، بخلاف (المخطىء) فانه من الخطأ . وليس المخطأ بائم ولا ذنب ، وانما هو ماعفا الله عنه ، وقد مرت الاشارة الى الفرق بينهما .

و (طعام) فى قوله (ولا يحض على طعام المسكين) اسم مصدر من قولك أطعمه اطعاما وطعاما ، كما يقال اعطاه اعطاء وعطاء . اما (طعام) فى قوله (ولا طعام الا من غسلين) فهو نفس ما يؤكل ، وانما قلنا أن (اطعام المسكين) بمعنى اطعام ، لأن الحض انما يكون على الفعل لا على الاسم ، فتقول (أحضك باهدأ على اطعام المسكين) ولا تقول (احضك على رغيف المسكين) الا على تقدير مضاف ، والاصل عدم التقدير .

ومن لطيف آداب العرب أنهم كانوا يستبشعون الحدة والنزق وشكاسة الأخلاق الا فى الحض على الاستعداد للضيوف وتهيئة الطعام للعفاة والمساكين ، فان الحدة وشراسة الأخلاق تكون اذ ذاك محمودة ، ومن ذلك قول شاعرهم :

اذا نزل الأضياف كان عزورا
على الحى حتى تستقل مراجله

يقول : ان ذلك السيد يكون وقت نزول الأضياف به غضوبا شرسا سيىء الأخلاق على رجال الحى : يحضهم على تهيئة مايلزم لهؤلاء الضيفان ومداركة أسباب راحتهم ، وتعجيل الطعام اليهم ، لئلا يكونوا جياعا فيمنعهم الحياء عن طلبه . ولا يزال ذلك السيد فى غضبه وحدته حتى تستقل قدوره ، أى تعلو ، وتقوم على مواقد النيران ، وهناك يهدأ باله ، ويسكن غضبه .

ومما يروى عن السلف من الرقائق والتأدب بآداب القرآن ، أن أبا الدرداء الصحابى الجليل رضي الله عنه كان يحض امراته على الاستكثار من مرق الطعام ليوسع به على المساكين ، ويقول لها : (آمنا بالله فخلعنا نصف السلسلة الطويلة التى قال الله انها معدة للذين لا يؤمنون بالله العظيم ، أفلا نخلع نصفها الآخر بالحض على طعام هؤلاء المساكين ، فنخرج من عداد الذين لايحضون على طعام المسكين ؟ ؟) .

ثم شرع فى تقريع مشركي العرب على تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : أخبرناكم اولا خبر

الأمم القديمة التى كذبت بالحاقة ويوم العرض والحساب فأهلكناها واذقناها وبال أمرها ، ثم قفينا على ذلك بخبر يوم الحساب نفسه ، ووصف هوله ومايكون فيه لفريقى الأبرار والفجار من النعيم والعذاب المقيم ، ويوشك أن يكون كل ماقلناه غير بالغ مبلغه فى قلوبكم ، ولا مؤثر اثره فى نفوسكم ، عنادا منكم لنبيكم ولجاجا فى مقاومته وتكذيبه ، قائلين عنه تارة انه شاعر ، وطورا أن قوله قول كاهن . **(فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون انه لقول رسول كريم الخ)** .

وقد مر فى (ن . والقلم) بيان الحكمة فى أن الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته ، ونسمعه هنا يقول جل وعز : (فلا أقسم) فكيف ذلك ؟ يقول بعضهم : ان المنفى (بلا) ليس القسم ، وانما المنفى محذوف مفهوم مما سبق : تقديره (فلا) معنى لتكذيبكم بالقرآن ، ولا الأمر ماتقولونه عن محمد صلى الله عليه وسلم انه شاعر أو كاهن ، ثم استأنف فقال : (اقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) . وعلى هذا يكون أفضل للقارىء أن يقف على (فلا) وقفة خفيفة ليشعر السامع بما ذكرنا من المعنى . وذهب المحققون الى أن (لا) نافية للقسم ، وأنه تعالى يخبرنا بأنه لايحلف بما ذكر : كأنه يقول : أن القضية المتنازع فيها — وهى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعى من النبوة والوحى — هى من الظهور والثبوت بحيث لاتحتاج الى الحلف عليها . وهذا الأسلوب مألوف حتى فى تخاطب أهل زماننا ، فيقول أحدهم للاخر فى أمر مهم يريد أن يثبته له : لاحاجة للحلف أو لا لزوم للحلف ، ثم يستأنف فيقول : ان الأمر كيت وكيت .

أما قوله (ما تبصرون وما لاتبصرون) فالأقرب أن يكون المراد به ماترون ويقع تحت أبصاركم من عالم الشهادة ، ومالا ترون ولا يقع تحت أبصاركم من عالم الغيب ، فهو تحقيق لعالم الغيب ، وتعظيم لشأنه . وفى القسم بالأمرين معا اشارة الى ان كل ماخلق الله وما لم يخلق ، مما نرى وما لانرى ، هو عظيم الخطر جليل الشأن ، حقيق بالتأمل فيه ، واذا كان المتكلم يدخل فى عموم كلامه كما ذهب اليه بعض الأصوليين ، تكون الذات الأحدية داخلة فى عموم ما لانبصره من عالم الغيب ، ويكون تعالى قد أقسم لنا بذاته العلية على رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وصدق دعواه .

(انه) اى القرآن **(لقول رسول)** اى قول محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى انه قوله ، أنه قاله بلسانه لكم مبلغا . بعد أن القى فى روعه وحيا ، والا فان القرآن كلام الله . وفى اضافة القول اليه صلى الله عليه وسلم بعنوان أنه رسول لا باسمه العلمى وهو محمد — ما يدفع الشبهة المذكورة ، وذلك لأن قول الرسول هو فى الواقع ونفس الأمر قول صادر عن مرسله ، وانما الرسول مبلغ له .

وقد نفى الكتاب أن يكون القرآن (قول شاعر) أو (قول كاهن) .

و (الشاعر) معروف . أما (الكاهن) فهو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومطالعة الغيب ، ورجل مثل هذا اعتاد أن يطيل الفكر والاستغراق ، ويكثر التطلع الى ما وراء عالم الحس — قد تبرق له بارقة خيال من ذلك العالم ، فيقرن بها أمثالها ويقيس عليها أشباهها ، ثم يخبر بها ، فيرى أحيانا فى أخباره وميض من الحق ومسحة من الصدق . هؤلاء الكهان وجدوا فى بلاد العرب قبل البعثة ، ولكن كانت اخلاقهم واطوارهم وهموم أنفسهم ليست على شيء من الطهارة والنزاهة ، وحب الخير وممارسة الفضيلة وامحاض العبادة ، وتبليغ الخلق وحيا قامت التجربة على نفعه فى تحسين حال الجماعات البشرية ، وتأثيره فى نقلهم من طور الهمجية الى أعلى أطوار المدنية . وانما كل مايصدر عن أحد أولئك الكهان سجعات ظاهرة الركاكة والتعسف ، تتضمن معانى بادية التصنع والتكلف ، فما أبين بطلان ما كان يقوله المشركون من أنه صلى الله عليه وسلم كاهن ! وما أوهن الاحتجاج به !

اما قولهم عنه انه شاعر فبطلانه أظهر ، وبهتانهم فيه أكبر ، لأن اخلاق الشعراء وأساليبهم فى كلامهم ، ومراميهم فى حياتهم — تنم عنها أشعارهم وقصائدهم ومعلقاتهم ، فلا غرو أن يوبخ الكتاب أولئك الزاعمين هذه المزاعم فيه صلى الله عليه وسلم ، ويقول لهم : **(قليلا ما تؤمنون ... قليلا ما تذكرون)** أى أنتم قوم أصحاب عناد وباطل: ماتت عاطفة الفكر والذكر من قلوبكم ، فلا تؤمنون بالله ، ولا تحدثون فى أنفسكم ذكرى تؤدى بكم الى الاعتبار والاتعاظ . فقوله (قليلا) و (قليلا) لافادة نفى أصل الايمان ، ونفى أصل التذكر ، وكثيرا ماتكون (القلة) فى كلام العرب بمعنى العدم المحض . وفى الحديث « انه كان يقل اللغو » أى لا يلغو صلى الله عليه وسلم أصلا. وشاهد ذلك قولهم « قل رجل يقول ذلك الا زيدا » أى ما رجل يقوله الا هو ، فلو لم تكن (قل) بمعنى النفى المحض ما صح الاستثناء منها ، فان الاستثناء معيار العموم كما تقرر فى علم الأصول .

واذا لم يكن القرآن قول شاعر ولا قول كاهن ، فهو **(تنزيل من رب العالمين)** أى وحى منه تعالى انزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فبلغكم اياه بقوله ولسانه . وأشار بقوله (رب العالمين) الى أن الاله الذى ربى البشر ، وأمدهم بضروب عنايته ، وغذاهم بصنوف نعمته — حقيق بأن يتعهدهم بوحيه على لسان رسله ، كى يبلغوا بهم غاية كمالهم ، ومحابح سعادتهم .

(ولو تقول علينا) . التقول : تكلف القول ، ويراد به التكذب والافتراء ، لأن القول الذى يكذب به قائله يتكلف له ، ويتصنع فى ايراده .

و **(الأقاويل)** جمع أقوال ، وأقوال جمع قول ، فهى جمع الجمع ، وغلب استعمالها فى الأقوال الكاذبة التى لا أصل لها . وجعلها بعضهم جمع (أقوولة)

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

وأن كانت (أقوولة) لم تستعمل. وهذه الصيغة أعنى (أفعولة) يراد بها صغر مسماها وحقارته غالبا ، مثل أضحوكة وأكذوبة واسطورة واعجوبة وأنشودة ، جمعها أضاحيك وأكاذيب وأساطير وأعاجيب وأناشيد ومثلها (أقاويل) .

و (اليمين) : اليد اليمنى . ويكون الأخذ بيمينه صلى الله عليه وسلم كناية عن التمكن منه ، والقدرة عليه ، فان من يضبط انسانا من يده اليمنى التى هى آلة بطشه يكون قادرا على منعه من الحركة والصيال . أو المراد باليمين القوة مرادا بها قوة الله وقدرته تعالى ، ويكون معنى **(لأخذنا منه باليمين)** لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا . و **(الوتين)** قال ابن سيده : « هو عرق لاصق بالقلب من باطنه اجمع ، يسقى العروق كلها الدم ، ويسقى اللحم ، وهو نهر الجسد » . وقال غيره : « هو نياط القلب وهو حبل الوريد ، اذا قطع مات صاحبه » فمعنى **(لقطعنا منه الوتين)** لعاجلناه بالعقوبة ولم ندعه حيا . وخص الوتين بالذكر من بين سائر أعضاء الجسد وعروقه لان طريقة الاماتة بقطعه أسرع الطرق واشدها اجهازا على الحياة .

وقوله **(حاجزين)** ، اى مانعين وحامين وحائلين بيننا وبين ما نريد منه . وكان الظاهر ان يقول : فما منكم من أحد أيها الناس عنه حاجزا ومانعا ، لأنه صفة لأحد وهو مفرد . لكن لما كانت (من أحد) نكرة مستغرقة فى العموم صارت بمعنى الجمع فوصفت بصفته .

ومعنى الآية انه تعالى يقول فى تبرئته نبيه صلى الله عليه وسلم مما رماه به المشركون ، وفى دحض دعواهم انه — وحاشاه — كذاب مفتر على الله : لو تعمد محمد كذبا علينا لكنا قادرين على أن نتمكن منه فضل تمكن ، ولكنا اهلكناه وقضينا عليه من وقته ، وما وجد أحد فى البشر يقدر على أن يحول بيننا وبين انفاذ مشيئتنا فيه .

لا يقال : انه قام فى أزمنة التاريخ المختلفة متنبئون لم يهلكهم الله ، بل بقيت أكاذيبهم ، وانتشرت أضاليلهم — لأنا نقول : انه قلما ظهر متنبىء كذاب الا سلط الله عليه من قتله وأخمد أنفاسه ، كما فعل فى مسيلمة الكذاب وأضرابه . وان بقيت لأحدهم دعوة فى الأرض فانما تبقى محصورة فى جهة منها وبين أقوام قليلين تعوزهم الأدلة والبراهين على صحة ما اتى به متنبؤهم لتكون مقبولة فى نفوس ذوى العقول السليمة . أما « بوذه » و « كنفوشيوس » و « زرادشت » الذين انتشرت تعاليمهم فى معظم آسيا ، واتبعهم نيف وسبعمائة مليون من أهلها ، أى نحو نصف العالم الانسانى — فقد يكونون انبياء صادقين، ولم يرد فى الشرع نص صريح ينفى نبوتهم . واذا كان فى أديانهم المنسوبة اليهم اليوم ما هو ظاهر الوضع والبطلان فيكون مما دس عليهم ، واخترعته مخيلات أتباعهم ، ولم تسلم من مثله الأديان السماوية المشهورة .

ويمكن أن يقال : ليس معنى (أخذنا منه باليمين . وقطعنا منه الوتين) تعجيل العقوبة له صلى الله عليه وسلم والقضاء على حياته ، وانما المراد أنه لو كان كاذبا لكنا عجلنا له عقوبة أمثاله من المتنبئين الكاذبين، فنميت ذكره ، ونطفىء دعوته ، ونلاشى ما أتى به . ولا ريب ان معاجلته بالعقوبة على هذه الصورة هو قضاء عليه ، واهلاك له . لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كذابا ولا مفتاتا على ربه ، فمن أجل ذلك لم يضع ذكره بل رفعه ، ولم يحرج صدره بل شرحه ، ولم يمت دعوته بل أحياها ، ولم يلاش امته بل نماها، حتى كان لها من حظ الانتشار والعزة ما لم يكن لسواها .

ان دعوة رجل واحد يهتف بها فى منقطع العمران، فيلبيها ملايين وملايين من البشر ، ويكون من أثرها قيام دين كريم ، ونهوض ملك عظيم ، ونشوء حضارة لم تزل معالمها ناطقة بمجدها الى اليوم — دعوة هذا شأنها لايتصور فى العقل أن تكون كاذبة مفتراة على الله . ولو كانت كاذبة كما يقولون ما استتب لدعوة سماوية غيرها أن تثبت وجودها ، وتبرهن على صدقها . اذ لم نر لدعوة أخرى سواها من الأثر فى تربية الأمم ، ونشر العلم والحض على العمل الصالح، والتزام العدل المطلق — ما رأيناه لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام . فهل يتمخض الباطل عن نتائج خير من نتاج الحق ؟ ويثمر الكذب من النمو الطيب ما لا يثمره الصدق ؟ ؟

اما اذا قيل انه قد قامت فى العصور المتأخرة مدنيات عظيمة فى قوتها ، عظيمة فى أعمالها ، عظيمة فى آثارها ، لم تقم بعنوان اسلامى، ولا هى مما اسس على الدعوة المحمدية ، وقد قضت هذه المدنيات الحديثة على الجماعات الاسلامية ومدنياتها المتوارثة حتى غشاها من أمرها ماغشى — فانى أقول : لو قام اليوم من تحت الأرض قائم كريم ، ثم طاف معالم المدنيات الاسلامية ، ومساكن الأمم المنسوبة الى الاسلام — لأنكرها كلها ، اللهم الا كلمة الشهادة ، ومراسم العبادة. ولو طاف هو نفسه المدنيات الحديثة ،

ومساكن أهلها ــ لاعترف بها كلها ، اللهم الا ما ظهر بطله ، واستبان فحشه ، ويفكر أهله أنفسهم فى النزوع عنه ، والتخلص منه .

ولو هبط هابط من فوق السماء ، ثم طاف مدنيات الأمم المنسوبة اليه ، وتأمل فى اصول حياتها المادية الجديدة المؤسسة على الحرص وادخار المال والتمتع بلذائذ العيش ــ لأنكر كل شئ ينسب اليه الا الاسم ، وما عرف من تعاليمه وشرائعه التى كان أتى بها الا الرسم .

جعل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق ، مرتبطة به أشد ارتباط ، فهو يقول : اذا ثبت أن القرآن وحى من الله ، لم يتقوله محمد صلى الله عليه وسلم على ربه ــ كان هذا القرآن تذكرة وعظة ينتفع بها المتقون ، فضمير (**وانه**) يرجع الى القرآن الذى ان لم يتقدم له ذكر صريح فقد تقدم مايعينه ، ويومىء اليه ، فان قوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) لم يرد به الا القرآن الذى كان يزعم المشركون أنه أقاويل وأساطير ، والله نفى ذلك واحتج على كذبهم ، وصدق القرآن .

وقوله (**للمتقين**) يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم عن كدورات الأوهام ، وخلصت من شوائب الجمود والتقليد ، ومالت بفطرتها الى قبول الحق والاذعان له ، تتقى بذلك سخط خالقها وتحذر عقابه . أمثال هؤلاء هم الذين استعدت نفوسهم لقبول القرآن والاستهداء به ، أما أولئك المكذبون الجامدون على ماورثوه من آبائهم ، فان الله توعدهم بقوله : (**وانا لنعلم أن منكم مكذبين**) . وليس المراد به افادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، راصد لهم ، غير تارك عقابهم . فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة : يقال « انا اعرف المحسن منكم والمسىء » أى لايخفى على ذلك منكم ، ولا اغفل عن مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض « روحى فداك عرفت أم لم تعرف » أى كافيتنى بالحسنى أم لم تكافنى .

فهؤلاء المكذبون الذين يعلمهم الله وهو من ورائهم ، كيف يكون حالهم فى مستقبل الأيام : فى الدنيا اذا اظهر الله نبيه ، ونصر حزبه ، وفى الآخرة اذا أزيح الستار ، وبطلت الأعذار ؟ لا جرم أن تكذيبهم سيكون عليهم حسرة ، وهذا معنى قوله تعالى (**وانه لحسرة على الكافرين**) . فضمير (انه) يرجع الى التكذيب المفهوم من قوله : (المكذبين) ، ومراده (بالكافرين) نفس المكذبين المذكورين قبله ، وكان الظاهر الاضمار أى أن يقول « وانه لحسرة عليهم » ، لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين وهو كونهم كافرين . ويحتمل ان يرجع ضمير (وانه) الى القرآن ، أى ان القرآن سيكون حسرة على المكذبين : فى الدنيا اذا ظهرت تعاليمه ، وانتشر فى الخافقين نوره ، أو فى الآخرة اذا رأوا نجاة المصدقين به ، المتمسكين بحبله . وعود ضمير (وانه لحسرة) على القرآن أنسب ، وبذلك ينتظم شمله مع ضمير (وانه لتذكرة) الذى قبله ، وضمير (وانه لحق اليقين) الذى بعده ، فانهما للقرآن .

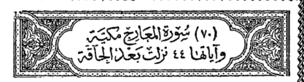
ومعنى (**وانه لحق اليقين**) ان القرآن هو اليقين ، أى الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ولا ريب . والجملة من مقوله تعالى ، يثبت بمضمونها قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يلين فى الدعوة ، ولا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين ، ورميهم له بمختلف التهم وختلق الدعاوى .

ومعنى (**فسبح باسم ربك العظيم**) اذا كان من عاقبة المكذبين ما ستعلمه يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وحيا من الله يقينا ــ لم يبق الا ثباتك فى أمرك ، ومضيك فى ماندبت له من تبليغ رسالتك ، واستعن على مهمتك هذه بتسبيح ربك ، والشكر له على أن اختصك بكرامة النبوة ، وعلو المرتبة . فهو ربك الذى حاطك بعنايته ، والعظيم الذى يصغر كل شىء اذا قيس بعظمته ، وهو تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه وتشكر له ، وترجوه وتخافه ، ودع عنك أولئك المكذبين جانبا .

و (الاسم) هو مايعرف به المسمى ويتميز عن نظائره ، واسم الله واسماؤه صفاته التى عرفناه معشر البشر بها ، والا فان المدارك تعجز دون الوصول الى كنه ذاته (فالتسبيح باسم الرب) الذى أمر الله نبيه به هو عبارة عن تنزيه صفاته تعالى أن تكون مشابهة لصفات المخلوقين .

أو نقول : ان المراد (باسم الرب) هو الكلمات الدالة على ذاته كالله ، وصفاته كالرحمن والرحيم ، فاذا أمر الله تعالى بتنزيه هذه الكلمات ، وتمجيد شأنها ــ كان ذلك مستلزما لتنزيه الذات المدلول بها عليها ، أو المراد بتنزيه أسماء الله تنزيهها عن أن تطلق أو تستعمل فى مسميات أخر كما يفعل المشركون من تسمية (اللات) فانها مؤنث (الله) سموا بها الاهة من آلهتهم ، وسموا الاهة اخرى (العزى) تأنيث الأعز ، والأعز والعزيز من صفاته أو أسمائه تعالى ، فمعنى قوله (سبح باسم ربك) نزهه فلا تسم به الا اياه سبحانه وتقدس .

وفعل (سبح) يتعدى بنفسه فيقال (سبح اسم ربك) ، وبالباء كما فى آيتنا هذه ، ومثله « القى الكتاب من يده » و « القى به من يده » ، و « اخذ الشىء وأخذ بالشىء » ، قال تعالى (**ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة**) وقال أيضا (**والقى الألواح وأخذ برأس اخيه يجره اليه**) .



بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾

كان المشركون يستهزئون بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويستخفون بما يوعدهم من العذاب وانه آتيهم لامحالة ، فكانوا يقولون : واين هذا العذاب ؟ اما آن وقت مجيئه ؟ بل قال أخبثهم طريقة فى تكذيب الوحي ، وهو « النضر بن الحرث » ما قصه الله علينا فى آية أخرى من كتابه : (ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم) . وكان صلى الله عليه وسلم يقلق لتهكمهم هذا ، ويود أحيانا لو يعجل اليهم بشىء من العذاب ، فيرعووا أو يؤمنوا ، فافتتح الله تعالى هذه السورة حاكيا ما يقوله النضر أو غيره ممن يسأل سؤاله ، وحاضا نبيه على الصبر وحسن الانتظار .

و (السؤال) اذا كان بمعنى طلب الشىء واستدعائه يعدى بالباء ، يقال « سأل بالعذاب أن ينزل به » ، كما يقال : سأل العذاب . والنضر بن الحرث دعا بالعذاب طالبا له مذ قال (ائتنا بعذاب اليم) ، فيكون المراد (بالسائل) فى الآية هو النضر ، ونكره تحقيرا له ، وتهاونا به .

أما اذا كان (السؤال) بمعنى الاستخبار عن الشىء اهتماما به ، وتفحصا عن حاله ، فيتعدى بعن تارة ، وبالباء تارة أخرى ، فيقال « سألت عنه وعن حاله » ، كما يقال « سألت به وبحاله » ومنه قوله تعالى : (فاسأل به خبيرا) ، أى اسأل عن هذا الأمر الذى تهتم له خبيرا به ، ومنه قول عاتكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا فى قومنا وليكف من شر سماعه

أى سائل عنا وعما كان منا فى تلك الحرب ، حرب الفجار ، من النجدة والبسالة .

ويحتمل أن تكون (سأل) فى الآية بهذا المعنى وهو الاستخبار والتفحص ، ويكون المراد (بالسائل) النضر أو غيره ممن كان يسأل سؤاله ، ويكون المعنى : سألك يامحمد سائل عن خبر عذاب طالما حدثتهم به ، وحققت لهم أنه واقع بهم . وقد انتهى السؤال عند قوله **(واقع)** فأجاب تعالى على سؤال هذا السائل ، أو على دعائه على نفسه بقوله **(للكافرين ليس له دافع من الله)** فهو استئناف واقع فى جواب سؤال السائل ، ولام (للكافرين) متعلقة بمحذوف ، والتقدير : هو ، أى ذلك العذاب المسئول عنه ، مهيأ ومرصد للكافرين ، فلا يستعجلوا هم ، ولا تضجر أنت يا محمد .

وجملة (ليس له دافع) خبر بعد خبر ، أى هو مخبوء لهم ، وليس له دافع يدفعه عنهم .

وقوله (من الله) متعلق (بدافع) على تضمينه معنى المنع والوقاية : أى ان العذاب مهيأ لهم ، وليس له دافع ومانع وواق من الله ، بل ستكون مشيئته تعالى فى تعذيبهم نافذة البتة .

ويحتمل أن يكون المراد بالسائل الذى سأل هو النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قلنا انه أحيانا كان يتمنى لو ينزل بهؤلاء المكذبين عذاب يزحزحهم عن طريق الدعوة الاسلامية ، فتنتشر وتتلقى بالقبول ، ويكون تنكيره صلى الله عليه وسلم لتعظيمه أو لتعينه، فأجابه ربه على سؤاله قائلا : ما تطلبه وتستعجله مرصد ومهيا للكافرين ، ثم ختم الآية بقوله مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : (فاصبر صبرا جميلا) أى صبرا لا قلق معه ولا جزع ، وهكذا يكون الصبر الجميل .

وقد وصف الله نفسه بقوله : **(ذى المعارج)** ، وهو من العروج أى الصعود والارتقاء . واسم الآلة منه « معرج » و «معراج» وجمعها « معارج » و «معاريج» فالمعارج فى معناها كالمصاعد والمراقى والسلالم والدرج والدرجات . فقوله تعالى : (ذى المعارج) مرادف لقوله فى سورة المؤمن ، واصفا نفسه . « رفيع الدرجات » .

و « المعارج » و « الدرجات » اذا نسبت الى ذاته تعالى كان المراد بها الرفعة والعلو اللائقين به تعالى . فذو المعارج وذو الدرجات نعت له سبحانه بعلو الذات وتنزهها عن النقصان . وليس نعتا له بعلو الذات وارتفاعها فى المكان .

اتبعته فكرتى حتى اذا بلغت
غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما
رأيت موضع تكييف وتحديد

و (الملائكة) من عالم الغيب الذى نؤمن به ، ولا نكلف انفسنا عناء ما لم يكلفنا اياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير فى حقائقه ، فان هذا غير مستطاع لنا ما دمنا فى هذه الدار الدنيا .

أما (الروح) فيراد به جبريل نفسه ، وهو أحد هذه الملائكة ، ويكون فى ذكره معهم باسم له خاص زيادة تعظيم له .

ويقول بعضهم : ان (الروح) طبقة من الملائكة كطبقة الخاصة فى البشر بالنسبة الى عامتهم ، فالروح على هذا جمع لا مفرد ، كما يقال أحيانا « الملك » ويراد به الملائكة .

أما معنى (**تعرج الملائكة والروح اليه**) أى الى الله ، فهو عروجها وصعودها الى حيث يفاض عليها من أنوار قدسه ، وتجليات أمره ونهيه — ما يتعلق بتدبير العالم ، وتدبير الكائنات ، واعدادها فى الأطوار المختلفة لما خلقت له .

فضمير (اليه) يرجع الى الله تعالى باعتبار مكان تجليه ، ومصادر أمره ونهيه ، لا باعتبار ذاته ، ومكان وجوده ، فانه تعالى ليس له مكان ، كما مرت الاشارة اليه آنفا .

وقوله : (**فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة**) . هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا وليس التحديد مرادا كما يأتى بيانه . قال أبو مسلم الأصفهانى : ولا يلزم منه أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأنا لاندرى كم مضى وكم بقى . والمراد باليوم فى هذه الآية مطلق الوقت ، وهو استعمال كثير الشيوع فى كلام العرب ، قال فى المصباح : « والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهارا كان أو ليلا ، فتقول ذخرتك لهذا اليوم ، أى لهذا الوقت الذى افتقرت فيه اليك » اهـ . فالملائكة تعرج فى مدة الدنيا منذ أول نشأتها الى حين اندثارها ، ومعنى أنها تعرج فى ذلك اليوم أنها تتردد بين الرب وبين هذه الأكوان بما يريده منها ، ويقضيه فيها .

ولا نقدر أن نفهم من هذا الا أن الله الذى خلق هذا الكون ، أراد أن يدبره ويبلغه كماله بوسائط خلقها وسماها ملائكة (١) ، كما شاء لنا نحن فى حياتنا الدنيوية أن نتخذ وسائط فى قضاء أعمالنا ، وتوفير مصالحنا . أما أنه لماذا اتخذ سبحانه هذه الوسائط ؟ ولماذا لا يفعل ويدبر مباشرة ؟ فهذا ذهول من السائل عن نفسه ، واستغراق فى طينة حسه ، كدعموص (٢) فى حمأة يتطاول الى درس أرقى مدنيات العالم ، والى فقه أسرارها ، ودقائق اختراعاتها .

أما وجه ارتباط خبر عروج الملائكة فى الدنيا بما قبله من سؤال السائل عن العذاب وانه مهيأ للكافرين — فيفهم من اعمال المقارنة بين هذه الآية وبين آيتين أخريين وردتا بهذا المعنى ، وهما قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، وقوله : (يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون) .

فالآيات الثلاث بعضها يفسر بعضا ، وهى متواردة على افادة معنى أو معنيين تقريبا . ومحصل ذلك أن الله تعالى اجاب المكذبين بأن ذلك العذاب الذى يستعجلونه واقع بهم لا محالة ، وانه لا أحد يقدر على دفعه عنهم ، ومنع ما يريده تعالى بهم . ثم نبههم بقوله (تعرج الملائكة الخ) الى أن ذلك العذاب انما يرونه بعيدا لطول مدة الدنيا ، فهى فى نظرهم ، وباعتبار مقاييس أزمانهم طويلة جدا كألف سنة أو خمسين ألف سنة ، مع أنها ليست عنده تعالى وبالنسبة الى الأحقاب التى تربط الأبد بالأزل سوى يوم ، أى زمن قصير تعرج فيه الملائكة مترددة بين الخالق وبين الخلائق : تدبر أمرهم ، وتمدهم من العناية الالهية بما فيه صلاحهم . فما لهؤلاء المكذبين يستعجلون العذاب ؟ ويستبطئون الحساب ؟ وهو منهم على قاب ؟ ولما أراد أن يصف سنى عمر الدنيا بالكثرة عبر عنها فى آية بألف سنة ، وفى أخرى بخمسين الف سنة . ولم يرد سبحانه التحديد والتعيين ، وانما أراد المبالغة فى وصف المدة بالطول بالنسبة الى البشر . وقد جرى فى ذلك على ما اعتادوه فى أساليب كلامهم فى مثل هذا المقام ، فهم اذا أرادوا تكثير مرات فعل من الأفعال قالوا : جئت او فعلت سبعين مرة ، أما اذا أرادوا الاخبار عن زمن انه طويل جدا ، فمرة يقولون : لو عاش فلان ألف سنة ، ومرة يقولون : لو عاش خمسين الف سنة ، وفى كلا التعبيرين لايريدون الا المبالغة بطول المدة . وقد ذكر القرآن فى حادثة واحدة — وهى وقعة بدر — أن الله أمد المؤمنين بألف (١) من الملائكة وبثلاثة آلاف وبخمسة آلاف ، ولا مفهوم فيه للعدد كما قلنا . وذكر بعض علماء الحديث بمناسبة قوله صلى الله عليه وسلم « أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » — أن العرب يذكرون السبعة فى الآحاد ، والسبعين فى العشرات ، والسبعمائة فى المئات ، ولا يريدون بها تعيين العدد ، وانما يريدون افادة الكثرة . وحمل بعضهم (اليوم) فى آيتنا التى نفسرها — على يوم القيامة ، وقال أن المراد بالآية تهويل أمر ذلك اليوم ، وتعظيم شأنه فى نفوس المشركين المكذبين الذين يستعجلون العذاب ، فهو تعالى يقول : ان ذلك العذاب يقع فى يوم يطول عليكم ايها المكذبون الى حد أن تحسبوه خمسين ألف سنة ، وما هو بالنسبة الى اللانهاية الا كيوم واحد .

وسواء أردنا باليوم يوم الدنيا ، أو يوم الآخرة ، فليس المراد بالخمسين ألفا تعيين عدد السنين ، وانما المراد وصف ذلك اليوم بالطول .

وكان السلف الصالح يكرهون التقصى فى البحث ، والالحاف فى السؤال عن مثل هذا ، وكيف يكون اليوم تارة ألف سنة ؟ وتارة خمسين ألف سنة ؟ فقد سأل رجل ابن عباس رضى الله عنه عن معنى قوله تعالى : (فى يوم كان مقداره ألف سنة) ، فلم يجبه ابن عباس عن سؤاله ، وانما وجه اليه سؤالا بمعنى سؤاله قائلا : « ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ » فقال له الرجل : « انما سألتك لتخبرنى » ، فأجابه ابن عباس : « هى أيام سماها الله ، وهو أعلم بها كيف تكون واكره أن أقول فيها ما لا علم لى به » .

هذا ، وفى الآية وجوه أخرى تتعلق بمعناها واعرابها اقتصرنا منها على ما رأيناه أحجى بالقبول ، واحظى لدى العقول .

---

(١) كما سماها (المدبرات) فى سورة النازعات . مذ قال تعالى : (فالمدبرات أمرا) .

(٢) الدعموص : دويبة أو دودة سوداء ، تكون فى المياه الراكدة وتندس فى وحلها .

(١) ففى الانفال (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف) . وفى آل عمران (لن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) ، وفيها ايضا (يمددكم ربكم بخمسة آلاف) .

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾

قوله (**انهم يرونه الخ**) اى أن المشركين المستبطئين يوم الدين يرون العذاب الذى أوعدوا به فيه بعيداً ، لأنهم كانوا لا يصدقون به . ويقول سبحانه انه هو جلت عظمته يرى ذلك العذاب الواقع فى يوم القيامة الذى تكون فيه السماء كالمهل ـ قريبا ، أى واقعا محقق الحصول . وعبر عنه بالقرب مشاكلة ومقابلة لقوله (**بعيدا**) .

وقوله تعالى (**ونراه قريبا يوم تكون الخ**) انتقال وخلوص من الرد على المكذبين بيوم العذاب الى وصف ذلك اليوم الذى فيه (**تكون السماء كالمهل**) .

(والمهل) مائع الزيت ، ومائع الفلز المذاب:كالنحاس والحديد والفضة ، مع ملاحظة أن يكون للمائعين المذكورين اللون الخاص الذى يعهده فيهما كل من رأى معدنا يصهر ويذاب ، أو رأى دردى الزيت وعكره يصب ويكال . هذا اللون الأكدر الضارب الى الحمرة أو الزرقة أو الخضرة هو لون السماء يوم تقوم القيامة ويأذن الله بخراب هذا العالم .

(**وتكون الجبال كالعهن**) . (العهن) : الصوف المصبوغ الوانا من أصفر وأحمر وأخضر ، وقد وصف هذا الصوف فى سورة القارعة بأنه « منفوش » . والجبال اذا بست يوم القيامة ، وتفتتت أجزاؤها ــ وهى بالطبع مركبة من أتربة ومعادن مختلفة اللون ــ كانت ذراتها المنبثة فى الفضاء منفوشة غير متلبدة ، وذات الوان مختلفة : كألوان الصوف المصبوغ تهاويل،لا ذات لون واحد .

هذه هى حال السماء والأرض فى ذلك اليوم . أما حال الخلائق فهى كما قال تعالى : (**ولا يسأل حميم حميما**) حميم المرء : قريبه وصديقه الذى يهتم بأمره ، فمن شدة ما ينزل بهم جميعاً من الهول والفزع يتناكرون ويتدافعون يمينا وشمالا ، مشتغلا كل منهم عن حميمه بنفسه ، وتلمس طريق الخلاص لها ، وينحصر همه فى ذلك بحيث لا يعود يسأل حميمه : ما شأنك ؟ وكيف حالك ؟ وهل تطلب منى معونة ؟ وهذا كما قال تعالى فى سورة عبس : (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

يقول قائل . ان الحميم قد لايكون أبصر حميمه فى ذلك الوقت ليسأله ، فقال تعالى (**يبصرونهم**) وهو مضارع مجهول من التبصير ، وضميره المرفوع ــ وهو نائب الفاعل ــ يرجع الى (حميم) المرفوع ، وضميره المنصوب يرجع الى (حميما) المنصوب . وانما أتى بالضميرين بلفظ الجمع لما فى المرجعين من العموم وان كانا مفردين .

يقول : ان الأقارب والأصدقاء لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله فى ذلك اليوم مع كونهم قد جعل الله بعضهم يبصر بعضا ، ويعرفه أنه هو ، ولم تكن ثمة حواجز تحول دون رؤية أحدهم الآخر، وانما يمنعهم عن المساءلة تشاغل كل بخويصة نفسه .

قوله (**يود المجرم الخ**) هذا ترق فى وصف هول ذلك اليوم ، يقول : لايقتصر الأمر فى ذلك اليوم على وقوع التناكر والتدابر بين الأحماء والأهل والاصدقاء، بل الأمر أفظع من ذلك ، اذ (يود المجرم) ــ وهو مرتكب جريمة الجحود والتكذيب ــ (**لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه الخ**) ، اى يتمنى لو تقبل منه فدية ، فيقدم فداء عن نفسه أقرب الناس اليه ، والصقهم به ، وأعزهم عليه : من ابن وزوج وأخ وابناء عشيرة كان يأوى اليها ، ويتكل فى نوائبه عليها ، بل يتمنى لو تقبل منه فدية فيفتدى بـ (**من فى الأرض جميعا**) من البشر وغير البشر ، (**ثم ينجيه**)ذلك الفداء وينقذه من الكرب ، وفادح الخطب . و (صاحبة) الرجل امرأته، وقد تقول المرأة عن زوجها انه صاحبها، لكنه قليل ، قالت ليلى الأخيلية :

لنا صاحب لاينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

و (فصيلة) الرجل : عشيرته ورهطه الأدنون ، الذين انفصل عنهم بالولاد ، وبقى يأوى اليهم بالنسب والنصرة فى الأيام الشداد .

ولما كان قبول الفداء منه يومئذ بعيد الحصول ، ونجاته من العذاب بهذا الطريق غير مأمول ــ عطف فعل (ينجيه) على (يفتدى) (بثم) التى تستعمل فى التراخى والبعد الزمانى أو الاعتبارى كما هنا ، كأنه يقول : يود أن يفدى نفسه بهؤلاء المذكورين وهيهات أن ينجيه ذلك .

(**كلا**) كلمة زجر وتعنيف ، يصدع بها المخاطب صرفا له عن اعتقاد أو رأى أو عمل غلا فى التمسك به، والتعصب له ، فيكون معناها ليس الأمر كما زعمت أو عملت ياهذا ، وانما هو كيت وكيت . والمكذبون بيوم الدين المستبعدون لوقوع العذاب فيه غلوا فى عنادهم وتكذيبهم بعد أن وضح الأمر لهم ، وقامت الحجة

عليهم ، حتى كأنهم من فرط العناد ، وقيام الحجة ، يعللون أنفسهم بالأماني ، ويتمسكون بأوهى الأسباب من مثل استنقاذ أنفسهم بفدية ما ـ فكذبهم الوحي في ظنهم هذا ، ثم زجرهم عنه ، وردعهم عن التمادي فيه قائلا : **(كلا انها لظى الخ)** ، اى دعوا أيها المجرمون المكذبون هذه التعلات ، والأماني الكاذبات ، فان الأمر ليس كما تزعمون من انه تعالى لايخلق دارا يعذب فيها الفجار ، أو انه اذا خلقها فقد يتلمسون فيها طريقا للخلاص بفداء ونحوه . (انها لظى) ، أن تلك الدار ، أو ان تلك القصة الهائلة التى تمارون فيها ، هى لظى كما أخبركم بها نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لا ريب فيها ، ولا منجى منها .

و (اللظى) اسم للنار ذات اللهب ، و (الشوى) كل مالم يكن مقتلا من الأعضاء : كاليدين والرجلين والأطراف ، يقال : « رمى فلان فلانا فأشواه » ، أى أصاب اطرافه ، ولم يصب منه مقتلا ، ويقال فى ضده « رماه فأصماه » اذا أصاب مقتلا له فأرداه . والمعنى أن تلك النار من فرط تلظيها تنزع أطراف المعذب وجوارحه نزعا شديدا مبالغا فيه ، أو نزعا متكررا يحصل مرةبعد مرة ، وكأنهخص الأطراف بالذكر دون الأعضاء الرئيسية التى اذا نزعت مات صاحبها ـ للاشارة الى ان تعذيبهم بتلك النار المتلظية لايسلبهم حياتهم ، فهم فى النار دائما احياء يعذبون ، ويكون حفظ الحياة ودوامها اذ ذاك بمحض قدرة الله تعالى .

وقال بعضهم أن (الشوى) هنا جمع شواة وهى جلدة الرأس ، وتسمى « فروة الرأس » أيضا ، وأن النار يوم القيامة تنزع من المكذبين الجاحدين جلدات رءوسهم المرة بعد المرة ، كلما نزعت أعيدت زيادة فى التنكيل والتعذيب .

وقوله **(تدعو من أدبر وتولى)** اى تنادى وتهتف بالذى ادبر واعرض عن الايمان . وقال (تدعو) لأن تهيؤ جهنم ، وتبرجها للمعرضين عن الايمان ، وتفتح أبوابها لدخولهم ـ كأنه فى المعنى هتاف بهم ، ودعاء لهم ، وهو مايسمونه « لسان الحال » كما ان الدعاء بالقول « لسان المقال » . وهذا الضرب من التعبير كثير الشيوع فى كلام العرب واشعارهم ، لاسيما اذا ارادوا الحكاية عن شىء لا يعقل ووصف احواله ، ومنه قوله :

شكا الى جملى طول السرى
يا جملى ليس الى المشتكى
صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والجمل لايمكن أن يشكو بلسانمقاله ، وانما يشكو بلسان حاله ، فان آثار الأين والكلال والحفاء البادية عليه ، كأنها السنة تنطق بالشكوى الى صاحبه .

وقال أبو النجم الرجاز المشهور يصف روضة :

« تقول للرائد اعشبت انزل »

اى انها لاستجماعها مايلزم للقوم المسافرين من مرعى وماء وظل اذا وصل اليها رائدهم يبتغى لهم مكانا للنزول استوقفته تلك الروضة بحيث لايمكنه تجاوزها دون النزول فيها بقومه ،فهى كأنها تقول له : « أعشبت » اى أصبت عشبا ، « فانزل » على الرحب والسعة .

ومثله قول الراجز الآخر :

امتلأ الحوض وقال قطنى
مهلا رويدا قد ملأت بطنى

فهذا مايسمونه لسان الحال . وله شواهد كثيرة جدا فى القرآن والحديث ، وقد غفل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجعلوه من الخطاب بلسان المقال ، ولاحجة لهم الا أن الله تعالىقادر على كلشىء. ومن ذا الذى ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا عن أهل اللسان فى الحكاية عما لا يعقل ـ أمثل بل أبلغ من حملها على الحقيقة ، ولا داعى عقلى او شرعى للحمل عليها . على أن مفسرا لغويا (1) جعل (تدعو) هنا على حد قولهم «دعا الله فلانا بما يكره» أى أنزل به مايكره، فمعنى دعوة جهنم اياهم أنها تفعل بهم الأفاعيل .

قلنا ان جهنم فى ذلكاليوم تهتف بأبنائها أنيسرعوا اليها ، ومن هم أبناؤها ؟ (من ادبر وتولى) اى أعرض عن الايمان بالله ، وقبول ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين الحق ، وكذلك هى تدعو اليها ابضا من تكالب على الدنيا ، **(وجمع)** منحطامها **(فأوعى)** ، أى خبأه وكنزه فى الخزائن والصناديق والأوعية ، يقال « أوعى الشىء » اذا حفظه ، وأوعى الزاد والمتاع اذا جعله فى الوعاء . وأوعى أيضا جمع وشح ، ومنه الحديث « لاتوعى فيوعى الله عليك (2) »

وفى الآية وعيد شديد لمن يبخل بالمال ، ويحرص على جمعه ، فلا ينفقه فى سبيل الخير ، ولا يخرج حق الله فيه . وقد جعل الكتاب كانز المال ، الشحيح به ، الذى يمنعه مستحقه ـ بمنزلة المعرض عن الحق ، المكذب للدعوة ، الجاحد للرسالة ، كما جعلهما فى قرن واحد أيضا مذقال تعالى : (انه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) . وقد مر الكلام على هذه الآية مستوفى فى سورة الحاقة .

وان الباحث المفكر ليقف موقف الحيرة فى معرفة أية الخصلتين أشد محقا للأمم ، واجهازا على حياتها ؟ آلكفر بالله ؟ أم الشح ؟ أعنى ترك بذل المال فيما يجب فيه البذل . ويظهر من آيات الكتاب المتكررة ـ ولا سيما فى الآيات الآتية قريبا ـ أن الخصلتين سواء فى ذلك . أعاذنا الله من المهالك .

وما وصفه الله من هول الساعة ، ولون السماء ، وحالة الجبال ، وتقاطع الأحماء المحشورينفى عرصات القيامة ، ثم ما يكون للمكذبين فى جهنم من العذاب والنكال ، بالسلاسل والأغلال ، ومايكون للمؤمنين فى

---

(1) ص ١٣٣، ج ٢ : المخصص

(2) اى لاتجمعى وتشحى بالنفقة فيجازيك الله بتضييق رزقك . . المصحح

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾

الجنة من الجزاء والثواب ، بالطعام والشراب ، وصنوف اللبوس والثياب ــ كل ذلك نعتقده من دون زيادة أو نقص ، ونكل أمر حقيقته وكنهه الى الله تعالى ، كما كان يفعل سلفنا الصالح فى فهم ذلك ، وفى تربية أولادهم عليه .

روى الأمام احمد فى مسنده ان سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه سمع ابنا له يدعو ويقول : « اللهم انى أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحو ذلك ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها » فقال له ابوه : « لقد سألت الله خيرا كثيرا يابنى ، وتعوذت به من شر كثير ، لكنك تعديت الحد الذى نهى الله عن تعديه فى قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية . انه لايحب المعتدين) » اى المتجاوزين فى الدعاء . ثم علمه الأدب فى ذلك فقال له : حسبك أن تقول : « اللهم انى أسألك الجنة وماقرب اليها من قول وعمل . وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » .

وروى أبو داود فى سننه عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول : « اللهم انى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة اذا دخلتها » ، فقال له : « يا بنى ، سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء » . والاعتداء فى الطهور المبالغة فى الوضوء والغسل والنظافة بما يؤدى الى الوسوسة .

فاذا كان السلف رضوان الله عليهم لم يرضوا أن يعين الداعى ويخصص ويغلو فى دعائه ــ وليس الدعاء سوى طلب وتمن من الله ــ فكيف يرضون أن يضع الرواة فى أوصاف الجنة والنار وأطوارهما وأحوال المنعمين والمعذبين فيها ــ بزعم الترغيب والترهيب ــ ما لا أصل له فى الدين ، بل ربما مهد الطريق أمام تشكيك المشككين ، وزعزعة عقائد المؤمنين .

ولما ختم الآيات السابقة بوصف لظى التى يستبطئها المكذبون ، وذكر أنها تدعو اليها من كان منهم معرضا عن الحق ، مكبا على جمع المال وكنزه ــ تطرق من ذلك الى ذكر خلق فطر البشر عليه ، وكان سببا فى معظم الشقاء الذى يصيبهم ، ثم استثنى منهم أولئك الذين قدروا على تطهير نفوسهم من ذلك الخلق بممارسة الفضائل الدينية .

أما الخلق الذى فطر عليه الانسان فهو ماعبر عنه بقوله تعالى : **(ان الانسان خلق هلوعا)** ، وأراد بالانسان كل أفراده لا واحدا منه بدليل استثناء (المصلين) منه ، والاستثناء معيار العموم .

أما (الهلوع) فقد فسره الكتاب نفسه بقوله : **(اذا مسه الشر الخ)** ، والمعنى أن الله خلق الانسان وغرس فى نفسه منذ أول نشأته هذا الخلق الذى هو (الهلع) ، فهو (اذا مسه الشر) ، ونزل به المكروه من فقر أو مرض أو خوف ــ كان **(جزوعا)** ، فيستولى عليه اليأس والقنوط ، ويحسب أن مانزل به غير مقلع عنه : فالفقر لا يعقبه غنى ، والمرض لاتخلفه صحة ، والخوف لا ينسخه أمن . وكثيرا ما قاده يأسه هذا الى ارتكاب معصية أو منكر وقتل نفسه احيانا ، **(واذ مسه الخير)** ، وتيسرت له أسباب الرغد وغضارة العيش ، فأصبح غنيا موسعا عليه فى الرزق ، صحيح الجسم معافى ، موفور الجانب ، نافذ الكلمة ، ذا جاه ومنصب ــ كان اذ ذاك **(منوعا)** يمنع الناس رفده ومعونته والانتفاع بجاهه . فهو من غلبة هذا الخلق عليه يحسب ان ما أوتيه من الخير والرزق والنعمة لم يؤته الا لكونه مستحقا له بذاته لا بفضل الله ، فيطغى على الناس ، ويكفر النعمة ، فلا يشكر الله عليها بوضعها فى مواضعها ، بل قد يستخف بها أحيانا فيحسب أنه مستحق لأكثر منها . وربما تدرج من هنا الى ايذاء خلطائه والبغى عليهم ، وغمط حقوقهم . وهذا هو البطر ، وصاحبه هو (المنوع) الذى حكى الله عنه فى هذه الآية .

خلق الله الانسان منذ أول نشأته مفطورا على (الهلع) ، لكنه تعالى لطف به ، فخلق فى نفسه فى جانب هذا الهلع مواهب سامية : كالعقل ، وغريزة التدين ، وكآيات الوحى التى كان يتلقاها الأنبياء فيعالجون بها ضعف الانسان ، ويلطفون من سورة هلعه ، ومن ذلك الصلاة التى هى عماد التدين ، وأكبر مظهر من مظاهر عاطفته . وهذا معنى قوله **(الا المصلين)** ، استثناهم من أفراد الانسان الملوثين بالهلع . فالمصلون بماواظبوا على صلواتهم ، وتعرضوا لنفحات ربهم وهم يناجونه فيها ــ استفادوا فرط ثقة به ، ورضى بقضائه ، وعرفان أن كل خير وشر بتقديره ، فلا يجزعون اذا مسهم الشر ، ولا يمنعون اذا مسهم الخير . ومثلهم فى ذلك المزكون **(الذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم)** .

و (السائل) الفقير الذى يتكفف فيعطى ، و (المحروم) الذى يتعفف فيحرم ، أو هو الذى أصيب بآفة سماوية اجتاحت ماله ، فوجم لذلك وافتقر ، وأنف أن يسأل الناس ، أو هو الذى كلما طلب الدنيا أدبرت عنه ، ويسمى المحدود « بالحاء المهملة » ، والمحارف أيضا . وضده المجدود « بالجيم » وهو المبارك الميمون النقيبة . والاسم من المحارف « الحرفة » بضم الحاء . ومنه قول الشاعر :

ما فيـــه لو ولا ليت تنقصـــه
وانمـا أدركتـه حـرفة الأدب

اى حرمان الأدب وشؤمه .

فالموسرون الذين يجعلون فى أموالهم قدرا معينا من المال ، ويرون ذلك حقا واجب الأداء للفقراء ، سواء أطلب الفقراء منهم ذلك أم تعففوا فلم يطلبوا ... هؤلاء المذكورون جديرون ـ بما مارسوا من الصلاة ، وما أنفقوا من الزكاة ـ ألا يعدوا من أفراد الانسان الهلوع الذى وصفه الوحى ، وشهر به ، ومقت فعله .

قوله (**والذين يصـدقون الخ**) يعنى بهـم الذين آمنوا بالغيب وبيوم الحساب ، وصدقوا بجميع ماأتى به الوحى على لسان الرسل من أمر الثواب والعقاب ، فأصبحوا ـ وقد مازج هذا التصديق قلوبهم ـ خائفين أن يحاسبوا ، مشـفقين أن يعذبوا ، ولا سيما أنهم يعلمون أن العذاب غيرمأمون ، والخلاص غير مضمون ، فيزيدهم ذلك اقبالا على الله وعلى ممارسة الأعمـال الصالحة ، كمـا أن ثقتهـم بوعد الله بالثـواب تثلج صدورهم ، وتشحذ عزائمهم ، وبذلك يبقون مترجحين بين الرجاء والخوف : لاغلبة رجاء تحملهم على الكسل وتسويف العمل ، ولا شدة يأس تسلمهم الى الخطل ووسوسة الخبل .

أن مثل هؤلاء المصدقين المشفقين ، قلما تزدهيهم الدنيا ، أو يبطرهم نعيمها ، أو يجزعون لما فاتهم مـن حطامها : فسواء عليهم أصحوا فى الدنيا أم سقموا ، خسروا فى حظوظها أم غنموا . اذ ان لديهم من الفكر فى جلال ربهم ، وذكر معادهم ـ ما يشغلهم عن الجزع اذا مسهم الشر ، ويربأ بهم عن المنع اذا مسهم الخير . فشر الدنيا وخيرها الى فناء وانصرام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام .

ثم ذكر الفريق الخامس من الموفقين الذين قدروا ان يحفظوا نفوسهم من وصمـة (الهلع) المقـوت ، ويحفظوا موازنتها ، ويضبطوا ميولها ، فلا تستسلم للجزع والوسوسة ، ولا تسترسل فى المنع والفطرسة ، وأولئك هم الأعفاء الذين قال الـكتاب عنهـم انهـم (**لفروجهم حافظون**) (١) : فلا يرتكبون المحارم ، ولا يتلوثون بالمآثم ، يعرفون غير أزواجهم ، أو مملوكات أيمانهم ، يعنى الرقيقات . فالذين يقتصرون على ما أحله الله لهم مواتاة لناموس الفطرة الالهية ، وتكثيرا لسواد الأمة بوفرة النسل والذرية ـ يكونون (**غير ملومين**) ، بل غير مبخوسين حقهم من الأجر فى هذه النية أما الذين يبتغون من الشهوات ، والفواحش والمنكرات ـ (**وراء ذلك**) ، أى وراء ما أحـله الله (**فأولئك هم العادون**) : أى الذين تعدوا حدود الله ، وخالفوا الناموس الآمر بالاعتدال فى مطامح النفس ، وتكاليف الحياة .

والرق كان فاشيا قبل البعثة المحمدية فى العرب واليونان والرومان على أبشع صورة وأنكرها . ثم جاء الاسلام فضيق دائرته ، وحصره فى أسرى الحرب ، وأمر اتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرتهم ، فقال : « اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون » ، فكان الرقيق فى الاسلام رقيقا ظاهرا ، أخا باطنا . والاسترقاق على هذه الصورة وسيلة من وسـائل نشر الاسلام ، وتعميم تعاليمه ، وتكثير سواد أهله ، فهو يشبه مايسمونه اليوم بلسان السياسة : التجنس بالجنسية والالتحاق بالتابعية .

ومع هذا فان الدين الاسلامى كان يعتـبر الرق والحرب الموصلة اليه كليهما ضرورة ينبغى تجنبهـا ما وجدنا الى ذلك سبيلا . ومن ثم كان ينهى عن تمنى لقاء العـدو أى عـن تمنى الحـرب ، وذلك بأن تفض مشاكل الخلاف بين الأمم من دونها ، كما يحض على عتق الرقيق وهو أسـير الحرب ، ويرغب فى اعطائه حريته ويتوسل الى عتق العبد بمختلف الوسـائل ، ومتعدد الوسائط : كما اذا حلف سيده وحنث ، فان من كفارات يمينه أن يعتق رقبته .

أما اليوم ، وقد أخذت أصول الحرب بين امم العالم شكلا جديدا ، وكان مـن تلك الأصـول ابطال أمـر الاسترقاق ـ فلم يكن الدين الاسلامى ليـأبى ذلك لموافقته أصل الأصول عنده : أعنى الرحمة والرفق بالانسان ، والمبادرة الى عتق الرقيق ، على ان الاسترقاق اليوم أصبح من المتعذر ايقاعه حسب الشروط التى اشترطها الاسلام ، والأحوال التى قررها الشارع ، فكان على البشر اهماله وترك العمل بشريعته .

تنقسم أصول الشرائع التى يكلفها المرء فى دنيـاه ثلاثة أقسام كبرى :

(القسم الأول) ماكان بين العبد وربه من عقـائد وعبادات محضة .

(القسم الثانى) ماكان بين العبد واخـوانه ممـا التزموه بينهم من العهود والمعاملات المحضة .

(القسم الثالث) ماكان متـوسطا بين القسمـين المذكورين وله شبه بهما كليهما .

وقد انطوى تحت القسم الأول أربع طوائف مـن

---

(١) جعل المؤلف « الحافظين لفروجهم » فريقا خامسا ، وهذا يدل على انه يعد المحافظين على الصلاة فريقا ، والمؤدين للزكاة فريقا آخر ... وهكذا ، وسيصرح بهذا قريبا . ولعل الذى ساقه اليه تكرار اسم الموصول « الذين » وليس بسديد ، بل المراد بالمصلين المؤمنون ، كنى عنهم بالصلاة التى هى عماد الدين ، ثم ذكر اوصافهم المختلفة التى لايغنى بعضها عن بعـض فى تحقيـق الايمان ، بل تتآزر كلها على اصلاح المؤمن فى نواحيه المختلفة ، وكل وصف منها له أثر كبير فى مقاومة الهلع . وانما تكرر الموصول لبيان مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمنته الصلات من صفات ، كمـا تقول حينما تريد أن تصف انسانا بعدة صفات ، وتدل على مزيد ارتباطه بها ـ : محمد هو الذى يقوم بشعائر دينه ، والذى يكرم ضيوفه ، والذى يخلص فى خدمة وطنه ... وهكذا ، كأنك تريد ان هذه الصفات لا تكون الا له . اهـ : المصحح .

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا

الذين وفقهم الله الى تطهير نفوسهم من خلق (الهلع) المذموم (١) وهم :

١ — **(الذين يصدقون بيوم الدين)** (اى يوم الحساب ، لكن هؤلاء قد لايحملهم تصديقهم على الاشفاق والخوف من العذاب ، فيسترسلون فى المعاصى والشرور ، فخص المشفقين من المصدقين وجعلهم فريقا ثانيا فقال :

٢ — **(والذين هم من عذاب ربهم مشفقون)** .
ثم ذكر ان أعظم مظهر من مظاهر الاشفاق ، وأكبر معوان على جعل ذلك الاشفاق جالبا لرضاء الله ، واقيا من سخطه وعذابه — هو الصلاة والالتجاء الى الله ، فخص المصلين من المشفقين ، وجعلهم فريقا ثالثا فقال :

٣ — **(الا المصلين الذين على صلاتهم دائمون)** . ومعنى دائمون : يأتون بها فى أوقاتها ، فلا تفوتهم منها فائتة .

لكن هؤلاء قد لايحسنون أداء الصلاة ، فلا تقع بحيث تؤثر فى قلوبهم الأثر النافع ، ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فخص من المصلين المواظبين على الصلاة فى أوقاتها ، المحافظين على سننها وآدابها وشرائطها ، وجعلهم قسما رابعا ، لكنه ذكره فى آخر الأقسام الثمانية اهتماما بالصلاة ، واعادة تذكير بها ، لكونها عرضة للتفريط فيها والتكاسل عنها فقال :

٤ — **(والذين هم على صلاتهم يحافظون)** ، اى يلتزمون شرائطها وآدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، والا كانت حركات ساذجة ، لاحاجة لله فيها ، ولا فائدة للعبد منها .

أما القسم الثانى وهو المعاملات فذكر الوحى الذين يراعونها ، ويؤدون ما التزموه منها من الموفقين ، وهم فريقان فقال :

٥ — **(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)** .
فـ (الأمانات)هى الحقوق المتبادلة بين الناس .
و (العهد) يريد به جملة العقود التى تتوثق بينهم ، وتكون اساسا للحقوق والأمانات .
وينطوى تحت الأمانات والعقود كل انواع المعاملات ومن جملتها (الشهادة) لدى الحاكم ، بل ان الشهادة أكبر ضمانة لسلامة تلك الأمانات وحفظها ، فاذا وقع التساهل والتفريط فيها بكتمانها أو نسيانها ضاعت الحقوق ، وعقمت العقود ، وخزيت الأمانات (١) وفسدت المعاملات . ومن ثم خص الكتاب الشهادة من بين الأمانات والعهود بالذكر ، وجعلها قسما براسها فقال :

٦ — **(والذين هم بشهاداتهم قائمون)** ، اى مؤدون لها على وجهها بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم .

أما القسم الثالث من الأعمال الشرعية المتوسطة بين العبادات والمعاملات ، فهى الزكاة والصدقة وكل صلة مالية أخذ المرء على عاتقه مواساة أخوانه الفقراء بها ، سواء أكانت مما أوجبه الله عليه ، أم مما التزمه هو التزاما . وهذا الفريق ذكره الكتاب بقوله :

٧ — **(والذين فى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)** وقد مر بيانه .

ومن جملة هذا القسم أمر النكاح والاقتصار فيه على ما حلله الشرع ، ففى هذا الاقتصار والتعفف طاعة لله ، وصيانة للأعراض ، وحفظ للانساب ، وبهذا الاعتبار اشبهت عقود النكاح

---

(١) وهكذا يسترسل المؤلف فى عد الصفات طوائف من الناس ، والصواب — بناء على ما قدمنا — ان يقول هنا : وقد انطوى تحت هذا القسم اربع من صفات الايمان المطهرة للنفوس . . . الخ . المصحح

(١) من خزى الرجل كرضى خزيا اذا هان او هلك .

عهود الشرف والكرامة المتبادلة بين أفراد الأمة، فان فى انتهاك أعراضها اضاعة لحقوقها وامتهانا لكرامتها . وقد أشار الكتاب الى هؤلاء المتعففين الموفقين بقوله :

٨ ــ (**والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم الخ**) . ومر تفسير ذلك أيضا فى محله .

وبعد أن أتى الكتاب على ذكر هذه الأقسام الثلاثة مما فيه دواء لداء الهلع الممقوت ، وذكر ما انطوى تحتها من الأقسام قال :

(**أولئك فى جنات مكرمون**) . (أولئك) اشارة الى ماذكر من الطوائف الثمانية (١) ، فهو يقول ان لهم من الجزاء يوم القيامة على أعمالهم وحسن مساعيهم ، رضاء الله ، والحلول فى دار الكرامة .

(الذين كفروا) هم الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا البعث والحساب والعذاب ، وكان أحدهم سأل عن العذاب متى يقع تهكما به ، وتكذيبا له . فبعد أن رد الله عليهم تكذيبهم فى فاتحة هذه السورة ، ووصف ما سيلاقونه من هول العذاب ، ولا سيما من كان منهم حريصا على جمع المال وادخاره . وبعد أن ذكر أن هذا الحرص ناشىء عن خلق (الهلع) المذموم ، واستثنى أصنافا من الموفقين الذين طهرهم الله من ذلك الخلق ــ عاد الى أولئك المكذبين ، فوصف من خلائقهم ، ومن ذميم أطوارهم فقال : (**فما للذين كفروا قبلك مهطعين ؟**) .

(قبلك) أى جهتك ونحوك والى مجلسك ، (مهطعين) الاهطاع الاقبال والاسراع الى الداعى على حالة خاصة، وهى أن يكون ذلك المقبل المسرع مادا عنقه شاخصا ببصره الى من دعاه . ومن أجاب داعيه على هذه الصورة يكون فى الغالب خائفا ، تبدو عليه آثار الذل والخضوع . فالمكذبون من قريش كانوا اذا سمعوا صوته صلى الله عليه وسلم تاليا آيات القرآن ، وفيها من الزجر والوعيد ما يزعج نفوسهم ، ويصدع أعشار قلوبهم ــ أسرعوا الى مجلسه مندعرين متلعين بأعناقهم نحوه ، لا يلوون على شىء حتى يصلوا اليه ، واذ ذاك يتفرقون حواليه (**عن اليمين وعن الشمال عزين**) .

(عزين) : أى فرقا فرقا ، وجماعات جماعات ، متحدثين بشأنه ، ومستغربين ماسمعوا منه ، كأنهم فى أول الأمر يأتون وعليهم آثار الخبل والدهشة والخوف ، حتى اذا اجتمعوا وتراءوا زالت وحشتهم، وهدأت نفوسهم ، ثم أقبل بعضهم على بعض ،فتحلقوا حوله صلى الله عليه وسلم حلقاهنا وهناك ، يتساءلون ــ وهم معرضون عنه ، هازئون به ــ ماذا قال ؟ وماذا أوحى اليه ؟

و (عزين) جمع عزة كعدة على خلاف القياس ، لأنه لايجمع جمع سلامة بالواو والنون الا ماكان علما لمذكر عاقل ، أو وصفا لمذكر عاقل . أما مثل جمع سنة على سنين ،وعضة على عضين ، وكرة على كرين، وعزة على عزين ــ فهو شاذ . و (العزة) العصبة والجماعة . أصلها (عزو) حذفت واوها وعوض عنها التاء . وكأنما سميت العصبة من الناس عزة لأنها تعتزى وتنتسب الى رأى خاص يجمع بين أفرادها . ويستعمل الناس اليوم (العزوة) مكان (العزة) مع أن (العزوة) اسم من الاعتزاء كالنسبة من الانتساب زنة ومعنى : يقال : أن فلانا لحسن العزوة .

فاذا اجتمع هؤلاء المهطعون حوله صلى الله عليه وسلم مجالس مجالس ، فى كل مجلس ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، وقد استأنس بعضهم ببعض ــ عادوا الى استهزائهم وتكذيبهم . ويسمعون فى آيات الوحى ذكر ما أعد الله للمؤمنين يوم القيامة من النعيم وصنوف الكرامة ، فيهزون رءوسهم هازئين ، ويقول بعضهم لبعض ساخرين : « ان كان هؤلاء القوم داخلى الجنة ولا بد كما يعدهم محمد فنحن أولاء داخلوها قبلهم » يريدون أنهم أحق بها منهم ، لأنهم هم أشراف العرب وسادات قريش ، فقال تعالى مجيبا لهم : (**أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ؟**) . وهذا استفهام انكارى مشوب بالتوبيخ والتقريع ، أى لا يطمعن طامع منهم أن يدخلها يتنعم بها وهو لم يسع لها سعيا .

ثم عاد فكرر زجرهم ، وتفييل رأيهم بأداة الزجر الخاصة به وهى (**كلا !**) : أى ما الأمر كما زعموا ، وليس طمعهم بدخول الجنة فى محله. وكأن قائلا يقول: ولماذا يارب ؟ فأجاب (**اناخلقناهم مما يعلمون**). والشىء الذى خلقوا منه المعلوم لهم ، هو تلك الموبهة القذرة . فاذا كان الأمر كذلك وعلموا مم خلقوا ، فما يكون لهم ان يدعوا تلك الدعوى من دخولهم الجنة قبل المؤمنين، فان المؤمنين مثلهم فى ذلك ، فلم يبق سبيل للتفاضل بين الفريقين الا بالتقوى والعمل الصالح ، واتباع الحق ، وهو ما عليه المؤمنون ، لا ما عليه هم من التكذيب والجحود والعناد ، فليرتدعوا اذن عن هذا الطمع الباطل فى دخول الجنة قبل غيرهم .

وانما رد عليهم هذا الرد ، وأيأسهم من دخول الجنة بهذا الأسلوب ، تذكيرا لهم بأن الذى خلقهم من شىء حقير ــ كهذا الشىء الذى خلقوا منه ــ قادر على ان يخلقهم من التراب الذى تحولت أجسامهم اليه بعد الموت ، فما كان ينبغى أن يدعوا دخول الجنة قبل غيرهم ، بل ماكان لهم أن ينكروا البعث من أصله .

فانظر كيف جمع فى هذه الكلمات القليلة ماشاء من الاحتجاج على المكذبين ، والتعريض بهم ، والانة القول لهم ، مع النزاهة التامة فى التعبير ، وحسن الايقاظ والتذكير . ولا عجب فهو الكلام الالهى الذى تبوأ من البلاغة سنام الاعجاز ، وترك لغيره المآخر والأعجاز .

(**فلا أقسم الخ**) : يقال فى هذا القسم المنفى ما قيل فى قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) وقرىء (**برب المشرق والمغرب**) بالافراد ، أى مشرق

---

(٢) الاشارة ــ بناء على ما قدمنا ــ الى المؤمنين الذين اجتمعت فيهم تلك الصفات . المصحح .

نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

الشمس ومغربها . أما قراءة الجمع فباعتبار أن للشمس مشارق متعددة تختلف باختلاف أيام السنة وفصولها ، كما أن لها مغارب متعددة كذلك . أو المراد مشارق الكواكب ومغاربها ، وفى جملتها الشمس . و (رب المشارق) هو الله سبحانه وتعالى . وضمير (منهم) يرجع الى أولئك الذين كانوا يهطعون الى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا بلغوه تفرقوا حواليه عصائب عصائب عن اليمين وعن الشمال، ثم يأخذون فى التهكم به وبأتباعه المؤمنين .

وقوله : (**وما نحن بمسبوقين**) أى انا اذا أردنا الانتقام من هؤلاء المكذبين ، والأخذ بنواصيهم ، فلا يمكنهم أن يفلتوا منا فيسبقونا هربا ، ويفوتونا طلبا . فمعنى (وما نحن بمسبوقين) هنا كمعنى قوله تعالى خطابا لهم فى غير ما موضع (وما أنتم بمعجزين) ، أى : ما انتم بالقادرين على أن تفلتوا منا فنعجز عن الوصول اليكم ، وانزال العذاب بكم .

يقول تعالى : لا حاجة للقسم فالأمر واضح ، انا لفى امكاننا أن نستبدل بكم يامعشر المكذبين المستهزئين قوما يكونون خيرا منكم استعدادا للايمان ، وقبولا للحق ، ومسارعة الى تصديق محمد عليه الصلاة والسلام . ثم لا تحسبوا أنكم قادرون على الهرب والافلات ، فتسبقوننا وتنجون بأنفسكم منا بحيث لا نعود قادرين على انزال العقوبة بكم . كلا ! فكل ما توهمتموه باطل .

ثم التفت الى النبى صلى الله عليه وسلم حاضا له على الثبات والصبر ، ومتوعدا أولئك المكذبين على ماكان منهم من الجحود والكفر ، فقال :

(**فذرهم**) أى دعهم يامحمد (**يخوضوا**) فيما يعجبهم من لهو الحديث ولغو الكلام. جعل الاستكثار من الحديث الباطل ، والذهاب فيه كل مذهب خوضا على التمثيل . (**ويلعبوا**) يأتوا من الأعمال ، ويرتكبوا ثم لايزالون كذلك فى خوضهم ولعبهم وباطلهم وغفلتهم من الأمور ، ماهو لعب وهزؤ لافائدة لهم فيه ولا نفع.

(**حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون**) ، أى حتى يصلوا ويبلغوا يومهم الذى أوعدهم الله بالعذاب فيه ، واذ ذاك يعلمون أنهم كانوا على باطل ، ورأى فايل ، وأنهم اضاعوا وقتهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم .

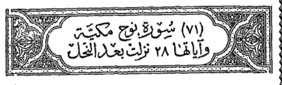
(**يوم**) بدل من يومهم فى آخر الآية السابقة . يصف من هول ذلك اليوم ، وحالة المكذبين فيه . و (**الاجداث**) القبور . و (**نصب**) وزان عنق مفرد جمعه انصاب . وقيل انه جمع واحده نصاب ككتب فى جمع كتاب . ومعناه على الوجهين كل ما نصب واقيم لأجل أن يعبد من دون الله ، من صنم أو غيره . و (**يوفضون**) يسرعون ويستبقون . و (**الخشوع**) فى البصر الغض والكسر ، وفى الصوت الخفض والاخفات ، أما الخشوع فى البدن فهو الذل والتطامن، و (**ترهقهم**) تغشاهم وتعلوهم وتستولى عليهم .

والمعنى أن أولئك المكذبين المستهزئين الذين أمر الله نبيه أن يخليهم وشأنهم سيلاقون يومهم الموعود عما قليل ، وفى ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مجيبين داعيهم ، مسرعين الى موقف العرض والحساب ، وان حالتهم فى اسراعهم الى ذلك المكان كحالتهم فى الدنيا مذ كانوا ينفرون من مساكنهم فى أيام أعيادهم ومواسمهم متسابقين الى حيث نصبوا أصنامهم وآلهتهم ، أيهم يأتيها أولا ، فيعبدها ويتقرب اليها من دون الله ، وتكون أبصارهم فى ذلك اليوم مغضية منكسرة الى الأرض ، وعلى وجوههم آثار الذل والمهانة .

وقوله : (**ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون**) ، أى هذا اليوم هو اليوم الذى كانوا يوعدون به فى دار الدنيا فيمارون فيه ويكذبون ، قد تحقق ورأوه بأعينهم .

وفى تشبيه حالة اسراعهم الى موقف الحساب بحالة اسراعهم وتسابقهم فى دنياهم الى آلهتهم وطواغيتهم — تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم ، وتسجيل عليهم بالجهل فى هذا الاسراع الى عبادة غير من يستحق العبادة ، والتقاعد عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى يدعوهم الى الايمان بالله وحده.

وقرىء (كأنهم الى نصب يوفضون) بفتح النون وسكون الصاد مفردا ، وهو العلم المنصوب . والغاية يستبق اليها المتراهنون يوم السباق ، يقول : ان المكذبين يخرجون يوم القيامة مجيبين الداعى كأنهم يسرعون الى راية رفعت لهم ، فهم يبتدرونها ويستبقون اليها . وليس فى هذا المعنى من التوبيخ والتقريع ما فى المعنى الأول ، فيكون الأول هو الأمثل.



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ

(أن) فى قوله (أن أنذر) وفى قوله (ان اعبدوا) تسمى أن التفسيرية ، وشرطها أن يتقدمها فعل فيه معنى القول دون حروفه ، وقد تقدم (أن) الأولى الارسال ؛ وارسال الله النبى انما هو تحميله قولا الهيا يبلغه قومه ، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : **(انا أرسلنا نوحا الى قومه أنذر قومك)** من دون (أن) على تضمين (ارسلنا) معنى القول ، فكأنه قال « قلنا أنذر » وقد تقدم (أن) الثانية قوله (نذير) ، وهو من الانذار الذى معناه التحذير والتخويف بالقول . ويصح أن تجعل (أن) فى الموضعين مصدرية لا تفسيرية،وتكون مجرورة بالباء، والتقدير أرسلناه بأن انذر ، اى بقولنا أنذر ، وانى نذير بأن اعبدوا ، اى بقولى لكم اعبدوا .

وقوله (مبين) صفة النذير من (أبان) اللازم اذا اتضح وانكشف ، فمعنى **(نذير مبين)** نذير بين واضح البرهان لا لبس فى صدق انذاره ، أو من ابان المتعدى أى نذير مظهر لأمره ، وكاشف عن سره ، ومعرب عن نفسه انه نذير صادق مخلص ، وهكذا يقال فى أخواتها الواردة فى القرآن : (عدو مبين) ، (ساحر مبين) ، (ثعبان مبين) ، (خصيم مبين) ، (عربى مبين) ، (افك مبين) ، (غوى مبين) .

وقوله تعالى : **(يغفر لكم من ذنوبكم)** أول ما يتبادر للنفس أن (من) هنا لافادة التبعيض أى يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وقد حمل جمع من المفسرين الآية على هذا المعنى ، لكن يرد عليه أن قوم نوح اذا آمنوا به يغفر الله لهم جميع ذنوبهم لا بعضها ، لأن الاسلام يجب ماقبله . وأجيب عن هذا بأن فى التبعيض ايماء وتنبيها لقوم نوح الى أن مايغفر لهم من الذنوب انما هي الذنوب التى كانت وقعت منهم قبل أن آمنوا، اما مايقع بعده فهو لاصق بهم ، وتلزمهم التوبة منه . فالذنوب التى تغفر لهم بالايمان انما هى بعض من جملة ذنوبهم الصادرة منهم فى أيام حياتهم ، أو يقال ان الله يغفر لهم بعض ذنوبهم وهي التى تتعلق به تعالى ،أما ذنوبهم الأخرى المتعلقة بحقوق العباد فعليهم الاستحلال من اربابها .

وأرى أن (من) متعلقة بيغفر على تضمينه معنى « التحليل » يقال « حلل فلان فلانا » اذا جعله فى حل مما ارتكب وأذنب ، والمعنى هنا أن الله يغفر لقوم نوح اذا أطاعوه جاعلا لهم فى حل من ذنوبهم التى كانوا ارتكبوها .

وليس هذا فقط بل انه تعالى يدرأ عنهم عذاب الاستئصال كالطوفان ونحوه اذا هم آمنوا بنوح ، ويؤخرهم الى حين حلول آجالهم فيموتون الموتة الطبيعية التى كتبها الله على بنى آدم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : **(ويؤخركم الى أجل مسمى)** و (المسمى) المقدر والمقرر فى علم الله تعالى .

و (نوح) عليه السلام أقدم نبى رسول ذكره الوحى ووصف جحود قومه وتكذيبهم له وما كابده منهم من العناء والاعنات حتى اغرقهم الله بالطوفان ، ولم يذكر عن نبى قبله ما ذكر عنه من هذا القبيل ، وما ذكر عن ابيه وأبى البشر آدم عليه السلام انما هو شرح لكيفية خلقه وعرض أمره على الملائكة وما جرى له ولزوجه فى دار الجنان ، ثم هبوطهما . ولم يذكر لنا الكتاب من أطوار ذريته وأحوالهم من حيث الايمان والجحود والطاعة والمعصية سوى ماكان من منازعة ابنيه قابيل وهابيل ، ثم قتل الأول للثانى بغيا وحسدا . وقتله له أول مثال من أمثلة الظلم وقع فى البشر وقصه علينا الوحى .

وجاء فى كتب الأوائل أن فى زمن « أنوش بن شيث بن آدم » ابتدأت عبادة الأوثان ، وجعل الناس يسمون المخلوقات آلهة ، فكان « أنوش » يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده. وفى زمن ادريس عليه السلام — وهو أخنوخ بن يارد ابن مهلائيل بن قينان بن انوش — كثر النفاق ، وانغمس الناس فى الآثام ، فأنزل الله عليه وحيا فى سفر ، هو صحف ادريس المشهورة ، ولم يبق من ذلك السفر سوى فقرة يقولون انها وجدت فى أطواء بعض الكتب المقدسة ، وهى : « وقد تنبأ اخنوخ على هؤلاء الأثمة فقال : هو ذا الرب يأتى فى ربوات قدسية لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على أعمال نفاقهم » .

أما فى زمن سيدنا نوح — وهو ابن لامك بن متوشالح بن ادريس — فقد شاع الكفر ، واشتد العصيان فى البشر ، وأكثروا من الظلم والبغى والفساد ، فكان من خبرهم مع نبيهم نوح ما قصه الله علينا فى فاتحة هذه السورة وفى غيرها من سور القرآن .

اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ

وذكر فى الأسفار القديمة أن نوحا ولد لسنة ١٨٢ من عمر أبيه « لامك » ولسنة ١٠٥٦ لجده الأكبر آدم عليه السلام . ومعنى نوح : الراحة والتعزية . وكان عمر نوح ٥٠٠ سنة لما أخذ يلد أولاده ساما وحاما ويافث . وكان عمره ٦٠٠ سنة لما حصل الطوفان (١) . وجميع أجداد نوح ولدوا فى زمن جدهم الاكبر « آدم » . أما هو فلم يولد فى زمنه ، فأجداده المذكورون أمكنهم أن يعاشروا جدهم آدم ، ويتلقوا الأخبار الصحيحة منه عن ابداع العالم وما علمه الله اياه . وكثيرون منهم ولاسيما «متوشالح» و « لامك » عاشروا ابنهم « نوحا » سنين متطاولة ، فلقنوه ما تلقنوا هم من جدهم آدم . ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة أمكن حفيده ابراهيم الخليل أن يعيش معه نصف قرن ونيفا ، ويتلقى عنه الأخبار الصادقة ، أو أن ابراهيم تلقى ذلك عن جده سام ان لم يكن تلقاه عن نوح . ولقنه ابراهيم لأولاده اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة متقاربة الحلقات . وبعد أن نجا نوح من الطوفان جعل يحرث الأرض ويغرسها كروما كما كان يفعل آباؤه . اهـ .

هذا منخول ما جاء فى الكتب القديمة من خبر نوح عليه السلام . ونحن — معشر المسلمين — لانصدقها ولا نكذبها(١) بل نكل أمرها الى العلم الحديث ، فهو الذى يمحصها ويميز غثها من سمينها .

ويظهر من هذه الآيات التى افتتحت بها سورة نوح ، ومما تضمنته من خبره ، ومحاورته لقومه ، وشكايته الى الله من بغيهم وسوء صنيعهم — ان دعوته كانت مؤسسة على ثلاثة أركان :

(الركن الأول) ترك عبادة الأصنام (ود)و(سواع) و (يغوث) و (يعوق) و (نسر) التى كان يعبدها أهل ذلك الزمان من دون الله ، فكان نوح يأمرهم بخلعها وعبادة الله وحده ، وهذا معنى قوله : **(أن اعبدوا الله)** .

و (الركن الثانى) تقوى الله واجتناب المعاصى والذنوب والفواحش التى تفسد عليهم صحتهم وأخلاقهم وآدابهم ، وتفكك روابط الألفة وعرا النظام بينهم ، وهذا معنى قوله **(واتقوه)** .

و (الركن الثالث) اطاعة ولى الأمر فيهم ، وهو نوح عليه السلام نفسه ، وهذا معنى قوله **(وأطيعون)** .

فالدعوة السماوية التى هى أول ما أنزل على البشر ، وبلغ اليهم ، هى مطوية فى ثلاث كلمات فقط : ايمان ، تقوى ، طاعة : بالايمان ينتظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام ، وبالتقوى ينتظم أمر أخلاقها وآدابها فتسلم من السقوط والفساد ، وبالطاعة ينتظم أمر اتحاد كلمتها وعلو شأنها فتسلم من الانحلال والضياع .

وما زالت الأمم على سلم هذه الأركان السماوية تعلو فى الحياة الاجتماعية وتسقط ، وترتقى فى العزة والغلبة وتهبط . وآية ذلك التاريخ : فهو الشاهد العدل ، واليه فى هذه المسألة القول الفصل .

ومحصل معنى الآيات : أن الله أرسل نوحا الى قومه ، وكلفه أن يبلغهم أمره السماوى ، وأن يدعنوا له ، وان لم يفعلوا فان عذابا اليما يوشك أن ينزل بهم . فجاء نوح قومه وبلغهم أمر الله بأن يعبدوه وحده ، ويتقوه ، فيدعوا المعاصى ، ويطيعوا رسولهم فيما يأمرهم وينهاهم ، وانهم ان فعلوا ذلك غفر لهم ذنوبهم ، وأخر عنهم العذاب الذى أوعدوا به — فيعيشوا أعمارهم ، ويتمتعوا بالحياة الى آجالهم .

وكأن نوحا يعهد من قومه الريب والشك فى أن لهم أعمارا محتومة ، وآجالا لله معلومة يموتون عندها، ومن ثم اتبع قوله : **(ويؤخركم الى أجل مسمى)** بقوله : **(ان أجل الله)** المسمى والمقدر لكل حى من بنى البشر **(اذا جاء)** وقته وحينه **(لايؤخر)** عنه بل ينفذ طبقا للمشيئة الالهية .

ثم أظهر نوح أسفه من أن قومه غلوا فى الجهل والعناد حتى أنكروا هذه القضية البديهية : وهى أن لكل اجل كتابا فقال : **(لو كنتم تعلمون)** ، اى ليتكم استعملتم عقولكم ، وتدبرتم الأمر بها فاهتديتم الى ما قلت لكم . وفى هذا التعبير من التوبيخ والتعيير ما فيه .

ويصح الا يكون المراد بالأجل فى قوله تعالى : (ان اجل الله اذا جاء لايؤخر) أجل العمر المسمى المذكور قبله ، بل يكون المراد به اجل العذاب المهيأ لهم فيما اذا لم يؤمنوا بنوح ، فان هذا العذاب له أجل ووقت معين لا يتأخر عنه ولا يتقدم ، وهو الذى يجهله قوم نوح ويمارون فيه . أما أجل الموت الطبيعى الذى يدور كأسه على كل واحد من بنى آدم ، فمن المستبعد أن يجهلوه الى حد أن يماروا فيه وفى أنه اذا نزل بهم لايؤخر . فيكون معنى قول نوح (لو كنتم تعلمون) لو كنتم تعلمون مالله من نفوذ المشيئة والحول والقدرة فى انزال العذاب بمنكرى وحيه ومكذبى أنبيائه .

---

(١) (١) قوله تعالى فى سورة العنكبوت ١٤ (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان) يفيد أن الطوفان حدث بعد أن أمضى نوح بين قومه ٩٥٠ سنة فالقرآن يخالف فى ذلك ما نقله المؤلف من الاسفار القديمة ».

(مراقبة الثقافة بالأزهر)

ذكر فى الآيات السابقة كيف كان نوح يدعو قومه الى عبادة الله وتوحيده ، ويعظهم ويخوفهم بأسه وعذابه أن يحل بهم ان هم لم يؤمنوا . وحكى هنا شكايته الى ربه عنادهم وتماديهم فى تكذيبهم وجحودهم وقال أنه كان يدعوهم (**ليلا ونهارا**) أى مستغرقا جميع الأوقات ، فكان كلما زادهم دعوة وحضا على الايمان ، زادوه (**فرارا**) وهربا وتفلتا منه يمينا وشمالا فلا يصغون اليه ، ولا يجتمعون عليه .

ثم وصف نوح نفورهم ، وصور حالة اعراضهم أبلغ تصوير فقال : انهم كانوا اذا دعاهم الى الاقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته (**جعلوا أصابعهم فى آذانهم**) لئلا يسمعوا قوله . وهذا شأن المكابر المعاند الذى يعلم أن للحق سطوة على الوجدان ، فهو يخشى أن ينفذ منه نور الى قلبه ، فتنزعج منه نفسه ، ويتنغص له عيشه ، ولذلك تراه يجتهد فى أن يبتعد عن الداعى الى الحق . وما كان قوم نوح يكتفون بالفرار منه تارة ، وبسد مسامعهم تارة أخرى ، بل هم أحيانا كانوا اذا رأوه (**استغشوا ثيابهم**) ، اى تغطوا بها ، ووضعوا أردانهم وفضول أكمامهم على وجوههم ورءوسهم كيلا يراهم هو فينبرى لهم بالدعوة والنصح ، أو كيلا يروه هم فيتأذوا برؤيته ، وسماع دعوته .

وسين (استغشوا) اما للطلب ، أى طلبوا من ثيابهم أن تغشيهم وتغطيهم ، واما للجعل والصيرورة ، اى جعلوا ثيابهم أغشية وأغطية لهم .

ثم ان نوحا أخبر أن قومه يفعلون ماذكر على وجه الدوام والثبات بحيث لم يعد يرجى منهم أوبة أو توبة ، وهذا معنى قوله : (**وأصروا**) . يقال « أصر على الأمر » اذا لزمه وثبت عليه ، وأكثر مايستعمل فى الاكباب على الشرور وسيئات الأعمال .

أما اباء القوم ، ونفرتهم من نوح وسماع دعوته — فسببه كبرهم وعزتهم وتعاظمهم فى نفوسهم . فهم يرون نوحا دونهم منزلة ومقاما ، فكيف يطيعونه ، ويخضعون له ، ويصبحون فى عداد أتباعه ؟

وقد أشار نوح بتوكيد الفعل بمصدره مذ قال : (**استكبروا استكبارا**) الى فرط كبرهم ، وغلوهم فى عتوهم .

ومن لطيف تعريضه بحالتهم قوله : (**وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم**) . وهو صلوات الله عليه ما كان يدعوهم لأجل المغفرة ، وانما كان يدعوهم لأجل الايمان بالله ، فاذا آمنوا به غفر لهم ذنوبهم ... لكنه طوى ذكر الايمان ، وجعل دعوتهم لمحض مغفرة ذنوبهم ، وفى مغفرة ذنوبهم فوزهم وسعادتهم . فكم تكون الجهالة مستحكمة فى نفوسهم اذا كانوا يسدون مسامعهم ، ويغطون على عيونهم ، كيلا يصلوا الى السعادة ، وهى بين أيديهم وتحت أشعة أبصارهم .

قال نوح فى الآية السابقة : (رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا) وقال هنا : (**ثم انى دعوتهم جهارا**) عاطفا بثم ، فأفاد ان هذه الدعوة الجهرية كانت غير الأولى ، وأن بينها وبينها بعدا وتفاوتا . فاذا تقرر أن الثانية كانت جهارا ، دل ذلك بالطبع على ان الأولى كانت سرية ، فهو يقول : انه فى أول الأمر كان يتكتم فى عرض الدعوة على قومه ، فكان يدلى اليهم بالمناصحة سرا ، مستغرقا فى ذلك جميع وقته ، ليله ونهاره ، كما هو شأن الداعى الحريص على بث دعوته ، الحاذق فى أدائها العالم بطرق تبليغها : يتحين لها الفرص ، ويختار لها الأونق فالأوثق من الرجال ، ولا يتسرع فى افشائها خشية أن يكاد لها ، وتقام العوائر دونها . ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح فى القوم لفرط عتوهم ، وتحجر العناد فى نفوسهم ، وهذا ما حمل نوحا على سلوك طريق آخر فى الدعوة وهو مصارحتهم بها ، وتبليغهم اياها جهارا من دون تكتم ولا خوف ولا تقية ، وهو معنى قوله : (ثم انى دعوتهم جهارا) ، اذ ربما كان فرط تكتمه فى أمره ، واستخفائه بدعوته ، يجعلهم يظنونها باطلة ، والا فما الذى يمنعه من الجهر بها ؟ أو يظنون أنه عاجز جبان عن تبليغها ، فهو يكتمها خشية ايقاعهم به ، وهذا مما يزيدهم نفورا وعنادا . ومن ثم قام نوح عليه السلام يصدعهم بدعوته صدعا ، شأن الواثق من صدقها ، المعتمد على ربه فى حياطته وحياطتها ، كأنه يقول : هاكم دعوتى ابلغكموها على رءوس الأشهاد ، فان كان لكم سلطان بين على بطلانها فهاتوه ، أو كنتم تريدون قتلى وصدى بالقوة فافعلوه .

اذا لم يكن لدى الداعى جراءة وشجاعة أدبية فى عرض دعوته فان دعوته تموت مهما كان واثقا من صدقها ، بل مهما كانت هى حقا فى نفسها . وكم دعوة حق ماتت فى مهدها ، وكلمة صدق خمدت بعد وقدها (١) — بسبب تهيب الداعى المقاومين له ، وما ينقصه من الشجاعة الأدبية فى تحمل الكوارث والشدائد التى تعترض سيره . ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة الحرية الفكرية ركنا من أركان مدنيتهم ، وعمادا قويا لحضارتهم . ولو قال قائل : ان مدنية الغربيين ، وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم فى العلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم فى العزة والصولة والغلبة الى الأوج الذى وصلوا اليه اليوم — انما هو أثر من آثار الحرية الفكرية . . . ما كان غاليا ولا مبالغا .

ولما صدع نوح قومه بدعوته هذا الصدع ، وباداهم بالنصيحة هذه المباداة — اضطربوا وحاصوا ، وعلموا أن الأمر جد ، وأن نبيهم غير عاجز ولا وكل ، وانه على بينة من أمره ، وقوة فى عزيمته ، وأنهم اذا تهاونوا فى شأنه ، واستخفوا بدعوته — ربما علقت كلماته بنفوس بعض ابنائهم فيولعون بها ويشبون عليها ، وحينئذ يعظم أمرها ، ويستفحل خطبها . فصاروا يداورون نوحا عليه السلام ، ويحاولون اسكاته وصرفه عن الجهر الى المذاكرة معه فى السر . فلم يأب نوح ذلك عليهم ، وجعل يصف لهم دعوته ، ويبلغهم أمر الله فى مجالس خاصة ، يعقدونها بينهم ، لكنه مع هذا بقى مصرا على الجهر بالدعوة والاعلان بها

(١) وقدها : مصدر وقدت النار اشتعلت . وكل شىء يتلألأ فهو يقد ، حتى الحافر اذا تلألأ بصبصه .

لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

فى المجامع ،وحيث يكون الدهماء والجمهور. وهذا هو الطور الثالث من أطوار نوح فى دعوة قومه ، وتبليغه رسالة ربهم اليهم . وقد أشار الى ذلك بقوله : **(ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا)** .

والعطف بثم يشعر بأن الاعلان والاسرار الاخيرين كانا طريقة ثالثة سلكها نوح فى الدعوة ، غير طريقة السر المحضة ، وغير طريقة الجهر المحضة . فكان فى الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الاعلان ، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الاسرار.

ثم بين ما وعظهم به سرا وعلانية فقال : **(فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفارا الخ)** ، أتاهم من طريق القلب ، وتحريك العواطف ، والتذكير بأن ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والذرية وجدب الأرض وقحولها ــ انما سببه كفرهم بالله الذى بيده وحده ارسال المطر ، واغداق الرزق ، والامداد بالأموال والبنين ، وأنه لاينبغى لهم أن يكفروا بهذا الاله الذى يقدر أن يمنحهم أمثال هذه النعم ، ويعبدوا آلهة أخرى ، اخترعوها ، لاتضر ولا تنفع . فقوله : (استغفروا ربكم) ، أى آمنوا به ، واطلبوا منه أن يصفح عما فرط منكم . فالأمر بالاستغفار يقتضى أمرا بالايمان ، لأنه لا معنى لأن يطلب الجاحد من الله غفران معاصيه وهو مقيم على كفره ، وتكذيب نبيه . وقد يقال فى معنى (استغفروا ربكم) اطلبوا منه تعالى أن يغفر لكم الذنب الأكبر وهو الشرك به وعبادة غيره ، وليس معنى هذا سوى الايمان بالله وترك الشرك . ويلائم هذا المعنى قوله بعده : (انه كان غفارا) ، أى أن ربكم من صفاته الرحمة فهو يرحمكم ، ويغفر لكم ما مضى من شرككم به وعبادة الآلهة غيره ، وانكم ان تؤمنوا به وتستغفروه **(يرسل السماء عليكم مدرارا)**، و (يرسل) مجزوم جوابا لاستغفروا .

و (السماء) فى قوله(يرسل السماء عليكم)المطر. وهذا الاستعمال معهود متداول لدى أهل اللسان ، بل تطلق (السماء) أحيانا على الكلأ الذى ينبت بهطول المطر عليه. وكل هذا تجوز وتوسع فى كلمة(السماء) التى معناها فى الأصل ما أظل الانسان من جهة العلو . وقد جاء المعنيان فى قول الشاعر :

اذا نزل السمـــاء بأرض قوم
رعينـــاه وان كانوا غضـــابا

فقوله « نزل السماء » أى المطر ، وقوله « رعيناه » أى رعينا السماء بمعنى الكلأ والعشب الناتج عن المطر . واعادة ضمير « رعيناه » على السمـــاء بغير معنـــاها الأول نوع بديعى يسمى الاستخدام . و (المدرار) الكثير الدرور ، الغزير الانسكاب . و (الامداد) الاعانة بالشىء ، والتمتيع به على وجه الافادة والانتفاع . و (الجنات) البساتين ذات الأشجار المظلة ، المثمرة المغلة .

ويفهم مما قاله نوح لقومه أن قومه كانوا مجدبين ممحلين محارفين مشئومين ، وأن فســاد أمرهم ، وسوء أخلاقهم ، وغلبة الذنوب عليهم ، واخلادهم الى البطالة والكسل ، وجهلهم بشئون الزراعة والصناعة وأفانين العمل ــ كل ذلك أدى الى حرمانهم مما كان فى طاقتهم أن يحصلوا عليه لو آمنوا وأطاعوا ، واتبعوا الشرائع التى أتاهم بها نبيهم نوح من عند الله ، والتى يصلح بها شأنهم ، وينتظم أمرهم ، وتكثر ذريتهـم ، ويستبحر عمرانهم .

فبالايمان بالله ، وبالعمل بشرائعه ، وبطاعة نبيه يتدربون على العمل ، وانشاء البســاتين ، وغـرس الأشجار ، وحفر الترع والأنهار ... وبذلك تغزر محاصيلهم ، وتكثر أرباحهم ، وتتـوفر مكاسبهـم . ويغدودق الرزق والمـال بينهـم . وبترك المعـاصى والفواحش والفجور ــ ينتظم أمر البيوت ، وتتوثق روابط الألفة والمحبة بين أفراد الأسرة ، ولا سيما بين الزوجين ، فيطيب اذ ذاك العيش ، وتتوفر دواعى الهناء ، ويبارك الرب سبحانه فى الذرية والبنين .

كانت هذه الأمة التى هى من أقدم أمم التـاريخ محرومة من كل هذه البركات ، لكنها كانت شـديدة التشوق اليها ، والحرص عليها ــ فجاءها نبيهـا نوح يرشدها ويعلمها ، ويبلغها عن خالقها ما به صلاحهـا ونجاح طلبتها ، ويؤكد لها أنها ان اطاعته انتقلت باذن خالقها الى طور فى الاجتماع أكمل ، ودخلت فى دور من أدوار الحياة أفضل وأمثل .

بعد أن أطمع نوح قومه فى الآيات السابقة بالحصول على بركات السماء وخزائن الأرض ان هم آمنوا بالله الذى بيده مفاتيح هذه الخزائن ، ومنه وحده تستمد تلك البركات ــ عاد فهز نفوسهم وعطفها نحو الايمان بأسلوب آخر من أساليب البيان ، فقـال : **(مالكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ؟)** .

والعمدة فى هـذا الأسـلوب استعمال العقل ، والاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظر والتفكير فى خلق أنفسهم ، ثم فى خلق هذه الكائنات

العلوية والسفلية ، كما كان العمدة فى أسلوب الآيات الماضية ، هز القلب وتحريك عواطفه نحو شكر المنعم الذى فى الشكر له والايمان به استزادة من تلك النعم ، وتعجيل فى الوصول اليها .

و (الرجاء) الأمل . وقد عطف عليه فى قول كعب : « أرجو وآمل ان تدنو مودتها » . وقد تضعه العرب فى موضع الخوف اذا صحبه جحد، كما قال أبو ذؤيب « اذا لسعته النحل لم يرج لسعها » . يصف مشتار العسل : يقول انه لايخاف لسع النحل اذا هى لسعته لاعتياده ذلك منها .

والرجاء فى لغة هذيل وخزاعة ومضر المبالاة يقولون لم أرج يعنون لم أبل .

و (الوقار) فى الانسان الرزانة والحلم . يقال : «وقر فلان» اذا رزن . أما الوقار فى جانب الله فبمعنى العظمة . والتوقير التعظيم . يقول نوح لقومه : مالكم ايها القوم لاتخافون لله عظمة ، أو لاتبالون عظمة الله فتؤمنوا به ، ولا ترهبون له جانبا فتدعوا عبادة غيره ، وانتم اذا نظرتم فى أنفسكم وفى الآفاق رايتم من غريب صنعه ، وعجيب ابداعه، مايستدعى منكم تلك المخافة والرهبة .

والمراد (بالأطوار) ما عليه البشر فى أفرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد ، والسعادة والشقاوة ، والخير والشر ، والفضيلة والرذيلة : تصنيف الناس الى هذه الأصناف ، وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة ، وشأن دون شأن — دليل على وجود اله حكيم مدبر مريد يخص من شاء بما يشاء .

والذى عليه الأكثرون ان المراد (بالأطوار) حالات التخليق غير المستقرة ، التى يتدرج فيها الانسان من حالة الى حالة ، وينتقل من طور الى طور : طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، ثم عظما قسيا ، قد كسى لحما طريا ، ثم بشرا سويا ، وروحا عبقريا — فتبارك الله أحسن الخالقين .

نبه نوح قومه الى النظر فى انفسهم اولا ، لأنها اقرب اليهم ، والاستدلال بها أيسر عليهم ، ثم أمال اعناقهم الى الآفاق ، قائلا : **(الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا)** ، كأنه فى هذا الاستفهام يعجبهم من أمرهم فى تأخر صدور الايمان منهم ، مع انهم سبق لهم أن رأوا السموات ، ووقفوا على شىء من عجيب صنعها ، وتسوية طباقها ، أو انه نزلهم منزلة العميان الذين لم يروا لغلبة الجهل والذهول عليهم .

ولفهم من (السموات) ما كان يفهمه منها المخاطبون الذين نزل القرآن بلسانهم (1) ،وهو ماارتفع فوقهم من الفضاء الأزرق الذى تسبح فيه الكواكب والنجوم فى طرائقها ومداراتها . هذه الكواكب والنجوم المشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بواسطة الرصد وأدوات المراقبة — لم تكن كلها فى رقيع واحد من الفضاء ، بل عرف منذ عهد نوح عليه السلام أنها متفاوتة فى العلو والارتفاع : بعضها أعلى من بعض ، كما أن بعضها اكبر جرما من بعض . وبهذا الاعتبار كان الفضاء الذى تسبح فيه تلك الأجرام الهائلة طباقا، طبقة فوق طبقة . فالذى يرى السموات بشهد بعينه وعقله أنها ذات طبقات متعددة . وقد عرفت الأمم منذ ذلك العهد أن تلك الطبقات سبع ، وأن فى كل طبقة كوكبا منيرا يدور فيها ، فاصبحت مدارا له ، وفلكا يتجلى فيه نوره . وقد عرف نوح من قومه يومئذ انهم بلغوا من العلم الى معرفة تلك الكواكب السبعة ، كما عرفوا منازلها وطبقاتها ، وطرائقها ومداراتها .

والرؤية المستفهم عنها فى قوله (الم تروا ؟) انما هى الرؤية العلمية التى تكون بالاستدلال والاكتساب، واعمال القياس والحساب ، وليست هى الرؤية البصرية التى تكون بمجرد العين ، فان العين وحدها لا يمكن ان ترى سموات سبعا ، واحدة فوق أخرى ، وانما ترى جلدا واحدا فيه نجوم متعددة .

ومحصل القول أن البشر فى زمن نوح — وهو الزمن الذى عاش فيه الكلدانيون المشهورون بعلم الهيئة ورصد الكواكب وعبادة النجوم ، ويسمون الصابئة ايضا — كانوا توصلوا الى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وقد قسموا الفضاء باعتبارها الى طبقات سبع ، وبقيت هذه المعرفة متوارثة فى الأمم جيلا بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخوطبوا عن أمر السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم ، وهو أن السموات سبع، وأن طباقها طبقة فوق طبقة .. الى هذا القدر بلغ علم الأمم فى الزمن القديم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب والأجرام السماوية الكبرى فى الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا ان يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط ، بل ان الله عنده من علم السماء وعدد أجرامها وتأليف طباقها مالم يصل اليه علم البشر ، اللهم الا ما علموه فى العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا ، والا ما علموه فى العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السيارة الأخرى، وبعض الطبقات والمدارات الأخرى. ولا مانع أن يطلع الله البشر فى المستقبل على غير ذلك من الأجرام والطبقات . ولكن خطاب الله للأمم ووحيه اليها انما يكون بما تدركه عقولها ، وتلمسه حواسها ، ويبلغ اليه تصورها فى عهد انزال الوحى ، ويكفى فى الدلالة على المطلوب .

وقوله تعالى : **(وجعل القمر فيهن نوراً)** فيهن اى فى السموات السبع ،ولا يضره أن يكون القمر فى الواقع ونفس الأمر فى أدنى تلك السموات وأقرب طبقاتها الينا لافيها كلها ، لأنه أسلوب عرف التخاطب به بين اهل اللسان ، فهم يقولون : أن فلانا يسكن المدينة الفلانية ، يريدون انه ساكن فى حى من أحيائها وجهة من جهاتها لا فى كل حى وجهة منها . وكذلك هنا مذ قال : ان القمر فى السموات اى فى مجموعها ، الصادق باستقراره

(1) قال ابن سيده فى المخصص « جزء ١٦ صفحة ١٨١ » ما نصه : « والسماء والسماوة مدار النجوم » وقد مر مثله .

الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا

فى واحدة منها ، ومثله قوله تعالى : (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن) مع انه انما أنزل فى ليلة واحدة من ليالى رمضان ، وهى ليلة القدر ، لا فى رمضان كله .

ومن مواضع العجب أن الكتاب لم يقل عن الشمس أنها جعلت فيهن ، أى فى السموات ، كما قال عن القمر انه جعل فيهن . وقد عرف اخيرا أن الشمس هى مركز النظام الشمسى ، وان السيارات السابحة فى سمواتها ومداراتها تحتف بالشمس ، وتدور حولها من كل جانب ، فلم تعد الشمس بهذا الاعتبار معدودة فى السيارات السابحة فى السموات ، المرتبة طبقات طبقات . أما القمر فمعدود فيها ، وله مركز وموقع من تلك السموات .

و (السراج) آلة الاستصباح المعروفة ، وتسمى الشمس نفسها سراجا لأنها سراج النهار يستصبح بها الناس فيه كما يستصبحون بالسرج والمصابيح فى ليلهم ، ولم يسم القمر بهذا الاسم (أى باسم سراج) لأن الارتفاق بنوره فى الليل أقل بكثير من الارتفاق بنور الشمس فى النهار ، وانما هو نور يستضاء به فى الجملة ، كما يعلم به عدد السنين والحساب . وكما أن التعبير عن الشمس بالسراج أفاد أن نورها أشد وأتم وأكمل فى الانتفاع من نور القمر كذلك قوله تعالى فى الآية الأخرى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) — أفاد ذلك أيضا ، وذلك لأن الضياء أقوى من النور فى الأعم الأغلب من اطلاق الكلمتين . وهذا قد يؤيد ماتقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ونور القمر عرضى مكتسب من نورها .

ثم رجع نوح فأمال أعناق قومه عن السماء الى الأرض ، وحضهم على التفكير فى عجائب ما فيها من الشئون والأطوار . فمن ذلك خلق المخاطبين أنفسهم ، وكيف سلوا من تراب الأرض كما يسل النبات . والأصل فى معنى الانبات اخراج الله النبات من الأرض . أما بنو آدم فيخرجهم خالقهم من بطون أمهاتهم أطفالا ، ثم ينشئهم بما يغذيهم من اللحوم والنباتات انشاء يبلغون به أشدهم . لكن لما كان اخراجهم وانشاؤهم بشرا سويا انما يتم بتناول آبائهم وأمهاتهم ثم بتناولهم هم بعد الولادة — عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض .. كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التى تنمو بامتصاص غذائها من الأرض مباشرة ، فلذا سمى خلقهم وانشاءهم انباتا . وهذا يشير الى وحدة عالمى الحيوان والنبات واشتراكهما فى كثير من النواميس التى تتعلق بالحياة العامة ، كالتلاقح والتوالد والاقتياد والنمو والتنفس ، وتطورات أخرى من هذا القبيل . ومن ثم قال بعض الحكماء : ان الانسان شجر اقتلع بجذره من الأرض فمشى ودلف ، وان الشجر انسان غاص بقدمه فى الأرض فثبت مكانه ووقف .

فمعنى قوله (**والله أنبتكم من الأرض نباتا**) أنكم(١) وان كنتم بشرا فى حقيقتكم فأنتم نبات باعتبار اتكالكم فى حياتكم الحيوانية على عناصر الأرض كاتكال النبات فى حياته النباتية عليها . فالله الذى أنبتكم هذا الانبات ، ويسر لكم من عناصر الأرض الأرزاق والاقوات ، ثم خصكم تفضلا منه وكرما بالحياة الحيوانية ، ثم زادكم كمالا بافاضة الحياة الانسانية ، ثم آثركم بمواهب النفس والعقل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة ... الاله الذى هذا مبلغ عنايته بكم ، وذلك قدر انعامه عليكم — يجدر بكم أن تعبدوه وحده ، وترهبوا وعيده ووعده (٢) .

و (نباتا) مصدر (نبت) الثلاثى ، لكنه أقيم مقام مصدر (أنبت) الرباعى ، وجاء تأكيدا له ، فقيل أنبتكم نباتا مكان أنبتكم انباتا . وقال بعض المدققين هو مصدر الثلاثى ، وجعله من نوع الاحتباك البديعى ، وقال ان أصل الكلام هكذا « والله أنبتكم من الأرض انباتا فنبتم نباتا » فهما فعلان لكل مصدره . لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثانى لدلالة مصدره عليه ، وبذلك جاء الكلام موجزا فى مبناه ، موفرا وافيا فى معناه .

أما وقد ذكر نوح لقومه عجيب صنع الله فى اخراجهم من الأرض اخراج النبات ، فقد تمهد له السبيل الى تذكيرهم بأمر البعث الذى كان القوم ينكرونه فقال :

(**ثم يعيدكم فيها**) ، أى مقبورين فى الأرض بالممات ، كما أخرجكم منها منشئين بالانبات (**ويخرجكم اخراجا**) أى من الأرض ثانية بالبعث بعد اللبث الطويل فيها .

وأصل النزاع مع المخاطبين فى قضية الايمان بالله التى لايسلمون بها ، لكن نوحا لما استدل على وجوب الايمان بما كان من غريب صنع الله فى ايجادهم مستلا لهم من الأرض استلال النبات — ناسب أن يستدل لهم بهذا الدليل عينه على قضية البعث واحيائهم الحياة الثانية ، فقال لهم : انه تعالى كما أنبتكم من تراب الأرض يعيدكم بالموت الى ترابها ، وسيخرجكم

---

(١) لم اعد أكلف نفسى عناء تصحيح امثال هذا التركيب (انه وان كان كذا فهو كذا) بعد أن سمعت الجاحظ فى كتابه الحيوان (س ١٤ ص ٤٦ ج ١) يقول (لانه وان كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة) . على أن النحوى الفطن لا يصعب عليه توجيهه وتطبيقه على القواعد .

(٢) (ووعده) منصوب بفعل محذوف على حد (علفتها تبنا وماء باردا) ، أى وتأملوا وعده .

بعد منها أحياء للعرض والحساب، والثواب والعقاب. واذا تأملتم فى انباتكم واخـراجكم مـن الأرض للمرة الأولى ، سهل عليكم تعقل اخراجكم من الارض بعد الممات وانباتكم منها بحسب الناموس الذى يضعـه الله اذا شاء لهذا الانبات الثانى .

أشرنا آنفا الى أن الانسان اذا كان يشـترك مـع النبات فى بعض الخصائص والأحوال ، فانه يفارقه بالمواهب السامية التى مازه الله بها. ومن تلك المواهب حريته فى الانتقال والمشى على سطح الأرض من جهة الى جهة ، ومن رجا الى رجا ، ولم يخلقه سادكا (١) بمكانه كالنبات لايبرحه الى أن يمـوت . وتشبيهـه بالنبات هو الذى وطأ السبيل بين يدى ذكر النعمـة الجلى : وهى جعل الله الأرض بساطا للبشر يتقلبون عليها كيفما شاءوا ، ماداموا خلقوا عـلى غير خلقـة النبات ، فهم يضربون فيها ذات اليمين وذات الشمال للسياحة والنزهة وطلب العلم وكسب المال .

و (البساط) ضرب من الطنافس معروف ، سمى بساطا لكونه يبسط ويفـرش عـلى الأرض فيجلس عليه الجالس كما يطيب له . وهكذا الأرض : بسطها الله للبشر ، ومهدها تحت مواطىء أقدامهم ، لأجل أن يسلكوا منها سبلا فجاجا توصلهـم الى أغراضهـم ، وقضاء مصالحهم .

و (السبل) جمع سبيل ، وهو الطريق،و(الفجاج) جمع فج ، وهو الطريق الواسـع . والفج فى أصـل معناه أن تباعد الناقة بين رجليها للحلب ، ويبـاعد الرجل بين رجليـه عنـد أرادة المشى أو لأمر آخر . فالطريق الفج كأنه لاتساع ما بين جانبيه قد تفاج كما تتفاج الناقة عندما تحلب، وبهذا الاعتبار صح أن تكون الفجاج صفة للسبل ، كأنه قيل سبلا متسعة متباعدة الأطراف. وجاء فى كلامهم : « قطعوا اليك سبلا فجاجا، حتى أتوك حجـاجا » . وأكثر ما يستعمل الفج فى الطريق الواسع بين جبلين ، لظهور التفاج والتباعد بين سفحيهما ، لكنه يستعمل أحيانا فى مطلق الطريق الواسع كما ذكرنا ، وعليه ظاهر الآية (٢) .

وصف نوح فى الآيات السابقة كيف كان يدعو قومه الى الايمان بالله ، وبأى الأساليب كان يحذرهم وينذرهم ويحتج عليهم ، وكيف كانت أحوالهم ازاء دعوته مـن الاصرار وسد الآذان واستغشاء الثياب ، مفرغا كلامه فى قالب عرض الأمر والشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الرسالة اليهم . وقد انتقل فى هذه الآيات الى ذكر نتيجة الدعوة وأنها لم تنجح فى القوم ، وبيـان السبب فى عدم نجاحها ، موردا ذلك كله أيضا فى ضمن الشكوى الى الله العالم بما كان منه ومنهم ، وبجميع أسبابه وعلله ومصايره . لكن المخاطبين وهم قريش كانوا لايعلمون ، فلهم من خبر هؤلاء القوم وما حل بهم من العقوبة الالهية أكبر واعظ لو كانوا يعلمون .

يقول نوح ان قومه عصوه وانصرفوا عن سمـاع دعوته الى سماع كلام رؤسائهم فاتبعوهم وأطاعوهم، وعدل عن ذكر هؤلاء الرؤساء المتبوعين بأسمائهم الى الكناية عنهم باسم الموصول وهـو (من) ليتوصـل بصلته الى بيان سبب مقاومة الرؤساء له ، وتمكنهم من استتباع القوم واضلالهم . ذلك أن أولئك القادة كانوا على جانب عظيم من المال والولد ، فلهـم مـن سعة مالهم ، وعصبية أولادهم قوة يقاومون بها نوحا . وهم يعلمون أن ايمانهم به يجعلهم تابعين له فيأمرهم وينهاهم بما يريد فى أموالهم وأولادهم . فالايمان بنوح فى زعمهم مضيعة للمال ، ممحقـة للعصبية ، ومـذ يرجعون خولا وأتباعا فى قومهم بعد أن كانوا سـادة متبوعين . وشأنهم فى هذا شأن عظماء كل أمة دعاها داعى الحق الى طاعتـه ، والعمل بنصيحته . هـذا هو الخسار الذى قال نوح عليه السـلام انه أصـاب عظماء قومه . ومنشؤه مالهم وولدهم ، وهم بالمال والولد تمكنوا من صرف قوم نوح عن استماع دعوته، والايمان بما جاء به . كانوا يتهددون أولئـك الضعفاء بعصبيتهم ، وأبناء عشيرتهم ، وكانوا يجدون من المال والثراء مايساعدهم على غرضهـم ، بل ربمـا كانوا ينفقون من أموالهم فى شراء ذمم أولئك المسـاكين ، وامتلاك قلوبهم ، فيرشونهم ، ويدلون اليهم بالصلات والهدايا ، ويقيمون لهم الولائم والمآدب . فانظر كيف توسلوا بما أوتوا من المال والولد الى اضلال قومهـم والتلعب بعقولهم . لا جرم أنهم ازدادوا بذلك خسارا على خسار ، وأحلوا قومهم وأنفسهم دار البوار .

هذه الطريقة التى احتـذاها أولئك الرؤسـاء فى مقاومة نوح واضلال قومهم ــ كانت مكرا وخداعا : مكرا بنوح من جهة أنهم ماكانوا يطلعونه على كل مايعملون فى السر لمقاومة دعوته، واحباط سعيه ، ومكرا بقومهم من جهة أنهم كانوا يخفون عنهم الحقيقة ، ويحولون بينهم وبين الايمان بنوح والتصديق بما أتاهم به مـن الوحى ، مظهرين لهم أن الخير كله فيما يشيرون به عليهم ، من ترك عبادة الله والبقاء على عبادة الأصنام التى هى دين آبائهم . وهـذا معنى قول نوح عليـه السلام : **(ومكروا مكرا كبارا)** ، وأى مكر أكبر ممـا فعلوا . وهو معطوف على صلة من ، أى اتبعوا من لم يزده ... ، واتبعوا من مـكروا ... ؟ و (كبـارا) بمعنى كبير قرئت بتشديد الباء وتخفيفها . وكلمـا زادت حروف الكلمة زاد معناها عظما أو شدة ، فيقال: مكر كبير وكبار وكبّار ، كما يقال : رجل طويل وطوال وطوّال ، وأمر عجيب وعجاب وعجّاب .

ومن طرق المكر التى كان يسلكها أولئك الرؤساء فى اضلال القوم حضهم لهم عـلى الثبـات فى عبـادة معبوداتهم، فكانوا يقولون لهم بهيئة المتنصح المخلص : **(لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغـوث ويعوق ونسرا)** .

---

(١) سدك به كفرح : لزمه ولم يفارقه ، ومنه قول الحريرى: « فسدكت بمكانى ، وجعلت شخصه قيد عيانى » .

(٢) وفى المخصص (جزء ١٠ صفحة ١٢٦) الفج والجمع الفجاج وبما كان طريقا بين حرفين مشرفين ، وربما كان طريقا عريضا ، وربما كان ضيقا ، واذا لم يكن طريقا كان أرضا كثيرة العشب والكلأ ا هـ . وحرف الجبل أعلاه المحدد .

كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ

(لا تذرن) لاتدعن ولا تتركن . وكانت للقوم آلهة كثيرة لاتحصى ، اكبرها شأنا ، واعلاها منزلة ــ هذه الخمسة : ود وسواع واخواتهما . فكان الرؤساء يعمون فى النهى عن ترك الآلهة ، ثم يخصون منها هذه الخمسة بالذكر ، وهذا من شدة كفرهم ، وفرط تعنتهم فى مكرهم .

والخمسة المذكورة اسماء آلهة أو اسماء أصنام أو اسماء أسلاف صالحين للقوم كانوا يعبدونهم من دون الله . ولعبادة الأوثان فى الأمم القديمة طريقتان :

(الطريقة الأولى) مذهب الصابئة ، واساس هذا المذهب الاعتقاد بأن فى الأجرام السماوية أرواحا متصلة بعالمنا الدنيوى اتصال عناية وتدبير ، وتبديل وتغيير . ولما كانت الأجرام السماوية مختلفة فى أحوالها وأشكالها متباينة فى أطوارها وأقدارها ، وهى غائبة عنهم ، بعيدة عن مواقع أنظارهم ، وهم فى كل وقت فى حاجة الى التبرك بها ، واستمداد المعونة من روحانياتها ــ رأوا أن يصطنعوا لكل منها جسما يمثله ويدنيه من متناول الفكر والتصور ... فاتخذوا الأصنام ، ونحتوا الأوثان ، وعبدوها من دون الله . ويقال أن هذا الدين ــ دين الصابئة ــ هو أقدم الأديان البشرية الباطلة على الاطلاق . وبقى حتى زمن ابراهيم الخليل عليه السلام ، فقضى عليه شر قضاء ، وعلم بدين آبائه : آدم وادريس ونوح ، وهو عبادة الله وحده . ثم انتقل دين التوحيد من نوح الى أولاده ، وبواسطتهم انتشر بين الأمم ، من عرب وعجم . ولعل ودا وسواعا وبقية الخمسة التى عبدها قوم نوح كانت أصناما منحوتة على اسم بعض الكواكب ، فان منها (نسرا) وهو اسم لكوكبين سماويين : يقال لأحدهما « النسر الواقع » وللآخر « النسر الطائر » . وللأشوريين خلفاء قوم نوح اله يسمونه « نسروخ » أى النسر العظيم ، وكان له هيكل فى عاصمتهم « نينوى » ، وانك ترى فى آثارهم اليوم صورة انسان برأس نسر وجناحيه ، فلعله رمز الى ذلك الاله .

(والطريقة الثانية) لعبادة الأوثان هى قيام أفراد من البشر ينبغون فى نبوة أو كهانة أو حكمة أو بطولة أو خلق من الأخلاق العالية بصورة غير معهودة فى الناس الآخرين ، فيفتتن بهم أقوامهم ، ويرون أن هذا التفوق والنبوغ لم يكن الا لحلول روح الهى فيهم ، فيعبدونهم فى حياتهم ، وفى الأعم الأغلب بعد مماتهم ، ثم يتخذون على مثالهم صورا أو أصناما أو مواثل أخرى يذكرونهم بها ، ويتقربون بالنذور والبخور والصلوات وضروب العبادات اليها على نحو مايفعل الصابئة فى عبادة الكواكب . وقد ضربت عبادة النوابغ بجرانها فى جنبات الأرض ، فلم يعد يقوى على محوها الدين السماوى نفسه ، وقد لايقوى الا بمعونة العلم ، وانفكاك العقل من قيود الوهم . ولعل وثنية قوم نوح وعبادتهم لود وسواع كانت من هذا القبيل . وقد بقى لعبادة هذه الأصنام أثر فى جزيرة العرب أو فى بلاد اليمن خاصة حتى زمن البعثة المحمدية ، فكان (ود) لبنى كلب بدومة الجندل ، وهو على صورة رجل . و (سواع) لهمدان أو هذيل ، وكان على صورة امرأة . و (يغوث) لمذحج أو غطيف من مراد فى سبأ ، وكان على صورة امرأة . و (يعوق) لمراد أو لهمدان ، وهو على صورة فرس . و (نسر) لحمير أو لذى كلاع من حمير ، وهو على صورة نسر . وكان العرب يسمون أولادهم بعبد ود ، وبعبد يغوث .

ومن تأمل ماقلناه فى مناشىء ظهور الوثنية فى البشر فهم السر فى كون الدين الاسلامى يحرم اقامة الصور ونصب التماثيل وتشييد القبور وتجصيصها على رمم العظماء . وفى حديث على رضى الله عنه : « ارسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : « لاتدع صنما الا طمسته ، ولا قبرا الا سويته » ا هـ ، فان الوثنيين كانوا يتخذون من مواثل القبور والأصنام ذكرى لرجالهم الصالحين ، وليست ذكراهم لهم ذكرى عظة واعتبار ، وانما هى ذكرى استمداد أسرار ، واقتباس أنوار ، واستغراق واستحضار ، واسترزاق واستمطار ، والتماس منافع واستكفاء اضرار . فسد دين الاسلام الذريعة بتحريم هذه المواثل خشية أن تسترهب ضعفاء العقول وتستهويهم ، ومن مزالق الوثنية تقربهم وتدنيهم . فلله الاسلام ما أعدله فيما شرع وحكم ! وما أوضح نهجه فيما خط لنا من الهداية ورسم ! !

وقوله : (**وقد أضلوا كثيرا**) من تتمة كلام نوح عليه السلام وشكواه الى ربه ما لاقى من أولئك الرؤساء الذين مكروا بقومهم ، وزينوا لهم عبادة الأوثان . فهو يقول : أن هؤلاء الرؤساء يارب كانوا من قبل (قد اضلوا) خلقا (كثيرا) غير هؤلاء القوم المساكين الذين أدعوهم الى الايمان اليوم ، أو انه يريد أن اولئك الرؤساء بما توفر لديهم من قوة المال والولد والمكر والتسويل ــ أضلوا وما زالوا يضلون خلقا كثيرا . وفى جملة من اضلوا قومى هؤلاء .

وكأن نوحا عليه السلام انتبه الى أن صدور هذه الشكوى منه الى ربه ربما أوهم غفلته او ذهوله عن سنن الله ومشيئته فى خلقه ، فختم شكواه بقوله : (**ولا تزد الظالمين الا ضلالا**) .

وظاهر قوله : (لا تزد) الدعاء الى الله أن يزيد الظالمين ضلالا . وهذا مستبعد من نوح ابى الأنبياء الذين هم مثال الرفق بالبشر والرحمة لهم والعطف عليهم ، وانما هو فى الظاهر دعاء وطلب ، وفى المعنى

اخبار عن استمرار مشيئته تعالى فى خلقه عاملة ، وبقاء سننه مطردة شاملة ، لا تشذ ولا تتخلف ، كأنه يقول : انك يارب فى عدم هدايتك قومى الى الايمان بك انما تتمم مشيئتك القديمة ، وتنفذ سنتك الحكيمة . فان قومى الذين ظلمـوا بعدولهم عن محجـة الحق سيبقون فى ضلال عنها ما داموا فى ظلمهم وتعسفهم ، بل انهم كلما ازدادوا ايغالا فى هذا الطريق الذى أخذوا فيه ازدادوا ضلالا وبعدا عن محجة الحق شأن الذى ينحرف عن رأس الجادة ، فانه كلما اوغل فى الناشطة(١) التى سـلكها ، ابتعـد عـن الطريق الأعظـم حتى يتورد حتفه . فهذا كما ترى سنة الهية ركب الله عليها هذا الكون ، فلا تخالف أمة من الامم أمر الله ، ولا تدابر سننه ، ولا تستخف بنواميسه ـ حتى تضل عن طريق السعادة ثم تهلك . وعلى العكس الامة التى تعمل بأمر الله ، وتراعى سننه ونواميسه . فنوح عليه السلام يأسف لكون أمته من الفريق الاول ، فهو بعد أن وصف حالها ، وندب مآلها ـ عاد فقال : لتـدم مشيئتك يارب ، ولتنفذ ارادتك ، ولتستمر سنتك .

قول نوح فى ختـام الآيات السـابقة : (ولا تزد الظالمين الاضلالا) يشعر بيأسه من ايمانهم ، واستئناسه منهم التمادى فى الكفر والضلالات ، والاصرار عـلى ارتكاب الخطيئات الى ما شاء الله . وامة هذا شأنها تستحق العقاب الالهى أن يحل بها ، والعذاب السماوى أن يدمدم عليهـا . وهذا معنى قوله تعالى : (**مما خطيئاتهم أغرقوا**) . وهو اعتراض بين قولى نـوح الماضى والآتى . و (من) لافادة التعليل والسببية ، كأنه يقول أغرقوا بخطيئاتهم وبسـببها . و (ما) المتصلة (بمن) هى التى يسمونها الصلة . وزيادتها انما هى باعتبار اللفظ بحيث اذا اسقطت بقى شمل الكلام منتظما . أما باعتبار المعنى فالمقام فى حاجـة اليها ، اذ هى تفيد المبالغة والتأكيد ، كما أفاد ذلك تقديم المتعلق على الفعل ، فهذا التقديم مع وجود (ما) افاد أن كفر القوم وخطاياهم كانت العامل القوى فى اغراقهم ، وأنهم لو لم يرتكبوا هذه الخطايا لكانوا نجوا من الهلاك بارادة الله التى يتجلى لنا أثرها فى هـذا الكون ونواميسه .

وكان أكبر خطيئات القوم الكفر بالله ، لكن انضم الى هذا الكفر ذنوب وآثام زادته غلظا وشـدة ، من ابشعها ايذاؤهم نبيهم نوحا عليه السلام مدة مفرطة فى طولها ، عبر عنها القرآن بقوله (الف سـنة الا خمسين عاما) .

أما الطوفان الذى أغرقوا به فنؤمن به اجمالا تبعا لاجمال ما جاء فى القرآن وهـذا هو : (حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معـه الا قليل ... وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ... وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سـماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى) .

(١) هى الطريق يتشعب من الطريق الأعظم يمنة أو يسرة .

هذه الآية أكثر تفصيلا لحادثة الطوفان من سـائر آيات الكتاب التى أنزلت فى وصفها ، ولا يكلف المسلم أن يعتقد بما وراء ما تضمنته من الحقائق بشأن هذا الطوفان ، وتلك الحقائق هى :

١ ـ انه قد تقدم الطوفان فوران تنور .
٢ ـ أن نوحا عليه السلام حمل معه فى السفينة أهله والمؤمنين به القليلين وأزواجا من المخلوقات .
٣ ـ أن السفينة جرت بهم فى موج كالجبال .
٤ ـ انها استقرت على الجودى (١) بعد أن أقلعت السماء ، وغاض الماء .
٥ ـ أن نوحا وأهله والمؤمنين به نجـوا ، وهلك الباقون المكذبون ـ بالغرق أجمعين .

أما الروايات والأساطير الأخرى المتعلقة بهـذا الطوفان ، فمما لايجب علينا الايمان به ايمانا جازما ، وانما نكل أمره الى الله تعالى والى التحقيق العلمى ، حتى أن مسألة شمول الطوفان لجميع اقسام الأرض وعدم شموله ـ لم يرد عنها فى الكتاب نص قطعى . وكلمة (ارض) فى قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) ليست نصا فى الدلالة على جميع أجزاء سطح الارض ، وانما هى تستعمل أحيانا كثيرة استعمالا فصيحا فى الجهة الواحدة من جهات الارض ، ففى سورة يوسف : (قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم) . (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء) . والمراد بالارض فى الموضعين أرض مصر لا الكرة الارضية كلها . وليس هذا مماراة منا فى صـلاحية قدرة الله أن يعم سـطح الارض كله بالطوفان ، وانما نحب أن نقف فى العقائد خاصة على ما جاء فى صحيح النقل ، وارتاح اليه صريح العقل .

هذا ولم تنفرد الكتب السـماوية بذكـر حادثة الطوفان ، فقد ورد ذكرها أيضا فى كتب الصين واليونان وهى معروفة عند أميركا الشمالية والجنوبية . وقال بعضهم انه وجد أثر كارثة الطوفان فى جميع الاقطار وفى جميع تقاليد الامم ، ماعدا السودان فانه ليس فى بلادهم ولا فى تقاليدهم ما يدل على حدوثه . وذكرت الحادثة فى آثار الاشـوريين ، فقد عثر على صـحيفة أشورية تصف تلك الحادثة ، وكأن الكلام فيها وارد على لسان نوح عليه السلام مذ استقرت السفينة على الجودى ، فأرسل الغراب فلم يعد ، ثم أرسل الحمامة فعادت مبشرة بانكشاف اليابسة ، كما جاء مفصلا فى التوراة ، وهاك ترجمة ما قالته الصحيفة الاشورية :

« فى اليوم السابع ارسلت الحمامة ، فغابت ولم تجد مقرا فرجعت ، ثم أرسلت سنونوة فغابت فلم تجد مقرا فرجعت ، ثم أرسلت غرابا فغـاب ورأى انخفاض الماء فأكل وسبح وتاه ولم يعد ، ثم ارسلت الحيوانات الى جهات الرياح الأربع ، وسكبت سكيبة ، ثم بنيت مذبحا على قنـة الجبل ، وقطعت سـبعة

(١) قالوا هذا جبل مطل على جزيرة ابن عمر فى الجانب الشرقى من دجلة . وهوالمسمى (أراراط) . وقد ذكر (اراراط) فى التوراة لانه موضع استواء فلك نوح بعد الطوفان (تك ٨ : ٤) .

أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

أعشاب ، وتحتها وضعت صومر(١) وصنوبر وصمقر ، فاجتمع الآلهة عند فوحان الرائحة : اجتمعت كالذباب عند الذبيحة » اهـ

ولا يخفى ما فى الكلام الاخير من المنافـاة لآداب الوحى الصحيح .

و (النار) اذا اطلقت معرفة بالالف واللام أريد بها دار العذاب المعدة للاشرار بعد البعث والحسـاب . فايراد كلمة (نار) فى قوله **(فادخلوا نارا)** منكرة مع عطف الفعل بالفاء التى تفيد التعقيب من دون مهلة ولا تراخ ـ قد يشعر بأن المراد بهذه النار التى ادخلها الله قوم نـوح عقب الطوفان ـ ليست هى نار دار العذاب وانما هى نارأخرى قيل هى عذاب القبر . وروى عن الضحاك : انهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب . أو لعل المراد بالنـار التى أدخلوهـا ، وأسلمهم الغرق اليها ـ نار الخزى والخذلان ، نار الذل والهوان ، نار ألم النفس وعذاب الوجدان ، نار تتعذب بها كل أمة خالفت امر ربها ، وتلاعبت بشرائع دينها ، واستمرت فى عنادها وغشمرتها حتى تقلص ظلها ، وتشتت شملها ، واصبحت طعمة للطامعين ، وفقعا (٢) بقرقرة ، يدوسه السيد والقطين . على أنه لا مانع من أن يراد بتلك النار نار العذاب الاخروى ، ويكون تنكيرها لتهويل امرها ، كمـا يكون التعقيب بالفاء لافادة قرب الادخال وتحققه ، وكل آت مهمـا بعد قريب . وهؤلاء المكذبون الذين أغرقوا فأحرقوا لم يجدوا لهم انصارا ينصرونهم مما اراده الله بهم من الاغراق والاحراق ، وهـذا معنى قوله تعالى : **(فلم يجدوا لهم الخ)** .

ثم ان نوحا عليه السلام لما راى قومه غرقى وقد خلت منهم الدار وعفت الآثار قال : **(رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا)** .

(ديار) كلمة تقولها العرب فى سياق النفى لافادة تأكيد نفى وجود أحد من الناس . ومثلها قولهم « ما فى الدار صافر ، ولا فيها نافخ ضرمة » . واصل ديار ديوار فيعال : من دار فى الدار اذا ذهب وجاء فيها . يقول ما فيها متجول ، وقيل ان ديارا مشـتقة من الدار نفسها ، فمعنى ديار صاحب دار ملازم لها مقيم فيها ، كما يقال مثلا « جمال » لصاحب الجمـال و « كرام » لصاحب الكرم .

وقول نوح (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) يريد (من الكافرين) الذين ساروا على سيرة قومى . فليس المراد الدعاء عليهم بالاستئصـال والاجتيـاح ، كيـف وقـد أصـبحوا صرعى تحت مواقع بصره ؟ وقد أراد بالدعاء هنا ما أراده فى قوله السابق (ولا تزد الظالمين الا ضلالا) . فتكون آية (رب لا تذر الخ) شاهدا مؤيدا للمعنى الذى قلناه فى آية (ولا تزد الخ) من ان نوحا عليه السـلام أورد الخبر عما أودعه الله هذا الكون من السنن التى لا تتخلف فى الامم الشاردة عن أمره ـ فى صورة الدعاء . فقوله (لا تزد) و (لا تذر) معناهما لا تفعل يارب الا مامضت عليه سنتك ، وسبقت به مشيئتك ، وهو بذلك يعلن التسليم اليه تعالى ، والاعتراف بأن ماقضاه فى خلقه عدل ، وأن ماشاءه فيهم ماض نافذ لامعقب له .

ثم أتبع ذلك ببيان حكمة الله فى اهلاك الـكافرين فقال : **(انك ان تذرهم)** أى ان تدع الأشرار يتمتعون بسلطتهم وسطوتهـم ، ويتصرفون تصرف المستبـد المطلق فى ارتكاب المفاسد والمناكر ، ومخالفة شريعـة العدل ، ونواميس الحـق ـ **(يضلوا عبادك)** تستشر فتنتهم ، ويعظم فسـادهم ، ويسر الى بقيـة العبـاد المطيفين بهم ، المخالطين لهم ، فيفسـدوا ويضلوا عـن أمرك ومتابعة وحيـك ، ولاسيمـا اذا تأصـل الشر والفساد فى أولئك الأشرار ، وأصبح ملكة راسخـة فى نفوسهم ، فان خبثهم وفساد اخلاقهم ينتقل بالوراثة الى أولادهم وذراريهم ، فصار من مقتضى حـكمتك يارب محقهم واستئصالهم جملة ، فانك ان تركتهـم يلدون وينسلون ـ نموا وكثروا **(ولا يلدوا)** اذا ولدوا واعقبوا **(الا فاجرا كفارا)** مثلهم .

و (الفجور) بمعنى الفسوق والعدوان ، وهو تجاوز الشرائع والحدود التى أمر الله بالوقوف عندها .

وهنا مسألة ، وهى أن ذرارى قوم نوح الذين غرقوا : هل هلكوا معهم ؟ وكيف أهلكوا وهم لم يجنوا ذنبا ولم يقترفوا خطيئة من خطيئات آبائهم ؟

الظاهر انهم هلكوا معهم ، لأن الكتاب قال فيهـم (انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) ، وقال نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) الآية .

ولو قال قائل : ان هذا التعميم انما هو بالنسبة الى الكبار المكذبين مرتكبى الخـطايا ، أما صغـارهم فالكتاب سكت عنهم ، فنسكت معه ، ولا نخوض فى أمرهم ـ ماكان فى ذلك شاذا ولا نابيا .

وما يدرينا أن يكون تعالى قد أمد أولئك الأطفال بلطفه وتدبيره ، ويسر لهم بعض أسباب النجاة ، وكم

---

(١) شجر له ثمر كالبلوط .

(٢) الفقع ضرب ردىء من الكمأة يكون فى القرقرة (وهى الارض المنخفضة) لا يؤبه به ، ولا يجنيه أحد ، وانما تدوسه الاقدام ، فضرب مثلا للمستذل المتهن من الناس .

لله من امثالها ، على أنه تعـالى ان كان أهلك الأطفـال المعصومين ، مع الكبار المجرمين ـ فانه فاعل مختار لا يسأل عما يفعل . نعم قد تخفى علينا نحن الحكمة في ذلك ، وخفاؤها لاينفي وجودها . وان في الأوبئـة والطواعين التي تلم بالبشر فتستأصلهم مع ذراريهم استئصالا، وفي الزلازل التي تخسف الأرض وتحددها فتبتلعهم جميعا ابتلاعا ، وفي البراكين التي تثور وتهيج فتقذف الحمم والرماد بحيث تطمر البلاد التي حولها وتدفن تحتها سكانها كلهم كما روى لنا التاريخ عـن المدينتين الرومانيتين « بومبي » و « هركليوم » ـ أن في كل ذلك مشابهة ومحاكاة ، بل نسخة مطابقة لما وقع بقوم نوح كبارهم وصغارهم من الهلاك ، ويقال في تعليل هلاك هؤلاء ما قيل في تعليل هلاك أولئك .

على أن النفس قد تتسائل هذا السؤال نفســه في الصغار الذين يموتون بآجالهم قبل أن يبلغوا سن كمالهم . وقد رأيت يوما امرأة تتحسر على موت صغير لها ، أمضها فقده ، وأسقمها بعده ، فسمعتها تقول وقـد شخصت بعينيها الى السماء مغرورقتين بالدمـوع : « يارب مادمت تريد أن تسلبنيه قبل أن تمتعني فيه فلماذا أعطيتنيه ؟ » .

هذا وامثاله من العقد التي تتعلق بمبتـدأ هـذه الكائنات ومنتهاها ، والحكمة في محوها بعد ان خلقها وسواها . بل هو لعمري من القدر الذي أدبنا نبينـا صلى الله عليه وسلم بترك الخوض فيـه . أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحـن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه الشريف كأنما فقيء في وجنتيه الرمان ، ثم قال : أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت اليكم ؟ انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم الا تتنازعوا فيه » .

وكتب المقتطف (صفحة ٤٩٨ مجلد ٦١) بعنوان « الحكمة الفائقة » جوابا على سؤال جاءه من البرازيل وهو « جاء في الانجيل أنه حينمـا ولد المسيـح طلب الملك هيرودس أن يحضروه اليه ، ولما لم يجده أمر أن يقتل كل الأطفال الذين عمرهم نحو سنة فكان كذلك ، فلماذا لم ينقذهم المسيح ؟ » . فأجاب المقتطف بقوله : « لا نعلم ، وفي الكون أمور كثيرة يظهر في باديء الأمر أنها مناقضة لقوانين العدل والاقتصاد حتى كأن الكون متروك لا مدبر له ، فالسمكة تبيض مليون بيضة وقد تنقف كلها ، ولكن لا يعيش من أولادها الا العدد القليل ، وأشجار البرية تبذر الشجرة منها الوفا من البـذور لحفظ نوعها ، وقد لا تزرع واحدة من بذورها ، ولكن اذا أمعنا النـظر في تركيب جسـم السمـكة وأوراق الشجرة وأزهارها ـ رأينا من الحكمة الفائقة مايدهش العقول ، ونضطر ان نسلم بوجود حكمة فائقة في اكثار بيض السمكة وبذر الشجرة ولولم يعش منها شيء » اهـ

كأن نوحا عليه السلام يقول : أما وقد اهلكت يارب الظالمين بما كسبوا مـن الخطيئـات ، وكذبوا بآياتك البينات ، وكان اهلاكك لهم عدلا ، وتنكيلك بهم حقـا ـ فمن عدلك المنتظر ، وكرمك المؤمل : أن تغفر لفريق المؤمنين الذين اقروا بتوحيدك ، واستمسـكوا بعرا دينك .

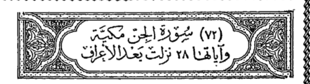
و (الغفر) الستر والصفح عن الذنب ، فالمؤمنون مهما تحروا الحق والعمل الصالح قد يفـرط منهـم ما يؤاخذون عليه ، فهم يبتهلون الى الله ـ كما وفقهم للايمان والتوحيد ـ أن يغفر لهم ما ربما يبدر منهم مما لايرضيه تعالى . فبـدأ نوح بنفسـه ، ثم ثنى بوالديه لعظيم حقهما عليه ، وقد مر أن اسم أبيـه « لامك بن متوشالح » ، أما اسم أمـه فهو « شمخا بنت أنوش » ، ثم ثلث بمن دخل بيته مؤمنا ، وعنى بهم أولاده وأزواج أولاده الذين كانوا يدخلون بيتـه مشاركين له في معيشته وعبادة ربه . وفي التوراة انه لم يكن معه في السفينة سوى زوجه وأولاده الثـلاثة وأزواجهم الثلاث . ثم ختم دعاءه بالدعاء للمؤمنـين والمؤمنات جملة واحدة ، ويومىء هذا من طرف خفي الى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجوا معه في السفينة . وعلى هـذا فالطوفان لم يعم الأرض كلها ، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يغرقوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين . أو يقال أن المراد بالمؤمنين والمؤمنات في دعاء نوح من وجدوا في الماضي أو سيوجدون في المستقبل متى تناسل أولاده وتكاثروا وانتشروا عـلى وجـه الأرض .

ونوح عليه السلام لم ينس أن المؤمنين والمؤمنات عرضة لأن يظلموا ويعتـدوا ، ويتجـاوزوا حـدود الشريعة ، ويعملوا بغير طاعة الله . فهو بعد أن طلب من الله المغفرة لفريق المؤمنين ـ عاد فقال : أما اذا أحد منا معشر المؤمنين ظلم وحاد عن محجة الصواب ، وترك العمل الصالح وعثا في الأرض فسـادا ـ فلا تتركه يارب من معاملتك له بالعدل كما عاملت أولئك المكذبين المغرقين ، فتبره وأهلكه ، بل زده تبـارا وهلاكا كما أهلكتهم .

وهذا من نوح عليه السلام ايقـاظ وتنبيه لأهله وولده وذويه وسائر من آمن بالله من الناس يحذرهم بطش الله وسخطه ، وانتقامه ممـن خالف أوامره ، ونبذ العمل بشرائعه العادلة .

ولا ريب أن اغفال الايمان عـن التعهـد بالعمـل الصالح وممارسة الفضائل ـ يميته من الصدر ويغشي الرين على القلب بالتدريج كما ورد في الحديث ، فتحق الكلمة على من هذا شأنه ، فيأخذه الله بالعذاب كمـا أخذ أولئك المغرقين من قوم نوح . فنوح يقول لقومه : لا تظنوا أن الله نجاكم لذاتكم ، وانما نجاكم لايمانكم وعملكم الصالح ، فاحرصوا عليهمـا ، واجتهـدوا في تقويتهما وتنميتهما ، والا حل بكم من الهلاك والتبار ، ما حل بأولئك المغرقين الفجار .

و (التبار) من تبر كفرح اذا هلك ، وتبره غـيره كضربه ، وتبره أهلكه . فتبار اسم مصدر يقال : تبره تتبيرا وتبارا ، كما يقال كلمه تكليما وكلاما ، وودعه توديعا ووداعا .



(٧٢) سورة الجن مكية
وآياتها ٢٨ نزلت بعد الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)

(أوحى) الايحاء فى اللغة أن تلقى الى غيرك ما تريد أن تعلمه اياه بواسطة الايماء او الاشارة أو الرسالة أو الكتابة ، ثم غلب استعماله فيما يلقى الى الأنبياء من عند الله . وفى الوحى معنى الاخفاء والسرعة ، فما يلقى وحيا يكون خفيا سريعا .
و (استمع) تكلف أن يسمع ، واصغى اذنه ليسمع .
و (نفر من الجن) : رهط منهم مابين الثلاثة الى العشرة .

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أصغى اليه هؤلاء النفر ، واستمعوا تلاوته للقرآن — لم يكن عالما بهم ، ولا شاعرا بمكانهم ، ومن ثم قال له ربه : **(قل أوحى الى)** أى قل يا محمد لقومك ان الله أوحى اليك **(انه استمع نفر من الجن)** واصغوا الى قراءتك .

وكان من خبر ذلك ، كما فى الترمذى وغيره ، انه صلى الله عليه وسلم انطلق فى نفر من اصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، حتى اذا كانوا بوادى نخلة (موضع على ليلتين من مكة وعلى ليلة من عكاظ) — نزل رسول الله فصلى بأصحابه الصبح ، فمر بهم أولئك النفر من الجنة ، وسمعوا رسول الله يقرأ القرآن ، فاستمعوا اليه مصغين متدبرين ، فآمنوا به ، ورجعوا الى قومهم منذرين . وكان أولئك النفر ، فيماروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، من جن نصيبين ، وهى مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى بلاد الشام . وقال ابن عباس ايضا : أنه صلى الله عليه وسلم ماقرأ على أولئك النفر من الجن ، ولا راهم يومئذ ، ولا علم بمكانهم ، حتى أوحى الله اليه بأمرهم فى هذه السورة ما أوحى .

وقد قص الله علينا خبرهم أيضا فى سورة الأحقاف مذ قال تعالى : **(واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه . يهدى الى الحق والى طريق مستقيم)** الى آخر الآيات . وفيها حض لقومهم على الايمان بالقرآن كما آمنوا بالتوراة التى أنزلت على موسى من قبل ، وانهم ان لم يجيبوا داعى الله ، لايعجز ربهم عن أخذهم بالنكال والعذاب .

وقوله فى سورتنا هذه : **(فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا الخ)** معناه أنهم بعد أن استمعوا القرآن وتدبروه رجعوا الى قومهم فقالوا لهم : (انا سمعنا قرآنا عجبا) ، أى موضعا للغرابة والدهشة من جهة مباينته لأمثاله ونظائره من الكتب ، فى حسن نظمه ، وبلاغة أسلوبه ، وما حواه من بديع الحكم ، وبالغ العظات والعبر .

فخبر هؤلاء النفر من الجن فى السورتين متوافق متوارد على شىء واحد ، وهو استماعهم للقرآن ، فاعجابهم به ، فايمانهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فرجوعهم الى قومهم يدعونهم الى الايمان والتصديق .

ويفهم من قول هؤلاء النفر : (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أنهم كانوا على دين النصرانية ، لأن الاسلام وهو يحاج النصرانية كثيرا مايستند فى محاجتها على نفى الصاحبة والولد .

وقد كبر على عقول بعض ابناء هذا العصر ، الضعيفى الثقة بأمر الغيب وعالم الروحانيات ، أن يفهموا خبر هؤلاء النفر — من الجن الذين استمعوا اليه صلى الله عليه وسلم فآمنوا به — الا على ضرب من التأويل — فقالوا : ان أولئك النفر طائفة من نصارى نصيبين ، وفدوا عليه صلى الله عليه وسلم كما وفد عليه نصارى نجران ، وأنهم جاءوه مجتنين مستخفين متنكرين لبعض الأسباب ، فلم يحبوا أن يعلن أمرهم أو يراهم أحد من الناس ، وبذلك أمكنهم أن يسمعوا قرآنه ويعقلوا دعوته . أو هم نفر من التجار والأفاقين : قصدوا سوق عكاظ وشهود موسمه ، فمروا به صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، فأصغوا اليه يتلو القرآن من حيث لايشعر بهم ، فلما رجعوا الى بلدهم اخبروا قومهم بخبره ، وعجيب أمره ، ومعجز قرآنه ، فسماهم الوحى السماوى جنا لهذا السبب ، كما سميت الابل فى الحديث جنا . اخرج الامام الشافعى فى مسنده « اذا أدركتم الصلاة فى أعطان الابل فاخرجوا منها فصلوا ، فانها جن خلقت من جن ، الا ترونها اذا نفرت كيف تشمخ بأنفها » . وفى رواية احمد بن حنبل « الا ترون الى عيونها وهيأتها اذا نفرت » انتهى .

هذا ما قاله أولئكم المعاصرون ، وهو ضيق عطن

منهم ... والا فان وجود قوى روحانية ، وعوالم غيبية ، استترت عن حواسنا بأعيانها ، وتجلت لنفوسنا بآثارها ، وما تواتر من أخبارها — أمر محقق لا ريب فيه . ولنضرب لها مثلا القوات الطبيعية التى كانت مجهولة للبشر منذ أقدم أزمنة التاريخ ، كالكهربائية التى لو قص قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها ، على البشر وهم فى طور سذاجتهم — لعدوه كذبا حبريتا (١) . وما نعرفه اليوم من خواص الكهربائية قليل بالنسبة الى ماينتظر أن يعرف منها فى المستقبل ، وما يدرينا أن يخلف الكهربائية قوة أو قوات أخرى اغرب منها واعجب . وهذا (الراديوم) (٢) على الأبواب ، بل قال « اسحق نيوتن » أكبر فلاسفة الانجليز : ان البشر اليوم بالنسبة الى ما اكتشفوه من اسرار الكائنات كأطفال على ساحل الاوقيانوس ظفروا بودعات براقة ، وشظايا أصداف ملونة لامعة ، فشغلوا بها وحسبوها كل ماعند ذلك الأوقيانوس العظيم ، وما فى أعماقه من الطرف المونقة ، والأعلاق النفيسة ، والكنوز الثمينة !

واذا كنا لانصدق الا بما نشعر به بحواسنا فهذه أرواحنا التى فى ابداننا لانراها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نذوقها ولا نلمسها ، ولكننا نؤمن بوجودها ، ونعترف بعالمها ، فما عدا مما بدا ؟!

وبعد فان عالم الجن ، كعالم الملائكة ، من المغيبات التى أمرنا بالايمان بها ، ولم نكلف رحمة بنا أن نروى من أخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحى لنا . فلنعقل منه ما يعقل ، ولنكل أمر ما لا نعقل الى الله ، فهو سبحانه وتعالى القادر على أن يعرفنا فى مستقبل الزمان من أمره ، ويكشف لنا من مكنون سره ، مايكون عقدة اتصال بين العلم الصحيح ، والوحى الصريح .

ومعنى كون القرآن **(يهدى الى الرشد)** — انه يدل على الحق والصواب ، ويوصل اليهما . وقوله **(ولن نشرك بربنا أحدا)** معناه أنهم قالوا لقومهم اننا آمنا بالقرآن ، وعملنا بأمره وتعليمه ، فلن نجعل من بعد اليوم شريكا لله من خلقه .

وهمزات (انه) فى قوله **(وانه تعالى جد ربنا)** (وانه كان يقول) (وانا ظننا) الى آخرها — وهى بضع عشرة همزة — كلها مكسورة عطفا على (انا سمعنا قرآنا عجبا) ، وهمزة (انا) هذه مكسورة لوقوعها بعد القول : فالمعنى ان أولئك النفر من الجن رجعوا الى عشيرتهم وابلغوهم جميع هذه الاخبار معطوفا بعضها على بعض ، وقد أكدت كلها بكلمة (ان) التى هى أم المؤكدات . ومن القراء من فتح هذه الهمزات كلها عطفا على ضمير (به) ، فيصح المعنى : انا آمنا بالقرآن ، وآمنا بأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وآمنا بكذا وبكذا الى آخر الآيات ، غير أن بعضها لايصلح معه تقدير فعل — آمنا — فيقدر له فعل آخر يناسبه من نحو — صدقنا — و — علمنا — و — عرفنا — و — اعترفنا — و — ألهمنا — و — شهدنا — على حد ماقالوه فى قول الشاعر : « وزججن الحواجب والعيونا » أى وكحلن العيونا ، وقوله « علفتها تبنا وماء باردا » أى وسقيتها ماء باردا .

ومعنى (جد ربنا) عظمته وسلطانه ، اى أن العظمة والجلال الالهى يأبى ويتنزه عن أن يتخذ لنفسه صاحبة وولدا ، اذ أن مقام الألوهية ينافى هذا الاتخاذ الذى هو أثر من آثار العجز أو الانقسام والتجزؤ .

يقول العرب : فلان جد فى عين الناس ، يعنون عظم أمره فى صدورهم ، ومنه حديث أنس رضى الله عنه : « كان الرجل منا اذا حفظ سورتى البقرة وآل عمران جد فى أعيننا » ، أى عظم وأصبح له مقام ، لما وفق اليه من حفظ هاتين السورتين الطويلتين .

أخذ هؤلاء النفر من الجن يصفون لقومهم ما كان من تأثير الكلام الالهى فى نفوسهم ، وكيف صحح من عقائدهم ، وغير من أوهامهم ، وسردوا على مسامع اخوانهم حقائق استفادوها من جديد ، وقد كانوا عنها عمين ، فذكروا اولا أنهم أقروا بتوحيد الله ، ثم قالوا : ان السفيه منهم — اى سفيه كان ، أو المراد بهسفيههم الكبير الذى هو زعيمهم وولى أمرهم — كان يقول على الله قولا شططا ، تخطى فيه حد العدل والحق . والشطط : عدم الوقوف فى الأمور عند حد الاعتدال. والسفه : خفة وطيش فى المرء تنشأ عن خرق وجهل. فهم يقولون : ان ذوى الرياسة الدينية فيهم كانوا ينسبون الى الله ما لا يليق بجانب قدسيته ، ويصفونه بصفات ينكرها العقل ، ولا يحملهم على ذلك الا جهلهم وخفة حلومهم . وكان أولئك النفر من الجن وسائر العامة يصدقون أولئك الرؤساء ، ويعتقدون فى الاله سبحانه ما يلقنونهم اياه من الأضاليل ، مسوقين الى التصديق بسائق التقليد والاستهواء ، أو بسائق الخوف من أولئك الرؤساء . أما وقد سمعوا القرآن واستناروا بنور هدايته ، فما عادوا يصغون الى ما يقوله رؤساؤهم ، ولا ينخدعون به .

ثم انهم اعترفوا أيضا بشىء من غرارتهم وسذاجتهم هم أنفسهم مذ كانوا يظنون أنه لايوجد أحد فى البشر ، انسا كان أو جنا ، يكذب على الله ، ويأثر عنه من القول ما لم يقله سبحانه . فهؤلاء النفر اعترفوا بأنهم كانوا يصدقون وينخدعون بما يقوله الكذابون على الله من الوحى الملفق ، والحديث المزوق ، ظانين صدق القائل ، ومستبعدين صدور الكذب منه . وهذا معنى قولهم : **(وانا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا)** . أما الآن — وقد سمعوا القرآن ، وأشربت قلوبهم حلاوة الايمان — فقد عرفوا أنه يوجد فى الانس والجن كذبة ملبسون ، يجب تحاميهم ، ونبذ دعاويهم ، والاستعاذة بالله من مخازيهم .

(١) (كذب حبريت) خالص مجرد لايستره شىء .. ويقال ايضا : كذب بحريت .

(٢) الراديوم عنصر مكتشف حديثا ذخرت فيه قوة أشعاعية هائلة تفوق قوة الكهرباء اضعافا مضاعفة بحيث يتوقع من وراء اكتشافها والانتفاع بها أعظم الاثر فى مصالح البشر وقوانين حياتهم .

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

وان لنا معشر الانس مغزى وعبرة من اقوال هؤلاء النفر من الجن : ان ننتبه كما انتبهوا الى أنه قام فينا نحن أيضا ملبسون ، يكلفوننا أن نصدق بكل منقول ، ولو كان مما يناقض العقول ، ويخالف ماقرره الاسلام من القواعد والأصول . فلا ينبغى اذن أن يكون أولئك النفر من اخواننا الجن أهدى منا الى صحيح الايمان ، ولا أشد تمسكا بآداب القرآن :

قم فقد قامت الطيور تغنى
لا يكون الحمام اطرب منا

ومما قاله أولئك النفر لقومهم امر بالغ فى الغرابة يتعلق بأوهام الانس فى الجن . ذلك أن أناسا منا معشر البشر كانوا يعتقدون سلطة الجن ، وعظيم صولتهم عليهم ، فهم يعوذون بهم ، ويلجأون اليهم مستعطفين ضارعين الا يؤذوهم . فكان الرهط من عرب الجاهلية اذا أمسوا فى واد أو قفر وخافوا من الجن ـــ لجئوا الى الاستعاذة بعظيم الجن المسود فيهم ، فيقولون : « نعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه » ، ثم يبيتون آمنين . وكانوا اذا أصيبوا بمرض أو آفة ، علقوا على أجسامهم تمائم وتعاويذ يزعمون أنها تقيهم أذى الجن ، وكثيرا مايلطخون تلك التعاويذ بالنجاسة ليبتعد الجن من حاملها ، ويسمون التعويذة اذ ذاك تنجيسا ، ويجمعونها على تناجيس ، ويعلقون على أنفسهم أحيانا ودعا وعظاما . وقد أدرك بعض عقلائهم قبح هذا وسخافته كامرىء القيس الذى يوصى زوجته الا تتزوج ـــ اذا مات وارادت ان تتزوج ـــ أحمق معتوها من نمط من ذكرنا فيقول :

أيا هند لاتنكحى بوهة عليه عقيقته أحسبا(١)

---

(١) البوهة : الرجل الضاوى ، والطائش ، والأحمق . والعقيقة: خرزة كانوا يزعمون أن من تختم بها سكنت روعته عند الخصام . والأحسب : الابرص ، ورجل فى شعر رأسه شقرة ، ومن ابيضت جلدته من داء ففسدت شعرته فصار أبيض وأحمر القاموس . المصحح .

مرسعة بين أرساغه به عسم (١) يبتغى أرنبا
ليجعل فى رجله كعبها حذار المنية أن يعطبا

يقول : لاتنكحى احمق مازال شعر رأسه محمرا من آثار العقيقة الباقية فيه ـــ والعقيقة : اسم للشعر الذى يولد به المولود ـــ وان فى رسغ ذلك الأحمق فسادا واعوجاجا ، فهو قد شد عليه سيرا للاستشفاء مما عراه ، وهو فوق ذلك يتجول فى البرية ليصطاد أرنبا فيجعل كعبها فى رجله فلا يموت بتعرض الجن له .

وقوله (**من الجن**) متعلق بمحذوف صفة لرجال ، أى أن رجال الانس يستجيرون برجال صفتهم أنهم من الجن ، كما قلنا آنفا أن أهل الجاهلية كانوا يستجيرون برجال الجن الذين لهم سيادة فيهم .

وقال بعض المفسرين : ان قوله تعالى (من الجن) ليس صفة لرجال ، وانما هو متعلق بفعل (يعوذون) فالمعنى أن رجال الانس يستجيرون من أذى الجن برجال . وهؤلاء الرجال المستجار بهم هم من الانس كالكهان والمنجمين والعرافين وسائر مستطلعى الغيب . فخطباء الجن يقولون لقومهم : ان رجالا من الانس ضعاف العقول يعوذون عند حلول المصائب والشدائد برجال من بنى جنسهم الانس ، مستجيرين بهم أن يدفعوا عنهم أذى الجن وغائلة الشياطين بما أوتوا من تجليات الأنوار ، وما استنبطوا من مستودعات الأسرار . وان هؤلاء الرجال من الانس الذين استجير بهم يرونها فرصة سانحة لاستغلال أولئك الحمقى المستجيرين بهم ، واستنفاض ما فى جيوبهم . فلا ينهونهم ولا يبينون لهم جهلهم ، بل يزيدون فى ايهامهم وتحذيرهم وادخال الرعب فى قلوبهم منا معشر الجن والشياطين ، ثم يأخذون فى مداواتهم ودفع اذانا عنهم بالطلاسم والأكاذيب ، ومختلف الأساليب . وان هؤلاء الرجال المخرقين ، لهم الجن المؤذون ، لو كان المخدوعون بهم يعلمون .

فهذه كانت حال العرب قبل الاسلام ، وهذا مانبههم اليه القرآن ، وحذرهم منه على لسان اخوانهم من مؤمنى الجنة .

وجد الاسلام العرب على عقيدة فى الجن وأوهام من أمرهم نزلت بهم الى حضيض البهيمية ، فأعلن أمر الجن بلسان الجن ، وقرر أن استجارة الانس من اذاهم وهم وغى وضلال ، ثم نبه الى أن رجال الانس المستعاذ بهم ، كالكهنة والعرافين والمنجمين ، يزيدون أولئك المستعيذين المساكين (**رهقا**) وعنتا ، ويدخلون على قلوبهم من الرعب والخوف منهم ما لا يطيقونه ـــ

---

(١) رسع الصبى كمنع : شد فى يده أو رجله خرزا لدفع العين ، ورسع كفرح فهو أرسع ، ورسع ترسيعا فهو مرسع ومرسعة أيضا : فسدت أجفانه . والعسم : يبس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد أو القدم . القاموس .

« به عسم » جملة اسمية و « بين أرساغه » حال مقدمة .

المصحح

كل ذلك ليمتصوا ثروتهم ، ويستثمروا بلاهتهم ، كما تستثمر البقرة الحلوب . وهذا معنى (رهقا) فهو اسم مصدر لأرهقه ارهاقا بمعنى أعنته وكلفه فوق طاقته . ولا جرم أن ضعفاء العقول يتحملون من عبء هذه الأوهام والشعوذات فوق ماتطيقه نفوسهم، وتقوى عليه ملكاتهم ، فيعيشون فى الوسوسة والخبل والتعاسة الى ما شاء الله .

وهكذا ضيق القرآن الكريم دائرة الاعتقاد فى الجن، ورد البشر فى أمرهم الى حد محدود . فكم نجنى على أنفسنا بل على القرآن نفسه اذا كنا نعتقد فى الجن والشياطين اليوم مالايعرفه عرب الجاهلية انفسهم مما لو سمعوه عنا لضحكوا عجبا ، وامعنوا منا هربا .

ثم قال خطباء الجن لقومهم : ان غفلة الانس كغفلتكم أنتم يا معشر أخواننا الجن . فهم يظنون كما تظنون أن الله يترك كلا الفريقين — الانس والجن — من رحمته ، فلا يبعث اليهم رسولا يزيح عن أعينهم غشاوات الأوهام ، ويميط عن قلوبهم رين الأضاليل ، ويهديهم الى الصراط المستقيم . وكأنهم يقولون ان ظن الفريقين فيما ذهبوا اليه كاذب ، فهذا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد ارسله الله رحمة للانس والجن ، وأنزل عليه القرآن الذى سمعنا آياته ، ودامغ بيناته ، فوجدناه لايتفق مع ما نحن عليه جميعا من العقائد والأوهام ، فأمطناها عن قلوبنا ، وطهرنا من لوثها نفوسنا .

(لمسنا) يراد من اللمس الطلب وان كان أصله المس باليد . وكثيرا مانقول نحن اليوم نلتمس كذا أى نطلبه. ولى عندك التماس أى طلب . وهذا كالجس ، فان أصله تعرف الشيء باليد ، ثم استعملوه فى طلب الخبر وتعرفه ، ومنه التجسس والجاسوس . فقولهم (**لمسنا السماء**) يريدون به طلبنا أخبارها ، وحاولنا ان نتعرف أسرارها . و (الحرس) فى الأصل جمع حارس ، وهو حافظ الشيء ، ثم استعمل استعمال المفرد ، وأصبح اسما للجماعة الذين يحرسون السلطان، ولذا لايقال فى واحد حارس ، بل حرسى ، أى منسوب الى الحرس . ولو اعتبر جمعا ما صحت النسبة اليه، لأن الأصل فى الجموع ألا ينسب اليها ، ودليل آخر وصفه فى هذه الآية بالمفرد وهو (**شديدا**) ، ولو اعتبر جمعا لقيل فى وصفه شدادا . و (شهبا) جمع شهاب الشعلة الساطعة من النار ، وهو ايضا اسم لما يرى فى سماء الليلة المصحية كأنه كوكب منقض . وقوله **(وانا كنا نقعد الخ)** يريد به انا كنا من قبل نقعد من السماء مقاعد لأجل ان نتسمع اخبارها اى مقاعد قليلة ذات صفة خاصة بحيث يتيسر لنا منها استراق السمع ، ولذلك نكر (**مقاعد**) . وقوله (**يجد له**) أى يجد معدا له ومهيئا فى طريقه . ويقال فى (رصدا) ماقيل فى (حرسا) من ان أصله جمع راصد ثم استعمل استعمال المفرد ، ومن ثم وصف به المفرد فقيل (**شهابا رصدا**) ولم يقل (شهبا رصدا) أى أن ذلك الشهاب مهيأ فى طريق ذلك الشيطان المستمع يرقبه لينقض عليه .

وهذه مسألة ثانية من المسائل ذات البال التى قررها القرآن بلسان أولئك النفر من الجن تصحيحا لعقائدنا بشأن جنس الجن ومبلغ سطوتهم على الانس ، فلا نذهب فى الأوهام فيهم والمخاوف منهم كل مذهب . قال اولئك النفر فى الآيات السابقة انهم استفادوا من سماع تلاوة القرآن أن الجن ليس من مقدورهم أن يؤذوا الانس ، فليطمئن هؤلاء بالا من هذا القبيل . ويقول الجن فى هذه الآيات : أنهم يريدون — بالصعود الى السماء — أن يعرفوا الغيب ، ويسترقوا خبر ماقدره الله وأراده فى البشر ، لكنهم يطردون منها طردا ، ولا يوفقون الى ذلك ، وانهم كانوا قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم يظفرون بحاجتهم أحيانا ، فيلتقطون من السماء أخبارا ، أما اليوم وقد بعث صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن ، وتقررت فيه الحقائق — فلم يعد للجن نصيب من ذلك : يعنى أن الجن والشياطين كان لهم قبل الاسلام صولة ودولة ، أما بعده فقد سلبوا ما كان لهم من هذا القبيل .

والسماء فى عرف جميع الأديان المنزلة ساحة الملكوت الربانى ، ومجلى السر الروحانى ، وفيها عرش السلطان الالهى ، ولوح التقديرات الأزلية المتعلقة بعالم الدنيا . وهى مسكن الملائكة : منها يهبطون ، واليها يعرجون ، ومن ثم كانت قبلة الدعاء ، ومنتهى الرجاء . وكان الكهان والمخرقون ودهاة البشر الذين يريدون التلعب بضعاف العقول واستغلال بلاهتهم — يستخدمون الجن فى تعرف خبر السماء ، والوقوف على ما قضاه الله وقدره فيها ، وكثيرا ما ادعوا أن هؤلاء الجن يعلمون الغيب ، وأنهم يأتون به الكهان غضا طريا فيخبرون به الناس .

فأنت ترى أن حبائل الكهان فى الغواية والاضلال ، ومزالق البشر الى الوهم والوسواس والخبال — كانت منحصرة تقريبا فى الجن : من جهة الظن فيهم انهم مسلطون مؤذون ، ومن جهة الوهم فيهم أنهم يعلمون غيب السماء ، وما خبأته العناية الالهية للبشر فيها . وكانت هذه الأضاليل كثيرة الرواج ، شديدة الوطأة على عقول البشر فى تاريخهم القديم حتى قبيل البعثة المحمدية ، فوضع القرآن والاسلام حدا لهذه المسألة ، وقرر بلسان الجن أنفسهم (أولا) أن الجن لايؤذون الأذى الذى يخافه ضعاف العقول ، و (ثانيا) أنهم لايعلمون الغيب ، وأن الغيوب بشأن البشر فى لوح محفوظ فى السماء بعيد عن أن يصل اليه أولئك الجن الذين أعد لهم فى طريقهم حفظة أشداء وشهب رواصد تمنعهم وتدفع فى صدورهم .

ومغزى آيتنا هذه فى ازالة الأوهام بشأن الجن ومعرفتهم الغيب هو نفس المغزى فى آية سبأ : (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) . فكل من الآيتين اثبتت جهل الجن ثم جهل الكهنة والعرافين بأمر الغيب وما قدره الله فى خلقه . كما أثبت القرآن أن الغيب لله وحده (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو) ، فقد حجبه عن الخلائق أجمعين ، حتى سيد البشر وخاتم المرسلين : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) . نعم

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

لايعلم صلى الله عليه وسلم من الغيب الا مايأتيه به الوحى الصادق .

هذا ما استفاده أولئك النفر من الجن مذسمعوا القرآن ، وهذا ما أعلنوه فى قومهم ، وهذا ما أحبوا أن يعلمه الانس أيضا ، مؤكدين خبرهم واعتقادهم بأبلغ أساليب الخطاب العربى المعهودة فى لسان أهله ، ولا سيما افتتاح كل جملة بكلمة (ان) التى هى الأصل فى التأكيد .

ثم انهم أنهوا الحديث عن جهل الجن بنتيجة ينبغي أن يعيها كل انسى وهى قولهم : **(وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا)** ، أى انا معشر الجن الذين تزعمون فينا يامعشر الانس معرفة الغيب واستراقه من السماء ــ لاندرى ولا نعلم ما الله فاعل فى سكان الأرض ، وماذا قضاه وقدره عليهم فى لوح تقديراته : أاراد وقدر شرا أم اراد وقدر رشدا ، أى هداية وتوفيقا . فلا تظنوا فينا معرفة شىء من ذلك بعد اليوم ، ثم لاتصدقوا الكهان بما يروون لكم عنا . هذا ما قالوه ، لكنهتعالى فى الواقع ونفس الأمر قضى بالشر والشؤم والضلال على بعض من فى الأرض من الأشخاص والأمم ، كما قضى بالخير والرشد وسعد الطالع لبعض الأشخاص ولبعض الأمم .

بقى بحث نحب ألا يفوتنا ذكره ، وهو أن ظاهر هذه الآيات يفيد أن الجن بعد البعثة المحمدية منعوا من استراق خبر السماء بارسال الشهب عليهم ، ولما أورد على هذا أن الشهب كانت ترى فى السماء قبل البعثة ــ أجيب بأنها لم تكن من الكثرة الى هذا الحد الذى وقع بعد البعثة بدليل قوله (ملئت) ، وهذا يدل على أن الحادث الجديد هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله : (نقعد منها مقاعد) ، أى كنا أولا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، أما اليوم فقد ملئت المقاعد كلها كما صرح به الفخر الرازى . وقد يقال : ان الشهب كانت منذ خلق الله السموات والأرض ، وستبقى الى ماشاء الله مادامت سننها الالهية ، ونواميسها الطبيعية قائمة فى هذا الكون ، غير أن القرآن جعل تلك الشهب بعد البعثة المحمدية رمزا وتنبيها للبشر الى أن الجن والشياطين لم يعد لهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه وقرآنه ما كان لهم قبلذلك لدى الأمم القديمة الرائج فيها السحر ــ من السلطة والنفوذ والتأثير فى عقول البشر بواسطة مخرقة الكهان والسحرة ودعوى الغيب والمزاعم الباطلة .

فالقرآن يهتف من فوق رءوس الأمم والشعوب بأن العقل البشرى تحرر من هذه الأوهام بفضل القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ولتكن هذه الشهب التى ترونها أيها البشر تنقض فى السماء من وقت الى آخر علامة لكم على ذلك فهى ترمز لكم وتشير الى ان الشياطين مطرودون من السماء ، محلئون (١) عن حظائرها برشق نبال تلك الشهب ، فلا تصدقوا من بعد اليوم دعاوى الكهان والسحرة الذين يكذبون عليكم ، ويتلعبون بعقولكم .

ويشبه هذا ما جاء فى التوراة من ان الله تعالى وعد نوحا وولده بألا يكون طوفان آخر مثل الطوفان الذى وقع لهم واهلك البشر وكل حيوان ماعدا نوحا وأولاده ، وانه تعالى جعل قوس قزح فى الغمام علامة على عهده معهم (٢) . قال مفسرو التوراة : ولا ينتج عن هذا ان قوس قزح لم تكنموجودة قبل الطوفان ، لأن تكونها طبيعى كلما وقعت أشعة الشمس على قطرات المطر ، لكنه تعالى جعل ماكان ــ علامة لما سيكون ، ورمزا الى أنه تعالى لايسمح من بعد اليوم بحصول طوفان كهذا . ثم ضربوا مثلا لذلك صخرة ملقاة فى أرض منذ القديم ، ثم قسمنا الأرض الى قسيمتين ، وجعلنا تلك الصخرة تخما وعلامة بين القسيمتين ترمز الى كل فريق أين تنتهى حدود أرضه .

وهكذا القرآن فانه جعل ارسال الشهب الموجود من قبل علامة على ابطال دعوى الشياطين والسحرة معرفة غيوب السماء بقصداضلال البشر ، كما جعلت التوراة قوس قزح الموجود من قبل علامة على منع حصول طوفان آخر يهلك البشر بعد طوفان نوح عليه السلام .

ثم شرع فى وصف ماكانوا عليه من التفرق والانقسام المؤدى الىالضعف والانخزال ، ثم ماصاروا اليه بالايمان والاتفاق على طريقة واحدة يرجى لهم بواسطتها الخير والاسعاد .

وقوله (الصالحون) صفة لمحذوف ، أى **(انا منا)** القوم **(الصالحون)** ، وهم الأبرار العاملون بما يرضى الله من اتباع اوامره الالهية ، والتمسك بسننه الحكيمة ، والعكوف على العمل الصالح .

---

(١) حلاه من الماء « طرده » .

(٢) وقد ورد مثل هذا فى حديث ابن عباس : « أمان لأهل الأرض من الغرق ــ القوس » وعنى بالقوس قوس قزح . المؤلف .

وقوله (دون ذلك) هو أيضا صفة لمحذوف ، أى **(ومنا)** قوم **(دون ذلك)** ، أى ادنى واحط فى مراتب العمل ومراعاة السنن من أولئك الصالحين . ولم يعلم أكان هؤلاء الأدنون المنحطون عن أولئك فريقا واحدا ذا راى واحد وسيرة واحدة ، أم كانوا على خلاف ذلك ــ حتى قال : **(كنا طرائق قددا)** ، فأفاد بهذا الاستئناف البيانى أنه يتألف من مجموع الفريقين : الصالحين والادنين ــ طرائق قدد .

و (طرائق) جمع طريقة مؤنث طريق ، وهما اسم للشارع الذى يطرق ويسلك ، ثم غلب استعمال الطريق فى معناه الاصلى ، أعنى الطريق المحسوس المسلوك ، كما غلب استعمال الطريقة فى الطريق المعنوى ، وهو مذهب الانسان وسيرته التى يترسمها فى حياته الى آرابه ومقاصده .

و (القدد) جمع قدة : القطعة ، من قد الشىء اذا قطعه . وطرائق القوم مقدود بعضها عن بعض ، ومقطوع جانب منها عن جانب ، فكل واحدة منحازة عن الاخرى ، مقطوعة عنها .

يريدون بهذا القول تذكير قومهم بما كانوا عليه من الفوضى بسبب تفرق أهوائهم ، وتباين مذاهبهم . وقد ساقهم الى هذا التفرق الأثرة والطمع وحب الرياسة وجلب المنافع الزائلة ، وهذا بالضرورة يؤدى الى الشقاء وسوء الخاتمة . أما التفرق فى الآراء بسائق الاستهداء ، وتلمس السعادة والحصول على نظام كافل للحياة الاجتماعية ــ فهو تفرق محمود نافع ، تحرص عليه الامم الموفقة ، وترغب فيه ، وتسعى اليه بواسطة الصحافة والاندية ، وعقد المؤتمرات والجمعيات التى يؤدى تفرق الآراء فيها الى معرفة الحقائق والتمسك بها .

فالنفر من الجن الذين خطبوا قومهم ذكروهم بما كانوا عليه من التفرق الممقوت ، ووعدوا أنفسهم جميعا ــ بعد أن سمعوا هدى القرآن وآمنوا به ــ بانتظام امرهم ، واتحاد طريقتهم ، والتوفيق بين آرائهم ومذاهبهم ، فتتجه أبدا الى الخير ، وتنصرف عن الشر .

ثم قالوا لهم : **(وأنا ظننا)** ، أى علمنا واعتقدنا . والظن كثيرا ما يأتى بمعنى العلم **(أن لن نعجز الخ)** ، أى لن نكون فى الأرض جبابرة أقوياء يعجز تعالى عن أخذنا وانزال قهره بنا . كما لانقدر على الهرب والتفلت فنفوته ثم يعجز عن اللحاق بنا ، والانتقام منا .

يقولون لقومهم : اننا كنا من قبل نعلم ذلك ونعتقده ، ولكن لم يفدنا ذلك العلم ، ولم ينقذنا من بلاء ماكنا فيه من التفرق المشئوم حتى سمعنا القرآن وآمنا به ، وانتفعنا بهديه .

ثم عادوا الى ذكر نعمة الايمان والشكر له تعالى على أن وفقهم اليها . ولا جرم أن فى ذكر النعمة وترديدها على الأفواه عناية بها ، وفى اعلان الحمد والثناء على مسديها استزادة منها . وهذا هو المقصود من قولهم : **(وأنا لما سمعنا الخ)** .

ومعنى **(لايخاف بخسا)** أى انتقاصا من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له .

ومعنى **(ولا رهقا)** أى لا يخاف ظلما لا يطاق تحمله ، بأن يحرم الأجر والثواب بالمرة ، أو يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا رهق واى رهق ، لكن المؤمن بربه آمن من ذلك .

وقد سبق التصريح من هؤلاء النفر الذين سمعوا القرآن بأنهم آمنوا به . فقولهم الآن : **(وأنا منا المسلمون الخ)** يريدون به تحذير قومهم وايقاظهم ، فأدخلوا أنفسهم فى جملتهم ، وقالوا لهم أنه سيكون من مجموعنا فريق مسلمون ، وفريق قاسطون . وهذا على حد قوله تعالى : (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، وهو من أساليب اجتذاب الخصم ، وتلطيف حدته ، واستلانة عريكته . فهم بهذا الأسلوب يحركون من عاطفة قومهم لطرد شيطان التفرقة والاختلاف من بينهم ، وليكونوا يدا واحدة فى الايمان ، واتباع تعاليم القرآن . ويشيرون من طرف خفى الى أنه سيكون منهم جميعا أفراد قاسطون ، أى جائرون وحائدون عن سبيل الهدى والرشد ، وهم ضد المسلمين الذين استسلموا لله ، وساروا فى هذا السبيل . فكأنهم يقولون : ليته لم يكن فينا فريق قاسط ، بل نكون كلنا مسلمين ، اذ شتان ما بين الفريقين : من أسلم ومن قسط .

(فمن أسلم) واتبع الحق وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم كما فعلنا نحن **(فأولئك تحروا رشدا)** أى طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين مذ اختاروا لأنفسهم طريق الرشد والحق فاستقاموا عليه ، وهو آخذ بهم ان شاء الله الى الجنة . وهذا ــ وان لم يذكره الكتاب كما ذكر العذاب بحطب جهنم فى جانب القاسطين ــ مفهوم من ذكر موجبه أعنى تحرى الرشد . والله تعالى أعدل من أن يعذب القاسطين ، ويدع المسلمين من ثوابه .

(وأما القاسطون) العادلون عن ذلك الطريق ، **(فكانوا)** بما اختاروه واستمرءوه **(لجهنم حطبا)** وقودا يلقون فيها ، ويصلون سعيرها جزاء وفاقا لأعمالهم ، وسوء اختيارهم . وليس هذا الكلام من أولئك النفر الا ايقاظا لقومهم كما قلنا ؛ وحضا لهم على النظر والتدبر فى العواقب ، فلا يسلكون الا طريق النجاة والفوز .

و (القاسط) من قسط اذا جار وحاد عن الحق ، ومصدره القسط بفتح القاف . ويكون (قسط) أحيانا بمعنى عدل . يقال : قسط الوالى فى حكمه اذا عدل ، وهو وان كان قليل الاستعمال بهذا المعنى فان مصدره الذى هو القسط بكسر القاف كثير جدا . أما (أقسط) بالهمزة فهو بمعنى عدل ، واسم الفاعل منه مقسط أى عادل . ومنه قوله تعالى : (ان الله يحب المقسطين) ، وكأن همزته للازالة ، فاذا قالوا : « أقسط الوالى فى حكمه » كان معناه أزال القسط بفتح القاف أى الجور والظلم ، فيكون «أقسط» موافقا لقسط قسطا بكسر القاف بمعنى عدل .

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

قوله : (**لو استقاموا الخ**) . أكثر المفسرين على أنه ليس من مقول الجن لقومهم ، وانما هو من مقول الله موحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو عطف على (أنه استمع نفر من الجن) في فاتحة السورة. ولعلهم انما جعلوه كذلك لقوله (أسقيناهم) . فالله الموحي يقول : لو استقام أولئك القاسطون على الطريقة المثلى لأسقيناهم ماء غدقا . ولو كان من مقول الجن لقال « لأسقاهم الله ماء غدقا » . وهذا القول ظاهر لاغبار عليه . ومع هذا فاني أرى أن الأليق بالكلام المعجز ، والأكثر محافظة على تناسق جمله ، والتحام اجزائه — أن يبقى (وأن لو استقاموا الخ) من مقول الجن ، ومما حذروا به قومهم ، ولا سيما أن بعض المفسرين جعل الآيتين التاليين : (وأن المساجد لله الخ) (وأنه لما قام عبد الله الخ) — من مقول الجن ايضا ، فكيف يحسن هذا مع جعل (وأن لو استقاموا) من مقول الله لا من مقول الجن ؟ وكيف يحشر حشرا بين أطواء كلامهم وهو غريب عنه (١) ؟

واذا صح جعلنا له من مقول الجن — كان قوله : (لأسقيناهم) واردا مورد الحكاية ، وأن الله هو المسقى لا النفر المتكلمون : على معنى أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقاهم ربهم ماء غدقا . لكن المتكلمين عدلوا عن الاسم الظاهر وهو ربهم الى الضمير وهو (نا) حكاية لما يقوله الرب في وحيه وخطابه عادة للبشر ، فهو كقولك لمن تريد نهيه عن المعاصي « انك اذا تبت الى الله أدخلناك جنة تجرى من تحتها الأنهار » (٢)

(١) ما اختاره المؤلف هنا مبنى على ماذهب اليه بعض المفسرين من أن الآيتين التاليتين من مقول الجن ، وليس بلازم . فعلى قول الجمهور لاتجعلان من مقولهم ، بل يكون الكلام من هنا تقريرا لما ينبغي أن يعرفه الناس ويسيروا عليه بعد أن عرفوا قصة الجن . والكلام على هذا ملتحم الأجزاء ، متناسق الجمل . وعلى الرأى الثاني لاتكون الآية محشورة حشرا كما قال المؤلف ، بل تكون اعتراضا حسن الموقع ، لما فيه من التنبيه الى سنة الله الداعية الى الاستقامة على الطريقة المثلى ، وهو المقصود من قصة الجن كلها . المصحح .

(٢) انما يصح هذا التوجيه في رأيي لو كان المتحدث بمثل هذا الكلام ممن يصح له أن يتحدث عن الله تعالى كما في الآيتين اللتين استشهد بهما المؤلف بعد . على أن الأبلغ في العبارة التى ساقها أن يقال : انك اذا تبت الى الله ادخلك الله الجنة ... الخ باظهار الاسم الكريم بدل اضماره ، لتوكيد نسبة ادخال الجنة اليه تعالى ، فيكون أدعى الى المسارعة في الامتثال . المصحح .

تريد انك أيها التائب تكون في جملة من يدخلون تحت وعد الله لأهل طاعته مذ يقول : أدخلنا وبوانا وأنزلنا . وفي الكتاب آيات كثيرة واردة على هذا الأسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه : (قال فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربي في كتاب . لايضل ربي ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا . وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى الخ) ، وكان الظاهر أن يقول فأخرج به . ويشبه أن يكون منه قوله تعالى في سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) . فقوله : (نحن نرزقكم) بضمير المتكلم وارد مورد الحكاية عنه تعالى ، وكان الظاهر أن يقول : « هو يرزقكم » .

وقوله : (لنفتنهم فيه) وارد أيضا مورد الحكاية مع (لأسقيناهم) . ثم رجع الكلام في قوله بعد ذلك (ومن يعرض عن ذكر ربه الخ) ، (وأن المساجد لله الخ) — الى أسلوبه الأول ونسقه السابق .

و « الاستقامة على الطريقة » السلوك فيها بصبر وثبات ودوام . والمراد « بالطريقة » الطريقة الكاملة المرضية عند الله ، وهي طريقة أهل دينه وطاعته ، وسيرتهم التى لايحيدون منها . والضمير في (استقاموا) يرجع الى أولئك الذين لم يسلموا ولم يتحروا رشدا ، بل قسطوا وحادوا عن طريق الرشد والحق .

يقول النفر من الجن لقومهم : قد يكون منا فريق لا يسلمون كما أسلمنا ، ولا يسلكون طريق الحق كما سلكنا ، بل يقسطون ويضلون ، ويكونون حطبا لجهنم ، ولو استقام هؤلاء القاسطون على الطريقة المثلى التى يرضاها لهم ربهم : من العمل بطاعته ، واتباع سنته — لوسع عليهم الرزق ، والان لهم العيش ، ولكانوا في جملة الذين يقول فيهم (أسقيناهم ماء غدقا) .

و (الغدق) : الماء الكثير النافع . والماء مادة الحياة ، وأصل البركات ، وعلى غزارته وجودته تتوقف صحة الأجسام ، ورفاغة العيش ، وطيب الاقامة .. ولم تعمر مدينة من مدن البشر أو يستبحر عمرانها الا لأنها كانت مبنية على نهر متدفق ، أو ينبوع مغدودق . ولا سيما مدن العرب الضاربين في البوادى ، فان المناهل والغدران غرضهم الأسمى الذى يطمحون اليه ، ويحرصون عليه ، ويكثر بينهم التحاسد والتنافس فيه . وكم من غارة شنت ، ونار حرب شبت — من أجل غدير ، أو اغتصاب بير .

وقالوا : قد جننت ، فقلت كلا
وربي ما جننت ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكدت أبكى
من الظلم المبين أو بكيت
فان الماء ماء أبى وجدى
وبئرى ذو حفرت وذو طويت

واذا أرادوا الدعاء لأحد بالحياة ، ولين العيش ، وسبوغ النعمة - قالوا : « سقيا له » ، و « سقاه الله » ، كما يقولون : « طوبى له » و « حياه الله » :

فمعنى قوله : **(لأسقيناهم ماء غدقا)** لوسعنا عليهم الرزق ، وأجزلنا لهم النعم ، وبسطنا لهم الدنيا ، يتقلبون من رغدها وغضارة عيشها فيما شاءوا واحبوا .

فتوفر أسباب الحياة الطيبة ، ورغد العيش فى الأمم - انما هو أثر من آثار تقوى الله ، والعمل بطاعته ، وسلوك طريقته التى يرضاها ، كما قال هؤلاء النفر خطباء الجن لقومهم . غير أن الماء الغدق ، وسعة الرزق ، وبسطة الحياة الدنيا - كما تكون ثوابا من الله للأمم على استقامتها ، وحسن طاعتها واستمساكها بحبال سننه تعالى فى خلقه - تكون فى الوقت نفسه فتنة تصبح الأمم فيها عرضة للخطر ، ومزلقا تهوى منه الى حضيض الشقاء ، والتعاسة والفناء . وذلك يكون بعدول تلك الامم عن الطريقة التى استقاموا عليها ، والتى كانت سببا لسعادتهم ، واعتلاء شأنهم .

فالله يرشد الأمم والشعوب الى طريقة مثلى من دينه وحسن طاعته ومراعاة سننه ، فاذا استقاموا أفلحوا وسعدوا ، لكنهم - وهم فى هذا الفلاح والسعادة - بسبيل الغفلة والذهول والزهو والغرور والتنكب عن الطريقة المثلى : طريقة الدين والحق والعدل ، وحسن العمل .

فما أحراهم ساعتئذ باليقظة والانتباه والتدبر ! ما أحراهم بفرط الحذر والاحتياط والاستمساك بحبل النجاة ! ما أحراهم أن يكونوا فى هذه التجربة والمزلق الدحض ذوى أقدام ثابتة ، وحلوم راجحة ، وعزائم متينة ، كى يجتازوا الصراط ، ويتخطوا المزلق ، وينجوا بأنفسهم . اقرأ كتاب الله ، وتصفح التاريخ ، واستعرض أحوال البشر ، وطبق هذا الناموس الالهى عليهم - تجده مطردا لا خلف فيه ، محكما لا وهن يعتريه .

أن هذا الدور ، دور الفتنة والتجربة بالتبسط فى أفانين النعيم ولذائذ الحياة الدنيا - من أرهب الأدوار على الأمم ، وأشدها خطرا على حياتها . والى هذا الدور أشار تعالى مذ قال : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ، وقال : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) .

وكل ماذكر الله فى الكتاب من أخبار الأمم الماضية .. انما ذكره تقريرا لهذا القانون الالهى ، وكشفا عن أمره ، وتحذيرا من غوائله ، بل تنزل الوحى الى ذكر ذلك لنا على لسان اخواننا من الجن - كما فى هذه الآية - ليكون أدعى الى الانتباه والاتعاظ والاعتبار .

ومحصل معنى الآية أن أولئك النفر من الجن قالوا لقومهم : ان الذين يستقيمون على طريق الحق يصلون الى بحابح السعادة وطيب الحياة، ولكن ليحذروا - وقد بلغوا هذا الدور - أن يبطروا ويشغلوا بزهرة الحياة الدنيا ولذائذها عن العمل بالحق والعدل وطاعة الله .

فان سعادة الحياة فتنة واختبار ، كما أن شقاءها ومصائبها كذلك ، فكونوا أيها القوم من تلك الفتنة على حذر ، وهذا هو معنى قوله تعالى : **(لنفتنهم فيه)** ولام (لنفتنهم) هى مايسميه النحاة لام العاقبة ، وليست هى لام التعليل ، أى ليس المعنى أن الله يوسع عليهم الرزق ويغدق النعم - لأجل أن يفتنهم ، وانما المعنى أنه يفعل ذلك بهم جزاء طاعته ، واتباع طريقته ، ثم تكون عاقبة ذلك انتقالهم الى دور خطر ، وموقف حذر ، فيه يفتنون ويجربون : فان أحسنوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه - نجوا وسلموا ، وأن خاسوا بالعهد ، واستخفوا بالوعيد والوعد - بادوا وقصموا .

وقد فهم من هذا الشرح معنى قوله تعالى : **(ومن يعرض عن ذكر ربه)** ، أى من يعرض من أولئك الذين أسقيناهم ماء غدقا - أثناء اجتيازهم دور الفتنة والاختبار - عن وحى ربه ودينه والعمل بطاعته **(يسلكه)** يدخله **(عذابا صعدا)** أى فى عذاب صعد .

وفعل (سلك) يتعدى بفى ، قال تعالى : (ما سلككم فى سقر) اى ما أدخلكم فيها ، لكنه هنا عدى الى مفعوله بنفسه حملا له على فعل « دخل » ، يقال : « دخلت السوق » و « أدخلته الخان » من دون «فى» .

و (الصعد) بفتحتين وبضمتين بمعنى الصعود : مصدر صعد يصعد ، والصعودأكثر استعمالا منهما .

و « العذاب الصعد » : هو العذاب الشديد الشاق ، وأصله من التصعيد فى الجبل ، فانه منصب متعب ، فجعل العرب التصعيد فيه مثلا للمشقة والنصب الذى يلحق المرء من أى شىء كان ، وتقول « تصعدنى الشئ » و « تصاعدنى » اذا شق عليك ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : « ما تصعدنى شىء ما تصعدتنى خطبة النكاح » يريد ما شق على ولا غلبنى الا هى ، أو هى من الصعود بفتح الصاد العقبة الشاقة ، كما قالوا « تكاءدنى وتكادنى » من العقبة الكئود ، أى شق على . ومثله قوله تعالى : (سأرهقه صعودا) ، معناه سأسومه عذابا يشقى به كما يشقى المصعد فى الصعود .

والعذاب الذى يعترى الأمم بسبب اعراضها عن أمر ربها ، وعن مراعاة سننه ، والعمل بطاعته - من اشد أنواع العذاب ،وأكثرها حزا فى القلوب ،وارماضا للنفوس .

وقد فسرنا « ذكر الرب » بالطاعة والدين واتباع السنن الالهية ، لأن سعادة الأمم وشقاءها ، وسقوطها وارتقاءها - انما يكون بهذا النوع من الذكر ، أعنى العملى ، أما الذكر اللسانى الذى تتعلل به الأمم حين غلبة الجهل والكسل والخمول عليها ، فانه لا قيمة له من دون عمل ، ولا يدفع عنها الخطب اذا الخطب نزل .

وقلما نجد فى كلام الله كلمة « الذكر » الا مرادا بها

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

القرآن والوحي والدين وطاعة الله والخشية منه . أما الحركة المضلية او الميكانيكية فما ابعدها عن مقاصد القرآن ! وما أضعفها أثرا في نجاة الانسان !!!

ومما قاله أولئك الخطباء لقومهم مباهين بما سمعوه واستفادوه من الوحي الالهي (**أن المساجد لله**) . و (المساجد) جمع مسجد . والمراد به مكان السجود ، أو المراد به السجود نفسه . فيكون مصدرا ميميا سميت به الصلاة تسمية للكل باسم الجزء ، كما تسمى ايضا ركوعا لذلك . فالمعنى أن الصلوات كلها التي يصليها أي شخص ، مسلما كان أو غير مسلم ، أو أن المعابد كلها للمسلمين كانت أو لغيرهم من أبناء الملل الأخرى — هي لله ، أي ينبغي أن تكون خالصة له ، فهو الخالق الحقيقي للبشر ، ولا يحسن منهم أن يجعلوا صلواتهم او معابدهم لغيره أو باسم غيره ، بل يجب أن يخصوه وحده بها ، ويخلصوا له العبادة فيها .

هذا ما قاله الجن لقومهم ، ثم فرعوا عليه نهيهم لهم عن عبادة غير الله ، فقالوا لهم : **(فلا تدعوا مع الله أحدا)** أي اذا كانت المساجد له وحده فلا تعبدوا معه سبحانه أحدا من خلقه . فالمراد بالدعاء هنا وفي قوله بعده (يدعوه) العبادة . وقلما ذكر الدعاء في الكتاب الا اريد به هذا المعنى ، أي العبادة . بل قالوا ان الدعاء مخ العبادة . والدعاء في الأصل الطلب ، ثم صار يطلق على العبادة ، لأن من شأن العابد أن يطلب من معبوده ما لا يقدر عليه غيره . ومن ثم نهي المؤمن بالله أن يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه الا الله ، لئلا يكون في طلبه هذا عابدا لذلك المطلوب منه او كالعابد له . قال تعالى: (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) .

ولما أنهى أولئك النفر من الجن حديثهم أحبوا أن يختموه بذكر ما علموه من أحواله صلى الله عليه وسلم ، وقيامه بدعوة الناس الى التوحيد ، وما كان من تكذيب الناس له ، وصبره على أذاهم .. فقالوا : **(وأنه لما قام عبد الله يدعوه الخ)** ، وقد سموه صلى الله عليه وسلم باسم (عبد الله) تنبيها لقومهم الى أنه مع ماهو عليه صلى الله عليه وسلم من رفعة القدر ، ونباهة الذكر ، واستجماع الكمالات في ذاته الشريفة — ليس من شأنه أن يوسم بغير ميسم العبودة .

لا تدعني الا بياعبدها فانه اشرف أسمائي

فليس هو صلى الله عليه وسلم الها او متألها في الأرض ، ولم يقم ليكون جبارا من جبابرتها ، ولا طاغوتا من طواغيتها . وانما هو كما قال عن نفسه : « عبد ، أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » . وقد حض أمته على الا يطروه كما تطرى الأمم أبطالها وعظماءها وأنبياءها الى درجة الألوهة ، ولكن ليقولوا عنه : انه عبد الله ورسوله .

فالجن يقولون لقومهم : (انه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يدعو ربه ، ويعبده وحده من دون الأصنام والأنداد التي تعبدها القبائل والأمم في ذلك العهد — هاج هؤلاء الأقوام ، وتألبوا عليه من كل جانب بحيث (**كادوا يكونون**) من فرط كثرتهم وتجمعهم وتعاونهم وازدحامهم (**عليه**) لصده عن دعوته ، واسكاته عن تبليغ رسالة ربه — (**لبدا**) ، كاللبد : أي كخيوط الشعر أو الصوف التي تلبدت ولز بعضها الى بعض . و (اللبد) بكسر ففتح جمع لبدة بكسر اللام ويجوز ضمها فتجمع اذ ذاك على لبد كغرفة وغرف . وهي اسم لكل شعر أو صوف متلبد . وسمي الشعر المتلبد على أكتاد الأسد لبدا لذلك ، ويلقب الأسد به فيقال « ذو لبدة » وفي المثل « هو أمنع من لبدة الأسد » .

ثم قال الخطباء : وان عبد الله محمدا صلى الله عليه وسلم لما تألبت عليه القبائل تناصبه وتحاربه — لم يقل لهم قول المخبولين الموسوسين ، ولا الجبارين المتكبرين ، بل (**قال**) لهم قول البررة المخلصين : اني ياقوم لم آت أمرا منكرا ، ولم افعل ما استوجب به منكم كل هذا الاعراض والنفور والاصفاق على عداوتي ومقاومتي (**انما أدعو**) واعبد (**ربي**) الذي خلقني وأمدني من ضروب العناية والتربية والتأديب بما صرت به بشرا سويا ، وعبدا بطاعة ربه مليا ، فأنا لا أكفر بكل هذه النعم ، (**ولا أشرك بربي**) وعبادته والاخلاص اليه (**أحدا**) من خلقه : الذين انما قاموا به ، واستمدوا كيانهم منه (١) .

---

(١) اقتصر المؤلف هنا على قراءة « قال » ، وفي تفسير الألوسي: (وقرأ الاكثرون قال على أنه حكاية منه تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم للمتراكمين عليه ، أو حكاية من الجن عند رجوعهم الى قومهم ... وقراءة الأمر وهي قراءة عاصم وحمزة وأبي جعفر — اظهر وأوفق لقوله سبحانه « قل اني لا املك لكم ضرا ولا رشدا ») .

ما مر كان آخر حديث أولئك النفر من الجن مع قومهم . ثم انتقل الوحى منه الى الحديث معه صلى الله عليه وسلم معلما له ، ومرشدا الى أفضل الطرق وأمثلها فى خطاب قومه من قريش ، ومحاجتهم فى الله، وتخويفهم عقابه ، جاعلا محاجة الجن لقومهم توطئة وتمهيدا ، بل نموذجا ومثالا ، فقال :

(قل) يامحمد فى محاجة هذه القبائل التى ازدحمت عليك للبطش بك ازدحام شعر اللبود : **(انى لا املك لكم ضرا)** أى ولا نفعا ـ كما لا املك لكم غيا **(ولا رشدا)** : فحذف « نفعا » من الأول لدلالة « ضرا » عليه ، وحذف « غيا » من الثانى لدلالة « رشدا » عليه ، فهو من جوامع الكلم الذى كثر ورود أمثاله فى الكلام المعجز .

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينبه قومه ومقاومى دعوته الى أنه لم يقم فيهم لتكون له سيطرة عليهم ، ولا ليبدل ويغير ماقدره الله وقضاه فيهم من خيروشر ، ونفع وضر ، وغى ورشاد ، واشقاء واسعاد ـ كلا ! فان ذلك كله ليس من مقدوره ، وانما هو بيد ربهم ، واليه مرجعه . وأنه هو صلى الله عليه وسلم لم يزد عن كونه واحدا منهم: أرسله الله ليبلغهم وحيه وأمره ، ويدلهم على الطريق التى يريد ربهم أن يستقيموا عليها . فبقدر ما يكون منهم من الهدى فى تلك الطريق وعدم الانحراف عنها يكون لهم من الضر والنفع ، والغى والرشد ، ثم يكون حسابهم على الله . بل **(قل)** لهم يا محمد فوق ذلك **(انى)** أنا المرسل بتبليغ أمر الله اليكم **(لن يجيرنى)** أن خالفت ، واهملت ، أو أذنبت ، **(من الله)** ان أراد عقابى ، والتنكيل بى **(أحد)** من البشر . **(ولن أجد من دونه ملتحدا)** أى ولن ألقى ان هربت من عقاب الله وسطوته ملاذا ألتجىء اليه ، وآمن فيه من العقاب . سمى الملاذ والملجأ « ملتحدا » من « اللحد » ، وهو فى أصل معناه الميل . يقال : لحد فلان الى فلان اذا مال اليه ، ولحد السهم عن الهدف اذا عدل عنه ، ولحد فى دين الله اذا مال عن صراطه الى مضايقه وبنيانه . ولما كان الملجأ والملاذ يلتحد اليه الهارب للاعتصام به سمى ملتحدا . وقد نفى أولا أن يجد صلى الله عليه وسلم مجيرا وناصرا من جنس البشر ، ثم عاد فنفى أن يكون له ملجأ ومعقل يأوى اليه من الأجناس الأخر . فاذا كان هو صلى الله عليه وسلم ـ حبيب الله وصفيه من خلقه ، ومبلغ وحيه وأمره اليهم ـ معرضا للقهر والانتقام الالهى ان خالف أو عصى أو قصر فى هداية أولئك الأقوام المرسل اليهم ـ فكيف يكون حالهم هم اذا عصوا وظلموا وتصاموا عن استماع امر ربهم ، والعمل بما يرضيه ؟ لاجرم أن الأمر الالهى ، والشرع السماوى ـ ناموس عام ، بديع الصنع والاحكام ، مطبق بدقة على جميع الأنام ، فمن راعاه ، واستمسك بعراه ـ سلم ونجا ، ومن استخف به ، وحاد عنه ـ شقى فى الحياتين ، ثم هوى .

نفى الوحى عنه صلى الله عليه وسلم فى الآيات السابقة كل طاقة وقدرة تحول بينه وبين انفاذ المشيئة الالهية فيه ، كما نفى عنه أن يكون مالكا لشىء من مصير الخلق وأمر ضرهم ونفعهم ، وغيهم ورشادهم . لكنه عاد فأثبت له صلى الله عليه وسلم حقا واحدا ، وعملا واحدا ، ووظيفة واحدة يملكها باذن الله ، وهى مناولته أولئك القوم المكذبين **(بلاغا)** جاءه **(من الله)** تعالى و « رسالات » ، وهى سور القرآن وآياته : أنزلت عليه من الله ليتلوها عليهم ، فمن سمع البلاغ ووعاه من المخاطبين ، وتقبل الرسالات وتدبرها ، وعمل بمضمونها ـ كانت له الجنة خالدا فيها أبدا ، **(ومن يعص الله ورسوله)** ، فيعرض عن سماع البلاغ وتدبر الرسالات والانتفاع بها ـ **(فان له نار جهنم)** جزاء وفاقا لتكذيبه واعراضه وسوء صنيعه . وقوله : **(خالدين فيها)** أى لابثين فى العذاب الى غير نهاية ، وانما جمع (خالدين) ميلامع المعنى : وذلك أن (من) لفظها مفرد ، فأعاد عليها الضمير مفردا فقال : (فان له) ، أما معناها فعام شامل لكل عاص ، فلذلك جمع خالدين تمايلا مع ذلك المعنى . وفى الكلام ـ قبل قوله (ومن يعص الله الخ) ـ مقدر أشرنا اليه بقولنا : « فمن سمع البلاغ ووعاه الخ » ، ثم عطفنا عليه قوله تعالى (ومن يعص الله الخ) ومثله كثير فى آيات القرآن ومختلف أساليبه ، ولو ذكر فيه كل ماحذف منه من هذا القبيل لبلغ حجمه اضعاف ماهو عليه ، فسبحان من أنزله ، وبحلية الايجاز والاعجاز زينه وكمله .

والضمير فى قوله : (حتى اذا رأوا) يرجع الى (من) باعتبار معناها الجمعى كما قلنا فى خالدين ، وكلمة (حتى) غاية لمضامين الآيات التى وصف فيها اعراض المكذبين وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحيث اشبهوا فى تألبهم وتظاهرهم اللبد . فالمعنى : سوف يستمر هؤلاء المعاندون فى غيهم وضلالهم ، واستخفافهم برسول الله وصحابته ، واستضعافهم لهم ، **(حتى اذا رأوا ما يوعدون)** أى حتى وقت معاينتهم ما أوعدهم الله به من العذاب والعقوبة : أما فى الدنيا فان مصيرهم فيها الخزى والخذلان والهزيمة وظهور أمر المؤمنين،وأما فى الآخرة فان مآبهم فيها الى النار وبئس القرار ، **(فسيعلمون)** عند رؤيتهم ذلك ، وتحققهم صحته **(من أضعف ناصرا)** معينا وحاميا **(وأقل عددا)** نفرا وجندا : هم

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

أو محمد عليه الصلاة والسلام . لا ريب انه صلى الله عليه وسلم هو الأقوى الأقوى ناصرا ، فان ناصره الله تعالى ، وهو الأكثر عددا ، فان جنده الملائكة الأطهار ، والمؤمنون الأبرار .

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم سيعلمون يوم القيامة أن الله تعالى هو القوى العزيز القادر على التنكيل بهم ، والانتقام منهم ، فلا ينفعهم يومئذ أنصارهم وحلفاؤهم شيئا ، ولا يغنى عنهم عددهم وتكاثر حصاهم فتيلا .

كان صلى الله عليه وسلم كلما خوف المكذبين نار جهنم ، وحذرهم أهوال الساعة ــ أظهروا الاستخفاف بقوله ، وسألوه : متى تقوم هذه الساعة ؟ وطلبوا منه أن يعين لهم زمنها ووقت حلولها ، ويتخذون من جهلهم وقتها ، واخفاء الله لها ، سبيلا الى تكذيبها وانكارها بالجملة . ولله فى اخفاء الوقت الذى تخرب فيه الكائنات وتقوم الساعة ــ حكمة هو سبحانه أعلم بها ، وربما كان لذلك تعلق شديد بحياة البشر ، واستتباب أمرهم ، وانتظام مصالحهم . وقد كانوا يلحون عليه صلى الله عليه وسلم فى تعرف أمر الساعة ، فكان أحيانا يشاركهم فى الاهتمام بها ، وترديد ذكرها ، حتى عاتبه ربه على ذلك فى سورة النازعات فقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها) ، يعنى أن أمرها غيب اقتضت الحكمة الالهية الا يطلع عليه أحد حتى أنت يامحمد ، فدع عنك كثرة اللهج بها .

وهكذا القرآن : كان كلما ذكر من أمر الساعة وتحقيق وقوعها ، أتبع ذلك ببيان أن زمنها مكتوم من الخلق يجهله كل أحد الا الله .

ولما ختم فى الآيات السابقة الحديث مع قبائل العرب المتألبين عليه صلى الله عليه وسلم ــ بايعادهم بنار جهنم والخلود فيها ــ كانوا بسبيل أن يسألوه حسب شنشنتهم : متى يكون هذا الذى تعدنا به ؟ قريب هو أم بعيد ؟ فقال الله لنبيه :(**قل**)لهم يامحمد (**ان أدرى**) أى ما أدرى (**أقريب ما توعدون**) من قيام الساعة بحيث أصبح متوقع الحلول ، منتظر الحصول كل وقت وآن ، (**أم يجعل له ربى أمدا ؟**) ، يعنى أم هو غير منتظر الآن وغير متوقع الحصول ، لأن الله جعل له أمدا وأجلا هو بالغه ، فقوله (أمدا) واقع فى مقابل قوله (قريب) كما تقول : أقريبة زيارتك أم لها أجل فهى مؤخرة اليه ؟

ثم وصف تعالى نفسه بقوله : (**عالم الغيب**) . وفى سياق الآيات الماضية أمران اقتضيا وصفه تعالى بذلك :

١ ــ ما ورد على لسان أولئك النفر من الجن : أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن الله قد حال بينهم وبين معرفة ما قدره فى السماء بشأن الخلائق .

٢ ــ اخفاء الساعة عن متناول علم البشر ، وأنه لا معنى لاهتمامهم بها وتساؤلهم عنها من وقت لآخر ، فالغيب بوجه عام ــ وغيب يوم القيامة بوجه خاص ــ مما استأثر الله بعلمه .

(**فلا يظهر**) (١) أى لايطلع (**على غيبه أحدا**) من خلقه .

و (أل) فى (الغيب) للاستغراق ، أى أنه تعالى عالم كل الغيوب على اختلاف أنواعها وأشكالها . والغيب ما غاب عنا معشر البشر مما لا نهتدى اليه بشىء من حواسنا ومشاعرنا ، أو بشىء من فراستنا وقياسنا واستنتاج عقولنا . وكل ما أمكننا علمه والوصول اليه باحدى هذه الوسائل لايكون غيبا ، بل لا يسمى غيبا بالمعنى الذى يشمله قوله تعالى (عالم الغيب) .

والغيوب التى استأثر الله بعلمها أنواع ، لكن منها ما للبشر فيه حاجة ، ولهم بالاطلاع عليه رفق ورحمة وفائدة : كالوحى والشرائع والأوامر والنواهى الالهية المغيبة عنهم ، والتى لايبلغها علمهم ، ولن تهتدى اليها عقولهم . فهذه الشرائع السماوية اذا بقيت مكتومة عنهم ، غير مبلغة اليهم ــ أضر ذلك بهم ، وأخل بنظام أمرهم ، وضيع عليهم السعادتين الدنيوية والأخروية .

وقد قام فى البشر حكماء وفلاسفة وكهان ادعوا علم هذا النوع من الغيب المتعلق بمصالح البشر وانتظام أمرهم ، وكانوا يزعمون أنهم وصلوا الى شىء منه بعقولهم أو رياضاتهم ، أو بواسطة الجن ، فنفى الله ذلك أولا عن الجن بلسان الجن أنفسهم ، ونفيه

---

(١) ورد فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم سمع جوارى يغنين فى عرس ويقلن :

واهدى لنا أكبشا تبحبح فى المربد
وزوجك فى النادى ويعلم ما فى غد

فقال صلى الله عليه وسلم : لا يعلم الغيب الا الله . ومعنى تبحبح تتمكن وتجلس مستريحة ، والمربد الحظيرة ــ المؤلف .

قوله « فى النادى » هو كذلك فى الأصل وفى لسان العرب ، ولعله « فى المنتدى » ليستقيم وزن البيت ــ المصحح .

عنهم مستلزم لنفي معرفته عن الكهان بالضرورة . ثم نفى في هذه الآية امكان اطلاع أحد من البشر مهما ارتقى عقله ، وصح حكمه ، وصفا قلبه ، وأشرقت نفسه ـ على ما في غيب الله من الوحي والشرع الذى يتوقف عليه خير البشر وصلاحهم **(الا من ارتضى من رسول)** ـ فانه تعالى قد يرتضي ويصطفى رسلا من خلقه يطلعهم بواسطة جبريل عليه السلام على ذلك الغيب السماوى ، فيبلغهم اياه وحيا : توراة أو زبورا أو انجيلا أو قرآنا ، متضمنا مايريد ان يخاطبهم به مما فيه صلاحهم وسعادتهم ، وانتظام امر معاشهم ومعادهم .

وهذا هو المراد من الغيب الذى قال الله عنه انه يطلع عليه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام . نقل ذلك ابن جرير الطبرى في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وذهب اليه أيضا ابن جريج ، وزر بن حبيش ، وابن واقد ، وابن زيد ، وقالوا : ان الغيب هنا بمعنى الوحي والشرائع كالغيب في قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين) ، أى ما محمد صلى الله عليه وسلم على الوحي والشرع الذى يلقى اليه بمتهم فيغير أو يبدل فيه .

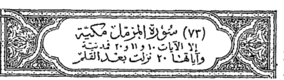
ومما يشهد على أن المراد بالغيب ماذكر ـ قوله تعالى بعده : **(فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم)** .

(سلك وأسلك) بمعنى أدخل وأرسل وبث ، و (الرصد) مر أنه بمعنى الحرس والحفظة ، وضمير (يديه) يرجع الى (من) في قوله (من ارتضى من رسول) باعتبار لفظها المفرد ، لكن لما كان معناها جمعا : وهو كل رسول يرتضيه سبحانه ويصطفيه لنبوته ـ أعاد عليها الضمير في (أبلغوا رسالات ربهم) جمعا ، وقد مر نظيره في قوله : (فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) .

ومعنى **(ليعلم)** لأجل أن يقع تبليغ الرسالات وينكشف أمره للخلق ، فيتعلق علم الله به واقعا . وقد سمي ذلك الوقوع علما كما سماه كذلك في آية (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) ، والا فان اطلاع الله رسله على وحيه ، ثم حفظه لهم من نسيان شيء منه ـ ليس لأجل أن يعلم الله هو ذاته ذلك ، كيف وهو يعلمه منذ الأزل وقد قدره وقضاه ؟ وانما يرسل الله الرسل ويعصمهم من النسيان لأجل أن يعقب ذلك انجاز القدر الالهى ، وتعلق العلم القديم ، وتكون نتيجته تبليغ هؤلاء الرسل رسالات ربهم ووحيه الى خلقه . فاللام في قوله (ليعلم) يشبه أن تكون ما يسميه النحاة لام العاقبة ، ويمثلون لها بقوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وكما مر في لام (لنفتنهم فيه) .

فمعنى الآية اذن أنه تعالى عالم الغيب كله لايطلع عليه أحدا من خلقه ، انسيا كان أو جنيا ، حكيما أو كاهنا ، اللهم الا غيبه الذى في اطلاع الخلق عليه رحمة بهم واستصلاح لهم ، وهو شرعه السماوى ، وخطابه الأزلى الالهى ، فانه يوحيه بواسطة امين وحيه جبريل الى (من ارتضى من رسول) ، أى الى أى رسول من خلقه ارتضاه واختاره واصطفاه لذلك ، فيأمره بتبليغه اليهم ، وانه تعالى (يسلك) ، أى يرسل ويبعث ويبث من بين يدى رسله ومن خلفهم (رصدا) على معنى انه تعالى يحوط رسله من كل جانب برصد من الحراس والحفظة ، وذلك صونا لهم ، وحفظا من الوساوس والتخاليط ، أو من الذهول والنسيان ، حتى لايتركوا بعض ما أوحى اليهم ، أو يذهلوا عنه ، أو يقصروا في تبليغه . وهذا كناية عن أنه تعالى ركز في فطرة أنبيائه مقدرة أو صفة بها يطيقون تبليغ رسالاته الى خلقه من دون تفريط في شيء منها ، كما تقرر في « علم العقائد » ، ويسمون تلك الصفة « العصمة أو الأمانة » .

ثم ان انزال الوحي ورسالات الكتب السماوية على الأنبياء ، وعصمتهم من التفريط فيها ـ تكون نتيجته ابلاغهم تلك الرسالات الى البشر ، وبذلك تتحقق المعلومات الالهية ، وتتم المشيئة الازلية في اسعادهم وهدايتهم ، واستصلاح أمر دنياهم وآخرتهم . فالمراد من قوله (ليعلم) ليظهر وينكشف ويتحقق كما قلنا آنفا . وقد زاد هذا المعنى وضوحا بقوله بعده **(وأحاط بما لديهم)** ، أى أنه تعالى أحاط علمه بجميع ما لدى الانبياء من الوحي والشرائع والرسالات ، فلن يفوته منها شيء ، ولا يتفلت حرف ، فهو محص لها ، مهيمن عليها : وهو تعالى لم يحط علمه القديم بما لدى رسله فقط بل انه **(أحصى)** ، وعلم علم ضبط واستقصاء وشمول ـ **(كل شيء)** من هذه المخلوقات المنبثة في الأرضين والسموات **(عددا)** ، أى حالة كون كل واحد من تلك الاشياء معدودا مميزا عن غيره . هذا هو مبلغ علمه سبحانه بتفاصيل الاشياء الكونية وجزئياتها ، فكيف لا يحيط علما بما عند رسله من وحيه ورسالاته التى أمرهم بتبليغها الى خلقه ؟ وكيف يمكن لرسله عليهم الصلاة والسلام أن يفرطوا في تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا ، أو يحرفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها محص لها ؟



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ

فواتح هذه السورة من أوائل ما انزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (اقرأ باسم ربك) . وكان من خبر ذلك أن العناية الالهية بعدما أعدت نفسه الشريفة لقبول الوحي ــ وكان فى الأربعين من عمره ــ نزل عليه جبريل وهو فى غار حراء ، فألقى عليه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) ، فكان أمر العلم والتعلم أول ما قرع قلبه الشريف من قوارع الوحي السماوى والتعليم الالهى . واذ لم يكن له صلى الله عليه وسلم عهد بتلقى وحى ومخاطبة ملك ــ ذعر منه (١)، وظنه مسا أو عارضا عرض له . والمرء فى مثل هذه الحالة لا يجد مسكنا لروعه ، مخففا لهواجسه ــ مثل الالتجاء الى بيته ، وبث شكواه الى زوجه . ففعل صلى الله عليه وسلم ذلك . وكأنه خاف أن يفجأه من امر الملك ثانية ما فاجأه أولا ، فألقى نفسه فى فراشه ، وقال للسيدة خديجة زوجه : زملونى زملونى ، أى لففونى بالثياب . فيشبه أن يكون قد أراد بذلك الاستخفاء من الملك ، واراحة نفسه من عناء الطارىء الجديد ، وما خامر قلبه من الهول الشديد . ولم يدر أنه الناموس الذى كان ينزل على اخوانه الانبياء والمرسلين قبله ، أو أن طلبه التلفف بالثياب كان لقشعريرة برد شعر بها فى جسمه .

ولما عاد اليه الملك مرة ثانية وجده صلى الله عليه وسلم متزملا فى قطيفة ، فقال له : **(يأيها المزمل . قم الليل الخ)** ، وهى فاتحة سورتنا هذه . ثم جاءه مرة أخرى وكان متدثرا ، أى متلففا كذلك بكسائه ، فقال له : (يأيها المدثر قم فانذر الخ) ، وهى فاتحة السورة الآتية . والسبب فى الخطاب فيها كالسبب فى الخطاب فى هذه السورة على ما سيأتى . وفى كلتا الحالتين كان صلى الله عليه وسلم غير متثبت من أمر الوحي لأول نزوله عليه ، فكان يريد أن يتجنبه بالتزمل والتدثر ، وعدم التعرض للهاتف ، حتى تحقق الأمر اخيرا ، وعلم أنه جبريل عليه السلام : يأتيه بالوحى ويبلغه أمر الله . وقد كان للسيدة خديجة رضى الله عنها الموقف العظيم فى تثبيت قلبه ، وتهدئة روعه ، وكشف الهواجس عن خلده ، كما هو مبسوط فى كتب السير .

و « المزمل » و « المدثر » من « تزمل وتدثر » قلبت تاءاهما زايا ودالا ، وأدغمتا فى الزاى والدال الأصليتين ، واجتلبت الهمزة فى أول كل منهما لأجل التوصل الى النطق بالساكن ، فقيل « ازمل وادثر » . واسم الفاعل منهما « مزمل ومدثر » .

أما خطاب الملك لنبينا صلى الله عليه وسام بيأيها المزمل ، وتبليغه أمر ربه بقيام الليل وترتيل القرآن ، وبقية الأوامر والارشادات التى ستسمعها فى هذه السورة ــ فالقصد منه افراغ الأمة المحمدية فى قالب متين من التربيتين الجسمية والروحية . فالشارع الأعظم لم يهملنا من بيان الطرائق التى تؤدى الى توفر هاتين التربيتين فينا . فهو لم يكتف بما كان عند أسلافنا العرب من القوة الفطرية الراسخة فى نفوسهم وأبدانهم ، بل شرع لهم من طرقها ووسائلها ما يزيدها رسوخا فيهم ، فيستفيدون من هذه التربية فيما ندبوا له من القيام بالأعمال الجلى . كما أن هذه التربية نفسها تقى أبناءهم الآتين مضرات الترف والدعة وبلهنية العيش التى سيصبحون معرضين لها بسبب الفتح واستبحار العمران ، والتبسط فى مناحى الحضارة . فالتكاليف الشرعية المتعلقة بالبدن مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام من آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مرارا ، والاغتسال به احيانا ، وكالصوم فى أيام الحر ، والقيام للسحور من آخر الليل ، وكالحج وتحمل مشقات السفر لأداء فريضته ، والاحرام والسعى والطواف ، وكالجهاد وما ينطوى تحته من ضروب المشقات والأتعاب ــ كل ذلك يورث ابداننا صلابة ونفوسنا قوة تساعدنا على الثبات فى معترك الحياة العام ، وتكون عونا لنا على نشر تعاليم الاسلام بين الأنام . سئل غاندى الزعيم الهندوسى المشهور عن تذكاراته فى

---

(١) وشأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى حصول الذعر والاضطراب والغيبوبة له عند نزول الوحى عليه ــ كشأن جده ابراهيم عليه السلام فى ذلك ، ففى قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست فى ترجمة ابراهيم الخليل : (ولما كان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر له الله على أسلوب قريب امتلأ منه رعبا وخوفا وسقط على وجهه) ، (ولما قاربت الشمس الزوال وقع على ابراهيم سبات مصحوب « برعبة مظلمة » وفى خلالها أوحى اليه ببعض الحوادث الخطيرة التى تجرى فى مستقبل أيامه ونسله من بعده) ا هـ .

السجن فقال : « ان أعظم شيء حصلت عليه في السجن هو تعودى احتمال متاعب الجسد ، فقد كنت أجد ان قوتى الروحية تزداد نشاطا . واننى اعتقد ان الله يقوى ويساعد المظلومين ، وذلك بجعلهم يقاسون الأتعاب الجسدية كامتحان لقواهم الروحية » ا هـ .

فالتكاليف السماوية تقوى الجسم بسبب تمرسه بها ، وتعرضه لها المرة بعد المرة . وتقوى النفس ايضا بسبب انها تصبح حاكمة على الجسد ، نافذة الارادة فيه ، مصرفة له فيما تريد ، ولا تكون لشياطين الأخلاق الرديئة ــ كالكسل والاسترخاء والجبن والاهمال ــ سلطة عليها . بل ان افتراض الزكاة نفسها فيه تعويد النفس قهر شيطان البخل ، والتفصى من سطوته ، وخفى وسوسته . وبذلك تصبح النفس قوية العزيمة ، نافذة الكلمة في مملكتها البدنية . وفى القرآن الكريم آيات جمة تتضمن الحض على تقوية الجسم والنفس والتمسك بأسبابها . وهذا الحض السماوى يلقى على المخاطبين بأسلوب عجيب لايتفطن له الا بعد تأمل وامعان نظر . وقد يقرأ القارىء آية من القرآن يحسبها ترمى الى ممارسة عبادة ما ، ويكون هناك حكم وأسرار أخرى أعم واشمل وأعلق بالتربية الاجتماعية من التربية الجسدية . من ذلك هذه الآيات التى افتتحت بها هذه السورة .

فقوله : (**يأيها المزمل**) ، اى ياأيها الذى تلفف بقطيفته ، واضطجع بزاوية بيته ، وقد اشبه فى فعله هذا من يؤثر الدعة والسكون ، ويحاول التخلص من صعوبة مايوكل اليه من امر يعنيه أو مصلحة تهمه : (**قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه**) ، اى دع التزمل والتلفف ، وانشط لصلاة الليل والقيام فيه ساعات . والواجب ان تكون هذه الساعات طويلة بحيث لاتقل عن ثلث الليل ، خشية الا يكون لها تأثير فى الجسم والروح ، كما لاتزيد عن الثلثين خشية أن يؤدى القيام الى عكس المراد منه : فيضعف جسمك ، وتتضاءل قوتك ، فلا تعود قادرا على تحمل أعباء التبليغ ، ومعاناة شئون الدعوة . فقوله (قم الليل الا قليلا) معناه لاتقمه كله . ثم فسر ذلك بقوله : نصفه ، اى قم نصفه ، أو أقل من النصف قليلا ، أو أكثر منه ، يعنى قليلا . وهذا هو معنى ماقلناه : أن المكلف به هو ساعات تختلف بين الثلث والثلثين لما بينا من الحكمة فى ذلك .

(**ورتل القرآن ترتيلا**) ، اى اقرا القرآن أثناء قيامك من الليل قراءة تثبت وتؤدة : آية اثر آية ، كيما يرسخ فى نفسك معنى الوحى السماوى ، وتفهم مغزى الخطاب الالهى فهم احاطة واكتناه ، ولا تسرده سردا يضيع معه التدبر وفهم المعنى . يقال كلام رتَل ورتِل اذا كان مرتلا مفصلا ، كما يقال ثغر رتَل ورتِل اذا كان مفلجا مفرجا .

لا جرم انه صلى الله عليه وسلم قد تأدب بأدب القرآن ، وتأسى به أصحابه الأبرار ، فأطاعوا ربهم فى احياء الليل ، والتخفف للصلاة ، ومجاهدة النفس ، حتى شحبت الوانهم ، وذبلت اجسامهم ، وتورمت اقدامهم . وقد رحمهم ربهم فأنزل على نبيه مؤذنا له بأنه بلغ من المجاهدة والعبادة وقيام الليل فوق ماكلفه ، فقال تعالى : (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى) .

وبعد ان أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باطراح النوم ، والوثوب الى العمل ، وأن يصلى فى الليل ساعات طويلة ، وأن يتفهم الخطاب الالهى المتعلق بهداية المكذبين ومحاجتهم فيما يعبدون من دون الله ــ انتقل الى بيان السبب فى هذه الأوامر الثلاثة ذات التكليف الشاق ، فقال : (**انا سنلقى عليك قولا ثقيلا**) ، اى انا سننزل عليك وحيا يتضمن الدعوة الى دين جديد ، وحمل الناس عليه ، وتكليفهم العمل بأحكامه . فهو بالطبع سيكون ثقيلا شديد الوطأة عليهم ، لما فيه من ترك ما الفوه من العقائد ، ونبذ ما ورثوه عن أسلافهم من التقاليد . فأنت يامحمد معرض لمتاعب كثيرة ، وأخطار جمة ، فى سبيل هذه الدعوة ، وحمل البشر على قبولها . فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة وأنت على مانرى من التزمل والتلفف والنوم والعزلة ، وملازمة الراحة والسكون ، والبعد عن المشاق وقهر النفس وحملها على العبادة والمجاهدة الطويلة ، وعدم دراسة الوحى الالهى درس تفهم وتدبر ؟ فانشط من مضجعك اذن ، واسهر معظم ليلك ، وادرس آيات القرآن درسا عميقا ، استعدادا لتحمل مشاق الدعوة ، ومتاعب تبليغ هذا الوحى الشديد ، والدين الجديد .

وكأن هناك سائلا يشك فى أن قيام الليل ودرس القرآن مما يساعد على تحمل متاعب الدعوة ، فرجع الخطاب الالهى الى تقرير هذه الحقيقة فقال : (**ان ناشئة الليل الخ**) .

و (ناشئة الليل) : مايحدث فيه ويتجدد من الطاعات والعبادات : من نشأ اذا حدث وتجدد . ومعنى (**أشد وطئا**) أصعب على النفس وأثقل مما لو انشئت فى النهار . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشدد وطأتك على مضر » .

والمعنى أن ماينشئه المرء ويحدثه من طاعة وعبادة يقوم لها من مضجعه بعد هداة من الليل : هو ممارسة صعبة ثقيلة عليه ، ومن شأنها ان تقوى النفوس ، وتشد العزائم ، وتصلب الأبدان . ولا ريب أن التمرس بالجاحدين ومصاولتهم وطول النزاع معهم يحتاج الى نفوس قوية ، وأبدان صلبة .

هذا هو تأثير ناشئة الليل فى الأجسام والنفوس . اما تأثيرها فى تعقل الوحى ، واستبانة معانى الخطاب الالهى ــ فلا يقل عن التأثير الأول . وهذا معنى قوله تعالى : (**وأقوم قيلا**) .

(القيل) مصدر كالقول والقال . و (أقوم) اى أعدل وابين وأسد واثبت . والمعنى ان تلاوة القرآن ودراسة الوحى فى الليل أو فى صلاة الليل ، وتفهمه والتأمل فى معانيه ــ أبين وأسد واتم فى الليل منها فى

سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا

النهار . فان هدو الصوت فى الليل ، وسكون الحركة فيه ــ أجمع للقلب ، واعون للنفس على التدبر والتفطن والتأمل فى الأسرار والمقاصد . وهذا أمر محقق يعرفه كل من امتطى صهوات الليالى ، الى نيل المطامح والآمال .

ثم رجع الوحى الى بيان الحكمة فى تحمل مشقات قيام الليل ودراسة القرآن فقال : (**ان لك فى النهار سبحا طويلا**) . اصل معنى السبح العوم على وجه الماء أو المرور السريع فى الماء ، ثم استعير للمرور السريع فى الهواء ، فيستعمل فى الطير والفرس ، ومنه « سبوح لها منها عليها شواهد » . ويستعمل أحيانا فى التصرف فى الأشغال ، وسرعة المرور فى الأعمال . وهو المراد هنا ، يقول : ان لك فى النهار تصرفا وتقلبا ، واشتغالا طويلا فى مهمات الوظيفة المقدسة الموكولة اليك ، وهى دعوة المشركين الى دينك ، ومجادلتهم فى بطلان ماهم عليه من الشرك . ومثل هذا العمل الشاق لايقوم به الا من توفرت فيه القوتان : قوة الجسم وقوة النفس . وان ناشئة الليل ، والقيام فيه للعبادة وتلاوة القرآن ــ مما يساعد على ذلك ، ويكسب جسمك صلابة ، ونفسك متانة لممارسة هذا العمل الشاق فى النهار .

قد يعترض معترض بأن قيام الليل وطول التهجد فيه يضعف الجسم عن المقاومة والمكافحة ، فكيف يكون وسيلة للقوة والجلادة ؟ هذا الاعتراض نفسه أورد على سيدنا على بن ابى طالب رضى الله عنه ، وأجاب عنه . وهذا نص قوله :

« وكانى بقائلكم يقول : اذا كان هذا حال ابن ابى طالب (أى من التخشن والتهجد والتقلل من الطعام) فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ، ومنازلة الشجعان . ألا وان شجرة البرية أصلب عودا ، والروائع الخضرة (أى الأعشاب اللينة) أرق جلودا ، والنابتات البدوية أقوى وقودا ، وأبطأ خمودا . وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو ، والذراع من العضد » (أى انه هو وسيدنا الرسول من أصل واحد فى العمل ، والطريقة وأسلوب المعيشة فيكون فى حالته كما كان سيدنا الرسول : شديد البأس قوى العزيمة ، وان كان خشن المعيشة) . ثم قال : « والله لو تظاهرت العرب على قتالى ما وليت عنها . ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها » اهـ . هذا ما قاله على رضى الله عنه ، ومنه تعلم أن الرياضات البدنية : من الصيام والقيام والتقشف ، اذا روعى فيها الاعتدال المشروع ، أدت الى قوة الجسم ومتانة العزم ، لا الى ضعفهما .

وقد تحصل من الآيات السابقة ثلاث مقدمات :

١ ــ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم والعزلة والتلفف فى الثياب كما يكون من شأن المتراخى المتفصى من التعرض للأخطار فى سبيل القيام بوظيفته .

٢ ــ حضه صلى الله عليه وسلم على قيام الليل الى حد محدود ، ودرس الوحى الذى يلقى عليه درسا عميقا كى يقوى على أداء وظيفته .

٣ ــ بيان صعوبة أمر الدين ، وعسر الدعوة اليه ، وان على الداعى أن يبذل الجهد العظيم ، ويقضى الوقت الطويل فى مصاولة الجاحدين وجدال المبطلين .

وبعد ان قرر الخطاب الالهى هذه المقدمات التى هى بمثابة تمهيد وبساط للدعوة ــ انتقل الى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بها نفسها ، وتعليمه كيفية السير فيها عملا ، بعد أن مهدها له نظرا ، فقال تعالى : (**واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا**) . اى بعد أن يتم لك ما تريد من تقوية بدنك ونفسك بواسطة الطاعات والعبادات الليلية ودرس الخطاب الالهى درسا مدققا ــ باشر وظيفتك النهارية ، وهى دعوة الخلق الى الحق ، والزامهم بخلع الأوثان وما يعبدون من دون الله .

فقوله (واذكر اسم ربك) مثل ما تقول لآخر « سم الله » وانت تريد حضه على الأخذ بعمل فيه مشقة ، وايذانه بحلول وقته . كأنك تقول له : هيا باشر وظيفتك ، وقم بالعمل الذى أمرت به ، فقد جاء وقت الشروع فيه .

أو المراد بقوله : (واذكر اسم ربك) ارفع صوتك بذكر ربك ، وأعلن صفاته الحقيقية بين اظهر المشركين ، وادعهم الى عبادته وحده ، وخلع الأصنام .

ثم علم الله نبيه ان يكون مقبلا على ربه ، منصرف الهمة اليه وحده ، فقال : (وتبتل اليه تبتيلا) . أى انقطع اليه انقطاعا تاما ، واخلص اليه اخلاصا عاريا من الشوائب ، ولا تدع نفسك تعتمد فى شأن من شئونك على غيره تعالى ، وهذا هو التوحيد الحقيقى . اما اذا شاب الاعتقاد بالله شوب استمداد روحانى من غير الله ــ فانه يكون ولا ريب شوبا من حميم ، ولا يكون صاحبه من أمر عقيدته على الصراط المستقيم .

وأصل معنى البتل : القطع ، كالبت والبتر والبتك ، ثم غلب التبتل على الانقطاع عن الدنيا الى الله ، ومنه « البتول » لقب السيدة مريم ، وقيل سميت به لانقطاعها عن الزواج ، ويقال : بتل الى الله ، كما يقال : تبتل اليه .

وكان الظاهر أن يقول فى تأكيد (تبتلْ) فى الآية « تبتلا » لا « تبتيلا » ، فان التبتيل مصدر بتّل لا تبتل ، لكن لما كان معنى تبتل : بتل نفسك — جاز أن يؤكد تبتل بالتبتيل ، ميلا مع هذا المعنى ، ومراعاة لحق الفواصل . وقد مر مثله فى قوله تعالى : (والله انبتكم من الأرض نباتا) . ومثاله فى كلام العرب قول شاعرهم :

وخير الأمر ما استقبلت منه   وليس بأن تتبعه اتباعا

فان « تتبعه » من التفعل و« اتباعا » من الافتعال، وكان الظاهر أن يقول « تتبعه تتبعا » .

ثم استدل على وجوب الانقطاع له وحده وترك اشراك غيره به بقوله **(رب المشرق والمغرب)** ، أى هو وحده الذى يربى المشرق والمغرب ويدبر أمورهما .

و (المشرق والمغرب) يكنى بهما عن الكائنات كلها والخلائق بجملتهم ، وان التقابل فيهما يشعر بالاحاطة والشمول وارادة الجميع ، كما يقولون : « من الباب الى المحراب » يريدون كل ماقى الدار لا بابها ومحرابها وحدهما ، ومحراب الدار صدرها . ومعنى كونه تعالى رب الكائنات أنه رباها ومهد لها سبيل النمو والرقى والانتقال فى التكامل من طور الى طور كما يربى الشخص ابنه أو فلوه أو فسيلته (1) .

وقد يكون فى تخصيص كلمتى (المشرق والمغرب) بالذكر ، وبكونه ربهما — اشارة على الاستدلال على وحدانية الله ووجوب الانقطاع اليه بطريق عقلى . كأنه يقول : انك أيها الانسان لو تأملت فى الكائنات كلها من شرقها الى غربها — وجدتها : من حيث التكوين والتركيب واتساق السنن والنواميس — على نمط واحد ، ووتيرة واحدة . ادرس طبيعة الكائنات فى أقصى الشرق ، ثم ادرسها فى أقصى الغرب — تجدها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة ، وسنن الهية متساوية متقاودة : لا تتبدل ولا تتغير . فخالقها الحكيم الذى أبدعها على هذه الصورة ، وافرغها فى هذا القالب — هو واحد لا متعدد . الكائنات فى الشرق والغرب واحدة فى تكوينها فخالقها واحد فى وجوده . الكائنات ذات وحدة فى الطبيعة والتكوين والقوة والجواهر الفردة وتعاور النواميس ، فلا جرم أن تكون تلك الكائنات منبعثة عن اله مختار ذى وحدة حقيقية فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فيكون فى ذكر (الشرق والغرب) اشارة الى دليل عقلى وطبيعى على أن الخالق لهذه الكائنات : واحد أحد ، فرد صمد ، لاشريك له ولا ولد ، فلا يجوز اذن الاستمداد وطلب الاسعاد من غيره تعالى ، ولذلك عقبه بقوله : **(لا اله الا هو فاتخذه وكيلا)** ، أى اعتمد يا محمد عليه وحده فى دعوتك البشر الى الايمان . وهذا الخطاب وان كان موجها اليه صلى الله عليه وسلم ، فان القصد منه التعريض بالمشركين ، واسماعهم ما يجدر بهم أن يفعلوه هم أنفسهم الذين يعبدون الأصنام ، ويتوكلون عليها،

(1) الفلو كقنو ، وعدو ، وسمو : الجحش والمهر فطما أو بلغا السنة ، والفسيلة : النخلة الصغيرة . القاموس .

ويوفضون (1) فى الشدائد اليها ، لا هو صلى الله عليه وسلم .

ظهر مما تقدم كيف انتقل الخطاب الالهى بالنبى صلى الله عليه وسلم من ساحة الاستعداد والتهيئة الليلية الى ساحة العمل وممارسة الدعوة النهارية . وبديهى أنه سيجد أمامه فى الساحة الثانية سدا منيعا من المكذبين المقاومين : كلهم يردون عليه ، ويسفهون رأيه ، ويزعمون فيه المزاعم الباطلة : من مثل انه — وحاشاه — ساحر أو مجنون أو طالب رياسة دنيوية فى نظير ذلك ، ولكن الله تعالى رباه التربية المتينة التى تجعله يصبر على هذه المشاغبات والمناقضات .

ولذلك قال له بعد أن أمره بالدعوة النهارية : **(واصبر على ما يقولون)** ، أى اذا دعوتهم فى النهار وعارضوك ، وتقولوا عليك الأقاويل — فاصبر عليهم يا محمد ، وتجلد لقولهم ، **(واهجرهم هجرا جميلا)** ، أى أعرض عنهم اعراضا لا يشوبه أذى ولا شتم ولا مقاومة ريثما يتمرن أصحابك بالعبادة والمجاهدة الليلية على المناجزة والمجاهدة النهارية . وتكون بذلك قد تهيأ لك الردء ، واستوسقت العصبية ، وتوفرت أسباب الغلبة والظهور عليهم . أما الآن ، أى قبل أن تصل أنت وأصحابك الى هذا الطور : طور القدرة على أعمال السيف والسنان — فينبغى الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان .

تقول : ومن أين أخذت هذا المعنى ؟ فأقول : من قوله تعالى بعد ذلك : **(وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا انكالا الخ)** . يقول الله لنبيه : اعمل الآن أنت وأصحابك بما أمرتكم به من قيام الليل ، وترويض النفس بالطاعات ، ومختلف التكاليف الشاقة ، حتى اذا تكاملت تربيتكم الجسمية والنفسية ، وتوحدت طرائقكم الدينية والروحية ، وبقى أولئك المكذبون أعداؤكم منقسمين فى ترفهم وتنعمهم ، منهمكين فى ملذاتهم وشهواتهم — فان من شأن حالتهم هذه أن تفسد تربيتهم وأخلاقهم ، وتنهك قواهم وأجسامهم ، على حين تكونون أنتم بواسطة الرياضة والعبادة والمجاهدة وتحمل المشاق — على العكس منهم (2) ، فحينئذ (ذرنى) ، أى دعنى والمكذبين ، أى أنك لا تحتاج فى نيل الظفر بمرادك والانتقام من مكذبيك الا الى أن تتكل على ، وتفوض

(1) يوفضون : يسرعون .

(2) ويشبه هذا من وقائع التاريخ ما كان من سكان الأندلس (القوط) المترفين الذين استولى العرب الأشداء على بلادهم فما كان منهم الا اللجوء والانحياز الى جبال (استورياس) أو (أستوريش) كما يسميها العرب ، وهى جبال شامخة قاحلة واقعة فى الشمال الغربى من اسبانيا ، فاكتسب اللاجئون من بيئتها غلظة وقوة وخشونة ، حتى اذا اكتملت لهم هذه التربية فى بضع مئات من السنين — انقضوا من قنن جبالهم كالعقبان على أولئك الوادعين المترفين ، فأجلوهم من صياصيهم ، وطبقوا سنة الله فيهم .

غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ

الأمر الى ، وتدعنى وهؤلاء المكذبين ، اطبق عليهم سنتى فى خلقى ، وذلك بأن اسلط القوى : وهو انتم على الضعيف : وهو هم ، وأمكن أوليائى الذين يعملون بأوامرى ويراعون سنتى من أعدائى الذين يخالفونها، ثم يحيق بهؤلاء المخالفين العقاب ، ويدخلون بشؤم مخالفتهم دار العذاب . وهذا معنى قوله تعالى : (ان لدينا انكالا وجحيما) .

و (الانكال) جمع نكل ـ بكسر اوله ـ وهو القيد الثقيل . و (الجحيم) دار العذاب . و (الطعام ذو الغصة) هو ما اعده الله فى تلك الدار من الطعام المنكر البشع الذى ينشب فى حلوق آكله ، فيغصون به ، ولا يقدرون على اساغته .

ذكر الوحى العذاب المؤلم ومكانه وهو الجحيم ، وآلاته وهى القيود وطعام الزقوم ، وأراد تخويف المكذبين وتهديدهم بانه تعالى يعاقبهم بذلك كله ان بقوا مستمرين فى تكذيبهم ، مستمرئين مرعى غيهم .

روى أن الحسن البصرى اتى بطعام فطوره فى بعض أيام صومه ، فعرضت له هذه الآية : **(ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما)** ، فقال لغلامه : ارفعه ياغلام . ووضع عنده فى الليلة الثانية ، فعرضت له فقال : ارفعه يا غلام . وكذلك الليلة الثالثة . فبلغ خبره ثابتا البنانى ، ويزيد الضبى ، ويحيى البكاء ـ فجاءوا اليه ، ولم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق .

ولقد تبين من سياق الآيات التى افتتحت بها هذه السورة أن تربية الجسم والنفس بضروب التكاليف والرياضات والعبادات الشاقة ـ هى مما اراده الله لنا وحضنا عليه فى الكتاب ، ولم يكن طلبها منا لذاتها ، أو لاسترضائه تعالى بممارستها ، ومكابدة أتعابها . كيف وقد قال تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) ، وانما أراد سبحانه بهذه التكاليف والمجاهدات تربيتنا تربية دينية ، تجمع بين قطرى القوتين . القوة فى الجسم ، والقوة فى النفس ، بحيث تفتح أمامنا طريق التغلب والتمكن من نشر الاسلام ، كما حصل لأسلافنا مذ عملوا بأصول تلك التربية ، وتحول بيننا وبين الاستكانة والخضوع لغيرنا ، كما حصل منا اليوم مذ أهملنا تلك الأصول وفرطنا فيها ، وقصرنا فى تطبيقها ومراعاتها . والأمر لله العلى الكبير .

(يوم) متعلق بمضمون الكلام السابق ، أى ان العقوبة معدة للمكذبين فى هذا اليوم الذى فيه **(ترجف الأرض والجبال)** ، أى تضطرب وتتزلزل بما عليها زلزلة شديدة ، وذلك يوم القيامة . ولما كانت الجبال صلدة جامدة بالنسبة الى سائر أجزاء الأرض ـ خصها بوصف ما ينوبها فى ذلك اليوم من التفرق وتناثر الأجزاء فقال : **(وكانت الجبال كثيبا)** تلا من الرمل سائلا متناثرا : من كثب الماء اذا صبه ، وكثب الشىء اذا جمعه . ففى مادة الكثب معنى الصب والجمع ، ومن هنا سمى الكثيب كثيبا ، لأن الرياح تحمل الرمال من ها هنا وها هنا وتصبها فى مكان الكثيب، ثم تأخذ الرمال الأخرى تتجمع عليها وحولها حتى يتكون الكثيب . ورمل هذا الكثيب اذا حرك أو مس تساقط وتتابع بعضه اثر بعض ، وهذا معنى كونه **(مهيلا)** ، وهو اسم مفعول ، وأصله مهيول كمكيل أصله مكيول ، يقال : هلت الرمل فانهال ، اذا حركت أسفله فسال من اعلاه وتتابع ، وما كان أشد تماسكا وكثافة من الرمل ـ كالبناء مثلا ـ فانه يقال فيه هرته ـ بالراء ـ فانهار .

يقع هذا الحادث الجلل فى العالم عندما يتأذن الله بخرابه وانقضاء أجله ، ثم يستبدل به عالما آخر أشد احكاما ، واثبت نظاما ، وأكمل امنا وسلاما .

ونصوص الكتاب تدل على أن خراب عالم الدنيا يكون بزلزلة الارض ، وتبدد أجزائها ، وتسيير جبالها بحيث تصبح هذه الجبال كالكثيب المهيل أو العهن المنفوش .

على ان هذا الخراب الذى ينزل بالارض فينسف جبالها ، ويمزق أوصالها ـ ليس خاصا بها وحدها ، بل هو نازل بمجموع عالم الدنيا المنظور الينا : أرضه وسمائه ، وسائر كواكبه وأجرامه ، بدليل آيات الكتاب الاخرى من مثل : (اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت) ، و (اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت) . والله يعلم بأى سبب يحصل ذلك الخراب العام ، وما اذاكان وراء الكواكب المنظورة عوالم وكواكب أخرى يشملها الخراب المنتظر أو لا يشملها فتبقى سالمة من مثل ما نزل بعالمنا الى أن يشاء الله خرابها ؟ وهل ينشىء ربنا العالم الأخروى فى ساحات العوالم السماوية الأخرى غير المنظورة أو ينشئه عالما جديدا ، وكونا مستقلا لا علاقة له بالعوالم الغائبة اليوم عن عيوننا ؟ ـ كل ذلك غيب لا تمكن معرفته ، فنكل أمره الى الله سبحانه وتعالى .

يتراوح الوحى الالهى فى تخويف المخاطبين بين تذكيرهم بيوم القيامة وما أعده الله فيه للمكذبين ، وتذكيرهم بالأمم التى خلت من قبلهم وكيف عصت

وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل ، وقد أتى فى هذه الآيات على الأمرين معا .

وقوله : (**رسولا شاهدا عليكم**) يعنى به محمدا صلى الله عليه وسلم ، فانه يشهد بلسان مقاله أنه بلغهم أمر ربه اليهم ، أو أنه صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم بلسان حاله . فان من تصفح أحواله ، واستقرأ ماجرى له فى حياته منذ ولد فنشأ ، فبعث ، فدعا الناس الى الايمان ، فاستأثر الله به — لم يجد فى ذلك كله الا آية صادقة ، أو معجزة خارقة : تثبت أنه رسول الله الى الناس ، لم يأل فى تبليغهم ، ولم يتوان فى امحاض النصح لهم . فحاله هذه شاهدة على أولئك المكذبين انه انما يبلغهم ما به نجاتهم فى الدنيا والآخرة ، وانه لم يبغ من وراء ذلك التبليغ جر مغنم لنفسه ، أو تأسيس ملك لعقبه ، بحيث يصدق عليه ما وصف به سيدنا على بن أبى طالب نفسه منذ قال : « فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفرا ، ولا أعددت لبالى ثوبى طمرا » .

والرسول الذى أرسله تعالى الى فرعون هو موسى الكليم صلوات الله عليه . وقد نكره مذ قال (**رسولا**) لافادة تعظيمه . كأنه يقول : رسولا عظيما من أولئكم الرسل أولى العزم . أو أنه نكره للاشارة الى أنه متعين لا يلتبس بغيره . وقوله (**الرسول**) أى ذلك الرسول : فأل فيه للعهد الذكرى . وأخذ الله لفرعون كناية عن اهلاكه ، و (الوبيل) فى مطلق معناه الثقيل الشديد الضخم . فاذا قالوا : طعام وبيل ، أو كلأ وبيل ، أو مرعى وبيل — ارادوا أنه وخم ثقيل على آكليه : لا يستمرئونه ولا يهضمونه . واذا قالوا : مطر وابل أو وبل — أرادوا أنه شديد الهمر كبير القطر . والوبيل : العصا الضخمة . وتقول العرب : « لقد أوبلت علىَّ شرك » ، أى اغلظته على ، وبهظتنى به ، و « وبل فلانا بالسياط » : تابعها عليه بشدة وعنف . وكل هذه المعانى تقال تقريبا فى (الوبال) ، فقوله تعالى : (ذاقوا وبال أمرهم) ، وقوله هنا (**أخذناه أخذا وبيلا**) — الكلمتان فيهما منحوتتان من نبعة واحدة . ولا جرم أن اهلاك الله لفرعون وقومه بالغرق كان باهظا لهم ، ملحا عليهم بحيث لم يفلت منهم أحد .

بعد ان ذكر الله اخذه لفرعون فى دار الدنيا ، وأن ملكه وجبروته لم يمنعاه من ذلك الأخذ — عاد فذكر مكذبى قريش — الذين ضرب فرعون لهم مثلا — بيوم القيامة ، وأنهم غير معجزى الله فى ذلك اليوم ، ولا مفلتون منه بأنفسهم كما لم يفلت فرعون مما فعل به ، فقال لهم :

(**فكيف تتقون**) ، أى تحذرون وتخافون (**ان كفرتم**) ، أى اصررتم على الكفر — (**يوما**) ، وهو يوم القيامة وعذابه الشديد بل الأشد وبالا وغلظا من عذاب الله لفرعون فى دار الدنيا ، فيوما مفعول به لتتقون على معنى تحذرون وتخافون كما قلنا ، يقال « اتقى الله » ، و « اتقى عذاب الله » أى حذره وخافه ، و « ما أتقى فلانا لله » . أى ما أخوفه واخشاه له . وأصل معنى اتقى العذاب ، أو الأسد ، أو البرد : اتخذ لنفسه وقاية من العذاب أو الأسد أو البرد ، ثم كثر حتى صار بمعنى خاف وحذر ، ونصبوا به المفعول . والمعنى هنا : كيف يصح أن تكونوا حذرين خائفين يوم القيامة ، أو كيف يصح أن تعدوا أنفسكم حذرين خائفين ذلك اليوم ان بقيتم هكذا متمادين فى كفركم ، مقيمين على ضلالتكم ؟

ثم وصف ذلك اليوم بأنه (**يجعل الولدان شيبا**) ، والولدان جمع وليد ، كما أن الأولاد جمع ولد ، (شيبا) جمع أشيب وهو من ابيض شعر رأسه . ولا مانع من ان يكون الرعب أو الغم سببا فى حدوث الشيب فى الراس ، ولو فرضنا ان هذا لم يثبت فنا ، فيكون الكلام واردا على ماجرى به العرف بين العرب منذ القديم ، يقولون : « يوم يشيب نواصى الأطفال » ، فخوطبوا فى القرآن بما ألفوا ، وما زال العرف به الى يومنا هذا : قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة
ويشيب ناصية الصبى ويهرم

على أن الهول والغم ان كانا يشيبان الكبير لاضطراب قلبه وتأثر عصبه من شدة وقعهما ولذع المهما — فما بال الصبى الغافل ؟ وكيف يمكن أن يبلغ الحزن أو الخوف من نفسه الى حد ان يشيب ناصيته ، وينغص عليه حياته ، ولا سيما اذا لاحظنا أن الولدان غير مكلفين ولا مؤاخذين فلا يلحقهم رعب ولا ذعر يوم القيامة ؟ فلم يبق الا أن المراد من الآية المبالغة فى وصف اشتداد الكرب ، وتفاقم الخطب .

وهول يوم القيامة ان كان يؤثر هذا الأثر فى نواصى الولدان فيشيبها ويغير لونها — فلا عجب ، اذ أن هناك ما هو أقوى جسما ، وأضخم جرما من لم الولدان وشعر رءوسهم وهو (**السماء**) ، أى بناء السماء وسقفها المرفوع فوق رءوسنا ، فانه (**منفطر**) ، أى متصدع ومتشقق (**به**) أى بهول ذلك اليوم الذى يجعل الولدان شيبا . فالتغير والتحول والتأثر بهول ذلك اليوم ، وعظم مايقع فيه — عام شامل : يتناول ادق المواد والينها والطفها ، كما يتناول اشد المواد وأصلبها وأضخمها . و (انفطار) السماء : انصداع أجرامها ، وتبدل اوضاعها ، فلا يعود حالها على ماهو عليه اليوم .

وذكر فعل السماء فقال (منفطر) ، ولم يقل (منفطرة) كما هو الاستعمال الشائع — تمايلا الى ارادة البناء والسقف فى معناها . على أن (السماء) وردت فى كلام العرب مذكرة ، قال شاعرهم :

فلو رفع السماء اليه قوما
لحقنا بالسماء مع السحاب

فالسماء فاعل (رفع) ولم يقل رفعت . يريد الشاعر ان السماء لو كان من عادتها ودأبها أن ترفع اليها قوما لفضلهم وعزتهم ومجدهم — لرفعتنا اليها ، ولكنا مقيمين فيها مع سحابها . أو يقال ان السماء مؤنث غير حقيقى ، ويجوز فى مثله تأنيث فعله وتذكيره

وقوله : (**كان وعده مفعولا**) تحقيق وتأكيد لما وعد

تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟

الله به : من وقوع ذلك اليوم ، ولن يخلف الله وعده ، مهما طال أمده وتنوسي ذكره . فلينتبه اليه الغافل ، وليعمل للخلاص من هوله العامل .

وضمير (وعده) يرجع الى الله وان لم يجر لهذكر فيما تقدم من الكلام ، لما أن المقام يعينه .أو هو التفات من المتكلم فى قوله (فأخذناه) الى الغيبة فى (وعده) . وكان الظاهر ان يقول : (وعدنا) ، فعدل الى ضمير الغائب تفننا فى الكلام ، وتطرئة للاسلوب . ويحتمل ان (وعده) من اضافة المصدر الى مفعوله ، ويكون الضمير راجعا الى اليوم المتحدث عنه . والمعنى كان وعد الله بذلك اليوم مفعولا ، وأمره كائنا لا محالة .

(هذه) اشارة الى الآيات السابقة ونظائرها مما فيه تخويف المكذبين من يوم القيامة واهواله ، أو تخويفهم من أن يأخذهم الله فى عاجل دنياهم كما أخذ فرعون بعذابه ونكاله . **(تذكرة)** : عظة وعبرة تذكر الناسي فيذكر ، وتتلتل الغافل فيعتبر . **(فمن شاء)** من الغافلين الناسين أن يستفيد من هذه التذكرة قبل الفوت **(اتخذ الى ربه سبيلا)** ، اى سلك الطريق المؤدية الى رضاء ربه ، فعمل بطاعته من دون مطال ولا تسويف . فان الأسباب ميسرة ، والسبل الى العمل الصالح مشرعة ، والاختيار من الله للعبد موهوب ، وكل من الخير والشر مقدور ومكسوب . قال تعالى : (وهديناه النجدين) اى رفعنا أمام عينى كل واحد منكم أيها البشر طريقى الخير والشر ، ودللناه عليهما بما وهبناه من نعمتى الوحي والعقل،فما عليه الا الاستعانة بنا فى الوصول الينا ، وان يختار ما هو الأجمل به ، والأصلح له . فليرتد امرؤلنفسه ، قبل حلول رمسه ، وتحول غده الى امسه . روى عن الحسن البصري أنه قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيها الناس ، انهما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر . فما الذى جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير ؟

قوله : **(ان ربك يعلم الخ)** له اتصال بأول هذه السورة مذ قال تعالى : (قم الليل الا قليلا : نصفه او انقص منه قليلا) . وقد قلنا ثمة : ان الوحي الالهى كلفهم أن يقوموا ساعات من الليل طويلة : لا تقل عن ثلثه ، ولا تزيد على ثلثيه . فان قيام الليل على هذه الصورة ، واحياءه بالطاعات المختلفة : من ذكر ، وصلاة ، وقراءة قرآن ــ يقوى ابدانهم ونفوسهم معا، ويعودهم الخشونة فى العيش ، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة والانغماس فى الملذات الى حد أن تضعف هممهم ، وتنصرف نفوسهم عن جسام الأمور الى دنياتها ومحقراتها. كلفهم ربهم ذلك العمل الليلى تقربا اليه ، واستعدادا للدعوة ، وقرع الرءوس العاتية بها .

والخطاب فى فاتحة السورة للنبى صلى الله عليه وسلم وحده مرادا به أمته معه بدليل قوله هنا : **(وطائفة من الذين معك)** ، فان صحابته رضوان الله عليهم قاموا قيامه ، وساهموه صلاته وصيامه ، ولبثوا فى ذلك عشر سنين ، وقيل أقل من ذلك ، وهى مدة كافية لحصول أثرها من الاعداد والتهيئة واستجمام التربية الدينية التى أرادها ربهم لهم . وبعد مضى عشر السنين المذكورة نزل الوحي خطابا له صلى الله عليه وسلم ولصحابته القائمين معه فى الليل بهذه الآية : (ان ربك) يامحمد (يعلم أنك تقوم أدنىمن ثلثى الليل ونصفه وثلثه) .

لايشتبه أحد من المخاطبين فى أنه تعالى يعلم ذلك ، فلم يكن المراد منه افادة أنه تعالىعالم به ، بل افادة أنه وقع منكم ذلك ، وبلغتم به رضاه ، والحد الذى أراده ورسمه لكم . فهو مجازيكم عليه ، موفقكم الى نيل الغرض الذى قمتم وتعبتم من أجله . واستعمال العلم بهذا المعنى مثله فى قوله تعالى : (وانا لنعلم أن منكم مكذبين) . فليس المراد به افادة العلم بتكذيبهم ، بل افادة أنه تعالى مرصد لهم العقوبة على تكذيبهم .

وقوله : (أدنى من ثلثى الليل) ــ (الأدنى)فىأصل معناه : الأقرب مسافة ، لكن لما كان البعد الأقرب مسافة أقل أحيازا ومقاييس ، سموا الأقل أدنى . وقيام النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته تارة أقل من ثلثى الليل ومرة نصفه واخرى ثلثه ــ هو معنى ما قلناه فى (قم الليل الا قليلا الخ) . انهم امروا بأن يتراوح قيامهم بين الثلث والثلثين ، فهو تعالى يقول : فعلتم ما أمرناكم به من قيام الثلث الى الثلثين ، والغاية غير داخلة كما دل عليه قوله (أدنى) .

وقوله : (وطائفة) بالرفع عطف على ضمير تقوم . وجاز ذلك للفصل بينهما . يعنى تقوم انت يامحمد ، وتقوم طائفة من صحابتك الذين معك ، ويمشون على أثرك فيما آمركم به جميعا وأنهاكم .

وجعلهم طائفة لانه أراد بهم أولئك السابقين فى الايمان ، الذين هم أول من كلفوا هذاالتكليف الشاق .

اما وقد تم ما أراد الله بهم ، ورضيه لهم : من تمحيصهم وتقويتهم ، وتربيتهم التربية الدينية

بواسطة ماشرعه لهم من قيام الليل فى هذه السنين العشر — وقد كان فى خلالها انضم اليهم ودخل فى دينهم من لا يصبر صبرهم ، ولا يطيق ما اطاقوا من المجاهدة والقيام والتبتل — فقد خفف عنهم ذلك ؛ وردهم الى مايطيقون من العمل وقيام الليل ، باعتبار مجموعهم لا باعتبار كل فرد منهم ، وان كان بعضهم قد يطيق البقاء والدوام على ما كلفه أولا . لكن الخطاب الالهى والتكاليف الشرعية ، انما يراعى فيها مجموع المخاطبين ، وعامة المكلفين ، لا الآحاد منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : **(علم أن لن تحصوه)** ، أى علم أنكم لا تطيقونه بمجموعكم، وقد ظهر عليكم — بعد أن دخل فى الاسلام منكم داخلون آخرون — شىء من الضعف والفتور ، والعجز عن القيام بما قام به اخوانكم الأولون ، فطلبتم التخفيف والتيسير لمجموعكم . وهذا الطلب حق لكم بحسب الطبيعة البشرية الغالبة ، واجابتكم عليه مما تقتضيه رحمة ربكم وعدله، **(فتاب عليكم)** ، أى رجع عليكم بالتيسير والتخفيف منذ رجعتم اليه بالشكوى والطلب والدعاء ، **(فاقرأوا)** من بعد اليوم فى قيام الليل وأنتم فى صلاة أو غير صلاة **(ماتيسر من القرآن)** ، وسهلت عليكم تلاوته وتدبره ، وهو القليل من آياته مما لا يستغرق الثلثين ولا النصف ولا الثلث .

وقيل ان المراد بأمرهم بقراءة القرآن — الصلاة نفسها ، لأن القراءة من أعظم أركانها ، كما يعبر عنها احيانا بالركعة والسجدة وسيأتى ، أى فصلوا ماتيسر وخف عليكم من صلاة الليل .

والعلم فى قوله (علم ان لن تحصوه) مراد به ايضا ظهور عدم الاحصاء منهم ، ووصولهم الى دور تحقق فيه عجز مجموعهم عنه ، فتجلى ذلك لكل أحد،وتعلق علم الله تعالى به بعد وقوعه .

وقوله (فتاب عليكم) . التوبة هنا بمعنى الرجوع وليس المراد بها الصفح والعفو عن الذنب لأن الصحابة لم يذنبوا ، ولم يخالفوا ربهم فيما أمر ، وانما أمرهم على العكس : اطاعوا وقاموا بما كلفوه خير قيام .

و (الاحصاء) فى الأصل : التقصى والمبالغة فى عد الشىء ، ويستعمل كثيرا فى معنى الطاقة والضبط . يقال : « هذا شىء لا أحصيه » ، أى لا أطيقه ولا أضبطه ، وفى الحديث : « خصلتان لا يحصيهما رجل مسلم الا ادخلتاه الجنة » ، أى لايطيقهما ولا يقدر عليهما .

أشرنا فى غضون كلامنا السابق الى أن هناك آحادا من الصحابة كانوا يشعرون من أنفسهم الطاقة على قيام الليل كما أمر الله ورسم ، وربما احزنهم أن ردهم الله الى الأخف الأيسر من العمل وقيام الليل مع بقية اخوانهم المؤمنين الذين يتألف منهم سواد الأمة،وتمنوا أو تساءلوا : لماذا لم يكن الليل اطول مدة وأوفر ساعات مما هو عليه ، كى يتسع لذكره تعالى ، والتلذذ بتلاوة كلامه ؟ فقال تعالى كاشفا عن حكمته فى ذلك : (والله يقدر الليل والنهار) . وقد تخلل بهذه الجملة بين الثناء عليهم بما كان منهم من قيام الليل حسب أمره الأول وبين ظهور عجز الكثيرين منهم أخيرا عن المثابرة عليه ، والمضى فيه ، منبها لهم الى أنه تعالى هو الذى قدر الليل والنهار ، أى جعل لكل منهما قدرا معينا ، وحدا محدودا : لايتجاوزانه مهما اختلفا وتعاقبا(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) .

وقد دبر ذلك على حسب مصالح البشر ، وبقدر ما يحتاجون اليه فى سكون ليلهم للنوم والراحة ، وحركة نهارهم للسعى وطلب المعاش . ولو تحولت تلك المقادير الى غير ماقدره الله ودبره فى خلق الليل والنهار — لاختل أمر البشر ، أو كان لهم نظام فى الحياة غير ماهم عليه الآن . فالواجب عليهم اذن أن يرضوا بما قدره لهم ودبره : من نواميس عالمهم هذا ، ويطيعوه فيما رسمه من الحدود والأحكام .

وعدل عن الماضى وهو (قدر) الى المضارع فقال (يقدر) تنبيها الى صنعه العجيب فى تدبير أمر الليل والنهار ، وتصويرا له فى أذهان المخاطبين .

ومحصل معنى الآيات أنه تعالى كلف الصحابة فى بدء الاسلام قيام ساعات طويلة من الليل ، فاستمروا على ذلك حينا من الدهر ، ثم لماكثر المسلمون ، ودخل فى عدادهم شيوخ ونساء ، ومن لا يطيق قيام الثلث الى الثلثين من الليل — رسم لهم من القيام والعبادة وقراءة القرآن مايطيقونه ، ويتحمله طورهم الجديد.

ذكرنا فيما مضى أن تبدل الحكم فى أمر الصلاة وقيام الليل ، ناشىء عن تبدل الحالة والزمن ، وتكاثر المسلمين فى غضون عشر السنين التى قضاها المسلمون السابقون يحيون معظم ساعات الليل فى الصلاة وقراءة القرآن وصنوف العبادات .

وقد صنف الوحى فى هذه الآيات المسلمين الى اصنافهم التى حدثت فيهم ، وكانت سببا لتغير حكم صلاتهم ، مبينا الحكمة فى ذلك فقال تعالى :

(علم أن سيكون منكم مرضى) . هذا هو الصنف الأول الذى علم الله وجوده فى المسلمين علما تابعا لتقديره الالهى : من أن البشر —وفى جملتهم المسلمون— يطرأ عليهم أمراض وعلل يتعذر عليهم معها قضاء معظم ساعات الليل فى التهجد والذكر وقراءة القرآن .

(وآخرون يضربون فى الأرض الخ) . هذا هو الصنف الثانى ، وهم التجار والمسافرون فى البلاد يطلبون الرزق وكسب المال مما هو فضل من الله ونعمة ، فان هؤلاء ايضا قد تحول أسفارهم والمشاق التى تلحقهم فى خلالها نهارا دون القيام الطويل فى صلاة الليل وقيامه .

(وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) ، وهذا هو الصنف الثالث ، وهم الذين يعملون على نشر دين الاسلام ، والدعوة اليه ، ومحاربة من يتصدى لمنعهم ومقاومتهم . هؤلاء أيضا يتعذر عليهم احياء الليل تهجدا وقياما ، وقد قتلوا النهار حربا وصداما .

وفى جعل المتاجرين الذين يبتغون الكسب فى مقابلة المجاهدين الذين ينشرون الدعوة —تنويه بالتجارة وعلو

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

شأنها فى نظر الشارع ، لأنهـا من اقـوى العوامل فى اعزاز الأمم ، وثبات أمرها ، وانتشار تعاليمها . وربما كـان معظم السبب فى انتشـار الاسلام فى أطراف المعمور ــ ولا سيما أفريقيا وشرق آسيـا ــ راجعا الى رواد الكسب ، ووراد مناهل الربح . فقد كان هؤلاء التجار يحملون متاجرهم الى بلاد الوثنية ويخالطون اهلها ، فيعرضون عليهم بضائعهم مقرونة أحيانا بعرض دينهم وتقاليدهم . والتجار اليوم عند دول الاستعمار آلة من آلات الفتح والتغلب : يرسلونهم الى البـلاد النائية ، ويجعلونهم طلائع للدعاة والمبشرين ، ثم يتلو هؤلاء دعاة الفتح ، وبغاة التسلط والاستعمار .

علم الله وجود تلك الأصناف الثلاثة ، ونشوءهم فى المسلمين ، وربما كان يوجد أصناف أخر غيرهم ، لكن الوحى اقتصر على ذكر ما كان اكثر وجودا من سائر الأصناف ــ فاقتضت حكمته تعالى التيسـير والتخفيف ، فعـاد الى ذكر ما قاله أولا ، زيادة فى تقرير الحكم ، ولتثبيته فى نفوس المكلفين ، فقال : **(فاقرأوا ماتيسر منه)** ، أى من القرآن . وقوله : **(وأقيموا الصلاة)** عطف مغاير ، فيكونان شيئين : قراءة قرآن ، وصلاة ذات ركوع وسجود . أو هو من قبيل عطف التفسير ، ويكون المراد بقراءة القـرآن الصلاة نفسها ، لأنهم كانوا اذا صلوا أطالوا صلاتهم ، وقرأوا فيها ماشاء الله أن يقرأوا ، وهـذا هو المعبر عنه احيانا كثيرة بقيام الليل . فكانوا يفهمون من صلاة الليل ، ومن قيام الليل ، ومن قراءة القرآن فى الليل ــ شيئا واحدا تقريبا .

والقصد من ذلك أن قيام الثلث الى الثلثين من الليل فى الصلاة وقراءة القرآن ــ اصبح شاقا عليكـم معشر المؤمنين بعد أن كثرتم ، ووجد فيـكم مرضى ومسافرون ومجاهدون ، فاقتصروا بعـد اليوم من فريضة الصلاة وقراءة القرآن على الصلوات الخمس : التى يقع بعضها فى أول الليل ، ومعظمهـا مفرق فى سحابة النهار ، لكن عليكم أن تأتوا بهذه الصلاة على وجهها الشرعى : من الخشـوع واستحضار القلب ومراعاة الآداب والسنن ، وهذا هو معنى الاقامة فى قوله تعالى (أقيموا الصلاة) . وقلماذكر الأمر بالصلاة فى القرآن الا ذكر معه الأمر بالزكاة ، ولا غرو ، فان الصلاة عماد الأمر بين المرء وربه ، كما أن الزكاة عماد الأمر بينه وبين بنى جنسه .

والمراد بالزكاة زكاة الأموال الواجبة بناء على أن آخر هذه السورة مما نزل فى المدينة حيث فرضت الزكاة ، وقيل السورة مكية كلها ، والزكاة هنا زكاة الفطر .

وقوله : **(وأقرضوا الله قرضا حسنا)** ــ حض على انفاق المال فى رضاء الله ، ووجوه المبرات بأبلـغ أسلوب . وذلك أن الغنى لا يتأخر عادة عـن قرض اخوانه مبالغ كبيرة مـن ماله . وربما كان مصير هذا القرض التلف والضياع عليه ، فكيف يحسن منـه البخل فى أن يقرض الله تعالى بالانفـاق على عبـاده الفقراء والمعوزين ، وقرضه هذا مضمون مصون عند الله لايضيع منه مثقال ذرة ؟ بل هـو يرد عليه يوم القيامة اضعافا مضاعفة .

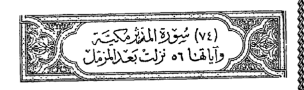
حث المكلف أولا على اخراج الزكاة المفروضة عليه ، ثم اخذ بضبعه الى مستوى أرفع ، فحضه على بذل المال فى وجوه البر ولو لم يكن ذلك مفروضا عليـه ، فانه اذا بذله فى سبيل الخير كان كأنه أقرضه الله ، لكن بشرط أن يحسن النية فى هذا القرض ، فيبتغى من ورائه رضاء الله لا طلب التعويض من الخلق ، أو الشهرة فيهم ، أو التوصل الى غرض دنيوى قد يكون حقيرا تافها ، وهذا معنى قوله : **(قرضا حسنا)** .

ثم ارتقى بالانسان الى بحبوحة الاحسان المطلق ، فحضه على عمل الخير ، وفعـل البر ، وممارسـة الفضائل والكمالات الانسانية مهما كان جنسها : بذلا أو غيره من ضروب الأعمال النافعة التى يتوصل بها المؤمن الى رضاء ربه ، أو خدمة نوعه ، فقال :

(وما تقـدموا لانفسكم) ، وتفعـلوا أيهـا البشر **(من خير)** ، اى خير كان **(تجدوه)** : تلقوا ذلك الخير الذى قدمتموه فى دنياكم **(عنـد الله)** يوم معادكم **(هو خيرا)** . (خيرا) مفعول به ثان لتجدوه ، و (هو) ضمير فصل بين المفعولين ، وضمير الفصل من عادته أن يقع بين المبتدأ والخبر ، ومفعولا (وجد) أصلهما مبتدأ وخبر . والمعنى تجدوا ما فعلتموه يوم القيامة خيرا لكم منه : يعنى أنكم تجدون ثواب الله عليه ، وذلك الثواب المعد لكم خير واكرم وافضل من صدقتـكم التى انفقتموها ، أو طاعتكم التى مارستموها فى دار الدنيا (فخيرا) الثانية أفعل تفضيل ، بخلاف (خير) الأولى فانهـا اسم بمعنى الاحسـان والبر والعمل الصالح .

ثم فسر « خيرا » بقوله : **(وأعظم أجرا)** ، يعنى أن الأجر الذى تجدونه اذا قيس بالعمل الذى قدمتموه وجدتموه اعظم وافضل من عملكم ، فان عملـكم فان بائد ، أما الأجر عليه فباق خالد .

وقد ختم السورة بارشاد المنفقين المحسنين الى ان يطلبوا من الله الصفح والمغفرة ، اذ ربما كانوا لم يخلصوا النية فى الانفاق ، أو لم يحسنوا العمـل فى الاقراض ، فيضعوا النفقة فى غـير مواضعهـا ، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة ، فاذا **(استغفروا الله)** من ذلك غفر لهم ، (فانه) سبحـانه وتعـالى **(غفور رحيم)** من شأنه الغفران والرحمة .



(٧٤) سورة المدثر مكية
وآياتها ٥٦ نزلت بعد المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

كلمة (المدثر) فى أحوالها الصرفية كالمزمل ، وقد تقدم بيان ذلك . و (المدثر) مشتق من الدثار ، وهو اسم الثوب الذى يلبس فوق الشعار ، والشعار الثوب الذى يلى شعر الجسد ، ومعنى (المدثر) المتلفف فى دثاره . ويقال فى سبب خطاب الملك له صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب ماقيل فى سبب خطابه له بـ (يأيها المزمل) ، ومن ثم قال بعضهم ان أوائل هذه السورة أول ما انزل عليه صلى الله عليه وسلم . وبيان ذلك أن جبريل بعد ان لقنه سورة « اقرأ باسم ربك » و (يأيها المزمل قم الليل الا قليلا) الى آخر الآيات ، وحصل له صلى الله عليه وسلم من التأثر ما حصل — تخلف عنه الملك زمنا طويلا كى يهدأ روعه ، ويستجم نشاطه ، وليعود صلى الله عليه وسلم الى ذكرى الوحى ، ويتطلب تلك المناجاة السماوية برغبة وشوق وحنين . ثم عاد الملك فتجلى له ثانية مخاطبا مشجعا ، فعراه صلى الله عليه وسلم ايضا شىء مما كان عراه فى المرة الأولى ، فجاء بيته وقال لأهله : « دثرونى دثرونى » ، وبينا هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلا : **(يأيها المدثر)** الذى اشتمل بدثاره داخلا فيه كمن لايهمه أمر ولا يعنيه شان **(قم)** وانشط من مضجعك هذا ، ، واربأ بنفسك أن تنزلها هذه المنزلة من الوحشة والعزلة . فان العناية الالهية قد رشحتك لمقام سام ، ونشر دين عام ، **(فانذر)** الناس بذلك الدين ، وخوفهم العاقبة ان هم أعرضوا عنه ، وكذبوا به .

وفعل (أنذر) يتعدى الى مفعولين ، يقال : « انذر قومه عذابا شديدا » مثلا ، لكن لما كان الوحى الالهى انما يريد منه صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر ان يقوى على الانذار ويتصدى له بهمة ونشاط — حذف مفعولى أنذر لعدم تعلق الغرض بهما ، وتعلقه بأصل الانذار ، اذ كان هو أهم شىء بالنسبة اليه صلى الله عليه وسلم مادام لا يعلم بعد من هذا الذى يخاطبه ؟ وماذا يريد من غشيانه له المرة بعد المرة ؟ وقول القائل ان أوائل هذه السورة أول ماانزل على النبى صلى الله عليه وسلم — يراد به انه أول ما انزل عليه بعد سنتين أو اكثر من انقطاع الوحى عنه . وقال بعضهم : لم يكن السبب فى تدثره صلى الله عليه وسلم ما لحقه من خطاب الملك ومفاجأة الوحى ، بل كان السبب فيه سوء معاملة قومه له ، وتهكمهم به عند قيامه بالدعوة ومباشرة امرها . فكانوا كلما تصدى لهم أو عرض شيئا من الوحى عليهم اسمعوه مايكره مما لم يعتد سماعه من أحد . وكانوا يقولون له : يا ساحر ، يامجنون . وقد ألقوا عليه يوما سلى جزور ، فنجسوا ثيابه ، ولوثوه بالدم . فاغتم صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وشق عليه ، ورجع الى بيته مكتئبا حزينا . والمرء فى مثل هذه الحالة تطيب له العزلة والتلفف بثوب أو قطيفة ، مفكرا فى امره ، مستطلعا طلع مصيره . وهذا ما كان منه صلى الله عليه وسلم : فانه لما وصل الى بيته تدثر وجعل يفكر فى عبء الرسالة ، وصعوبة أمر الدعوة ، ولا سيما بين قوم كقريش فى أعلى ذروة من السؤدد والمجد ونفوذ الكلمة فى العرب . وكان من أخص خلائقهم الكبر والخيلاء والجبروت والتمسك بتقاليد الآباء ، فكيف ينتظر أن يخضعوا لشاب منهم : جعلته أخلاقه الفطرية ، وفضائله النفسية — فى معزل عنهم ، ولم يضمهم به يوما مجلس قمار أو خمر أو لهو ، ولم يروه مشاركا لهم فى أعيادهم ، أو السجود لأصنامهم ، أو ممارسة عبادة من عباداتهم . مما من شأنه أن يؤلف بين القلوب ، ويغرس الميل والثقة فى النفوس ؟

كان صلى الله عليه وسلم فى مثل ماذكر من ضروب الهواجس والأفكار ، واذا الملك يهتف به قائلا : (يأيها المدثر) المستغرق فى هواجسه وهموم نفسه ، (قم) نشيطا ، ولا تجعل لليأس اليك سبيلا ، (فانذر) قومك وادعهم وخوفهم مهما تجهموك واسمعوك وآذوك ، وامض فى دعوتك قدما من دون أن تباليهم أو تخشى جانبهم . فان انسلالك من بين أيديهم ، ونومك فى بيتك منعزلا عنهم — لايفيدك شيئا ، بل ربما أغراهم بك ، وجراهم عليك ، وحال بينك وبين ما انت بسبيله من نشر التوحيد والاسلام ، وابطال عبادة الطواغيت والأصنام .

وسواء اقلنا ان تدثره عليه السلام وانزواءه عن الناس فى بيته كان تهيبا للوحى ، وتفصيا من ضغطته ، ام تجنبا لأذى قومه ، وتفكيرا فى مصيره معهم — فان الوحى السماوى لم يعذره فى اى الأمرين كان ، بل حضه على الهبوب من المضجع ، والتشمير للدعوة ، والجد فى أداء الوظيفة التى اختارته لها العناية الأزلية . وبديهى أن قيامه صلى الله عليه وسلم بدعوة جبابرة عتاة الى خلع دينهم ، وما ورثوه عن أجدادهم — يحتاج الى سلاح ماض يتحصن به فى أثناء المقارعة والمصاولة ، فما هذا السلاح ؟ وما هى تلك القلاع الشاهقة ؟ والجيوش المتلاحقة ؟ والأعتد والآلات المهلكات المبيدات ، التى استعان بها صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى ربه ، ومحاربة الشرك وحزبه ؟ لم يكن شىء من ذلك كله ، ولم يكن معه مساعد غير الوعد

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ ﴾

الالهى ، وغير ما فى هذه الآيات الآتية من الوصايا التى امره ربه ان يتدرع بها ، ويروض نفسه عليها ، وهى قوله تعالى :

(وربك فكبر الخ) ، والفاء فى (فكبر) لافادة معنى الشرط ، فهى فاء الجواب ، كانه يقول : ومهما قام فى وجهك من العقبات فلا تدع تكبير ربك ، وكذا يقال فى فاءات الجمل الآتيـة . ومعنى (كبر ربك) اختصه بالكبرياء ، وأفرده بالعظمة والمجد ، وارفعـه عن ان يكون له شريك من معبودات المشركين وآلهتهم . ففى هذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الأوهام وعبادة الخيال .

هذا هو السلاح الأول ، اما السلاح الثانى فهـو تحرير النفس من سوء الأخلاق ، ورديء الخصال ، وهو ما أراده تعالى بقوله :

(وثيابك فطهر) . لاشيء يلازم الانسان فى مختلف حالاته ، ويصاحبه فى جميع ادوار حياته : منذ ولادته الى حين مماته ــ مثـل ثيابه التى ينجحـر فيهـا ، فصارت كأنها جزء من اجزاء ذاته ، وأحد مقـومات قرونته (١) . وصاروا اذا وصفوها بوصف كانوا كأنهم وصفوا النفس ذاتها ، فيقولون : فلان طاهر الثياب أو نقى الثيـاب ، وطاهـر الجيب والذيل والأردان ويريدون وصفه نفسـه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق . ويقولون فى ضد ذلك : فلان دنس الثياب ، وخبيث الثياب ، وقال عنترة بنى عبس :

فشككت بالرمح الأصـم ثيـابه
ليس الكريم عـلى القنا بمحرم

وشك الثياب بالرمح ليس مما يتمدح به ، وانما المقصود شك جسده ، بل قلبه أو نفسـه بالرمح . فان هذا الشك هو الذى يرديه قتيلا ، وهو الذى يثبت بسالة عنترة وحذقه فى فنون القتـال . فمعنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) وقلبك أو نفسك طهرها مـن ذميم الأخلاق ، وسيىء الملكات ، فلا تجعل للجزع والسآمة وقلة الصبر والخور وضعف الهمة وغير ذلك من أمراض النفس ــ سبيلا الى نفسك . فالآية تحضه صلى الله عليه وسلم على تهذيب نفسـه ، وتحريرها من قيود الصفات الذميمة ، وهو السلاح الثانى .

أما السلاح الثالث فتحرير الجوارح من المعاصى والذنوب ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

(والرجز فاهجر) . الرجز بكسر الراء وضمها فى أصل معناه العذاب ، ثم كثر استعماله فى كل ما اوجب العذاب ، وادى اليه من المعاصى والآثام . فهو يقـول : اترك كل ما يجر الى العذاب من تلك المعاصى ، وحرر جوارحك من مقارفتها : فلا تدع سمعك ولا بصرك ولا فمك ولا يدك ولا رجلك ولا عضوا آخر من اعضائك ــ يلم بشيء منها . هذا هو السلاح الثالث من الأسلحة التى يتم بها استعداده صلى الله عليه وسلم للمضى فى دعوته ، والنجح فى مهمته ، والظفر بطلبته .

وقد استوعب الوحى فى هذه الآيات الثلاث التى لا تتجاوز بضع كلمات ــ أمهات الفضائل الانسانية . اذ أن الانسان ليس سوى عقل ونفس وجسد ، وكل فساد وصلاح يطرأ عليه ، أو شر أو خير يصدر منه ــ فانما مقره هذه الأشياء الثلاثة ، التى هى مقـومات وجوده ، وأركان كيانه . فبقدر مايتوفر له من صلاح العقل بالعقائد الصحيحـة ، وصـلاح النفس بالآداب الرفيعة ، وصلاح البدن بهجر الآثام الوبيلة ــ تتوفر له السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة . وبقدرماينقص من ذلك يخسر من سعادته ، ويدنو من شقاوته .

وليس معنى أمر الله له صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه وبدنه أنه ــ وحاشاه ــ ملوث بشيء من دنس الوثنية أو العيوب أو المعاصى . اذ قد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه انه صلى الله عليه وسلم كان كاملا فى عقيدته : فلم يمارس عبادة جاهلية ، كاملا فى نفسـه : فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملا فى جوارحه : فلم يقترف بها معصية قط . ومهما كان أعداؤه المشركون يوجهون اليه المطاعن والشـتائم ، فلم نسمعهم مـرة يقولون له : انك كنت بالأمس شريكا لنا فى عبادة اللات والعزى أو هبل الأعلى ، أو يقولون له : غدرت بفلان ، أو أسأت الى فـلان ، أو استحمقت على فلان ، أو يقولون له : أنت الذى كنت تفعل كذا وكذا من المعاصى والمخازى . . لم يكونوا يقولون له شيئا من ذلك . ولو وقع منهم لنقل الينا كما نقل قولهـم له انه سـاحر ومجنون . وقد بسطنا ذلك بسطا شافيا فى كتابنـا الذى نؤلفه فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم . اما قوله تعالى له فى سورة الضحى : (ووجـدك ضـالا فهدى) ، فمعناه أن ربك وجدك منذ نشأتك فى ضلال ، اى حيرة من أمر هداية قومك ، وانقاذهم من دنس الشرك ومعرة الجاهليـة ، اذ كنت واقفـا من أمـر هدايتهم فى مفرق طرق : لاتدرى اى طريق تسلكه الى هدايتهم ، حتى هداك ربك بالوحى الى دين الاسلام وتعاليم القرآن ، وأمرك أن تسير بقومك على نوره ، وانقذك من الحيرة التى كنت فيها . هذا هـو معنى الضلال فى الآية .

تقول : واذا كان الأمر على ماذكرت من سلامته صلى الله عليه وسلم فى عقله ونفسه وجوارحه وعدم تقصيره ــ فما معنى الوحى له بتمجيد الرب ، وتطهير النفس ، وترك المعاصى ؟

فأقول : ان المراد من أمره بما ذكر طلب الدوام منه على ماهو عليه ، وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على اداء وظيفته والقيام بمهمته : فلا ييتئس ، ولا

(١) القرونة : النفس

يحزن ، ولا ييأس ، ولا يكثر من القلق والاهتمام . وينبهه الى ان من كان مثله طاهرا من الشوائب، سليما من المعايب ــ لا يخسر ولا يخيب ، بل يكون له مــن الظهور وحسن العاقبة أوفر نصيب . وهذا كما تقول لابنك ــ وانت ترشحه للضرب فى البلاد من اجل كسب مال أو معال ، وقد شعرت منه بشىء مــن التهيب وتوقع الخيبة : « أقدم يابنى ولا تخف ، وكن اديبــا فطنا أمينا مطيعا لربك ، مالكا لاربك ، وفيا لصحبك ، واصبر تر ما الله فاعل بك » . تقول له هذا وانت تعلم أن كل ماأمرته به هو من صفاته واخلاقه ، ولا تريد من توجيه الخطاب اليه بذلك الأمر الا حثه على انتظار النجاح ، وبث الطمأنينة فى نفسه للمستقبل . ومثل هذا قوله تعالى : (انا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) ، اى أعطيناك يا محمد الخير الكثير ، فلتكن صلاتك وما تقدمه من القرابين خالصا لله ، ولا تجعل لغيره من المعبودات فيهما نصيبا . والمعنى : دم على ما أنت عليه من هذا الاخلاص ، فانه قضــاء للذمة ، ووفاء لحق النعمة . والا فانه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، ولم يذبح لصنم قط ، وهذا هو معنى قوله تعالى هنا لنبيه : مجــد ربك يا محمــد ، وطهر نفسك ، واحم جوارحك ــ ان شاء الله .

ثم ان من الصــفات النفسية صفتين هما اشــد ما يلزم للقائم بالدعوة ــ أية دعوة كانت : دينيــة أو دنيوية ، سياسية أو اجتماعية ــ تانك الصفتان هما الجود والصبر ، فــلا يمكن قط أن ينجــح داع فى دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها اذا كان ملولا جزوعا ، مسترخى العزيمة محلول عروة الصبر . فكم دعوة حق اضمحلت وزالت بسبب شح القائم بها ، أو بسبب ملله وقلة صــبره ، وكم دعوة بطــل لا أســاس لها تدرع صــاحبها بالجود والســماح ، واستشعر الصــبر والدأب والالحاح ، فكانت عاقبته الفوز والغلبة والنجاح .

وقل من جــد فى امر يحاوله
واستشعر الصبر الا فاز بالظفر

اعتبر ما قلنــاه فى الدول التى ظهرت فى أزمنــة التاريخ المختلفة ، وخاصــة التى ظهرت فى صــدر الاسلام . فان الدولة الأموية لم تثبت ويستتب لهــا سلطان الا بالبــذل والسخــاء ، والصــبر وانتظار الفرص . أما الدول الأخــرى التى كانت تنافسها وتجرى معها فى ميدان واحد كالدولة الزبيرية مثــلا ــ فانه لم يضر بها ويقطع عليها الطريق الى غايتهــا الا الشح والضن بالمــال ، والملل وعدم انتظار الفرص .

اذا تقرر هذا فهمنا السر فى تخصيص الله هــذين الخلقين بالذكر بعــد ان عم فى آية (وثيابك فطهر) التى قلنا ان معناها عليك بكرائم الخصال ، ومحاسن الأخلاق ، ثم خصص فقال : **(ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر)** ، كأنه يقول : واخص من بين تلك الأخلاق العطاء بلا استكثار ، والصبر على المــكاره والمضار ، فقوله : (ولا تمنن تستكثر) معناه لا تعط وأنت مقدر فى نفسك أن ما تعطيه كثير ، بل أعط عطاء من لايخاف الفقر ، وقدر أن ما تعطيه قليل وان كان كثيرا فى الواقع ونفس الأمر ، يقال : « من الأمير على فلان » اذا أنعم عليه واصطنع عنده يدا .

وقوله : (ولربك فاصبر) معناه اصــبر على أذى قومك وعرامهم ، وعدم انقيادهم لك ؛ لأجــل ربك وتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فان فى هذا الصبر بلوغ ما تشتهى وتحب من ايمانهم ومسارعتهم الى تصديقك . وقد قال تعالى لنبيه فى معرض الامتنان عليه بما وهبه من حسن السجايا حتى كانت ســببا فى تألف العرب ، وحبهم له ، وانقيادهم الى دعوته ــ : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) . فلينه صــلى الله عليه وسلم ورفقه ، ومكارم اخلاقه عامة ، وسخاؤه وصبره خاصة ــ كل ذلك مما ادبه ربه به فكان سببا لظهور دينه ، ونجاح دعوته ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . أما تأديبه له بالجود والسخاء فيكفى فى التمثيل له اعطاؤه يوما لبعض المؤلفة قلوبهــم واديا مملوءا ابلا وشاء ، واما صبره وثبات قلبه فيكفى فى الدلالة عليه ما قاله صلى الله عليه وســلم فى جواب عمه أبى طالب مذ رغبه فى السكوت عن قومه ، وترك التعرض لهم فى دينهم ، وأنهم يمتعونه فى مقابل ذلك بما شاء من زهرة الحياة الدنيا وزينتها : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت دعوتهم الى دين الله » .

قوله : **(فاذا نقر فى الناقور)** . الفاء للسببية كالفاء الثانية فى قوله تعالى : (فاخرج منها فانك رجيم) ، اى لانك رجيم . والمعنى هنا انهض يا محمد لانذار قومك متدرعا بما أمرتك به ، واصبر على أذاهم ، ولا تبــال بهم ، فان أمامهم ان بقوا على كفرهم يوما شــديد الهول عليهم ، و (النقر فى الناقور) هو بمعنى النفخ فى الصور ، تقول : « نقرت الرجل » . اذا صوت له بلسانك ، والنقر بالخيل ازعاجها بالصوت حثا لها على المسير ، و (الناقور) فاعول اسم الآلة التى ينقر بها او عليها فتصوت ، كالهاضوم اسم للدواء الذى يؤكل فيكون به الهضــم . فالنقر كما يكون بمعنى الضرب على دف مثلا بحيث يسمع له صوت ، يكون بمعنى التصويت والنفخ فى الشىء فيسمع له صوت .

ويفهم من كلام بعض المفسرين أن النقر غير النفخ ، وهو يدل على أن النفخ فى الصور والنقر فى الناقور كليهما ليس من باب الحقيقة ، بل هو كناية عن اعلان ذلك اليوم ، والمناداة به ، وظهور أمره ، وانكشاف سره . أو هو تمثيــل لبعث الخــلائق وحشرهم فى صعيد واحد بحيث يحسب من رآهم أن نفخة صور أو نقرة ناقور أهابت بهم وأزعجتهم الى حضرة ربهم . على أن الشرع ان كلفنا الاعتقاد بالصور والناقور فانه والحمد لله لم يكلفنا معرفتهما ، ولا كيفية النفخ فى الصــور ، أو النقر على الناقور ــ معرفة اكتناه . وذلك رحمة بنا ، وتيسيرا للأمر علينا .

وقوله **(فذلك)** اشارة الى الوقت المفهوم من اذا ، اى فذلك الوقت أو اليوم الذى ينقر فيه فى الناقور . وقوله : **(يوم عســير)** خــبر لقوله فذلك . وقوله

فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ

(يومئذ) بدل من (فذلك) الذى قلنا انه بمعنى فذلك اليــوم . وفائدة هذا الابدال زيادة التقرير والتصوير فى الأذهان . وكما أكد فى الابدال من المبتدأ اكد بتقرير الوصف مذ قال : (غير يسير) فانه بمعنى (عسير) . وهذا كما تقول «أنا محب لك غير مبغض»، فقولك « غير مبغض » يورث الكلام فضل تأكيد . بل ربما كانت نكتة التكرير فى الآية الاشارة الى أن عسر ذلك اليوم لا يصحبه يسر كما يصحب عسر الدنيا ، فهو عسر مطبق ، وهول مغلق . و **(على الكافرين)** متعلق بعسير ، أو بيسير . والعامل فى قوله (فاذا) مضمون جملة الجزاء وهى (فذلك يومئذ يوم عسير) والمعنى : يشتد الهول ويعسر الأمر وقت نقر الناقور .

معنى **(ذرنى ومن خلقت)** دعنى واياه ، وكل أمره الى ، وثق أنى قادر على كفايتك همه . وهو أسلوب بليغ فى التهديد ، مثله ماسبق فى آية (وذرنى والمكذبين أولى النعمة) ، وآية (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) .

وهــذا الذى يقول الله انه خلقــه وسينزل به عقوبته هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحــد عظماء قريش وذوى السؤدد والجاه والسعة فيهم . وقد ذكره تعالى بأياديه عنده فى معرض تهديده وتخويفه ، ليكون ذلك أدعى الى الكسر من نفسه ، والغض من خيلائه ، فيكف عن بعض شره وايذائه للنبى صلى الله عليه وسلم . والوحى وان نزل فى سبب خاص ، أو خوطب به واحــد من الأشخاص ــ فان أسلوبه يبقى عاما متناولا كل من كان كالوليــد فى معــاندة الحق ، والكفر بالله ، وترك الشكر له على نعمه وسوابغ آلائه . ويقول بعض المفسرين ان الوليد هذا هو الذى آذى رسول الله وكاد له ، واضطره أن يأوى الى بيته ويتدثر بقطيفته مغموما حزينا . فان صناديد قريش لما برموا برسول الله ، وضاقت عليهم الحيل فى اسكاته ، واطفاء نور دعوته ــ لجئوا الى الوليد ، فأشار عليهم بأن يلقبوه صلى الله عليه وسلم بالساحر ، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك فى مكة ، فجعلوا ينادون : ان محمدا لساحر . فلما سمع رسول الله ذلك وجم واشتد عليه الأمر ، ورجع الى بيته حزينا ، فتدثر بقطيفته ، فنزل عليه جبريل يقول : (يأيهــا المدثر قم فأنذر) ، وقد ذكرنا هــذا آنفا مستوفى الشرح والتفسير ، الى أن قال له ربه هنا : (ذرنى) أى دعنى يامحمد بعد أن تكون انت على ما أحببت لك من استجماع الكمالات الانسانية فيك (ومن خلقت) أى وعدوك الوليد الذى خلقته (وحيدا) ، أى دعنى وحدى معه ، ولا تستجش عليه الأعوان والأنصار ، فأنا كافيكه وحدى ، وفىّ الغناء عن كل عون ونصير . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (ذرنى) . أو المعنى دعنى وهذا الذى خلقته وحدى ولم يشركنى فى خلقى له شريك أو مساعد . وفى ذلك تنبيه للوليد الى أن من العار عليه ان يقرن بمن تفرد بخلقــه شريكا فى العبادة ، أو ايقاظه الى أن من خلقه وحده قادر على ان يهلكه وحده ولا يعارضه فى اهلاكه معارض ، فيكون (وحيدا) على الوجهين حالا من فاعل (خلقت) .

أو المعنى : دعنى يا محمــد وهــذا الذى خلقته ، فكونته فى بطن امه وحيدا : لا رفيق له سوى رفقى ولطفى وعنايتى ، ثم ولدته أمه فكان وحيدا فريدا : لا مال له ولا ولد ، ولا حول ولا مدد ، حتى اذا أسبغت عليه الآلاء ، وامددته بالأموال والأولاد والأخلاء ــ قام يكفر بى ، ويكذب رسولى ، ويعاند آياتى . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (خلقت) وهو ضمير يعود على من .

وهــذا المعنى الأخير يناسب مابعده مــن تعداد النعم ، وتذكير الوليد أنه أصبح بها كثيرا وافر العدد ، بعد أن كان وحيدا منقطع المدد . وبعد نزول هــذه الآية صار يلقب الوليد بالوحيد تعييرا له ، وتهكمــا به . وقيل : كانوا يلقبونه بالوحيد قبــل نزول الآية تكبيرا له ، وتنويها بانفراده فى الرياسة ، فلما نزلت قلبت المدح الى قدح ، وحولت التكبير الى تعيير .

ثم اخذ الكتاب فى بيان النعم والأيادى التى كانت لخالقــه عليــه فقال : **(وجعلت له مالا ممــدودا)** ، اى مبسوطا موسعا . وقريب منــه قولهم « فلان صاحب سعة ، وموسع عليه فى الرزق » ، فهو من المد بمعنى بسط الشىء وتوسيعه ، ويحتمل أن تكون من المدد والامداد ، يعنى أن ماله كان كالنهر : كلما نفــد منه شىء مد بآخر ، وكلما انفق نعمة أخلف الله عليه غيرها . وكان للوليد هذا بستان فى الطائف لا ينقطع ثمره صيفا ولا شتاء فى نعم وأموال اخرى كانت ممتدة بين مكة والطائف . ومن ثم قال بعضهم ان امتــداد ماله المفهوم من قوله (ممدودا) هو على حقيقته .

(وبنين شهودا) ، اى مقيمين معه فى بلده ، لا يبرحونها ابتغاء للكسب وطلب المعاش ، لوجود أعوان يكفونهم مؤونة ذلك ، فهم دائما شهود حضور بين يدى أبيهم ، يستأنس بهم ، ولا يتنغص عيشه لفراقهم . ويشبه هذا ماقالوه فى بيت حسان رضى الله عنه :

أولاد جفنــة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضــل

وانه أراد بقوله « حول قبر أبيهم » أنهم ملوك أعزاء مقيمون بدار مملكتهم : لا يبرحون للاكتساب ، ولا ينتجعون كالاعراب .

أو المراد بكونهم (شهودا) أنهم بلغوا من الرجولة

والكمال والنجابة مبلغا يشهدون به مع أبيهم المجامع والمحافل العامة ، فيكونون زينة لأبيهم وجمالا .

وقوله (**ومهدت له تمهيدا**) من قبيل التعميم بعد التخصيص . فبعد أن ذكر من مظاهر النعم الالهيـة المال والبنين ، عاد فلف النعم والخيرات الدنيوية لفا في هذه الجملة فقال : (ومهدت الخ) ، أي بسطت بين يديه الدنيا بسطا ، ويسرت له تكاليـف الحيـاة ومظاهر الجاه تيسيرا ، بحيث لايصعب عليه تناول ماشاء منها

و (التمهيد) في الأصل أن تجعل الشيء أو الأرض ممهدة مبسوطة ، يقال « مهد الأمر » اذا وطأه وسهله وسواه وأصلحه . ثم جعلوا يتجوزون به عـن بسطة المال والجاه . ويقول الكتّاب في ترسلاتهم : « أدام الله تأييدك وتمهيدك » يريدون ما ذكرنا .

وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الاحسان ، ويقابله بالطاعة والايمـان ـ عـكس الأمر وقابله بالجحـود والكفران ، فعلم قريشا أن يلقبوا رسوله بالساحر ، وينادوا عليه به في كل أرجاء مكة . وقد اشار الوحي الى ذلك في الآية الآتية من هذه السورة على لسـان الوليد : (ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هـذا الا قول البشر) . وقال عنه في سورة « ن والقلم » : (اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . وكان الوليد يقول لأولاده ورجال عشيرته : « لئن تبع دين محمد منـكم أحد لا انفعه بشيء أبدا » ،فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الاسلام . وقد مر عن الوليد هذا خبر طويل في سورة « ن . والقلم » وقوله تعالى فيه (ولا تطع كل حلاف مهين هماز) الى آخر الأوصـاف العشرة التي وصفه الوحي بها ـ ذاك هو شأن الله مع الوليـد في اسداء النعم وموالاة الاحسان ، وهذه هي شنشنـة الوليد مع ربه في الجحود والعصيان ، ومقاومة أهل الايمان . (**ثم**) أن الوليد بعد ذلك كله لا يستحي من ربه ، ولا يفـطن الى سـوء ادبه ، بل هـو (**يطمع**) ويحرص (**أن أزيد**) له من نعمي ، وأوالي عليه مـن احساني .

يسأء الينـا ثم يرجى ودادنا
لقد هان من يعطى مودته غصبا

ويروى أن الزيادة التي كان يطمع فيها الوليد لم تكن من جاه الدنيـا وخيراتهـا ، بل من نعيم الآخرة وبحابح جناتها . فقد كان يقول : « ان كان محمـد صادقا فما خلقت الجنة الا لي » . (**كلا !**) أي ليرتدع الوليد عن طمعه وليكفكف من غروره ،فليس هو أهلا لما طمع فيه . وقد روى أن الوليد لم يزل بعد نزول هذه الآية في نقصان وخسار حتى افتقر ومات معدما.

(**انه كان لآياتنا**) حججنا على خلقنـا : مـن كتب ورسل (**عنيدا**) معاندا لها ، مكابرا فيهـا . عند عن الطريق : مال وعدل ، وعاند فلانا : جانبه وفارقه ، وعارضه بالخلاف والعصيان ، وعاند الحق : جحده ورده وهو يعرفه ، فهو معاند وعنيد . ومما رووه من عناد الوليد انه مر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ « حم السجدة » ، وقيل بل سمعه يقرأ آية (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتـاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظـكم لعلـكم تذكرون) ، فرجع وقال لقريش : « والله لقد سمعت آنفا من محمد كلاما : ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن : ان له لحلاوة ، وان عليـه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى » . لا جرم أن من عرف من كلام الله مثل ما عرف الوليد وبقي مقيما على تكذيبه له ، ووصفه بأنه (أسـاطير الأولين) ، وقوله فيه (ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر) ـ كان معاندا للآيات ، خليقا بأن يكابد من العذاب أشد الصعوبات . ومن ثم قال تعالى فيه : (**سأرهقه صعودا**) ، أي سأكلفه وأحمله عذابا شاقا صعبا عليه ، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل . و (الصعود) بضم الصـاد : مصدر صعد ، وبفتحها : العقبة في الجبل يصعب على المرء التصعيد فيها . وقد مر في تفسير قوله تعالى : (عذابا صعـدا) أن العـرب جعلوا صعـود المرتقى الصعب مثلا في تكليف الأمر الشاق الذي لايطاق ، فراجع ما قلناه في سورة الجن .

ذكر في الآيتين السابقتين أن الوليد شديد العنـاد لآيات الله ، وأن الله سينزل به ما لا طاقة له به مـن العذاب . وكأن سائلا سمع ذلك فسأل : وكيف كانت حالته في معاندة الآيات حتى استحق العذاب ؟ ثم سأل: وما هو العذاب الذي يرهقه يوم القيامة ؟ فأجيب عن الأول بقوله تعالى : (**انه فكر وقدر الخ**) ، وأجيب عن الثاني بقوله بعد ذلك : (سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر الخ) ، فهذه الآيات والتي تليها تفصيل وشرح لـما أدمجه في آيتي (انه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا) ، وهذا كقوله تعالى في سورة الاخلاص (الله أحد ، الله الصمد) ، ثم عاد بالبيان على (الله أحد) فقال : (لم يلد ولم يولد) ، وعلى (الله الصمد) فقال: (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفي هذا الاسهـاب بعـد الايجاز ـ مافيه من البلاغة وباهر الاعجاز .

(قدر) الأمر في نفسه : هيأه ، واجال فيه رأيه ، ليبرزه الى الناس نافعا كاملا ، ومثـله (روزه) اذا أعمل الروية في ترتيبه وتقديره ، و « زوره » بتقديم الزاي اذا أداره في نفسه وهيأه .

وقوله (**فقتل ... ثم قتل**) يعني قتله الله ! وهو كقولهـم : قاتله الله ! ما أشجعـه ! وأخـزاه الله ! ما أشعره ! يقـول العـرب هـذا في معـرض التعجب والاستعظام مدحا ، وكأن الأصل في هذا الاستعمال أن هذا الشجاع أو الشاعر بلغ في شجاعته وشعره حدا يثير الحسد في نفوس الناس ، فلا يملكون السنتهم من الدعاء عليـه بالقتل أو الخزي ، شـأن الحاسد مـع محسوده ، ثم شاع هذا الاستعمال وصرف الى المدح والتعجب حتى صار يقوله المحب في محبوبه ، والوالد لولده ، أما هو في الآية فتعجب واستعظام مشـوبان بالقدح ، ولا مدح فيهما ، أو يقال ان المدح فيهما وارد مورد التهكم ، فلا تضر ملاحظته في الآية .

قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا

و (العبوس والبسور) والكلوح : تقلص عضلات الوجه عند الألم أو الحزن ، أو هم نفسي ينفعل له المرء ، وجعلْ بعضهم الكلوح فى الشفاه بحيث تبدو الثنايا ، والعبوس فى تقطيب الحاجبين ، والبسور أشد من العبوس .

وقوله (**يؤثر**) معناه يروى ويتناقل خلفا عن سلف .

قلنا ان الوليد على عتوه ، وشدة عناده — كان لايملك نفسه عن الاعجاب بالقرآن وفصاحة آياته ، حتى قال فيه قوله المأثور : « ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة الخ» . وقال لقريش يوما : سأبتار لكم — اى سأجرب وأختبر — هذا الرجل الليلة — يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم — فجاءه فوجده يصلى ويقترىء ، فرجع اليهم واجما واله النفس ، فقالوا له : « مه » قال : « سمعت قولا حلوا اخضر مثمرا يأخذ بالقلوب » . وزار أبا بكر مرة وسأله عن القرآن ، فأسمعه شيئا منه بصوته الرقيق الحزين اختلب به لبه ، فخرج الى قريش فقال : « باعجبا لما يقول ابن أبى كبشه ! فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وان قوله لمن كلام الله » ، فكانت قريش يسمعون هذا واشباهه من الوليد فيخامرهم الريب فيه ، ويقولون : « والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش » ، اى لئن خرج من دينه الى دين محمد ليفعلن مثله . ثم راجعوا أبا جهل فى أمره ، وخوفوه العاقبة ان هو أسلم . فأعلن ابو جهل عظماء قريش وصناديدهم وجوب الاجتماع فى ناديهم المسمى « دار الندوة » فشهده ملؤهم وأشرافهم . وحضر الوليد ، فقال له ابو جهل : « اى عم ، ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا » قال : « وله » قال : « يعطونك اياه ، فانك تتعرض لمحمد طالبا ما قبله » يريد ابو جهل انه يتعرض للنبى فى طلب عطية منه . وانما اراد بهذا القول أن يحمى الوليد ويغضب ، فيتجنب مجالس النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة . فقال الوليد : قد علمت قريش انى أكثرها مالا . قال ابو جهل : فقل اذن فيه قولا يعلم قومك انك منكر لما قال ، وانك كاره له . قال الوليد : فما أقول فيه ؟ قالوا : نريد قولا نقوله لوفود العرب اذا هم جاءوا الموسم ، وسألونا عن محمد : ما حقيقة امره ؟ فاذا اختلفنا فى الجواب ، وقال بعضنا : هو شاعر ، وقال آخر : كاهن ، وقال ثالث : هو مجنون — استدلوا من اختلافنا على بطلان قولنا من اصله ، فهلموا نتفق على رأى واحد ، ووصف واحد . فقال بعضهم اذ ذاك : نقول كلنا : انه شاعر . فقال الوليد : لا والله ، ماهو بالشاعر ، وليس أحد أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، أليس قد عرضت على الشعراء شعرهم : النابغة وعبيد بن الأبرص ، وامية بن ابى الصلت ، وغيرهم ؟ فلا يشبه كلامه كلامهم . قال آخر : نسميه الكاهن . فقال الوليد : لا والله ، ما هو بكاهن ، ولا سيما أن الكاهن يصدق تارة ويكذب اخرى ، ومحمد لا يكذب قط . قالوا : هو مجنون . فقال الوليد : المجنون يخيف الناس ، وما يخيف محمد أحدا قط . فلما سمعوا هذا منه سكتوا . فقال له الوليد : فدعنى حتى أفكر فيه . فقال له ابو جهل عند ذلك : والله لا يرضى قومك حتى تقول أنت فيه قولك .

وكان من حق الوليد فى هذا الموقف أن يكون ثابت القدم ، جرىء النفس ، قوى الارادة ، مؤثرا للحق على الباطل ، والثواب الباقى على العرض الزائل : فيعترف بلسانه بما اعترف به فى وجدانه ، ويشهد أن القرآن حق ، ودعوى محمد صلى الله عليه وسلم صدق . لكنه غلب عليه الجحود والعناد ، فأعلن كفره الصريح فى ذلك الناد ، واشار الى القوم انه سيرى لهم بشأن محمد رأيا ينقذهم به من حيرتهم ، ويهديهم الى صالح أمرهم . فاشرأبت اليه عند ذلك الأعناق ، وسمرت فى وجهه الحماليق والأحداق .

وقد وصف الوحى عجر الوليد وبجره — فى تلك المديدة التى كان يفكر فيها — وصفا استوعب فيه جميع الحالات الجسمية ، والانفعالات النفسية التى تبدو عادة على كل من كلف تكليف الوليد ، وكان فى مثل منصبه . والكلام عنه مسوق للسخرية به ، والتعجيب من غفلته ، وقصور نظره ، على حد ما قيل فى مثله :

فان قيل : كم خمس وخمس لارتأى
ولظل ليلته يعد ويحسب
خمس وخمس ستة أو سبعة
قولان قالهما الخليل وثعلب

قال تعالى : (**انه**) اى الوليد حين طلب منه أن يأتى بوصف ينطبق عليه صلى الله عليه وسلم (**فكر**) جعل يقلب وجوه الراى فى استحضار الأوصاف والألقاب المختلفة ، (**وقدر**) اى وجعل يعمل رويته فى الترتيب والتصنيف بين تلك الألقاب واختيار الأنسب والأليق منها . ثم قاطعه الوحى معجبا من أمره ، ناعيا سوء فعله ، داعيا عليه بما يشبه الاستعظام له والتفخيم ، وهو انما يريد الاستهزاء به والتبكيت ، فقال : (**فقتل كيف قدر**) اى قبحه الله

ما أشد هوسه فى أمر ذلك التقدير الذى اجتهد أن يقدره ! وفى استنباط اللقب الذى كان يحاول أن يستنبطه ! وبلفاء العرب اذا قالوا قولا فى أمر ، أو حكموا حكما على شخص ، وتوقعوا انكار المخاطب لما قالوا ، أو استبعاده للحكم الذى حكموا — عادوا فكرروا قولهم مؤكدين مؤيدين ، ويصدرونه بحرف العطف (ثم) ، كأنهم يقولون للمنكر : مهما استغرقت من زمن فى الانكار والرد فان قولنا أو حكمنا هو الحق الذى لا ريب فيه ، فيقول شاعرهم فى اظهار حبه لمحبوبته مثلا : «الا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى»: توقع فى قوله « ألا يا اسلمى » الأول الانكار عليه ، وان المنكر سوف يطيل فى لومه وعذله ، فقال : (ثم) أى بعد كل ما تقوله ايها المنكر وتسرده من كلمات اللوم والعذل اعود الى قولى الأول ، وادعو لمحبوبتى بقولى لها « اسلمى » ، وهكذا المعنى فى قوله فى المرة الثالثة : « ثمت اسلمى » .

والكتاب المنزل انما يورد خطابه موارد العرب فى خطابهم ، ويتصرف فيه تصرفهم فى مناحى تراكيبهم . فهو بعد أن دعا على الوليد لما اقترف من بشاعة التفكير والتقدير — عاد فكرر دعاءه عليه مؤكدا قاطعا على المنكر انكاره فقال : **(ثم قتل كيف قدر)** .

تركنا الوليد يفكر ويقدر ، ولنرجع اليه لنرى ماذا فعل بعد . قال تعالى : **(ثم نظر)** أى بعد أن فكر وقدر ، وظفر باللقب الذى ظنه فى زعمه أشد انطباقا على النبى من غيره — رفع بصره الى القوم المحتشدين فى النادى وجعل يدير نظره فى وجوههم . وكان نظره اليهم أولا نظرا هادئا لا عبوس معه ولا كلوح ، وانما كل ما اراد — أن يشعرهم بأنه أصاب المحز ، ووقع على الضالة المنشودة ... حتى اذا استجمع القوم ما انتشر من نفوسهم ، ورآهم قد تهيئوا لسماع كلامه — عبس وقطب حاجبيه محاولا فى ذلك استهواءهم والتأثير فيهم ، كما يفعل المنوم تنويما مغنطيسيا فى هذه الأيام . وهذا معنى قوله : **(ثم عبس وبسر)** : أى قطب حاجبيه أشد التقطيب متهيئا للكلام واعطاء الحكم القطعى .

ولما كان رأيه الذى سيبديه للقوم ، والوصف الذى اختاره له صلى الله عليه وسلم — ناشئا عن محض كبر ، وغمط للحق ، واعراض عن الايمان — عبر الكتاب عن رأيه هذا بأنه ادبار واستكبار ، فقال : **(ثم أدبر واستكبر)** ، أى ثم أبدى للقوم رأيه فيما يجب أن يلقب به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك الرأى محض ادبار ، وتول عن الحق واستكبار ، ولم يكن فيه أثر مما شعر به فى قلبه من حلاوة القرآن وطلاوته ، وقوله فيه : « انه ليس بشعر ولا بسحر ولا جنون ان هو الا كلام الله » . عرف كل هذا وأقر به أولا ، حتى اذا شهد النادى ، واحتف به القوم — جحد وانكر ، وادبر واستكبر ، فضل بذلك واضل ، واستكان لوسوسة الشيطان وزل .

والمدة التى فكر فيها الوليد وقدر ، ثم أبدى هذا الرأى المنكر — لم تكن طويلة حتى يعبر عن كل فترة من فتراتها بثم التى تفيد البعد والتراخى ، لكن القوم لما كانوا فى شوق شديد الى معرفة ما كان يقدره الوليد ويدبره من المكايد — كانت المدة بالنسبة اليهم طويلة ، فكان بين تفكيره وتقديره ، وبين نظره الى وجوههم وبين عبوسه وبسوره وبين تصريحه بما صرح به أخيرا من القول الدال على ادباره واستكباره — فترات طويلة فى نفوسهم بحيث يصح التعبير عنها بثم .

ثم فسر الوحى تلك الكلمة التى قالها الوليد للقوم ، واللقب الذى عرضه عليهم فكان به مدبرا مستكبرا — بقوله : **(فقال ان هذا)** أى ما هذا القول الذى يقوله محمد **(الا سحر يؤثر)** أى يروى مثله عن الأشوريين والبابليين ، وقدماء الهنود والمصريين، اما رأيتموه يفرق به بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيد وعبده ؟ !

ثم أكد رأيه بأنه سحر معروف فى الأمم القديمة وليس من كلام الله بقوله : **(ان هذا)** ، أى ما هذا القول **(الا قول البشر)** ، أى مثل قول البشر الذين عاشوا فى القرون الماضية ، ومارسوا السحر فى الأمم الخالية . وانظر كيف قال : (فقال ان هذا الا سحر) ولم يقل (ثم قال) — لأن قوله تفسير وبيان لادباره واستكباره المتجليين فى رأيه القائل ، فكان المقام للفاء المفسرة من دون تراخ . وكذلك قوله : (ان هذا الا قول البشر) أتى به من دون عاطف لكونه بيانا وتوكيدا .

وسياق الآيات فى استنكار قول الوليد ، واستبشاع رأيه فى اختيار ما اختاره من تلقيبه صلى الله عليه وسلم بالساحر مع ظهور كذب ذلك — يشبه قولهم فى عبارتهم المشهورة « سكت دهرا ونطق كفرا » ، فان الوليد أطال التفكير والتقدير ، وتفنن ما شاء فى التخيل والتصوير ، ثم لم يأت فى آخر الأمر الا بالرأى الفطير ، والقول التافه الحقير . ومع هذا فان القوم المحتشدين فى النادى هتفوا له منذ سمعوا قوله ، فارتج النادى بهتافهم ، ثم تفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين من دهائه ووفور عقله ! !

قوله : **(سأصليه سقر)** لما أدمجه فى قوله : (سأرهقه صعودا) كما مرت الاشارة اليه . و (سقر) اسم من أسماء جهنم ، وهو من « سقرته الشمس » اذا لوحته ، وآلمت دماغه بحرها . و « السقرة » شدة وقع الشمس . و « الساقور » الحديدة تحمى ويكوى بها الحمار. و « اصلاؤه سقر» تعريضه لنارها ، وجعله يقاسى حرها ، والضمير يرجع الى الوليد .

وقوله : **(وما أدراك ما سقر !!)** استفهام يراد به التعجيب من هول سقر ، وانه مهما فكر المفكر فيها لايمكنه أن يقرف من أمرها سوى ما عرفه به الوحى ، ومن ذلك أنها **(لاتبقى)** على شيء يلقى فيها الا أهلكته ، **(ولا تذر)** أى لاتدع أحدا من الفجار يحاول الهرب منها الا ناشته واحتجنته .

وقوله : **(لواحة للبشر)** مؤكد لما يفهم من كلمة

أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَـرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ

(سقر) ، وهو تلويح الجسم وتغييره الى سواد ، فلواحة اى مغيرة للون الجسم : فعالة من « لاحته الشمس » . ويقال فى الأكثر « لوحته الشمس » .

(والبشر) جمع بشرة ، وهى ظاهر جلد الانسان، وليس المراد به الناس الذى يكنى بهم آدم فيقال : « آدم أبو البشر » وان كان هذا المعنى هو المتبادر من اللفظ . فالمعنى أن دار العذاب المسماة سقر تلفح وجوه المذنبين بها ، وتسفع جلودهم ، وتغير لون ابشارهم الى السواد من شدة ما ينزل بهم من العذاب .

ولعل السر فى قوله (لواحة للبشر) مع قوله (لا تبقى ولا تذر) الاشارة الى أن أخف حالات العذاب فى سقر لا يطاق ولا يحتمل . ومن يطيق أن يعرض جسمه على النار فيصلى حرها الى حد ان تسود بشرته ، وتمجل (١) من لذعها جلدته ؟ ؟ لا يطيق هذا أحد ، فكيف به اذا عرض على سقر فى أشد أحوالها ، وافظع أهوالها ؟ وهو المعبر عنه بقوله (لا تبقى ولا تذر) .

وقد فسر بعضهم (لواحة للبشر) بانها تحرق الجلود حرقا . وذهب آخرون الى أن تفسير (لواحة) بمغيرة ومسودة ومحرقة لا يتسق مع قوله قبله (لا تبقى ولا تذر) المفيد انها تهلكه اهلاكا وتمحقه محقا ، وقال ان معنى (لواحة) : لماعة ، يريد ان سقر لشدة فورانها ، وانفجار نيرانها ورميها بشرر كأنه القصر ، أو الجمالات الصفر ـ تلوح وتظهر لأنظار البشر من مسافات بعيدة ، ويكون المراد بالبشر فى الآية بنى آدم ، فهى لماعة لهم ، بارزة الى انظارهم يرونها من غير استشراف ولا مد اعناق . فلواحة فعالة من « لاح البرق » اذا أومض ولمع . ويقولون « لوح اليه بثوبه » اذا رفع الثوب وحركه ليراه من بعد فيقبل عليه ، وهذا كما اذا أردت أن تصف بركانا عظيما ، يقذف نيرانه وحممه بشدة وعنف الى عنان السماء بحيث يرى من مسافات بعيدة ـ فتقول مثلا : « بركان لواح ، ترى مقذوفاته من سائر النواح » .

ثم ذكر الوحى من صفات تلك الدار ان (**عليها تسعة عشر**) وهم خزنتها الموكلون بأمرها على مايعلم الله من حقيقة ذلك وسره ، كما يعلم سبحانه الحكمة فى كونهم (تسعة عشر) ، لا اقل ولا اكثر . وسيأتى فى صريح الوحى ان أولئك الخزنة من جنس الملائكة، ولكن (التسعة عشر) المذكورين هنا : هل هم تسعة عشر شخصا من الخزنة أو صنفا أو صفا أو نقيبا أو زعيما ؟ الله أعلم بجميع ذلك . ولم يكلفنا البحث فيه ، بل أشار الى تعذر معرفته ، وأنه مما لاطاقة للخلق بادراكه مذ قال تعالى . (وما ادراك ما سقر؟) ولا سيما اذا كان المقصود بالخطاب فى (ما أدراك ؟) صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فيكون غيره اولى وأجدر بعدم معرفته . وكل ما علينا اعتقاده هو أن تلك الدار ذات الأهوال المذكورة فى الكتاب حق ، وأنها ستكون مأوى للفجار الذين كفروا بالله وجحدوا الحق فى هذه الديار .

ولما ذكر الوحى فى صفة النار أن (عليها تسعة عشر) فتح باب الجدل للمكابرين المشككين : كأبى جهل واحزابه ، فجعلوا يقولون : ما هؤلاء التسعة عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يجعلوا عشرين ؟ أما لرب محمد أعوان الا تسعة عشر ؟ بل ذهبوا فى الاستهزاء بالوحى الى أبعد من هذا ، فقال ابو جهل لقريش : « ثكلتكم أمهاتكم . أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر ؟ » فقال أحدهم ـ وهو ابو الأشد بن أسيد الجمحى ، وكان مشهورا بالقوة والبطش ـ : « أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفونى انتم اثنين فقط » .

وهكذا كانوا يشاغبونه صلى الله عليه وسلم ، ويستهزئون بالوحى المنزل عليه ، ويصرفون قلوب العرب عن الاهتداء به ، واخذ العبرة منه . والنبى صلى الله عليه وسلم ثابت القلب ، مطمئن النفس ، واثق بوعد الله أنه ناصره ومظهر دينه ، فكان يجيبهم من دون امتعاض ولا ارتباك بما يأمره ربه أن يقول لهم ، فأتى أبا جهل واخذ بيده فى بطحاء مكة وخوفه قائلا : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) ، اى يوشك أن يحل بك العقاب الالهى ، فاحذر لنفسك . فأجابه أبو جهل : « والله لاتقدر انت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا » ، ثم مالبث أن أخذه الله بالنكال فى وقعة بدر .

وقد نزلت هذه الآيات فى صدد الرد عليهم ، وتوبيخهم على ما كان من استهزائهم ، فقال تعالى : (**وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة**) ، اى أن خزنة النار ليسوا بشرا مثلكم أيها الجاحدون ، فتصاولوهم وتقووا عليهم ، انما هم ملائكة ذوو أيد وقوة فوق قوة البشر ، فاسألوا عنها ان شئتم قوم عاد وثمود وأهل سدوم وعموراء ، فهم يخبرونكم أنهم لقوا من تلك القوة ما لا قبل لهم به ، فخربت ديارهم ، وعفت آثارهم ، وكذلك هى فى جهنم ان حللتموها تطبق عليكم ، وتأخذ بأكظامكم وتشبعكم عذابا ونكالا ، فلا تسألوا عن عدة هذه القوة وأشكالها فليست العبرة بالعدد ، ولا تخلطوا الجد باللعب ، وتصرفوا قلوب الناس عن استماع الوحى والانتفاع بهديه .

(١) مجلت يده كنصر وفرح : نفطت وقرحت وتكون بين جلدها ولحمها ماء .

ثم عجب الوحي من حال أولئك المكذبين المستهزئين الذين لم يأخذوا من آيات القرآن عبرة وعظة ، ولم يخافوا مما خوفهم به من سقر وأهوالها ، وانما كان مكان العبرة فتنة لهم ، وضلال عن الحق ، واشتغال بما لا فائدة لهم به من ظاهر القول ، فتعلقوا بكلمة (تسعة عشر) ، وتساءلوا عن هذه العدة وسببها وحكمتها : مما لو اريدوا على فهمه وتعقله – وهو من شئون العالم الأخروى – لعسر عليهم تعقله ، بل لازدادوا اشكالا ، واوغلوا بعدا عن التصديق وضلالا ، وهذا معنى قوله تعالى : **(وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا)** .

(عدتهم) ، أى عدة خزنة سقر فى قولنا عنهم أنهم (تسعة عشر) ، و (فتنة) يعنى ضلالا وميلا واعراضا عن الحق . وليس المراد انه تعالى أوحى الى نبيه بذلك ليفتتن الكافرون به ، وانما كانت نتيجة الوحى بالنسبة اليهم ضلالا وكفرا بالنظر الى عنادهم فى باطلهم ، وجمودهم على ما ورثوه من تقاليد آبائهم . أما النتيجة والعاقبة بالنسبة الى غير الكافرين – وهم المؤمنون به عليه الصلاة والسلام ، والى أهل الكتاب الذين شموا رائحة الوحى ولهم عهد بالكتب المنزلة وأساليب الخطاب الالهى فيها – فان الفريقين استفادوا من الآيات المذكورة : فالذين أوتوا الكتاب « استيقنوا بها » ، أى أيقنوا صحتها ، لورود نظائر لها فى كتبهم المقدسة ، فكم فى هذه الكتب من أخبار عن العالم الأخروى ، وعالم الغيب ، وحوادث المستقبل ، أرسل فيها القول ارسالا ، وأودعت من الاغراب فى الوصف والايغال فى التمثيل ضروبا وأشكالا .

ويكفى فى الاستشهاد على ذلك ما جاء فى « رؤى دانيال » من أسفار العهد القديم ، و « رؤيا يوحنا » من أسفار العهد الجديد .

وقد قال المفسرون من علماء أهل الكتاب : « انه وان يكن يوجد فى سفر دانيال حوادث غير اعتيادية فليس هذا بمستغرب لأنه يعم الكتاب المقدس تقريبا » ، وقالوا فى رؤيا يوحنا : « ان معناها عويص وهي مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تتمة ألف السنة ، بل ان مسألة ألف السنة نفسها من جملة تلك المسائل المحيرة ، ولا يمكن أن نفهم هذه المسائل قبل وقوعها » .

وقالوا أيضا : ان كل ما جاء فى هذين السفرين من قبيل الرمز « وهو أن يشار بكلام حرفى الى معنى روحى ، والرمز كثير الوقوع فى جميع الكتابات الشرقية ولا سيما الكتاب المقدس » .

فمثال ما جاء فيه من الرمز بالأعداد الى معان غيبية أو مستقبلة « حيوانات حزقيال الأربعة التى لكل منها أربعة أوجه وأربعة أجنحة وأربعة جوانب » ، وملائكة رؤيا يوحنا « كانت سبعة وفى أيديهن سبع جامات وسبع ضربات » ، أما عدد أجنحتها « فكان ستا مرتبة أزواجا : فكانوا بزوج يغطون وجوههم ، لأنهم غير مستحقين أن ينظروا الى وجه الرب ، وبزوج يغطون رجليهم لأنه تعالى أجل من أن ينظر اليهما ، وبزوج يطيرون لقضاء مشيئة الهيهم » ، و « كان للتنين الذى رآه سبعة رءوس وسبعة تيجان وعشرة قرون » ، وهذا كالحيوان فى رؤيا دانيال « فان له عشرة قرون أيضا » .

فذكر هذه الأعداد من قبيل الرموز والأسرار ، وقد فسروا السر بقولهم « انه حقيقة روحية لايصل الانسان الى معرفتها بمجرد ذهنه ، ولا يفهمها تماما فى هذه الدنيا ، وتسمى بعض التعاليم أسرارا لما فيها من الابهام والصعوبة على الفهم » . قالوا : « ومن الأسرار غير المفهومة ما جاء فى رؤيا يوحنا من ذكر الكواكب السبعة ، والمنائر السبعة ، والمرأة المتسربلة بالقرمز » .

وقالوا أيضا فى وصف صعوبة فهم أحوال عالم الغيب : « انه قد يكون فى الفردوس أمور فوق افكار البشر بحيث لاتوجد لغة قادرة على أن تعبر عنها ، واذا كنا نحن معشر البشر فى دنيانا هذه لا يمكننا التعبير عن أفكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال ، فكم بالحرى اذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزلى ، ووصف الأرواح المجردة عن المادة ، ووصف مختلف أطوارها » .

فقد تبين من هذا أن فى كتب أهل الكتاب رموزا وأسرارا عن شئون عالم الغيب يقصر الفهم دون ادراكها وتعقلها ، وأن علماءهم معترفون بوجود هذه الأسرار ، وبأن لها معانى صحيحة منها ما يفهمه الراسخون فى العلم ومنها ما لا يفهمونه الا بعد وقوعه فى المستقبل أو فى العالم الأخروى . فلا بدع اذا لم يستغرب أهل الكتاب فى زمن نزول القرآن ما قاله تعالى من ان عدد خزنة سقر تسعة عشر ، كما استغرب المشركون الأصناميون ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : **(ليستيقن الذين أوتوا الكتاب)** .

ويحتمل أن يكون المراد من كونهم يستيقنون أنهم يستدلون من مقاومة المشركين له صلى الله عليه وسلم ، وتألبهم عليه فى التكذيب والمشاغبة طورا ، والسخرية والاستهزاء تارة أخرى – انه نبى كأنبيائهم ، مذ يرون حاله مع أولئك المشركين ، وصبره على أذاهم ، وثباته فى تبليغ أمر ربه – كحال أولئك الأنبياء وصبرهم وثباتهم ، فيستيقنون ويصدقون بصحة نبوته .

أما المؤمنون الخلص فان ورود الوحى بأن خزنة سقر تسعة عشر – لا يحيك فى نفوسهم أثرا من شبهة سوى ازدياد الايمان بالله ، والتصديق بوحيه ، وان خفيت عليهم الحكمة فيه ، ولا سيما حين يرون موافقة أهل الكتاب عليه ، واعترافهم بأن فى كتبهم مثله . وهذا معنى قوله تعالى : **(ويزداد الذين آمنوا ايمانا)** .

ويروى أن الصحابة لما سمعوا المشركين يقولون : « لايعجز كل عشرة منا أن يبطشوا بواحد من أولئك

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ

التسعة عشر » ـ قالوا لهم مستهزئين . « ويحكم ! أتقاس الملائكة بالحدادين ؟ » ، ومرادهم بالحدادين السجانون الذين يضعون الحديد فى أيدى المسجونين . وقد ذهب قولهم هذا مثلا فيقال : « لاتقاس الملائكة بالحدادين » فى التفرقة بين اثنين أحدهما طيب والثانى خبيث .

ثم ان استيقان اهل الكتاب وازدياد المؤمنين ايمانا، يفهم منه بالضرورة ، بل يلزم منه عدم ارتياب الفريقين جميعا . ومع هذا فقد اكد الوحى استيقان الأولين وازدياد ايمان الآخرين بالتصريح بذلك اللازم : اعنى عدم الارتياب ونفيه عن الفريقين معا فقال : (**ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**) ، اى أنهم يستيقنون ويزدادون ايمانا ولا يرتابون ، كما تقول لآخر : « انى أبغضك ولا يحبك قلبى » ، فان اثبات البغض يستلزم نفى الحب . لكن العرب فى أساليب تخاطبهم اعتادوا التصريح بذلك اللازم تأكيدا للكلام ، وتقوية للحكم . على أن فى اعادته فى الآية تعريضا بأولئك الكافرين المشاغبين الذين أصبح دابهم الارتياب بالوحى ، وتشكيك الضعفاء فيه .

وكذلك قوله تعالى . (**وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون الخ**) . فان قولهم هذا انما هو أثر من افتتانهم ، ولازم من لوازمه ، ولكنه ذكره ليصف من ذلك الافتتان ، ويروى شيئا من أقوالهم ، وليضيف الى الكافرين صنفا منهم ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، ويعنى بهم المنافقين . وفى ذلك من التفنن فى التعبير ، وزيادة التقريع والتعيير ـ مافيه ، كأنه يقول : كان من نتيجة ذكرنا لعدة الخزنة افتتان أولئك الكافرين وضلالهم ، وقولهم ـ ولا سيما المنافقين منهم ـ : (**ماذا أراد الله بهذا مثلا**) .

و (هذا) اشارة الى « تسعة عشر » فى عدة خزنة سقر ، (المثل) : القول السائر فى الناس ، المتداول على السنتهم ، ولا يكون الا فى أمر ذى شان وخطر ووصف مستغرب . فالمشركون الذين سمعوا الوحى يخبر ان خزنة سقر تسعة عشر ـ تعجبوا منه واستغربوه ، وعدوه فى جملة ما يصح ان يسير مثلا بين الناس ، فقالوا : (ماذا أراد الله الخ) أى ماذا اراد بهذا القول الذى هو مثل فى الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر ، وخزنتها التسعة عشر ؟

قوله (كذلك) اشارة الى ماذكر قبل من الامرين : افتتان الكافرين والمنافقين وارتيابهم بالوحى ، واستيقان الكتابيين والمسلمين وأزديادهم ايمانا به . ولا ريب أن الأولين كانوا من فتنتهم وارتيابهم على ضلال ، وأن الآخرين كانوا من استيقانهم وزيادة ايمانهم على هدى . والله تعالى يضل من يشاء من الخلق ويهدى من يشاء منهم : مثل الاضلال والهداية اللذين كانا من نصيب الفريقين المذكورين .

وليس معنى اضلال الله فريقا وهدايته فريقا : انه تعالى يجبر كل فريق منهما على تناول نصيبه من الضلالة والهدى ، ولا انه تعالى يكرههم على سلوك اى السبيلين شاء من سبيلى الخير والشر ـ كلا . فان هذا الاكراه مناف للعدل الالهى ، بل مناف لحكمة التشريع السماوى ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعيه فى دلالتها على معناها : من ان العبد له ارادة واختيار هما مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابه والسلف يفهمون من تلك النصوص ... سأل سائل عليا عليه السلام فقال : « أكان مسيرك الى الشام ـ يعنى لقتال أهلها ـ بقضاء الله وقدره ؟ » فقال له . « ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرا حاتما ، ولو كان ذلك كذلك ؛ لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . أن الله سبحانه امر عباده تخييرا ، ونهاهم تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ـ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » ا هـ .

وحضر « الواسطى » بعض الأربطة ـ جمع رباط الصوفية ـ فسمع من غنى بقول العباس بن الأحنف :

فأكثروا أو أقلوا من اساءتكم
فكل ذلك محمول على القدر

فجن واستغاث وشق الجيب وحولق واستغفر وقال : « يا قوم ، أما ترون الى العباس بن الأحنف لا يكفيه ان يجن .. حتى يكفر . متى كانت الفضائح والذنوب والعيوب محمولة على القدر ؟ ومتى قدر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها ؟ ولو قدرها كان قد رضى بها ، ولو رضى بها ما عاقب عليها ، ولو قدرها على عبده وعاقب عليها ، كان من الظلم الذى يقبح بالمخلوق . فكيف بالخالق ؟ انا لله ، لعن الله الغزل اذا شبب المجانة ، ولعن المجانة اذا قرنت بما يقدح فى الديانة » .

وما زال يقول هذا واشباهه حتى رد عليه ابو صالح الهاشمى فقال : « هون عليك يا شيخ ، فليس هذا كله على ما تظن ، القدر ياتى على كل شىء ، ويتعلق بكل شىء ، ويجرى على كل شىء ، وبكل شىء ، وهو سر الله المكتوم ، والعلم الذى يحيط بكل شىء ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أن يجرى به قدر ، واذا جاز هذا جاز أن ينشأ عنه خبر ، وما هذا التحارج والتضايق والشاعر يهزل ويجد ، ويقرب ويبعد ، ويصيب ويخطىء ، ولا يؤاخذ به الرجل الديان ، والعالم ذو البيان » اهـ .

أما النصوص التى يشبه ظاهرها ان يكون العبد مكرها لا اختيار له ، وتقول انه تعالى هو الذى يضل ويهدى — فمعناها أنه تعالى يشرع أمام البشر السبيلين: سبيلى الخير والشر ، ويرفع الى ابصارهم النجدين : نجدى الهدى والضلال ، ولكل فريق منهم أن يختار لنفسه مايوافق استعداده وتجره اليه ارادته وتربيته ومزاجه ووراثته وعوامل المحيط الذى يعيش فيه . وهـذا الذى يختاره لنفسه منجذبا اليه بالجواذب المذكورة لا يقع الا منطبقا على ما فى علم الله وارادته ولوح تقديراته ، فلا يمكن أن يختار العبد لنفسه مالا يكون ثابتا فى العلم الأزلى القديم ، وثبوت ذلك فيه لا ينفى عن العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الارادة ، لأن صفة العلم ليست سوى صفة تنكشف بها المعلومات لله تعالى ، فهى لا جبر فيها ولا اكراه . وقد ذكر ابن القيم فى كتاب « القضاء والقدر » نقلا عن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : « القدر علم الله » .

ولما كان مشرع السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ورافع النجدين : نجدى الهدى والضلالة — هو الله سبحانه وتعالى ، قيل فى بعض النصوص : انه هو الذى يضل هذا ويهدى ذاك ، وهو الذى قضى وقدر على زيد بأن يعمل الخير فيكون من اهل السعادة ، وقضى وقدر على عمرو بأن يعمل الشر فيكون من أهل الشقاوة . وقضاؤه تعالى وقدره فينا خفيان عنا معشر البشر ، وانما يظهران لنا ، ويقعان تحت اعيننا ، ماثلين فى سننه الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التى بثها فى جنبات هذا العالم ، وركب بناءه عليها : فكل شخص أو أمة تراعى سننه ونواميسه الحكيمة العادلة — ينساق أو تنساق الى بحابح السعادة والخير ، وكل شخص أو أمة تدابر تلك السنن والنواميس ، وتهمل العمل بها — ينساق أو تنساق الى مواطن التعاسة والشر .

فهذه السنن والنواميس البارزة لنا هى مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هى لعمرى المرايا الصقيلة التى ينعكس عنها الى أبصارنا ما فى اللوح السماوى من حكم الله وارادته ومشيئته فى تدبير هذه الكائنات وفى سعادة البشر وشقاوتهم .

وقد قرر القرآن هـذا الأصل المحكم فى مصير الأفراد والأمم فى غير ما سورة وآية من سوره وآياته . قال تعالى فى سورة الأنفال : (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين) ، وفى سورة الأحزاب (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، وفى سورة فاطر : (فهل ينظرون الا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وآيات اخرى بهـذا المعنى فى الفتح والاسراء والمؤمن والحجر وآل عمران والنساء .

ويظهر من سياق هذه الآيات واطلاق القول فيها أن تلك السنن محكمة لا تنسخ ، مطردة لا تتخلف ، عادلة لا تحابى ، صارمة لا تقبل شفاعة : فمن اتقاها وراعاها من اى قبيل كان ، ومن اى بلاد كان ، ومن اى دين كان — سعد وفاز . ومن استخف بهـا ، وأعرض عنها — شقى وخاب .

فاذا لاحظنا هذا ، ولاحظنا الآيات الناطقة بأن الايمان وحده هو مناط السعادة ، وأن الكفر وحده هو مناط الشقاوة — حكمنا بأن بين هذه السنن وبين الايمان والكفر علاقة متينة ورحما ماسة ، وأن اتقاء هـذه السنن ومراعاتها شعبة من شعب الايمان ، وأن الاستخفاف بها والاعراض عنها شعبة من شعب الكفر .

وهذا الموضوع لا يحتمل كلاما بأكثر مما تكلمنا ، وسر القضاء والقدر لا ينبغى الاشارة اليه بأكثر مما أشرنا . والسعيد من وفق فنظر فى ملكوت السموات والأرض فاتعظ وازدجر ، وتصفح أحوال الشعوب والأمم كما أمره الله فقاس واستنتج واعتبر .

على ان المقام ربما وسع كلمة نحب ألا تفوتنا عملا بما أمرنا به القرآن من النظر فى الأمم وحالاتها ، ثم الاعتبار ببداياتها ونهاياتها ، فنقول :

أشرنا فى أطواء كلامنا السابق الى أن البشر قـد تجذبهم الى سعادتهم أو شقاوتهم « جواذب » ، وان شئت سميتها «عوامل» : من مثل الملة التى يمارسون شعائرها وأحكامها ، والحكومة التى تسيطر عليهم ، والعائلة التى تربى اطفالهم ، والمدرسة التى تعلم أبناءهم ، والمحفل أو النادى الذى يحتشدون فيه للحديث أو السمر أو اللهو أو البيع والشراء أو مختلف الأعمال والمصالح — فالمراد من المحفل أو النادى ما يريده علماء التربية بقولهم « جماعة الأصدقاء والمعاشرين » — والوراثة التى تنقل الى ابدانهم دم آبائهم ومزاجهم وتكوينهم الجسمانى ، كما تنقل الى نفوسهم طباع أولئك الآباء وغرائزهم وأخلاقهم وتكوينهم الروحانى ، والاقليم الذى يشربون ماءه ، ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حره وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته . وهذا المؤثر يسميه علماء علم النفس « البيئة الجغرافية » ، ويسمون العوامل الأخرى « البيئة الاجتماعية » .

هذه « الجواذب » أو « العوامل » هى التى تعمل فى تكوين الأمم ، وهى التى تعرف بهـا حالتها الاجتماعية ، ودرجتها فى سلم المدنية : فان صلحت تلك العوامل واستقامت ، صلحت الأمم واستقامت فى أفرادها وجماعاتها ، اذ ليست الجماعات الا فردا متكررا ، وان ساءت وفسدت ساءت أحوال الأمم ، وانحط شأنها ، وتقهقر عمرانها .

هذه الجواذب هى التى تجتذب البشر الى ملابسة الخير أو مواقعة الشر ، وتقودهم من أيديهم الى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهى التى نستدل بها ، ونمشى على أثرها فى معرفة ما هو قضاء الله وقدره فى هذه الأمة ، أو تلك الأمة .

فمهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وثبات أمرها ، وحسن نظامها — فهناك فوز الأمة

وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣)

وفلاحها ، وتجلى حكم القضاء والقدر فيها . ومهما رأينا من نقص « العوامل » وخطلها ، واضطراب أمرها ، وقبح نظامها — فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها .

هـذه العوامل هى التى يعنى بها الأنبياء والحكماء والمشرعون والعلماء الاجتماعيون ، فيجتهدون فى اصلاحها ، وتقويم اودها ، حبا فى اصلاح اممهم ، وترقية شأن شعوبهم . ولم يأل الدين الاسلامى فى النصح لأبنائه بوجوب توفيرها وتنقيتها من الشوائب ، كى تبقى صالحة لسعادتهم فى دنياهم ، ونجاتهم فى أخراهم .

قد يقال : اذا كانت هذه العوامل هى مظهر قضاء الله وقدره فى البشر ، وعلى سلمها ينزلهم ربهم ويصعدهم ، ويشقيهم ويسعدهم .. فأنى لنا الوصول اليها بالاصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا الا افتئات على القدر ، وتداخل فى وظيفته ؟

والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ، فانها انما أمرتنا بالنظر فى أحوال الأمم والاعتبار بما جرى ، لنتمسك بما كان سببا فى نجاتها وسعادتها ، لنتجنب ما كان سببا فى هلاكها وشقاوتها . ونحن فى كلتا الحالتين بالغون ما قضاه الله وقدره فينا « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وهذه الأمم المعاصرة لنا — معشر المسلمين — ارتفعت وعزت وغلبت بما كان من عنايتها بأمر العوامل المذكورة . فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا نظام قوانين المدرسة والتربية العامة وسائر مقومات الاجتماع — كما كانت عليه فى عصورها الوسطى .

تقول : والاقليم والوراثة كيف يكون اصلاحهما ؟ فأما اصلاح « الاقليم » فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الأشجار ، وانشاء الغابات والحراج ، وحفر الترع ، وجر المياه النقية للشرب .

واما اصلاح « الوراثة » وتحسين حالة النسل والاخلاف ، فقد أخذ الغربيون فى الايام الأخيرة يعتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم اليه العلم الصحيح ، والتجربة القاطعة بشأنه .

وهذا ، أو ذاك ، أو ذلك — مما يدخل تحت الطاقة ، ويستطيعه البشر . وقد اصبحت المكابرة فيه ضربا من الجهل والغباوة بعد مارأينا حسن أثره واضحا جليا فى الامم التى غلبت علينا ، واصبحت المتحكمة فينا .

وعجيب من مسلم أن يجرؤ على القول بأن فى اصلاح الدين ، أو الحكومة ، أونظام العائلة ، أوطريقة التعليم والتأليف ، أو سائر عوامل الحضارة والعمران — مخالفة للدين ، أو تدخلا فى وظيفة القضاء والقدر ، وهذا الشارع الأعظم صلى الله عليه وسلم يجعل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ركنا من أركان الدين ، وليس هو فى الواقع ونفس الأمر الا مراقبة دائمة على الدين والمتدينين به ، فلا يتسرب اليه أو اليهم ماليس منه فى شىء فيفسد ويفسدون .

فالأمر والنهى اذن اصلاح ، والآمرون الناهون مصلحون . وكان بعض العارفين يقول : « ينبغى لأهل كل مذهب فى كل عصر أن يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان » .

ومما يحسن ايراده هنا ان الشارع صلى الله عليه وسلم نبهنا الى تأثير ناموس الوراثة ، وأشار الى أن فى اصلاحه اصلاحا للنسل والذرية مذ قال : «تخيروا لنطفكم ، فان العرق نزاع » ، يريد تزوجوا كرائم النساء ، فان أولادكم من زوجاتكم يرجعون فى طيب الأخلاق وقبحها الى اجدادهم من امهاتهم ، أما رجوعهم فى أخلاقهم الى اجدادهم من جهة آبائهم فبالطريق الأولى . وليس فوق هذا ارشاد وتعليم لنا فى أن نصلح شئوننا ، وعوامل اجتماعنا ، حتى ما يظن أنه مما لا يدخل تحت طاقتنا كمسألة الوراثة هذه . وقال أبو الأسود الدؤلى مخاطبا أولاده :

وأول احسانى اليكم تخيرى
لماجدة الأعراق باد عفافها

وبالجملة فان الدين والعلم والتجربة والمشاهدة اتفقت كلها — وان خالفها الجهل والتقليد والمكابرة — على أن سعادة الأمم وشقاءها أمران ميسوران لها ، داخلان تحت طاقتها . وليس معنى أن الله يضلها ويهديها الا أنه تعالى يمهد تحت مواقع ابصارها طريقى الهدى والضلال : فهى اذا اختارت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وارادته وسابق علمه ، واذا اختارت لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته ايضا بمشيئته تعالى وارادته وسابق علمه . وما احسن ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ، انهما نجدان : نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير ؟ » ، ويشبه هذا ما قاله الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر : « ان الله أراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما أراده منا ؟ » .

واوضح السبل الموصلة الى سعادة الأمم هو اصلاحها دينها : فلا يكون فيه حشو أو بدعة ، أو تكليف مما لم يأت به وحى ، ولا خبر صادق . ثم اصلاح بقية المقومات والعوامل التى قلنا انها هى التى تجذب بضبع الأمم الى مراقى الكمال والعزة والغلبة . كما ان أقرب الطرق التى تأخذ بالأمم توا الى هاوية الذلة والمسكنة والدمار والاضمحلال — هو ترك الدين محشوا بالبدع ، وبما لايرضى الله ورسوله من

الآراء والتعاليم والأقوال البين سقطها ، الظاهر غلطها . ومثل ذلك فى الضرر أن نترك كل قديم على قدمه من أوضاع حكوماتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس والتأليف فى مدارسنا ومؤلفاتنا ، وسائر مقومات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم ايصاله الى بحابح الحياة السعيدة .. فان جميع ذلك سبل ضلال : بسطها الله تحت مواقع أبصارنا ، وبالغ فى تحذيرنا منها فى محكم كتابه . فما علينا الا التنكب عنها ، والاستعاذة به تعالى منها ، فنكون من الفائزين المهتدين ان شاء الله .

بعد أن ذكر الأصل الكلى فى أن سعادة البشر وشقاوتهم أمران مرتبطان بسلوك ما أشرعه الله لهم من طريقى الخير والشر ، وأن ترجيحهم أحد الطريقين مستمد من علم الله الأزلى ومستند الى مشيئته القديمة ، وأن أبا جهل ورفاقه المستهزئين بالوحى القائلين : « أما لرب محمد أعوان الا تسعة عشر ؟ » لم يكونوا من أمرهم على بصيرة ، ولم يختاروا لأنفسهم الا أقبح الخصال ، ولم يسلكوا الا طريق الضلال ـ عاد الى توبيخهم على قولهم المذكور الدال على غباوتهم ، وفرط جهلهم بما يجب لله من التعظيم والتوقير والوقوف عند حدود الأدب ، وتنبيههم الى أن خزنة جهنم ان كانوا تسعة عشر فليس ذلك عن قلة فى جنود الله ، فان جنوده كثيرة لايعلمها الا هو .

و (الجنود) جمع جند ، وهم الأعوان والأنصار والعسكر . وقد يراد من الجند احيانا صنف من الخلق على حدة . يقال « هذا جند من الخلق قد اقبلوا » اى طائفة من الخلق . وفى الحديث :« الأرواح جنود مجندة » . ومنه المثل « ان لله جنودا منها العسل » . وربما كان المعنى الثانى هو المراد فى الآية .

وبديهى أن جنود الله التى يستتب له بها السلطان الالهى فى ملكوته ، والقهر الربانى على ماخلق ويخلق فى عالمى دنياه وآخرته ـ ليست عسكرا حربيا ، ولا جندا بشريا ، وانما هى وسائط اجراء وتنفيذ وتصرف مطلق : منها ما علمناه ووقفنا عليه بالجملة فى هذه الدار ، ومنها مالم نعلمه بعد ولم نكلف البحث عنه ، وهو غيب عنا ، ولكننا نؤمن به وبما ورد على لسان الشارع من أحواله وشئونه على الوجه الذى يليق به ، وينطبق على حكمة خالقه . ومن هذه الجنود أو الوسائط الغيبية : الملائكة .

وكلنا معشر البشر نشعر فى انفسنا أننا مسخرون للقهر الالهى ، وخاضعون الى ما يراد منا فى هذه الدار الدنيا . وقد أخبر الوحى الصادق ان لله جنودا جعلها وسائط فى تنفيذ مشيئته ، وتتميم ارادته فى خلقه . وقد سمى تلك الوسائط ملائكة . وكما قامت هذه الوسائط فى ايفاء وظيفتها فى هذه الدار ستقوم بمثل هذه الوظيفة فى الدار الأخرى على النحو الذى يريده الله تعالى ، ويناسب حال تلك النشأة .

ولماذا رأى أولئك المستهزئون المكذبون تحديد عدة خزنة جهنم بتسعة عشر امرا غريبا ، وهو شأن من شئون عالم آخر له سنن ونواميس خاصة به ، ولا يستغربون من عالمهم هذا ـ الذى خلقوا من طينته ـ أحواله العجيبة ، وأطواره الغريبة ؟ وهذه قواته المختلفة ، وعناصره المتعددة ، وما شاء الله من مواده ومعادنه ، وحيوانه ونباته ، وشموسه وأقماره ، وثوابته وسياراته ـ ولكل منها عدد خاص ، ونسب معينة ، ومقادير محدودة ، وتراكيب معلومة ـ فلا نسمعهم يسألون لماذا كانت البروج اثنى عشر ولم تكن اكثر أو أقل ؟ ولماذا كانت حلقات زحل ثلاثا ولم تكن خمسا ؟ وأقماره ثمانية ولم تكن عشرة ؟ وألوان الشمس سبعة ولم تكن عشرين ؟ ولماذا كان الملح مركبا من عنصرين فقط اذا انحلا وتفرقا ضرا وافسدا ، واذا اتحدا وتركبا نفعا وأصلحا ؟ ولم يكن المقدار والخاصة على خلاف ذلك ؟ وهكذا مما لايكون السؤال عن سره الا ضربا من العنت والمماحكة ، وطمع المخلوق فيما كان من خصائص الخالق .

لقد غفل المشركون المستهزئون عن سر التشريع الالهى ، وذهلوا عن الحكمة فى انزال الوحى السماوى **(وما هى)** اى تلك الحكمة التى أنزل القرآن من أجلها **(الا ذكرى)** وموعظة **(للبشر)** ، فيخافون ربهم ، ويتحاجزون بينهم ، وتنتظم أحوالهم ، ويسعدون فى دنياهم واخراهم . ولم تكن الحكمة قط افهام البشر حقائق النشأة الأخرى ، وجعلهم يدركون أحوالها وقوانينها بالكنه ، فان هذا غير مستطاع لهم ، وتعقله لايدخل تحت مقدورهم .

والضمير فى قوله (وما هى) يرجع الى الآيات السابقة وما أشبهها مما فيه بعض الوصف لعوالم الغيب ، أو انه يرجع الى الحكمة المفهومة للمخاطب بمعونة المقام كما أشرنا اليه فى حل الآية . وارجاع الضمير الى غير مذكور كثير فى القرآن وفى كلام العرب ومثله قول ابى نواس :

الا يا ابن الذين فنوا وماتوا
أما والله ما ماتوا لتبقى
وما لك فاعلمن فيها مقام
اذا استكملت آجالا ورزقا

أو ان الضمير يرجع الى الحكاية والشأن والقصة ، وهو مايسميه النحاة ضمير الشأن والقصة .

تقدم أن **(كلا)** كلمة ردع وزجر ، فالمعنى ليرتدع أولئك المستهزئون بالوحى ـ الذين اتخذوا من ذكر عدة خزنة سقر سبيلا الى انكارها ، والتشكيك فيها ـ عن فعلهم وسوء صنيعهم .

ثم اقسم بالقمر ان سقر حق ، وانها احدى الدواهى التى يمنى بها أولئك المكذبون . وقد تقدم بيان الحكمة فى اقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته والسر فيه ، أما قسمه هنا بالقمر والليل والصبح ـ فلتنبيه الأنام الى ما فى خلقها من جميل الصنع ، وبديع الاحكام ، وما قارن ذلك من الرفق بهم وتقسيم

وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ

أوقاتهم ، وتقدير اعمالهم ، بما فيه كل الخير والنفع لهم .

وفى الآية ايماء الى ان الشمس والقمر مخلوقان لله ، وانهما فى حركاتهما ، وادبارهما واسفارهما ، ونشوء الليل والنهار منهما — مسخران لأمره ، ساجدان بين يدى قدرته وقهره ، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ، ويكفروا بالاله الذى خلقهما ؟

وقوله (**اذ أدبر**) قرىء هكذا ، وقرىء ايضا (اذا دبر) و (اذا أدبر) ، ولا فرق بين دبر وادبر فى المعنى : يقال : دبر النهار أو الصيف — اذا انصرم . ودبر فلان : ولى ، كأدبر . واستعماله من دون همز قليل سوى قولهم : « أمس الدابر » . فانه شائع .

يقسم تعالى بادبار الليل ، واقبال النهار . وهذا معنى (**والصبح اذا أسفر**) ، أى أضاء وتبلج ، وقال بعض أهل اللغة : ان من قرأ (دبر) بلا همز أراد انها من دبر الليل النهار اذا خلفه وأتى على أثره ، ودبر فلان فلانا اذا جاء خلفه ، فهو تعالى يقسم بالليل مذ يعقب النهار ، وبالنهار مذ يسفر عقب الليل .

وضمير (**انها**) يرجع الى سقر كما مرت الاشارة اليه ، وقوله (**الكبر**) جمع الكبرى مؤنث الاكبر ، وتجمع الكبرى على كبريات ايضا ، أى أن سقر المعدة للمكذبين احدى الدواهى الكبار والأمور العظام التى ما اعتادوا بعد رؤية امثالها ، فهى واحدة من بينهن لانظير لها فى العظم والهول كما تقول : صاحبك فلان أحد الرجال ، ولا تريد الا أنه واحد من دهاتهم وشياطينهم .

وقوله : (**نذيرا للبشر**) . (نذيرا) اما ان تكون مصدرا غير قياسى لأنذر انذارا ونذيرا ، كما يقال أوعد ايعادا ووعيدا ، وأعولت المرأة أعوالا وعويلا ، وتعرب تمييزا . أى أن سقر احدى الكبر من جهة تخويفها وانذارها للبشر ، كقولهم : فلانة أحدى النساء عفافا ، يريدون ان لها شأنا بينهن ورجحانا عليهن من جهة عفافها ، واما أن تكون اسم فاعل على غير قياس أيضا لأنذره فهو منذر ونذير كما يقال : آلمه العذاب فهو مؤلم

واليم ، وأوجعه الضرب فهو موجع ووجيع ، ويعرب (نذيرا) اذ ذاك حالا من (احدى الكبر) على ارادة معنى العذاب فيها لكى يصح مجىء (نذيرا) حالا منها ، والا وجب ان يقال : نذيرة ، بالتأنيث لكونه وصفا لاحدى الكبر المؤنث . وليس « نذير » مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، لأنه بمعنى اسم الفاعل لا بمعنى اسم المفعول . فالله تعالى يقسم بأن سقرهى احدى البلايا أو الدواهى العظام منذرة للبشر ، محذرة لهم نفسها ، وقوة بطشها . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : « والله ما أنذر الناس بشىء أدهى منها ولا بداهية اعظم منها » .

وبعد ان عم فى كلمة (البشر) ، عاد فخص منهم أولئك الذين يهمهم شأن أنفسهم ، وينظرون فى مستقبل أمرهم ، وهم موضع الخطاب ، ومحط الأمل ، فقال : (**لمن شاء منكم**) الخ .

وقوله (لمن) بدل من (للبشر) ، أى أن سقر منذرة لكم أيها البشر وخاصة (**لمن شاء منكم أن يتقدم**) فيكون سابقا الى الخير وممارسة الفضيلة فينجو ، (**أو يتأخر**) فيخلد الى الشر وممارسة الرذيلة فيهلك .

وجعل بعض المفسرين قوله (**لمن شاء**) الخ مستأنفا لا بدلا مما قبله ، على أن يكون بمعنى قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، وقال فى اعرابه : (أن يتقدم أو يتأخر) مصدر مؤول مبتدأ ، وقوله : (لمن شاء منكم) خبره مقدم عليه . والمعنى انكم معشر البشر — بعد أن اعذر الوحى اليكم ، والقى من كلمات النصح والانذار ما القى عليكم — لم يبق الا أن تستعملوا عقولكم ، وتستفيدوا من المشيئة والاختيار الممنوحين لكم ، فتختاروا لأنفسكم من الخير والطاعة ماهو المأمول فيكم ، والأليق بكم . فان كلا من التقدم الى الخير ، والتأخر عن الشر — أمر ميسر لكم ، ممهد أمامكم ، منوط بحسن اختياركم فان لم تتقدموا الى الخير كنتم الجانين على أنفسكم .

وحمل الآية على هذا المعنى له تعلق كبير بآية (يضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء) الواقعة قبلها قريبا منها ، ومفسرة لها بالمعنى الذى قلناه فى تفسيرها : من أن للانسان ارادة واختيارا وهما مناط التكليف والمؤاخذة ، وان ما يوهم الجبر والاكراه محمول على أنه تعالى أشرع أمام البشر طريقى الخير والشر ، وان سلوك المرء فى أحدهما مطابق لعلم الله الأزلى ، ومستمد من مشيئته القديمة .

ثم ان المعنيين اللذين قلناهما فى هذه الآية يظهر أنهما يصلحان فى آية سورة « التكوير » : (ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم) ، لكنى لم أرهم تعرضوا لغير المعنى الأول ، وهو أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للعالمين) لا مستأنفا كما قالوا باحتماله هنا .

مر أن آيات الوحى أنذرت الانسان ، فما عليه اذن الا أن يفعل مايعن له ، من التقدم الى الخير أو

التأخر عنه الى الشر ، وليكن على ثقة انه اذا اختار الشر ومقارفة الاثم فليس بمعجز الله ، ولا بمفلت من أن يحاسبه على عمله ، ويأخذه بذنبه ، اذ **(كل نفس)** من نفوس البشر ارتكبت ذنبا أو اقترفت اثما ، هى **(بما كسبت)** ، أى ارتكبت واقترفت من ذلك الذنب والاثم **(رهينة)** ، أى مرهونة ومحبوسة يوم القيامة فى مقابل ذنبها حتى تعاقب عليه ، واكثر المفسرين على أن (رهينة) ليست مؤنث رهين بمعنى مرهون ، لأن رهين هذا يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فلا حاجة الى أن يقال فى تأنيثه (رهينة) ، وانما هى مصدر . يقال : رهنه رهنا ورهينة كما يقال شتمه شتما وشتيمة ، والمصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، ثم أطلق المصدر على الشىء المرهون وثيقة لشىء آخر ، فيقال : فلان رهن أو رهينة أو مرتهن بجريرته كما يقال هو مسلم بها ومبسل بها ، وكله بمعنى أنه مأخوذ بها ولا فكاك منها . فنفوس البشر يوم القيامة مصبورة على معاقبتها والاقتصاص منها ، فتدخل دار العذاب غير مفكوكة **(الا أصحاب اليمين)** ، أى الا فريق السعداء . وقد مر أن أهل اليمين والميمنة عنوان يطلقه الشرع على السعداء كما يطلق أصحاب المشأمة والشمال على الأشقياء . فالسعداء هؤلاء فكوا رقابهم وخلصوها كما يخلص الراهن رهنه بأداء ما عليه من الحق ، وأصبحوا فى منجاة من العذاب على ذنوبهم : اما لأنهم لم يقترفوا ذنوبا يستحقون معها العذاب ، بأن كانوا من الصديقين أو الأبرار ، واما لأنهم اقترفوا من الذنوب مالم يبلغ بهم حد التعذيب عليها ، بأن تابوا منها توبة نصوحا فغفرها الله لهم ، أو عملوا من الصالحات ما أربى ثوابه على تلك الذنوب : كالاستشهاد فى سبيل الله ونصرة الحق ، فكان ذلك كفارة لها .

هؤلاء ينعمون **(فى جنات)** : مواطن كرامة وسعادة لا نظير لها ، ولذا نكرها ، ويكون من شأنهم فيها انهم **(يتساءلون)** : يسأل بعضهم بعضا **(عن المجرمين)** المذنبين الذين يعهدونهم فى دار الدنيا قد كذبوا الوحى ، وأعرضوا عن الحق ، وارتكبوا من الآثام والمناكر ما استحقوا به العذاب .

وتساؤل أصحاب اليمين عن المجرمين قد لايكون عن جهل بأمر مصيرهم ، وسوء منقلبهم ، وانما هو زيادة فى تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم ، وادخال الألم والحسرة على نفوسهم ، مذ يتذكرون أن أسباب النجاة كانت موفرة بين أيديهم فى دار الدنيا فأهملوها ، وسبل الأعمال الصالحة كانت ممهدة تحت مواقع أبصارهم فتنكبوها . على أن فى تساؤل السعداء هذا السؤال مايزيدهم التذاذا بنعيمهم ، ومسرة بما وفقوا اليه من العمل الصالح فى دار الدنيا فسعدوا ونجوا من العذاب .

فاذا تساءلوا عن حال المجرمين كما وصفنا ، أجابهم بعض المسئولين من رفاقهم السعداء بما كان سبق لهم من الحوار مع هؤلاء المجرمين المعذبين فيقولون لهم : كنا أشرفنا على المجرمين يوما وسألناهم عن حالهم ، قائلين لهم : **(ماسلككم فى سقر)** وما الذنب الذى أدخلكموها ؟ فالخطاب فى (ما سلككم) ، انما هو مستند الى سابق كلام مقدر قبله ، وقد حذف اختصارا واعتمادا على فهم المخاطب ، ومثله كثير فى القرآن ، وهو من أعجب أساليب اعجازه ، ولولا هذا التقدير لكان الظاهر الغيبة : على معنى أن السعداء يسأل بعضهم بعضا ما سلكهم ، أى سلك المجرمين فى سقر . ولهذا الايجاز نظائر فى أقوال العرب وأشعارهم ، من ذلك قول حاتم الطائى :

لكل امرىء نفسان : نفس كريمة
ونفس ... فيعصى نفسه ويطيعها

واصل الشعر مع المحذوف منه هكذا (لكل امرىء نفسان : نفس كريمة ونفس لئيمة : فهو تارة يعصى نفسه الكريمة ويطيعها ، وطورا يعصى نفسه اللئيمة ويطيعها) .

فالمذكور فى الكلام تسع كلمات ، والمحذوف منه تسع أيضا بقدر ما ذكر . ومنه أيضا قول الآخر :

شهور ينقضين وما شعرنا
بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل
وأطيب مايكون من النهار

أى وأما نهارهن فأطيب الخ .

ويمكن ابقاء الخطاب فى (ما سلككم) على ظاهره ، على معنى أن السعداء (يتساءلون عن المجرمين) المعذبين فيما بينهم ثم يعرجون على مقرهم من دار العذاب فيسألونهم عن حالتهم مواجهة قائلين لهم : (ماسلككم فى سقر ؟) . وفى هذا التوجيه حذف أيضا بضع كلمات كما حذف فى التوجيه الأول .

(قالوا) الخ ، هذا جواب المجرمين لأصحاب اليمين الذين سألوهم عن الذنب الذى أدخلهم سقر . والصلاة فى اللغة : الدعاء والدين والاستغفار ، ثم غلبت فى العبادة المعروفة ذات الركوع والسجود . فقول المجرمين انهم لم يكونوا من المصلين — الأشبه أن يكون معناه لم نكن من أهل الدعاء والدين الذى يرضى الله تعالى وهو دين الاسلام . وقد مر أن الدعاء قلما يذكر فى القرآن الا مرادا به العبادة ، والله تعالى انما يحكى فى هذه الآيات عن أبى جهل وأضرابه من سادات قريش السابحين فى الشرك والضلالة وعبادة غير الله ، فهم — بأن تطلب منهم فى أول الأمر الصلاة بمعنى الدين والدعاء والعبادة — أجدر من أن تطلب منهم الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود . على أن هذه الصلاة لم تكن فرضت يومئذ ، وانما فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة بسنة ، وبعد بعثته باثنتى عشرة سنة ، وسورتنا هذه (يأيها المدثر) مكية ، بل من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم كما مر . فالمجرمون المخاطبون بها لم يكونوا مكلفين حين نزولها الا الصلاة بمعنى الدين والعبادة ، ويشد ذلك قول هؤلاء المجرمين عن أنفسهم انهم كانوا يكذبون بيوم الدين . والوحى فى عشر السنوات الأولى التى قضاها صلى الله عليه

ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾

وسلم في مكة بين أظهر المشركين انما كان غرضه أمرين : (١) اثبات التوحيد والعبادة لله دون المعبودات الأخرى (٢) اثبات البعث والحساب . وقول المجرمين « ما كانوا من المصلين وانهم كانوا من المكذبين بيوم الدين » يلتحم مع الغرضين المذكورين اذا قسرنا الصلاة بالدين والعبادة .

وسمي يوم القيامة « يوم الدين » ؛ لأن فيه يقع الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، وكل هذا من معاني كلمة الدين . ويسمى أيضا يوم الدينونة أى الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهار والمجازى والقاضي . قالوا : « وكان علي بن أبي طالب رضى الله عنه ديان هذه الأمة بعد نبيها » ، أى تفرد بمزية القضاء والحذق في فصل الخصومات بعده عليه الصلاة والسلام .

ذكر المجرمون من خصالهم البشعة التى استحقوا بها دخول سقر ــ أربع خصال : خصلتين تتعلقان بالعقائد وهما الشرك وانكار البعث ، وخصلتين تتعلقان بالأخلاق ، وهما البخل والخوض في الباطل .

وكان القوم في جاهليتهم يبذرون أموالهم في السفه والقمار ومنافسة بعضهم بعضا فيما لا يفيد ولا ينفع ولا يظهر له أثر في مصالحهم الاجتماعية ، ولا سيما كفاية المساكين وسد جوعتهم وتخفيف الم البؤس عنهم . فهؤلاء المجرمون ما كانوا يطعمون المساكين ، وما كانوا ينفقون فيما بينهم على سد هذا الخلل ، وملافاة ذلك الشر : أعني البؤس والفقر الذى اذا فشا في قوم أفسد أخلاقهم ، وقطع روابطهم ، وعرضهم للشر من الأمراض الجسمية والاجتماعية والسياسية . ومعضلة أوربا اليوم انما هي الفوضوية ، ولم يولدها فيهم الا استئثار حامتهم وذوى الدهاء فيهم بالأموال الطائلة ، واحتجانها عن عامتهم وسواد أمتهم . وأن معظم اهتمام عقلائهم في هذه الأيام في تسوية هذه المشكلة ، وحل تلك المعضلة .

وانما اقتصر المجرمون من أمر العناية بالمساكين على ذكر عدم اطعامهم لأن القوت أهم ما يحتاجون اليه في قيام حياتهم ، والا فان الاسلام يأمر بمواساتهم ، والرفق بهم ، وايصال أى ضرب من ضروب الخير اليهم ، وقد مر في سورة الحاقة شيء من هذا عند قوله تعالى : (ولا يحض على طعام المسكين) .

أما الخصلة الأخلاقية الثانية التى اعترف المجرمون بأنهم كانوا اقترفوها في دنياهم فهي الخوض في الباطل ، والاجتماع على الغيبة والنميمة ، والافساد في الأرض ، وتدبير المكايد لأهل الحق ، وتأريث نار الفتن بينهم : مما يؤدى الى تسلط الأشرار ، وخراب الديار ، وسقوط جماعات البشر في مهاوى الشقاء والبوار . فهم يعترفون بأنهم ما كانوا يجتمعون في أنديتهم للمذاكرة فيما يفيد وينفع ويصلح ، وانما كانوا يجتمعون للخوض فيما يضر ويعر ويفسد .

وأصل (الخوض) الذهاب في الماء ، ثم نقل الى الذهاب في الكلام والأخذ بأطراف الحديث ، ثم غلب على الاكثار من باطل الكلام وما لا يفيد من الحديث . وقلما ذكر الخوض في القرآن الا مرادا به هذا المعنى وان لم يذكر مفعوله . ومثله في ذلك « أسمعه » فانهم يريدون أنه أسمعه ما يكره من القول وان لم يذكروا ذلك ، و « ذكره » فانهم يريدون به أحيانا أنه عابه وتكلم في حقه بسوء وان لم يذكروا ذلك ايضا . ومنه قوله تعالى : (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وكانوا سمعوه يعيب أصنامهم .

قال المجرمون : اننا ما زلنا في دنيانا نشرك بالله ، ونكذب بالمعاد ، ونرتكب من مساوىء الأخلاق أنكرها وأبشعها ، كالقسوة على المساكين ، والانهماك في الأباطيل **(حتى أتانا اليقين)** : العذاب الحق الذى نقاسيه اليوم ، أو المراد باليقين الموت الذى توقن به كل نفس ، وفيه ايماء الى أنهم كانوا في غفلة عنه ، وأنهم لانهماكهم في الباطل كانوا على شك منه .

ثم لما أنهى القوم حديثهم عقبه الوحي بأن هؤلاء المجرمين المرتكبين ما ذكر من منكر الأعمال لا منقذ ينقذهم من صب سوط العذاب عليهم ، ولا وسيلة من وسائل النجاة تحول بينهم وبين انفاذ العدل الالهى فيهم . فقال : **(فما تنفعهم شفاعة الشافعين)** .

و (الشفاعة) في المجرمين لدى الحكام : اما أن يكون الحامل عليها الكفكفة من ظلم أولئك الحكام ، وتخطيهم حدود العدل في حكمهم ؛ واما أن يكون الحكم أصاب مقطعه من العدل غير أن للمحكوم عليه في رأى الشفعاء مزية تقتضى الرفق به ، والعفو عنه . والأول لا يتصور في جانب الألوهية ، ولا يجوز أن يقال انه تعالى جار أو ظلم في الحكم على المجرمين ، وأن هؤلاء الشفعاء يتوسطون في ازالة ذلك الظلم عنهم . أما الثاني ــ وهو عفو الحاكم عن المجرم رحمة به وشفقة عليه ــ فان هذا ممكن الوقوع في جانب الالوهية بعد أن يأذن به سبحانه وتعالى (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) . ولكن هذا الفريق من المجرمين الذين وصفوا بما ذكره الوحي لا يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم . فليعلم اذن من كان على شاكلتهم من الناس هذا الأمر ، ولا يعتمد على الشفاعة ، وانما عليهم أن يعتمدوا على التوبة والانابة الى الله ، فهي وحدها التى تنجيهم من من العذاب .

وهذا لايمنعنا أن نقول انه ما أضر بمصالح المسلمين وافسد حالهم ، وأخر عمرانهم ، وأوهن عزائمهم عن العمل بأوامر القرآن والخوف من زواجره ، وجعلهم يتسامحون فيما تسامحوا به : مما أصبح أمره متعالما معروفا ، وعلى أسلات الألسنة والأقلام مذكوراً وموصوفاً — شيء مثل سوء فهمهم الشفاعات وتخدر أعصابهم بالمدد والبركات ، ونفوذ سلطة الكرامات ، بل التلعب احيانا فى فهم الآيات البينات . فقول قائلهم : « اذا قال لى ربى يوم القيامة : ماغرك بربك الكريم ؟ اقول له غرنى كرمك يارب » — ذهاب فى فهم كلمات اللغة غير مذاهبها ، وحمل للكرم على معناه فى لغتهم لا فى لغة العرب ، والا فان معنى الكرم فى اللغة ان يبلغ المرء الكمال فى الأخلاق والسجايا . وكرم الله كماله فى صفاته القديمة التى منها العدل والحق وصدق الوعد واطراد السنن والنواميس الأزلية اطرادا عليه تقوم السموات والأرض ، ويتحقق ما فى الوحى الالهى من واجب وفرض بحيث يظهر أثر ارشاده وتعليمه فى نفوس العاملين به ، والسالكين فى طريقه . اما أن المراد بكرم الله الكرم الذى قد يكون فى بعض الأمراء والسادات : ترتكب اليهم كل جناية مخربة ، وتمارس بين ظهرانيهم كل رذيلة بشعة مفسدة ، ثم يعفو ذلك السيد عن صاحبها فلا يهاج ، ويحلم عليه فلا يمس بعقوبة ولا ازعاج — فان هذا غير مراد بالآية ، وليس كرمه سبحانه وتعالى هذا النوع من الكرم . نعم انه تعالى مطلق التصرف فى خلقه يحكم مايشاء ويفعل مايريد ، ولكنه سبحانه وتعالى وصف ذاته القديمة ايضا بأنه حكيم قيوم صادق الوعد والوعيد لاتتبدل سننه ، ولا تتغير نواميسه . ولا نقول هذا تعطيلا لمنطوق النصوص الأخرى الدالة على شمول عفوه سبحانه عن المذنبين ، وقبوله شفاعة بعض الشافعين ، وانما نرى أن نقف ازاء هذه النصوص وقفة تحفظ ، فلا نؤمن الا بما صح وثبت منها ، ثم نقف ازاء هذا الصحيح الثابت وقفتنا أمام المتشابه تقريبا ، فنقول : انه سبحانه وتعالى يقبل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من المقربين قبولا يدل على علو مقامهم ، وعظيم منزلتهم عند ربهم ، ويلتئم مع حكمته تعالى وعدله ، واطراد سننه ، وصدقه فى وحيه : من حيث يؤدى اتباع هذا الوحى الصادق الى قيام أمر العالم ، وانتظام شمل الأمم ، واستقرار الخير والعمل الصالح فيهم ، واستتباب العدل والحق بينهم .

وأما اذا صدقنا كل مايقال ويروى بشأن الشفاعة فى المجرمين والآثمين ، والتوسط فى العفو والصفح عن المخربين المفسدين — فان الوحى السماوى الصادق يضعف اذ ذاك تأثيره فى نفوس المخاطبين ، كما وقع وشاهدنا أثره عيانا فى المسلمين . فانظر اليهم اليوم وقد أتاهم اليقين ، هل قبلت منهم معذرة ، أو نفعتهم شفاعة الشافعين ؟ ؟

قوله **(فما لهم)** الخ تفريع على قوله قبله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين.) ، أى اذا كانت السنة الالهية فى المجرمين المكذبين ماذكر من ارتهانهم بما كسبوا من أعمالهم ، وعدم قبول شفاعة الشافعين فيهم — فما بالهم يعرضون عن التذكرة يعنى عن القرآن وآياته التى أنزلت لوعظهم وتذكيرهم ، فلا يتدبرونها ، ولا يهتدون بهديها ؟

ثم وصف اعراضهم عن القرآن وتباعدهم عن استماعه ، ونفورهم ممن يدعوهم الى الانتفاع به ، فقال : هم من هذه الجهة **(كأنهم حمر)** جمع حمار ، والمراد بها حمر الوحش ، فان العرب كثيرا مايضربونها مثلا فى النفار والشرود ، ولا سيما اذا نجم لها شاخص ، أو أراد أن يقنصها قانص ، وقوله **(مستنفرة)** بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت النفار من نفسها ، وتكلفته تكلفا ، فيكون ذلك أشد فى عدوها ، وابعد فى نفارها . ومن قرأها بفتح الفاء أراد انها قد نفرها منفر ، وحملها على العدو حامل . ثم ذكر السبب الذى دعاها الى النفار فقال : **(فرت من قسورة)** . والمشهور المتبادر من معنى (القسورة) انه الأسد ، مشتق من القسر ، وهو القهر والغلبة . يقال : ليوث قساور . ويحتمل أن يكون المراد بالقسورة جماعة الرماة الذين يتتبعون حمر الوحش والوعول لصيدها وقنصها . والمعنى الأول أشهر كما قلنا : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى : **(فرت من قسورة)** ، فقال : هو بالعربية « الأسد » : وبالفارسية « شير » ، وبالنبطية « اريا » ، وبالحبشية « قسورة » ، فالقسورة على قوله معربة وليست بعربية الأصل .

ثم وصف الوحى من حال اولئك المكذبين ماهو اشد غرابة من حالة اعراضهم عن القرآن فقال : **(بل يريد كل امرىء منهم)** الخ كأنه يقول : دع عنك ذكر اعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم وهداهم ، واستمع ماهو أعجب وأغرب : ذلك انهم (يريد كل امرىء منهم) أى من أى من اولئك المعرضين **(أن يؤتى صحفا منشرة)** مكان القرآن . فيشبه حالهم ان يكونوا يعلمون أن القرآن من عند الله لكنهم يعرضون عنه ، وينفرون من سماعه ، اذ لم يؤت كل واحد منهم صحيفة خاصة به ، تنشر بين يديه ، ليؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن هذا الاقتراح والاشتراط فى تصديقهم بالقرآن وبالنبى عليه السلام أغرب من اعراضهم عن سماع القرآن ، ومن ثم عطف جملة (يريد كل امرىء منهم) على ماقبلها ببل التى تفيد الاضراب والانتقال الى ماهو أهم وأجدر بالذكر .

و (الصحف) : القراطيس التى تكتب وتتداولها أيدى الناس يقرءونها وينظرون مافيها . و (المنشرة) : المبسوطة المفتوحة تحت أبصارهم : يقال نشر الثوب ونحوه اذا بسطه ، ويقولون « صحف منشرة ، وملاء منشر » ، أى منشور ومبسوط . والملاء جمع ملاءة : الثوب المعروف ، ويقول لها العامة : ملاية .

واختلفوا فى أولئك المعرضين عن التذكرة كيف كانوا يوردون اقتراحهم بشأن الصحف المنشرة ، فروى أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : « انا لن

كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب يكتب فى السماء وينزل به الملك ساعة كتب غضا رطبا منشورا لم يطو بعد ، عنوانه : من رب العالمين الى فلان بن فلان . اتبع محمد بن عبد الله » . ويؤيد هذه الرواية آية (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) . وقيل انهم قالوا له : « ان سرك أن نتبعك فليصبح كل واحد منا فيرى عند رأسه صحيفة منشورة فيها تأمينه من النار » ، يعنى أنهم يريدون أن يؤتوا ببراءة من عذاب جهنم قبل أن يعملوا العمل المنجى منها . وهذا دأب قصار النظر الذين يطلبون النهاية فى البداية ، ويريدون بلوغ الغاية قبل تكلف المسير اليها. ولما كان فعلهم هذا دالا على مكابرتهم وفساد رأيهم زجرهم عنه بكلا ، فقال تعالى : (كلا بل لا يخافون الآخرة) الخ .

(**كلا**) ، أى ليرتدعوا عن رأيهم الفاسد فى أمثال هذه الاقتراحات ولا يحسبوا أن دعواهم أن يتبعوا رسولنا ، ويصدقوا وحينا ، ان هم أوتوا الصحف المنشرة ــ تروج علينا ، فالأمر ليس كذلك ، (**بل**) هم قوم (**لايخافون الآخرة**) ، ولا يصدقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بدارى النعيم والعذاب . وهذا هو الذى أفسدهم ، وجعلهم يعرضون عن التذكرة والانتفاع بها . ولو أنهم خافوا الآخرة لصدقوا تلك التذكرة ، وأغناهم ذلك عن الصحف المنشرة . فطلب الصحف المنشرة على الوجه الذى سبق انما كان خداعا وتمويها واضاعة وقت . ولشد ما نهاهم القرآن عن اقتراح آيات وعجائب امثال ذلك ، ووبخهم على تكليفه صلى الله عليه وسلم الاتيان بها ، وقال لهم : ان القرآن وما فيه من الهدى والحكمة والارشاد هو الآية الساطعة ، والحجة القاطعة ، على صدق محمد ، وأنه مرسل من عند الله ، فلا ينبغى لعاقل أن يطلب من الطبيب شهادة على صحة دعواه وحذقه فى صناعة الطب من مثل انزال صحيفة من السماء ، أو تفجير ينبوع من الأرض بعد أن يكون الطبيب أقام دليلا على دعواه ، وثبتا على مهارته ــ شفاءه الأمراض ، وابراء ذوى العلل والعاهات .

وهكذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم فى هداية الناس بالقرآن وما أودعه من الحكم والعبر ، وبما فطرت عليه ذاته الشريفة من الأخلاق الفاضلة ، والسجايا العالية .. كل ذلك كأن أكبر آية على صدق دعوته ، وأوضح معجزة على استقامة محجته . فما بال هؤلاء القوم يقترحون عليه الاتيان بالغرائب والعجائب ؟ أولا يعلمون أن دورها ذهب مع أدوار الأمم القديمة وقت أن كان السحر والشعوذة والطلسمات والكهانة ، واستخدام الجان ، وتسخير الشيطان واخراجه من بدن الانسان ــ ركنا من أركان دياناتهم ، وشعبة من شعب شرائعهم وتعاليمهم ؟ أما وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وأطلقت العقول من عقل الأوهام ، واستعد البشر بمجموعهم لدخول فى طور كريم من التشريع والهداية والتعليم ــ فان الوحى لم يعد يجيبهم الى كل ماكانوا يقترحون ويسألون ، بل كانوا اذا اقترحوا شيئا أحالهم على القرآن وما فيه من الهداية العملية المجربة فى استصلاح نوع الانسان . على أن الوحى لو كان يجيبهم الى أى اقتراح اقترحوه ــ وهم من العناد والمكابرة على ماكانوا عليه ــ لاقترحوا أمرا آخر وهكذا . ومن أجل ذلك رد الوحى عليهم اقتراحهم الصحف المنشرة ، فقال فى أوائل سورة الأنعام : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) .

زجرهم أولا بقوله (كلا) عن اقتراح أمثال الصحف المنشرة ، وأشار فى قوله (بل لايخافون الآخرة) الى انه لم تحملهم على اقتراح الصحف رغبتهم فى التذكرة ، بل كان الصارف الحقيقى لهم عنها عدم خوفهم من الآخرة . ثم عاد فزجرهم عن كل أعمالهم ومجموع مزاعمهم فقال (**كلا انه تذكرة**) أى فليرتدعوا عما هم عليه من الاستخفاف بأمر الآخرة ، وعدم الخوف منها ، واعراضهم عن التذكزة ، والتصديق بها ، وادعاء أنهم ان أجيبوا الى مقترحهم ، وأعطوا الصحف المنشرة ــ آمنوا ، ليرتدعوا عن ذلك جميعه . ثم بين سبب وجوب ارتداعهم مشيرا الى ان شأن محمد والقرآن الذى أتاهم به فتلتل نفوسهم ، وارمض قلوبهم ــ فوق أوهامهم ، وفوق مايتصورون ، فقال : (انه تذكرة) ، أى أن ذلك الذى أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضهم على تصديقه ، وترك الاعراض عنه ــ ليس سوى تذكرة لهم : تذكرهم بما يجب عليهم من الايمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وتنذرهم ان كذبوا واستكبروا عذاب يوم عظيم . فالضمير فى قوله (انه) يرجع الى ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى والقرآن المفهوم بمعونة المقام . وكان سبق فعبر عنه بالتذكرة مذ قال : (فما لهم عن التذكرة معرضين) ، أى عن القرآن والوحى . وقد سماه فى هذه الآية تذكرة لما فيه من التذكير والانذار والتحذير .

ثم عاد أخيرا بعد مازجر المعرضين عن التذكرة زجرا عاما فأكد لهم أمر القرآن والوحى الذى أعرضوا عنه ، ملقبا له مرة ثانية بأنه تذكرة وارشاد للبشر ، ليس له وصف سوى ذلك : فما هو سحر يؤثر ، ولا قول البشر كما زعموا ، فلماذا يعرضون عنه ، ويتشاءمون به ، ويرتابون فى نصحه ، ولم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم منهم عليه أجرا ، ولا كلفهم عطاء أو منصبا يكون لأولاده من بعده ذخرا ؟ فهو محض خير لهم ، وكل نفعه عائد عليهم .

وفى ختمه السورة بقوله ان القرآن تذكرة ربط لنهايتها ببدايتها ، وتذكير بموضوعها الذى سبق فى

فاتحتها ، وهو الانذار بالقرآن مذ قال : (يأيها المدثر قم فأنذر) ، أى خوف قومك بالقرآن . فهو هنايقول : ان ذلك الذى أمرتك بالانذار به فى أول السورة ليس سوى تذكرة بالغة للقوم ، وارشاد وموعظة لهم . وهى لعمرى كافية فى اصلاح أمرهم اذا تدبروها واتعظوا بها ، ولكن هل يرجى منهم الاتعاظ والادكار ؟ أجاب عن ذلك بقوله : **(فمن شاء ذكره)** ، اى فمن شاء وأحب منكم أيها المعرضون عن القرآن ، المتغافلون عن هديه — ذكره فلم ينسه ، ووضعه نصب عينيه فلم يعرض عنه . فان القرآن جدير بالاقبال عليه ، خليق بالاستضاءة بنوره ، وكل واحد منكم أيها المعرضون متمكن بتمكين الله أن يختار طريق نجاته وما به صلاح أمره ، فليختر اذن ولا يقصر . لكنهم غلبت عليهم الشقوة فلا يختارون الا الوبال ، وتغلفت قلوبهم بالغفلة فلا يذكرون الا الضلال . أما القرآن وما فيه من الخير والهدى فلم يعد فى مكنتهم اختياره وادكاره وتوجيه نفوسهم اليه (الا أن يشاء الله) ذلك منهم بقهرهم عليه ، لكنه تعالى لم تجر عادته فى شرائعه السماوية ووحيه المنزل على انبيائه — أن يقسر الناس عليه قسرا ، أو يسوقهم الى التصديق به جبرا . وانما هو تعالى يشرع لهم السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ويرفع لهم النجدين : نجدى الهدى والضلال ، وينصب لهم المنارين : منار الحق والباطل . وعليهم هم أن يختاروا لأنفسهم : فمن شاء منهم ذكر ، واتعظ واعتبر ، ومن شاء غفل ونسى ، وكان هو الجانى المسيء . وهذا هو تفسير قوله تعالى : **(وما يذكرون الا أن يشاء الله)** .

وبهذا التفسير ان شاء الله يلتحم معنى الآية أشد الالتحام مع قوله قبله (فمن شاء ذكره) الدال على تخيير المكذبين ، وتنبيههم الى ما أودعه الله نفوسهم من المكنة والاستطاعة .

يقول تعالى . **(فمن شاء)** من أولئك المعرضين ان يذكر القرآن **(ذكره)** ، وبقى منه على بال ، فينتفع به . **(و)** لكنهم لفرط عنادهم ، ولسوء ملكتهم **(مايذكرون)** ، اى ما يشاءون أن يذكروه ذكر انتفاع واستفادة **(الا أن يشاء الله)** ذلك بقهرهم عليه . وهذا لايكون منه تعالى ، لكونه مخالفا لسننه الالهية مع الأمم . وانما سنته أن يبين لهم الأمرين ، وينصب أمام أعينهم الطريقين ، فاذا سلكوا طريق الحق نجوا ، واذا سلكوا طريق الضلال خسروا وهلكوا . كما قال تعالى فى آية أخرى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

أما قهره تعالى الأمم ، واجباره لها على الايمان الذى قلنا أنه لم تجر عادته به — فهو كأن يبرز للعيان وسائل الهلاك وأدوات التعذيب ، ثم يقال للمكذبين : ان لم تؤمنوا فأنتم هالكون بما ترون من هذا العذاب الواقع بكم . والتكليف على هذه الصورة لم تأت به الشرائع السماوية ، بل قال العلماء : ان معجزات الأنبياء والآيات التى تظهر على أيديهم لاتتعدى دائرة التحذير والتخويف ، كما قال تعالى : (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) . قالوا : ولا يكون من المعجزات أن يقول النبى لقومه : انظروا الى السماء ، فترون فيها مكتوبا بأحرف من نور بالقطع الكبير « فلان نبى ، ودينه هو الحق ، فاتبعوه » ثم يبقى ذلك باديا للعيان حقبة من الزمن . قالوا : هذا لايمكن أن يقع ، لأن الدعوة الى الايمان بهذه الصورة تصبح من قبيل الايحاء والاجبار ، ودعوة الأمم التى جرت بها عادة الله تعتمد على التفويض والاختيار ، ليتميز بذلك الأبرار من الفجار . ولو كتب فى السماء بأحرف من نور كما وصفنا لم يعد فى وسع أحد من الناس مهما كان عنيدا ، أو سمجا بليدا — الا الاذعان والتصديق .

فقوله تعالى هنا : (وما يذكرون الا أن يشاء الله) بعد قوله : (فمن شاء ذكره) الدال على مطلق التفويض والتخيير — لاينبغى تفسيره بغير ماذكرنا . ومثله فى سورة التكوير آية (وما تشاءون الا أن يشاء الله) بعد قوله (ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) .

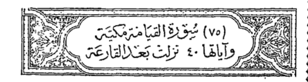
فهو تعالى يقول : ان الاستقامة يامعشر البشر داخلة تحت مشيئتكم فاستقيموا اذن . ثم قال موبخا لهم ، ناعيا عليهم سوء ملكتهم ، وفرط عنادهم : (و) لكن أنتم (ماتشاءون) الاستقامة واتباع الحق (الا ان يشاء الله) ذلك منكم بالقهر والاجبار والالجاء ، وهذا لم تجر به عادته تعالى فى الأمم ، فالويل لكم ان لم تنظروا لأنفسكم .

وان لم نقل فى تفسير هاتين الآيتين ماقلنا وقعنا من ظاهر التناقض فيهما فى جدال لاينتهى مع المبطلين المشككين ، من حيث يفتح لهم بابا الى تعطيل الشرائع ، وتهوين أمر الدين .

على أن ماقلناه فى معنى الآيتين لايخرج عما عرف فى تخاطب أهل اللغة . . . تقول لابنك الذى تريد أن تسلك فى تربيته طريق الرفق واللين : « افعل يابنى ما آمرك به ، ولا عذر لك فى المخالفة فانك بحمد الله مطيق لما كلفتك ، قادر عليه » ، فاذا خالفك ولم يعمل بمشورتك عنادا أو لجاجا تهدده فتقول : « أنا أعلم أنك لاتشاء ان تفعل ما أقول لك الا أن اشاء انا ان تفعله » ، ولست تريد فى قولك هذا أن تسلب ابنك الاختيار والارادة بالمرة ، وانما كل ما تريده تهديده من طرف خفى بأن فى طاقتك أن تكرهه على ما أردت منه بواسطة الضرب الموجع ، واللكم المتتابع مثلا . غير أنك تربأ بنفسك ، وبابنك المحبوب أن تقفا معا هذا الموقف ، متربصا به الرجوع عن غيه بزاجر من نفسه .

ومن عادة القرآن أن يأتى عقب التهديد بكلمات الترقيق والترغيب ، وهذا ماكان فى الآية التى نفسرها ، فانها عقبت بقوله تعالى : **(هو)** ، أى الله **(أهل التقوى)** ، أى أهل لأن يتقى ويحذر عقابه ، فلماذا لاتتقونه أيها القوم ؟ **(وأهل المغفرة)** ، اى وأهل لأن يغفر لمن اتقاه منكم وأصلح عمله ، فلماذا لاتصلحون أعمالكم ، وتتركون اعراضكم ، وتتوبون الى ربكم ؟

هذا ما وجدناه الأتقن والأحكم فى تفسير آيات الاضلال . ونسأل الله الا يجعل علينا تبعة فيما قلنا أو نقلنا . ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا .



بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ

افتتحت هذه السورة بتحقيق أمر البعث ، وأن الناس لا يتركهم ربهم سدى من دون حساب ، مؤكدا ذلك بالقسم حسب عادته تعالى فى الاقسام بما عظم خطره من مخلوقاته . وقد اقسم هنا بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة . وفى ذلك تقرير له ، وتحقيق لأمر وجوده . وظاهره نفى القسم ، لكن المراد بهذا النفى التوصل الى التأكيد ، وكأنه يقول : ان الأمر بين فلا أحتاج الى أن اقسم عليه ، وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد ، قال أبو مسلم : (لا) ههنا لنفى القسم ، كأنه قال : لا اقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكننى أسألك غير مقسم : أتحسب أنا لانجمع عظامك اذا تفرقت بالموت ؟ فان كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك اهـ .

وقيل ان (لا) نافية لمحذوف ، وليست نافية للقسم ، وانالتقدير (**لا**) صحة لما تزعمون أنه لاحساب ولا عقاب . ثم استأنف فقال : (**أقسم بيوم القيامة**) و (**بالنفس اللوامة**) أنكم ستبعثون . وهذا على عادة العرب من زيادتهم (لا) قبل (أقسم) كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه فيفيد التأكيد . وقد مر فى سورة الحاقة زيادة ايضاح لذلك عند قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

وجواب القسم هنا محذوف دل عليه قوله بعد : (أيحسب الانسان الخ) ، والتقدير « لتبعثن ولتحاسبن » . ثم عاد فاستفهم على وجه الانكار أن يكون الله تعالى عاجزا عن خلق الانسان ثانية فقال : (**أيحسب الانسان الخ**) .

وفى اقسام الله تعالى بالنفس اللوامة ثناء عليها وتنويه بشأنها . وقالوا : ان المراد بها النفس التى لاتزال تلوم ذاتها وان اجتهدت فى الاحسان والعمل الصالح . وقال الحسن البصرى : « أن البار لا تراه الا لائما نفسه ، وان الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه » ، قدما : أى من دون أن يعرج أو ينثنى . وقد ذكر الوحى فى سورة الفجر أختا للنفس اللوامة ، وهى النفس المطمئنة مذ قال تعالى : (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) . والنفس المطمئنة هى الثابتة فى عملها ، الموقنة بما وعد ربها . وهذه النفس على فضلها وعلو منزلتها عند ربها مذ قال لها : (ادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) — يوشك أن تكون أختها — النفس اللوامة — أفضل منها ، وأعلى منزلة ، لأن اللوامة لا تستقر على حال من قلقها وخوفها أن تكون قصرت فيما يجب عليها من بلوغ الكمال الدينى والأخلاقى المطلوب منها .

فالله تعالى يقسم بالنفس التى هذه حالتها ، الناصبة فى طاعة ربها ، مرغبا فى طريقتها ، وحاضا النفوس الأخرى أن تكون على مثل شاكلتها : فلا تبلغ درجة من الكمال حتى تتلع الى الدرجة التى فوقها ، ولا تمارس فضيلة أو تقوم بعمل صالح حتى تفرغ الى آخر أمثل منه . هذه النفس التى تحيا فى الدنيا مثل هذه الحياة لا يدعها خالقها من فضله ، ولا يمنعها من عدله ، فهو سوف ينقلها الى دار كرامته ، ويغمسها فى كوثر رضاه ورحمته . ولولا ذلك لكانت نفوس العجماوات والحشرات خيرا منها وأحسن عاقبة ، ويكون الخالق أشد رحمة وعناية واحسانا بهذه النفوس الهاملة ، من تلك العاملة الكاملة ، اذ أنه تعالى أراح العجماوات من وخز الضمير والوجدان ، وخفف عنها عبء طلب الكمال الذى اؤتمن عليه الانسان . تعالى الله ، وتنزه عدله ، وتقدست صفاته عن مثل ذلك . وعلى هذا يكون القسم بالنفس اللوامة فى صدر تحقيق أمر يوم القيامة — مما يشير وينبه الى ماذكرناه من الدليل العقلى عليه . وما أحسن ما قاله بعضهم ، مستدلا على وجوب طاعة الله ولزوم عبادته :

هب البعث لم تأتنا رسله
وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق
ثناء العباد على المنعم

وقوله : (**أيحسب الانسان الخ**) يريد مطلق انسان من دأبه تكذيب الوحى ، وانكار البعث ، وان كانت الآية واردة فى معرض الرد على انسان خاص ، وهو عدى بن ربيعة . وقصة ذلك أن عديا هذا وختنه — الأخنس بن شريق — كانا جارين للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان جوارهما بئس الجوار ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : «اللهم اكفنى جارى السوء» ، فجلس عدى يوما الى رسول الله وطلب منه أن يحدثه

عن يوم القيامة ، فذكر له شيئا من أمره ، فقال له عدي : « أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعيني لم أصدقك يامحمد ، ولم أومن بك ولا به . أيمكن أن يجمع الله العظام ؟ » فنزل الوحي في الرد عليه ، فأقسم أولابيوم القيامة نفسه وبالنفوس الناصبة في طاعة ربهـا ارادة النجاة في ذلك اليوم ، ثم قال : (أيحسب الانسـان) عدي وأحزابه ممن حال الجهل بينهم وبين الاعتبار بشمول القدرة الالهية **(أن لن نجمع عظامه)** ، أي لن يقع منا جمع لعظامه بعد موته وتفرقها . **(بلى)** نجمعها . و (بلى) تقع بعدالمنفي فتثبته . وفي (نجمعها) المقدر معنى القدرة ، فيكون قوله **(قادرين على أن نسوى بنانه)** حالا من فاعـل (نجمع) مؤكدا القدرة التي تضمنها الجمع . كأنه يقول : نقدر على جمع عظامه مع قدرتنا فوق ذلك على تسوية بنانه و (البنان) أطراف الأصابع ، والأصابع نفسها . وأراد بذكره (تسـوية البنان) أنه تعالى قادر على جمع عظام الانسان ، واعادة تركيب أعضائه كلها كما كانت أولا ، فيتمثـل بشرا سويا كاملا لا ينقصه شيء حتى أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه ، ومنتهى أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . فذكر تسوية البنان مثل في الكمال وعدم النقصان .

او المعنى : أنه تعالى قادر على اعادة جسم الانسان الى سابق حالته بعد أن يكون قد مات وانحل تركيب أجزائه وفسد تكوين أعضائه ، حتى الطفها حجما ، وأدقها تركيبا : وهي البنان . فهـو تعالى قادر عـلى اعادة خلق الانسان بالغا هذا الحد من الكمال في تلك الاعادة .

فالمعنى الأول يرمى الى اعادة الانسـان كاملا في الأعضاء وعددها ، والثاني يرمى الى اعادته كاملا في تكوينها واستجماع شرائط قيامها بوظائفها .

وقيل : أن المراد بالبنان الأصابع نفسها لا أطرافها ، وان المراد بتسويتها جعلها مستوية قطعة واحدة ذات صفيحة جامدة كخف البعير فلا ينتفع بها . وهو تعالى لم يجعلها كذلك ، بل جعلها تفاريق ذات أطوال متناسبة ، ومفاصل متحركة ، وأنامل ململمـة ، ومواتاة تامة فيما يطلب منها من الانضمام والانفراج ، والانقبـاض والانبسـاط ، بحيث كانت نعمت الآلة للتناول ومزاولة الأعمال المختلفة . ولا كذلك البعير والحمار اللذان لا يقدران على استخدام الخف والحافر في طرق الانتفاع المختلفة كما يفعل الانسان بيـده ، فيضطران الى أن يتناولا طعامهما وشرابهما بفيهمـا مباشرة .

ولعل المعنى الأول هو الأليق بالمقام ؛ لأن القصـد اثبات أنه تعالى قادر على اعادة الانسان خلقا سويا يوم القيامة ، لا اثبات أنه قادر على أن يخلقه في دار الدنيا بأى صورة أرادها .

قوله **(بل يريد الخ)** اضراب عن شـأن الانسـان الذى وبخه عليه في الآية السابقة ، وانتقال الى ذكر شأن من شئونه أعجب ، وسريرة من سرائره أغرب . كأنه يقول : لا أرى الجهل يبلغ بالانسـان الى حـد انكاره قدرتنا على جمع عظامه ، ومحاسبته على سوء اعماله ، **(بل يريد)** ذلك الانسان بهذا الانكار الانطلاق من كل قيد ، والتفلت من كل سلطة ، لأجل أن يفجر **(أمامه)** ويركب في غمط الحق واقتراف الآثام رأسه، ثم لا يقلع عن ذلك حتى يلاقى حمامه ، وتقوم عليـه القيامة .

و (الفجور) : انبعاث المرء في الذنوب ، وانحرافه عن حدود الشرع وأوامره من دون أن يخامره شعور خوف أو خشية . وتعلق الظرف وهو (امامه) به يدل عـلى أنه مضمـن معـنى الدوام والتمـادى والاسترسـال كأنه يقول : يريد الانسان في انكاره البعث أن يفجر مصرا ومتماديا في طريقه الذى أمامه الى آخر عمره . فهاتان الكلمتان (يفجر أمامه) في افادة معنى اللجاج والاصرار مثـل قولهـم : « ركب رأسـه » ، و «خلع عذاره» . والمعنى أنه ممعن في اساءته ، مصر على باطله لاشنيه عنه شيء ، ولا يخشى فيه أحدا .

وهذا الفاجر المتعامى عن الحق ، المتمادى في الضلالة، كلما نصح له ناصح بالكف والارعواء ، أو خوفه مخوف من عذاب الله ومحاسبته له على أعماله يوم القيامة — **(يسأل)** ناصحه او محوفه سؤال سخرية واستهزاء وعنت : **(أيان يوم القيامة؟)** أى متى وقته ؟ وقريب هو ام بعيد ؟ هو يسأل الآن ، **(فاذا برق البصر ... يقول ... أين المفر)** . ففي هذه الآيات وصف لبعض أحوال ذلك اليوم ببيان ما يكون فيه من شـأن ذلك السائل المنكر .

ومعنى (برق البصر) زاغ وتحير حتى لايطرف ، أو دهش فلم يعد يبصر . وأصله أن يرى الشخص البرق الشديد اللمعان ، فيخطف بصره ويدهش فلا يعود يرى . ثم استعمل في كل حيرة ودهش يعترى البصر ولو لم يكن مسببا عن رؤية البرق . ومثله في ذلك (صعق الرجل) اذا وقع مغشيا عليه . وأصله أن يقع هذا به بسبب اصابة الصاعقـة له ، ثم عم استعماله في كل غشى .

(وخسف القمر) : ذهب ضوؤه واظلم . وهـذا يكون منه وقت أن يتأذن الله بخراب هـذا العـالم ، وتغيير نظامه ، ونسخ أحكامه ، فلا تعود الأرض أرضا ولا السماء سماء . وقد عبر الوحي عن هذا الارتكاس والاضطراب العام في العالم بقوله : (وفتحت السماء فكانت أبوابا) ، أى مفتحة الأجرام ، مفرقة الأجزاء ، وبقوله : (اذا السماء انشقت) أى تصدعت ، ووقع الاضطراب في نظامها العام ، فاختل تركيبها ، وفسد تكوينها ، وبقوله : (واذا النجـوم انـكدرت) ، أى تناثرت منقضة من كل جانب . يقال : انكدر علينـا القوم اذا جاؤونا متتابعين من كل صوب ، وبقوله : (واذا الكواكب انتثرت) أى تساقطت متفرقة في كل ناحية . فاذا كان هذا شأن السمـاء بمجموعهـا ،

وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾
يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾
لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ

والأجرام بأفرادها ــ فهل يعقل إن يبقى للقمر نوره المعهود أو يخسف ؟ وهل يتصور أن يبقى كل من القمر والشمس فى فلكه ، وعلى هيأته وشكله ، أم يتغير ؟ ان انكدار النجوم وانتثار الكواكب ، أمر يعم أجرام السماء كلها ، وفى جملتها الشمس والقمر . فهل اذا انتثر هذان الكوكبان ، وزايلا مداريهما ــ واحدهما وهو الشمس أكبر من الآخر وهو القمر بنحو خمس وستين مليون مرة ــ لايجذب أكبرهما أصغرهما اليه ؟ واذا جذبه اليه التقيا معا فى حيز واحد بالضرورة ، وهذا معنى قوله : **(وجمع الشمس والقمر)** . وقولنا ان الشمس تجذب اليها القمر بقوة الجذب العام افتئات على الغيب ، والا فالله سبحانه وتعالى أعلم بأية قوة يجتمعان ، وكيف يكون ذلك الاجتماع ، وعلى أى شكل يقع ، فان ذلك مما لايمكن القول فيه بالرأى ، فندع أمره الى الله ، ونقتصر من الاعتقاد على ظاهر الآية : من انهما يجتمعان اجتماعا يبقى معه الانسان انسانا تام التركيب ، سليم الأعضاء، له بصر يبرق ، ولسان ينطق . وفى ذلك الوقت الذى يبرق فيه البصر ، وتقع الأحداث الأخر **(يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟)** ، أى الفرار المنجى من هذه الكارثة ، والمؤدى الى الراحة والأمنة . فيجاب حينئذ بما قال الله **(كلا !)** ، أى دع عنك المحال،وطلب ما لا ينال ، اذ **(لا وزر)** ولا ملجأ تلجأ اليه ، ولا حرز يعصمك مما نزل بك من أمر الله .

و (الوزر) المعقل ، والحصن ، والمعتصم ، والملجأ. يقال : « أنت حصنى ووزرى » ، وأصل معنى الوزر فى اللغة الجبل . قالوا : كان الرجلان يكونان فى ماشيتهما، فلا يشعران بشىء حتى تأتيهما الخيل مغيرة ، فيقول أحدهما لصاحبه : « يافلان ، الوزر الوزر ، الجبل الجبل » ، وكانوا فى الجاهلية اذا خشوا عدوا قالوا : « عليكم الوزر » ، أى عليكم الجبل التجئوا اليه ، واعتصموا به . ثم شاع استعماله فى كل حرز وحصن وملجأ يمنع ولو لم يكن جبلا .

وكأن سائلا يسأل : اذا لم يكن للناس يومئذ وزر أو ملجأ يلجأون اليه ، فهل يبقون فوضى مشتتين أم يصبح لهم مقر يستقرون فيه ، ومنتهى ينتهى حالهم اليه ؟ فلهذا قال : **(الى ربك)** ، لا الى غيره سبحانه وتعالى **(يومئذ)** يوم وقوع ما ذكر من الأحداث والكوارث **(المستقر)** ، أى الاستقرار والسكون والالتجاء فله يومئذ الأمر ، واليه الحكم ، وبه الرجاء ، ومنه ينتظر انكشاف اللأواء .

قوله : **(ينبأ الانسان الخ)** استئناف لبيان ما يقابل به الانسان بعد أن يصير أمره الى ربه . قال انه يومئذ يكشف له الغطاء عن أعماله ، فيخبر بها كلها بالذى قدمه منها وكسبه بالفعل من خير وشر، وبالذى أخره ، فلم يعمله ، بل نوى فعله من خير أو شر . الى هذا الحد من الانباء والاطلاع يكشف الأمر للانسان ، فهو لا ينكشف له ما فعل فقط بل مالم يفعل أيضا . وهذا هو معنى قوله : **(بما قدم وأخر)** .

ويحتمل أن يكون المراد بالذى قدمه ما فعله من الأعمال الصالحة ، وبالذى اخره ما لم يفعله منها ، وانما سوف فيه كسلا واهمالا .

أو المعنى : بما قدم بين يديه الى الآخرة من خير وشر ، وبما أخر بعد موته فتركه فى دنياه ينسج الناس على منواله بعده : من بدعة حسنة أو سيئة ، وسمعة طيبة أو قبيحة . كما قال تعالى فى آية أخرى (ونكتب ماقدموا وآثارهم) ، أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم الباقية على مر الزمان بعد مماتهم ، كما نكتب ما قدموه فى حياتهم .

ثم أضرب عن ذكر هذا النوع من انباء الانسان بأعماله ، وارتقى الى نوع منه اتم وأكمل ، فقال : **(بل الانسان على نفسه بصيرة)** ، والمراد (بالبصيرة) هنا الحجة والشاهد يشهد باثبات أمر. يقال:جوارحه بصيرة عليه ، أى شاهد وحجة عليه . ومنه « اجعلنى بصيرة عليهم » ، أى شاهدا أو رقيبا . وقال تعالى فى سورة يوسف : (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ، أى أدعو اليه تعالى حالة كونى على حجة وبينة ودليل قاطع .

ومعنى الآية أن الانسان ينبأ يوم القيامة بأعماله على انه هو نفسه حجة شاهدة على نفسه وسوء أعمالها ، وقبح آثارها فى دنياها ، فلا حاجة فى ذلك اليوم الى ثبت آخر غيرها .

وهذه الآية بمعناها هذا تتفق مع آية الاسراء (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) : من حيث ان الانسان يوم القيامة تماط عنه غشاوات الوهم والالتباس ، فتتجلى له الحقائق كما يتجلى البدر لعيون الناس : يتجلى له ذلك ويدركه ويقتنع به فى سره **(ولو ألقى معاذيره)** ، أى ولو حمله الخجل وفرط الاستحياء على الجدل عن نفسه بالباطل ، والادلاء ببعض الأعذار الكاذبة لها ، فان الأمر مع هذا يبقى واضحا له ، وشهادة نفسه عليه أحق بالقبول من هذه المعاذير .

و المتبادر ان يكون المراد بالمعاذير الأعذار ، لكن الأعذار وأحدها عذر والمعذرة جمعهـا معاذر (١) لا معاذير ، ومن ثم قال بعضهم : ان (المعـاذير) اسم جمع لمعذرة لا جمع لها . أما الضحاك والسدى فذهبا الى أن المعاذير فى الآية جمع معـذار ، وهو الستار (٢) ، كأنه يقول ان الانسان باذعانه واقتناعه يومئذ يصبح حجة على نفسه ولو القى عليها ستورا كثيفة من الحجج والأعذار ، فانه لاشىء من تلك الستور يمكن أن يحول بين الانسان وبين ظهور آثار الاقتناع والاذعان عليه يوم القيامة .

ذهب القفال الى أن الكلام فى هذه الآية **(لاتحرك به لسانك لتعجل به)** متصل بالحـديث المسوق فى الآيات قبلها ، وأن الخطاب فيها لذلك الجاحد الذى يفجر أمامه ، واذا خوفه مخوف بيوم القيامة أجابه مستهزئا ساخرا : (أيان يوم القيامة) ، حتى اذا جاء ذلك اليوم لم يجد مفرا الا الى الله ، ونبىء بما قدم واخر . وقد علم من آيات اخرى أن الانسان يعطى يوم القيامة صحيفة عمله ، ويقال له : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، فاذا أخذ فى قراءتها تلجلج وتكلف الاسراع فى القراءة ، لينجو من هـذا الموقف المخزى ، فيقال له : (لاتحرك به) اى بعملك وتلاوته (لسانك) مريدا التفصى والتخلص منه بهذه العجلة. فانه يجب علينا بحكم الوعد والحكمة أن نجمع عملك ، ونقرأه عليك ، (فاذا قرأناه فاتبـع قرآنه) بالاقرار والاعتراف (ثم ان علينا بيانه) بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته .

فضمير (به) وما بعده من سائر الضمائر ترجع الى عمل الانسان المسطور فى صحيفتهالمعهودة. وقوله تعالى بعد : (كلا بل تحبون العاجلة الخ) خطاب لذلك الانسان وأضرابه ، وردع لهم عما هم فيه مـن حب العاجلة الفانيـة ، وبذلك يبقى الحـديث واحـدا ، والسياق متصلا .

هذا قول القفال . ولكن المشهور بين المفسرين أن الخطاب فى قوله تعالى (لاتحرك) للنبى صلى الله عليه وسلم ، والضمير فى (به) والضمائر الأخرى ترجع جميعها الى القرآن . فقد روى أنه صلى الله عليـه وسلم كان يصعب عليه حفظ آيات القرآن وجبريل يلقيها عليه ، فكان يحرك لسـانه وشفتيـه بتـلاوة الآيات قبل أن يفرغ جبريل مخافة أن تتفلت منه ، وينساها حين التبليغ ، فنهى عن ذلك فى سورة طه مذ قيل له : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه) ، كما نهى فى هذه السورة أيضا فقيل له:

(لاتحرك به لسانك) اى بالقرآن والوحى الذى يلقيه عليك جبريل (لتعجل به) اى لأجل أن تعجل بأخذه وتلقفه منه . ثم علل نهيه عن التحريك بقوله **(ان علينا)** كما وعدناك ولما اقتضته حكمتنا **(جمعه)** فى صدرك حتى نثبته فيه . **(و)** ان علينا ايضا **(قرآنه)** اى قراءته ، وهذا هو معنى القرآن : مصدر قرأقراءة وقرآنا ، ثم غلب القرآن على كلام الله المودع بين دفتى المصحف . ومعنى ان علينا قراءته : ان علينا أن نوفقك لقراءته ودراسته بلسانك ، فتحفظه عن ظهر قلب ثم لا تنساه . ويحتمل أن يكون (قرآنه) بمعنى جمعه ، فان (قرآن) أيضا مصدر قرأ الشىء جمعه وضـم بعض أطرافه الى بعض ، (فقرآنه) اذن معطوف على (جمعه) عطف تفسير ، كأنه يقول : ان علينا جمعـه وتأليف أجزائه بعضها مع بعض .

(فاذا قرأناه) عليك بواسطة جبريل فاستنصت حتى يفرغ ، واذا فرغ **(فاتبع قرآنه)** ، اى تتبع فى نفسك قراءة جبريل مصغيا ، وكن على ثقة من وعدنا لك بأنك تحفظه ويرسخ فى قلبك ، ولا تجعل قراءتك مقارنة لقراءة جبريل . فكان صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم اذا ألقى جبريل عليه الوحى أطرق واستمع، فاذا ذهب قرأه فى نفسـه كمـا علمـه ربه ، فيجـده محفوظا منقوشا على لوح قلبه الشريف . وكما كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه بالقرآن وجبريل يلقيه حرصا على استظهار الألفاظ ـ كان أيضا يقف فى خلال القاءجبريل القرآن عليه وقفة المتسـائل المستفسر حرصا على فهم المعانى . فنهاه ربه عن ذلك أيضا ، ووعده بأنه يبين له ما أشكل عليه بعد أن يحفظ الآيات ، وترسخ ألفاظها فى نفسـه . وهـذا معنى قوله : **(ثم ان علينا بيانه)** ، اى تفسـيره وايضـاحه والكشف عن معانيه .

هـذا ما عليه جمهور المفسرين فى معنى الآيات ، لكن يبقى اشـكال فى وجه ارتباطها بما قبلها ، وكيف صح الانتقال من خبر المكذبين بيوم القيامة ، وأنهم سينبأون فيه بأعمالهم كلها ـ الى نهيه صـلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه بالقرآن تعجيلا بحفظه واستظهاره ، ثم الرجوع الى الحديث مع المـكذبين بقوله : (كلا بل تحبون العاجلة) ؟

وأحسن ما قيـل فى الجواب أن الآيات السـابقة كانت هى نفسها السبب فى نزول هذه الآية ، اى آية نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه . فبينما كان جبريل يلقى عليه هـذه السـورة من أولها : (لا أقسم بيوم القيامة) آية فآية ، كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه تعجيلا الى الاستظهار والحفظ ، فأوحى اليه ربه آية (لا تحرك به لسانك) ، ولقنه اياها جبريل غضة طرية فى غضـون تلقينه الآيات التى حرك بها لسانه ، ليكون ذلك أدعى الى رسوخ مضمون آية النهى فى نفسـه ، وتأدبه بأدبها . ومثلوا لذلك بالمعلم يلقى على تلميـذه مسـائل من العـلم والتلميذ يكتبها فى صحيفة له ، ثم عثر على هـذه

---

(١) على أن بعضهم يجوز اشباع كسرة الدال فى معاذر واشباهه لضرورة وغير ضرورة ، ولعل الذى حسن الأشباع هنـا ارادة المزاوجة بكلمة (بصيرة) .

(٢) بلغة اليمن . وفسر بعضهم المعاذير بالحجج كأنه جمع معذور أو معذار بمعنى الحجة ، لكن هذا المفرد لايستعمل ، فيكون معاذير من الجموع التى لامفرد لها كالمذاكير واخواتها .

عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾

الصحيفة بعد ذلك فوجد فى غضون مسائلها العلمية هذه الجملة « لا تلتفت يمينا ولا شمالا » ، فيتعجب المتعجب من وجود هذه الجملة محشورة بين مسألتين من العلم غريبتين عنها ، حتى اذا عرف السبب ، وأن التلميذ كان فى أثناء الالقاء يتلفت يمينا وشمالا ، فنهاه أستاذه بهذا القول المثبت فى الصحيفة بطل العجب. ولله ورسوله وحيه المثل الأعلى . على أن هذا المثال ان كان المفسرون فرضوه فرضا فان فى كتب المحدثين مثالا له وقع بالفعل : ذلك أن بعض علماء الحديث كان يحدث الناس ، فدخل عليه رجل صالح كثير التهجد ، فلما وقع نظره عليه استطرد قائلا : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه فى النهار » ، ثم رجع الى ماكان فى صدده من الأحاديث ، فظن بعض من كان يكتب عنه أن قوله « من كثرت الخ » حديث ، فرواه عنه . وروى الامام مسلم فى صحيحه فى باب أوقات الصلوات الخمس حديثا جاء بين أحاديث الباب غريبا عنها : لا علاقة له بها ، وهو قوله : « حدثنا يحيى بن يحيى التميمى ، اخبرنا عبد الله ابن يحيى بن أبى كثير قال سمعت أبى يقول : لا يستطاع العلم براحة الجسم » اهـ . ولا بد من مناسبة عرضت للامام مسلم وهو يحدث حملته على الاستطراد الى هذا الحديث .

ثم بعد أن أتم الوحى تعليمه صلى الله عليه وسلم كيف يفعل حين القاء القرآن عليه ، وأراد العود الى الحديث مع المخاطبين ـــ خاطبهم بكلام لف فيه ما كان عاتب عليه النبى عليه السلام من أجله ونهاه عن فعله ، فقال : **(كلا)** ، أى ارتدعوا أيها البشر عما أنتم عليه من العجلة فى شئونكم وحب التسرع فى الوصول الى أغراضكم ، وهذا خلق عام شامل لجميع أفرادكم ، حتى من كان منكم فى أعلى درجات الكمال ، وأعظم مراتب العصمة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه لم يخل من عجلة فى بعض حالاته .

أنتم أيها البشر المكذبون لم تكذبوا بالوحى ايثارا للحق كما تزعمون ، **(بل)** من فرط عجلتكم ، أنتم قوم **(تحبون العاجلة)** ، أى الدنيا الفانية التى بين ايديكم ، وتؤثرون ملذاتها ، **(وتذرون الآخرة)** التى لم يحن وقت مجيئها بعد ، فتدعونها وتهملونها ، معرضين عن الأعمال الصالحة المؤدية اليها ـــ كل ذلك بمقتضى فطركم وطباعكم التى غرز فيها العجل .

وأنت يا محمد من حرصك على الآيات الآمرة بالفضائل والكمالات ـــ تعجل بتحريك لسانك بها ، وتنسى ما وعدك ربك : من أن الآخرة لك ، ولا تكون لك الا باتمام توفيقك الى حفظ القرآن ، واستظهار آياته كلها من دون نقصان .

فكلا الفريقين خلق من عجل ، لكن عجل المكذبين فى الشر والعمل السيىء والحرص المذموم ، وعجله عليه الصلاة والسلام فى الخير والعمل الصالح والحرص المحمود . ومع هذا فقد نهى صلى الله عليه وسلم عنه ، ونبه الى وجوب الثقة بالآخرة المحققة له .

وما ذكرناه من معنى الآية فى خطاب المكذبين انما يفهم منها بنص العبارة ، أما ما خوطب به صلى الله عليه وسلم فيها ، فانه يفهم بطريق التعريض والاشارة .

ولما ذكر تعالى أن البشر يؤثرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية ـــ وصف مايكون فى تلك النشأة الآخرة من انقسام الناس الى فريقين : ابرار وفجار ؛ وقال انه يكون للأولين **(وجوه يومئذ ناضرة)** حسنة جميلة من ظهور آثار النعيم وبشاشة السرور عليها ، كما قال تعالى : (ان الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) ، أى رونقه وبريقه وحسنه وبشاشته . يقال: نضر الشجر والوجه واللون اذا نعم وحسن . ونضره الله (مخففة ومشددة) كأنضره : جعله ناضرا ناعما جسيما . وفى الحديث : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها » .

ثم وصف تلك الوجوه بوصف آخر وراء النضرة والحسن فقال : **(الى ربها ناظرة)** . وقد اختلف المسلمون فى تفسير هذه الآية اختلافا مبنيا على اختلاف آخر بينهم ، وهو : هل يرى الله يوم القيامة بحاسة البصر ؟ ففريق منهم ـــ وهم أهل السنة ـــ قالوا : انه يرى بالفعل بحاسة البصر ، ولا مانع يمنع من هذه الرؤية ، ولا تستلزم هذه الرؤية أن يكون البارى تعالى جسما يشغل حيزا من الفراغ . فالله قادر على أن يرينا ذاته من دون أن يكون فى حيز ، ومن دون أن يكون على بعد مخصوص منا ، ومن دون أن يكون هناك نور ينعكس عنه الى أبصارنا ، وغير ذلك من الشروط التى تتوقف عليها رؤية المحسوسات فى دار الدنيا عادة . على أن الرؤية ستكون فى الآخرة ، وللآخرة سنن ونواميس خاصة بها ، وبموجبها نرى الله كفاحا (١) ويكون لنا من وراء هذه الرؤية من البهجة والغبطة والمسرة ما لا يحاكيه شىء من ملذوذات الآخرة وضروب النعيم فيها .

---

(١) عيانا ومشاهدة .

وقد استدل هذا الفريق على مذهبهم بهذه الآية، وبأحاديث صريحة فى حصولها للمؤمنين يوم القيامة، حتى ان بعض هذه الأحاديث رواه أكثر من عشرين صحابيا .

قالوا : واما قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فمعناه أن الأبصار لا تدركه تعالى. أدراك احاطة واكتناه . فالنفى منصب على الادراك لا على أصل الرؤية ، فهو لم يقل انه لا يبصر ، وانما قال : لا يدركه البصر . وفرق بين قولك : « ما أبصرته » ، وقولك : « ما أدركه بصرى » : اذ أن الأول يفيد نفى الابصار البتة ، والثانى يفيد نفى أن يكون البصر أدرك المبصر . فالبصر يبصره تعالى يوم القيامة ، والنفس تتلذذ برؤيته ، غير أن البصر لايدركه ادراك كنه واحاطة .

وقال فريق آخر من المسلمين ، وهم الذين يسمون معتزلة : انه تعالى لا يرى ولا يمكن أن يرى ، واستدلوا عقلا بأن للرؤية شروطا اذا توفرت كان المرئى جسما ذا حيز ألبتة ، وهذا لايجوز فى حق الذات القديمة ، ونقلا بآية (لاتدركه الأبصار) ، وقالوا فى آية (الى ربها ناظرة) : ان النظر كما جاء فى لغة العرب بمعنى الرؤية والمشاهدة بالحاسة ، جاء بمعنى انتظار الشيء وتوقع حصوله ، وهذا المعنى كثير فى كلام العرب . ومنه قوله تعالى: (أنظرونا نقتبس من نوركم) ، وتقول : « أنا ناظر الى فلان مايصنع بى » تريد أنك تنتظر وتتوقع منه حسن الصنيع فى حقك . وفى حديث أنس « نظرنا النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل » وسمعت « سروية » — وهى امرأة كانت تستجدى بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس ابوابهم ويأوون الى مقايلهم — تقول : « عيينتى نويظرة الى الله واليكم » ، اى منتظرة معروفكم .

فمعنى كون الوجوه (الى ربها ناظرة) : انها منتظرة (1) ومتوقعة وراجية النعمة والكرامة منه تعالى وحده ، غير طامحة ولا متوجهة النفس الى غيره . وأولوا حديث الرؤية بأن تعلق العلم بذاته تعالى يكون يوم القيامة تعلقا تاما ، وانكشافه انكشافا لا لبس فيه .

والسلف أنفسهم اختلفوا فى تفسير هذه الآية ، بل اختلفوا فى أصل الرؤية الالهية ايضا . فقال الحسن البصرى : (وجوه يومئذ ناضرة) أى حسنة (الى ربها ناظرة) أى تنظر الى الخالق ، وحق لها أن تنضر وهى تنظر الى الخالق اهـ .

وقال مجاهد : (الى ربها ناظرة) أى تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شيء اهـ .

وقال منصور بن المعتمر : كان أناس يتذاكرون فى حديث « فيرون ربهم » ، فقلت لمجاهد : ان أناسا يقولون انه يرى . قال : « يرى ولا يراه شيء » .

هذا ولو كان لمثلى مقال فى هذا المجال لفضلت السكوت عن هذه المسألة وأمثالها مما اختلفت فيه ظواهر النصوص، ولم يلزم منه مس جانب الألوهة ، ولا ينشأ عنه ضرر فى الدين ، ولا تعطيل فى مصالح البشر . ولو قال المعتزلى لربه يوم القيامة : انى يا رب لم انف الرؤية الا تمجيدا لذاتك ، وتنزيها لها عن مماثلة الحوادث ، وقال السنى : انى يا رب لا أعتقد أن الرؤية تمس مقام الوهتك ، ولم أثبتها وأعتقدها الا طمعا فى القرب منك وتلذذا برؤية وجهك ... لو قال كل منهما ذلك — ما كان الله الا راضيا عنهما ، ومسبلا ذيل عفوه عليهما ، وساخطا من حصول التفرقة فى دار الدنيا بينهما .

وياليت المسلمين أضربوا فى صدرهم الأول عن الاختلاف فى أمثال هذه المسألة : مما كان الخلاف فيه لفظيا او فلسفيا ، أو لا تكون له نتيجة عملية ، أو لا ينقض أصلا من اصول الدين . وياليتهم مذ اختلفوا لم يوغلوا ، ولم يجعلوا الاختلاف سببا للتفرقة . وهذا قرآنهم يهتف من فوق رءوسهم : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء) ، ونبيهم صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرأوا القرآن ما أئتلفت عليه قلوبكم ، فاذا اختلفتم فيه فقوموا عنه » : اى اذا شعرتم بأن النظر فى الآيات ، وتقليب وجوه الاحتمال فى معانيها — يؤثر فى رابطتكم الدينية ... فدعوا النظر بالكلية ، خشية التفرقة .

ولعمرى أن انصراف المسلمين منذ قرون عن العلم النافع ، واعراضهم عن النظر فيما يهذب أخلاقهم ، ويرقى اجتماعهم ، ويشد عرا الاخاء بينهم — هو الذى جعلهم يوغلون فى مسألة الرؤية وأمثالها ، ويفرغون للخوض والنزاع فيها . وبذلك تقلص ظل العمل من ديارهم ، وقام مقامه الجدل فى مجالسهم وأسفارهم ، حتى أوشكوا ان ينطبق عليهم حديث : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل وحرموا العمل » .

قلنا ان فريق السعداء الأبرار تكون وجوههم يوم القيامة ناضرة بنضرة البهجة والغبطة والسرور ، وانهم ينظرون الى ربهم فيريهم من ذاته ، ويحلهم من منازل كرامته — ما تقر به أعينهم ، ويطيب معه عيشهم . أما فريق الفجار فأمرهم على العكس ، وهذا ما قاله الكتاب فيهم : **(ووجوه يومئذ باسرة) :**

(1) ورد الأزهرى ان يكون النظر هنا بمعنى الانتظار قال : لان العرب لا تقول نظرت الى الشيء بمعنى انتظرته ، وانما تقول نظرت فلانا (اى من دون حرف جر) بمعنى انتظرته . واستدل بشعر للحطيئة ، ثم قال : واذا قلت نظرت اليه لم يكن الا بالعين المجردة اهـ تاج ؛ لكن الشواهد الأخرى التى نقلها الزمخشرى تثبت ان النظر بمعنى الانتظار يتعدى بالى أيضا . ومنها قول الشاعر العربى :

واذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ

شديدة الكلوح والعبوس . وكأن قائلا يقول : ولماذا كان حالها هكذا يا رب ؟ فاجاب **(تظن أن يفعل بها فاقرة)** ، اى أنها عبست كل هذا العبوس لما تعلم من سوء أعمالها ، وقبح آثارها فى دار الدنيا ، فهى يوم القيامة (تظن) ، أى تتوقع ويغلب على رأيها (أن يفعل) وينزل (بها فاقرة) : داهية عظمى تقصم فقار ظهرها . ومن كسر فقار ظهره هلك . فالفاقرة الداهية : سميت بذلك لما ذكرنا ، وجمعها فواقر . ويقولون « عمل به الفاقرة » أى الداهية التى كسرت فقاره . فقوله تعالى . (يفعل بها فاقرة) نحا به هذا النحو من الاستعمال . والضمير فى (تظن) برجع الى الوجوه ، والمراد أصحابها . كما أن المراد بالظن التوقع والرجحان وغلبة الراى ، اذ مادام القوم لم يقذف بهم فى الجحيم بعد ، فهم يتوقعون العفو عنهم ، ويؤملون الرفق بهم . ومنهم من فسر الظن هنا بالاعتقاد واليقين فقال : ان تلك الوجوه توقن بنزول الفاقرة بها لما كسبت من خطيئاتها ، واقترفت من سيئاتها . والظن يكون بمعنى الاستيقان ، ومنه قوله تعالى : (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) .

ردعهم أولا فى قوله : (كلا بل تحبون العاجلة الخ) عن حب الدنيا وايثارها عن الآخرة ، ووصف مايكون لفريقى الأبرار والفجار فيها . ثم عاد ثانيا فردعهم عما ردعهم عنه أولا من الحب والايثار ، ووصف لهم ما يلاقونه لحين الموت من اليأس والشدة ، مشيرا لهم فى ذلك الى أن الآخرة ، ان استغربتموها أو استبعدتموها ، فان الموت بابها ، وهو من أولى مقدماتها ، فقال :

(كلا) ، أى ارتدعوا أيضا عن ايثار الدنيا على الآخرة ، واذكروا ما ينزل بكم من فادح الهول **(اذا بلغت التراقى)** . والضمير فى (بلغت) يرجع الى الروح وان لم يجر لها ذكر لدلالة السياق عليها . ومثل هذا الاضمار معهود فى كلامهم . قال حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

و (التراقى) : جمع ترقوة . والترقوتان : عظمتان تمتدتان يمينا وشمالا من ثغرة النحر الى العاتق . وبلوغ الروح التراقى : كناية عن مشارفة الموت ، وظهور اماراته . وأهل المحتضر اذ ذاك يتجلدون عادة ، ويتداعون الى الصبر على أمل مداركة الأمر ، فيقول بعضهم لبعض حول فراش مريضهم : من طبيب حاذق ترونه أصلح من فلان الذى يطببه ، فان طبيبه لم يهتد الى دائه ، ولعل فى الثانى فرجا فيوفق الى شفائه ؟ وهذا معنى قوله تعالى : **(وقيل من راق ؟)** .

و (الراقى) : اسم فاعل كقاضى ، رقاه يرقيه اذا أجرى له عملية الرقية : وهى أن يعوذ المريض بكلمات سحرية أو دينية ، ثم ينفث فى وجهه أو ينفث فى يدى نفسه ، ويمرهما على جسم المريض او فى العوذة التى يكون قد كتبها وبرك عليها . ويحتمل أن يكون المراد بالراقى هو هذا المعنى ، غير أنا فسرناه بالطبيب ، لأن الأمم القديمة وعرب الجاهلية منهم كان يمارس الشخص الواحد فيهم الطب والكهانة والأعمال الدينية معا ، ويكون هذا الشخص كاهنا وطبيبا ورئيس دين فى آن واحد . وقد كان من جملة وسائل الطب القديم ممارسة الرقية للمريض . فالطبيب الذى يعوده ان شاء وصف له أدوية وعقاقير ، وان شاء رقاه ، وان شاء تكهن لهم عن مصيره . حتى اذا احتضر أجرى له المراسم الدينية حسب معتقداتهم .

وما زال هذا شأن الطبابة والكهانة والدين فى الأمم القديمة حتى توزعت تلك الوظائف فى الأزمنة المتأخرة ، وقام كل بواحدة منها . ولا يبعد أن يكون عرب الجاهلية قد سموا الطبيب راقيا لذلك ، قالت الخنساء :

لكن سهام المنايا من يصبن له
لم يشفه طب ذى طب ولا راقى

قوله ، **(وظن)** ، أى المحتضر ، والمراد بالظن غلبة الراى ، ويحتمل أن يكون المراد به اليقين **(أنه)** ، أى أن الشأن والأمر الذى نزل به هو **(الفراق)** : فراق الأهل والولد والدنيا المحبوبة .

وقوله : **(والتفت الساق بالساق)** اراد به وصف نهاية الشدة التى نزلت بالمحتضر بعد ان بلغت روحه تراقيه . والعرب تذكر الساق فى امثال مختلفة وتريد بها كلها اشتداد الأمر ، والتحزم له ، فيقولون : « كشف الأمر عن ساقه » ، و « قامت الحرب على ساق » ، و « قام فلان على ساق » ، و « قرع فلان للأمر ساقه » ، كما يقولون « ساق المريض نفسه » عند الموت ، و « سيق المريض » بالبناء للمجهول اذا شرع فى نزع الروح ، فقوله تعالى : (والتفت الساق

بالساق) كناية عن اشتداد الأمر على الميت وأهله ، فالتفت فى ساحتهم آخر خطوب الدنيا بأول خطوب الآخرة ، فكأنه جعل للدنيا والآخرة أو خطوبهما سيقانا تلتف وتزدحم . وقال بعض المفسرين : المراد بالساقين فى الآية ساقا المحتضر ، وانه عند نزع الروح يضمهما ويلوى احداهما على الاخرى ، وهذا هو التفافهما ، أو المعنى انهما يلتفان فى الكفن مشدودتين فلا تفترقان .

ويخطر لى أن التفاف السوق فى الآية كناية عن تزاحم أهل المحتضر واكبابهم عليه ، والتفاف سوقهم بعضها ببعض حواليه ، كما قال ابو العلاء المعرى :

تجمع أهله زمرا عليه
وصاحت عرسه . اودى ، فصاحوا
تكلمنا بأفواه المنايا
من الايام السنة فصاح

فاذا نزل بك الموت أيها الانسان ، وانزعك من بين الاهل والصحب والخلان — فهل تدرى الى اين تقاد وتساق ؟ **(الى ربك يومئذ المساق)** ، اى سوقك وجرك من تلابيبك يكون بعد موتك الى ربك . فهو الحكم العدل ، وله وحده فى امرك القول الفصل ، فكيف لا ترتدع عن حب العاجلة ، ونسيان الآخرة ، وأنت تعلم أن الامور الى الله صائرة ؟

قوله : (فلا صدق ولا صلى الخ) احتجاج على الانسان الجاحد ، وتفصيل لما اجمله أولا : من أمر عناده وتكذيبه مذ كان يقول : (أيان يوم الدين) ؟ ممهدا لنفسه سبيل الاسترسال فى الفجور . فالوحى بعد أن ذكره بأهوال يوم القيامة ، ووصف من حالته يوم يلاقى حمامه — قال : **(فلا صدق ولا صلى)** أى فهو لا (صدق) بالله ولا بوحيه ولا نبيه (ولا صلى) الى الله ، ولا دعاه ، ولا استغفره من فرط فجوره وجحوده ، وانما كان يصلى الى الطواغيت والأصنام . والأولى حمل الصلاة على هذا المعنى لا على معنى الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما قلناه عند قوله تعالى : (قالوا لم نك من المصلين) ، والمراد بالانسان الذى لا صدق ولا صلى أبو جهل ، فان ما وصفه من حاله وشكله هنا هو الذى كان السبب فى نزول الآية . على أن هذا الوصف والتقريع يصلحان لكل انسان صنع صنيعه ، وارتكب من الاثم منكره وشنيعه .

و (لا) الداخلة على صدق وصلى نافية مثل (ما) غير أن (ما) تدخل على الفعل من دون تكرير ، يقال : « ما صدق زيد » كما يقال « ما صدق وما صلى » ، أما (لا) فلا بد من تكرير الفعل معها ، فيقال : « لا صدق ولا صلى ، ولا قام ولا قعد » ولا يقال « لا صدق » أو « لا قام » من دون تكرار ، وكلما تكررت الافعال مع (لا) راجت فى الاستعمال ، وحسن وقعها فى النفوس كقول الراجز :

تسألنا عن بعلها أى فتى ؟
خب جبان واذا جاع بكى
لا حطب القوم ولا القوم سقى
ولا ركاب القوم ان ضلت بغى
ويأكل التمر ولا يلقى النوى
كأنه غرارة ملأى حشا (١)

وقوله : **(ولكن كذب وتولى)** اى أن ذلك الانسان منكر البعث ما آمن بدين الله ولا عبده ، ولكن كذب به ، وأعرض عن عبادته ، والقيام بواجب طاعته .

وكان أبو جهل ونظراؤه من صناديد قريش المكذبين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يغشون مجلسه ، ويستمعون القرآن منه ، ثم يأخذون فى التكذيب والمشاغبة والاستهزاء ، ويرجع الواحد منهم بعد انفضاض المجلس الى أهله وعشيرته متكبرا متبخترا ، مباهيا بما كان منه فى مجلس النبوة من الجحود والاباء والمكابرة والاستهزاء ، والسباب والبذاء ، والاسماع والايذاء ، ليكون له بذلك الفضل عليهم ، والمنزلة الرفيعة فيهم ، وليصرفهم عن الايمان ، وتدبر آيات القرآن ، وليوقع فى نفوسهم أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بالأمر الكريم ، ولا بالذى يستحق العناية والتعظيم .

هكذا كان شأن الواحد من هؤلاء المكذبين فى معاندة الحق ، واطفاء نور الوحى .

وكان صلى الله عليه وسلم هو والصحابة يتأذون بهم ، ويتعوذون الى الله من شرهم وتخذيلهم عن الاسلام ، وصدهم الناس عن الدخول فيه . فكان الوحى السماوى يكفيهم مؤونة اولئك المكذبين المستهزئين بوصف أطوارهم ، والكشف عن عوارهم ، واطفاء ما أوقدوه للفتنة من نارهم : بمثل ما قاله فى هذه الآيات : من أنك ترى الواحد منهم شديد العناد : (فلا صدق) بالله (ولا صلى) اليه (ولكن) اذا حضر مجلس النبى وتلاوة آيات الوحى (كذب) ذلك كله (وتولى) معرضا عنه زاهدا فيه ، **(ثم)** بعد أن يجادل ويقاوم الحق جهده تراه قد **(ذهب)** راجعا **(الى أهله)** وعشيرته **(يتمطى)** فى مشيته ويتبختر كأنه عاد اليهم بكنوز كسرى وقيصر ، وهو لم يفعل سوى قول الزور والأمر المنكر .

وأصل (يتمطى) يتمطط بثلاث طاءات من المط وهو المد ، والمتكبر اذا مشى متبخترا يمط أطرافه ، ويتكفأ ويرجح بذراعيه ، وهذه المشية تسمى المطيطاء ، وهى مشية بنى مخزوم فى الجاهلية وابو جهل منهم ، وقد ورد النهى عنها فى الحديث ، وانما قلبت الطاء الثالثة فى يتمطط الفا فقيل (يتمطى) للتخفيف ، ولهذه الكلمة نظائر فى اللغة فى الفعل الثلاثى المضاعف

---

(١) معنى (لا حطب القوم) انه كسول : لا يجمع لقومه الحطب للايقاد والطبخ و(الغرارة) الجوالق ، والحشا (التبن) .

سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

اذا جيء به من التفعل ، فتتوالى الأمثــال ، فتقلب الأخيرة الفا : فاذا جيء بظن من باب تكلم قيل : تظنن وتظنى ، وبقض : تقضض البــازى وتقضى اذا هــوى ليقع ، وبمط : تمطط وتمطى ، وهكذا .

وقيل ان (تمطى) من (المطا) وهو الظهر ، لأن الذى يمشى المطيطاء متبخترا يلوى مطاه ، ويوسع خطاه .

وبعد ان وصف الوحى من أمر ذلك المتكبر المتبختر ماقبح وسمج ــ عاد اليه فقال مخاطبا له : **(أولى لك فأولى)** . وهذه العبارة ذهبت فى لغة العــرب مذهب المثل فى التخويف والتحذير والتهديد والوعيـــد . و (أولى) أفعل تفضيل من وليه الشىء : قاربه ودنا منــه ، فمعنى (أولى لك فأولى) قد وليــك الشر واوشك ان يصيبك ، فاحذر وانتبه لأمرك . وقيل ان (أولى) بمعنى أحق واجدر ، اى ان العقاب أو الهلاك يا هذا اجدر بك ، وقيل انه بمعنى (ويل لك) ، وفى اعادتهــا وتكريرها فى الآية زيادة تأكيــد فى التهــديد والوعيــد ، ولا سيمــا اقتران الثانيــة بثم مد قال : **(ثم أولى لك فأولى)** ، اى بعد كل ما تتجلد به وتقوله فى اظهار عدم الاكتراث بأمر الله والخوف من عقوبته ــ فانى اكرر عليك التحذير والتخويف ، فاحذر وانتبه لنفسك ، قبل نزول العقوبة بك . والجملة فى أصل وضعها تفيد معنى التهديد والوعيد ، وقد فهم ذلك منها أبو جهل نفسه مذ أخذ صلى الله عليه وسلم يوما بتلابيبه وقال له : « أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى » ، فقال أبو جهل : « أتوعدنى يامحمد ؟ والله ماتستطيع انت ولا ربك فى شيئا ، والله لأنا اعز من مشي بين جبليها (١) » ، ثم لم يلبث أن قتل ببدر شر قتلة ، وتكرير (أولى لك) معهود فى كل مهم ، ومنه قوله :

اردت لنفسى بعض الأمــــور
فأولى لنفسى أولى لهـــــا

---

(١) قوله (بين جبليها) اى بين جبلى مكة ، وهذا كما يقال عن المدينة (بين حرتيها) .

لا شىء فى القــــرآن أعجب ــ وكله معجب ــ من اساليبه فى خطاب المكذبين ، ومذاهبه فى ايراد كلمات النصح والوعظ على أسماعهم . فهو يمزج لهم مرارة التهديد والوعيد بحلاوة التبشير والترغيب ، واذا ذكر ما يفيد اليأس منهم ، عاد فذكر ما يشير الى الرجاء فيهم ، ولا يذكر آية نار أو عذاب الا ذكر بعدها آية جنة أو نعيم ، واذا صدعهم بكلمات الزجر والتعنيف شفعها بكلمات الترقيق والتلطيف . وانظر هنا كيف زجر الانسان المكذب أولا بقوله : (أولى لك) ، أى الويل لك ، أو العقاب على مقربة منك ، فاحذر أيها المتكبر المتعجرف وانتبه ، ثم عاد فقال له : **(أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعــل منــه الزوجـين الذكر والأنثى : أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟)** .

ان ايراد هذه الآيات اللينة بعــد تلك الشــديدة الخشنة ليجتذب القلوب المقفلة ، ويفكك عنها عراها ويستنزل العصم (١) العاقلة من قننها وشماريخ ذراها .

ومعنى (أن يترك سدى) أن يترك هملا : لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف عملا ، ولا يخاطب بشرائع يصلح بها أمره ، ويرتقى على سلمها اجتمــاعه ، حتى يبلغ درجة الــكمال التى قدرهــا الله له ؟ كلا ، لا يحسب الانسان ذلك ، ولا يتهمن الذات الالهية بأن تدعه مــن عنايتها ، وتنساه من عطفها ورعايتها ، بحيث يبقى كالبهائم المرسلة : قصاراها حفظ نوعها بالتوليد وتناول الغذاء ، ثم يكون مصيرها الى الزوال والفناء . لا جرم أن نوع الانسان أكرم على الله من هذه العجماوات ، فهو يمده من وحيه وتشريعه بما يسمو به الى أعلى الدرجات ، فى هذه الحياة وبعد الممات .

اذا تمثل المرء فى ذاكرته شخصه الكريم ــ عليــه الصلاة والتسليم ــ واقفا على نشز فى برية الحجاز القاحلة ، مشرفا على تلك القبائل الخاملة الجــاهلة . التى لم تفقــه مــن أسرار الوجــود ونظام الاجتمــاع ونواميس العمران سوى ما لابد منه فى حفظ حياتها ، بل كانت حياتها أيضا عرضة للفناء والاضمحلال : من تواتر الحروب واستحرار القتال ، وهو صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم هذه الكلمة الحكيمة من وحى ربهم ، ويتلتل نفوسهم الجامدة بهذه العظة الاجتماعية مــن عظات خالقهم : (أيحسب الانسان أن يترك سدى) ؟ من دون شرع يوفر له أسباب الرغد والهناء ، ونظام يكفل له سعادة الاجتماع ودوام الارتقاء ؟ .. من أعاد الى نفسه هذه الذكرى مقرونة بجميع ملابساتها مــن

---

(١) (العصم) جمع أعصم الوعل فى يده بياض ، و (العاقلة) التى اتخذت قنن الجبال معقلا لها لتمتنع فيــه عــلى صائدها ، ويضربونها مثلا لكل ما كان ممتنعا يعسر الوصول اليه .

أطوار الزمان ، وأحوال المكان ، وأخلاق السكان — علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل لا كالرجال ، وشارع الهى حكيم لم يات له التاريخ بمثال .

وقوله : (**نطفة**) ، أى ماء قليل . (**يمنى**) : يراق ويصب . (**علقة**) : قطعة دم غليظة متجمدة . وقوله (**فخلق**) ، أى قدر الله تلك العلقة . ومعنى قدرها جعلها ذات قدر وشكل ووضع مؤد الى قيامها بوظيفتها ، وحسن الانتفاع بها . فالخلق هنا ليس معناه الايجاد من العدم ، لأنه تعلق بالعلقة وهى سابقة فى وجودها ، لكنها لم تكن مخلقة ومقدرة تقديرا ترتقى فيه فى مراتب الحياة الكاملة . حتى كان الله تعالى هو الذى قدرها وكملها . وليس ذلك فقط بل انه تعالى بعد أن قدرها ، سواها : أى جعل اجزاءها وأعضاءها متساوية متعادلة متلائمة : بعضها مناسب لبعض ، ومواتٍ له فى عمله ، فلا يقع بينها تضاد ولا تدافع فى ايفاء وظائفها التى خلق المجموع لأجلها .

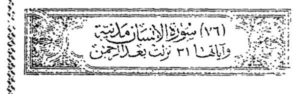
(فالخلق) بمعنى التقدير ملاحظ فيه مجموع الجسم ، وصلاحيته بجملته للغرض الذى خلق من أجله . و (التسوية) ملاحظ فيها كل عضو أو جزء بالنسبة الى الجزء الآخر ، وتلاؤمه معه بحيث تؤدى كل الأجزاء أو الأعضاء وظائفها على وجه الكمال .

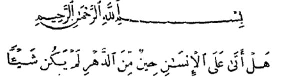
والضمير (**منه**) قالوا انه راجع الى الانسان ، اى انه تعالى بعد أن خلق العلقة فسواها انسانا ، خلق من الانسان الذكور والاناث ، يعنى ان الانسان الواحد يولد له أولاد ذكور وأولاد اناث .

ويخطر لى أنه راجع الى الماء القليل الذى يصب صبا ، فيفيد بذلك زيادة فى تصوير الحالة ، وتجسيم الغرابة أمام عينى الانسان ، فيدرك أن الزوجين الذكر والأنثى اللذين يتكون من بينهما البشر لم يخلقا الا من مويهة حقيرة : حرارة الشمس تطيرها بخارا ، ومسحة نعل تلاشيها فلا تبقى لها آثارا .

هذا هو أصل الانسان والعرق الذى ينتمى اليه . فليتدبر الأمر ولينصف فى الجواب على هذا السؤال : (**أليس ذلك**) الاله الخالق الحكيم الذى رقى بالانسان من طور نقصه وحقارته ، الى طور كماله وسعادته — (**بقادر على أن يحيى الموتى ؟**) فيرقى بهم من طور التراب الذى صاروا اليه ، الى طور من الوجود والخلق أكمل يصبحون عليه ؟ بلى ! فان من قدر على خلقهم من ماء مهين ، قادر بالضرورة على اعادة خلقهم من تراب وطين ، لاسيما والاعادة أهون من البدء ، وجمع المتفرق أسهل من ايجاد المعدوم .

يروى انه صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟) اتبعها بقوله (بلى سبحانك !!)





بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

قوله : (**هل أتى الخ**) وان كان فى صورة الاستفهام فان المراد به التقرير والتحقيق فتكون (هل) قامت فى الآية مقام (قد) نفسها . وذلك كقولك لآخر : «هل أكرمتك ؟ » والمخاطب يعرف انك أكرمته . وانما تريد تحقيق الاكرام وتأكيد امره . كأنك تقول : « قد اكرمتك » . وكذلك الشأن فى الآية ، فان كل واحد من بنى الانسان مر عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا لا يفطن له أحد ، وذلك مذ كان جرثومة فى صلب أبيه ، أو جواهر فردة منبثة فى عناصر هذا الكون . أو المراد بالانسان نوع الانسان بجملته ، فانه أيضا مر عليه حين من الدهر — الله وحده يعلم مقداره — كانت هذه الكرة الأرضية خالية منه ، فلم يكن شيئا مذكورا ، بل كان شيئا منسيا مغمورا ، لايذكره ولا يعلم به الا الذى يريد أن يخلقه وهو الله تعالى .

بعد أن قرر أن الانسان مر عليه وقت لم يكن فيه موجودا أخذ يشرح كيف أفاض الله عليه نعمة الوجود واختبره بالتكليف بعد أن متعه بنعمة الادراك والحواس فقال : (**انا خلقنا الانسان**) ، اى نوع الانسان ، أو كل فرد من أفراده (**من نطفة**) : مويهة وهى القليل من الماء ، كما ذكر فى ختام السورة السابقة . فتكون فاتحة هذه السورة مرتبطة بخاتمة تلك ، ومقررة لمضمون ما ذكر فيها . وهذه النطفة (**امشاج**) ، أى اخلاط واحدها مشْج ومَشَج ومشيج ، يقال مشج الشيئين ، ومشج بينهما اذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر . ووصف (النطفة) وهى مفرد بالأمشاج وهى جمع على عادة العرب فى طائفة من كلمات لغتهم هى جموع لكنهم يصفون بها المفردات اعتبارا بأجزائها : فيقولون مثلا « ثوب أخلاق » كما يقولون « ثوب خلق » ويريدون فى الأول أن الخلوقة أى البلى عمت جميع أجزائه ولم تقتصر على بعضها . اما قولهم ثوب خلق بالافراد فليس نصا فى خلوقة

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا

جميع الأجزاء ، بل يحتمل أن يكون بعض أجزائه خلقا وبعضها غير خلق . وهكذا نطفة أمشاج فانه يدل على أن كل جزء منها مشيج مزيج من طبائع مختلفة ، وعناصر متعددة .

وامشاج البدن عناصره وطبائعه التى يتركب منها . فالآية تشير الى أن العناصر والطبائع التى يتركب منها بدن الانسان لحين اشتداده وتمام نموه كانت مخبوءة فى النطفة الصغيرة والموهبة الحقيرة التى تكون منهـا . واذا كان الانسان قد ركب من طبائع امشاج مختلفة فهو يورث تلك الطبائع بالضرورة أنساله وأعقابه ، فتنتقل اليهم ، وتتوزع بين أفرادهم ، على تفاوت فى ذلك من حيث الكيف والكم ، والقـوة والضعف ، والأحوال الأخرى . وهذا معنى قوله تعالى : (وقد خلقكم أطوارا) عند مـن قال مـن المفسرين ان المراد بالأطوار الغرائز المتباينة ، والطبائع المختلفة التى ركبت فى فطر البشر .

ولماذا يارب خلقت الانسان هكذا امشاجا ذا طبائع مختلفة ، غرستها فيه منذ كان نطفة ، ثم نقلتها الى أفراده بعـد أن شبوا وكبروا وتفـرقوا على وجـه البسيطة ؟ قال تعالى فى جواب هذا السؤال : انا خلقناه كذلك (**نبتليه**) ، أى مريدين ابتلاءه واختباره فيمـا نوحيه اليه من الشرائع والتعاليم ، وفيما نمهده أمامه من سبل التكاليف ، لنرى : أيكفر أم يشكر ؟ ويستقيم فى سيره أم يضل ويعثر ؟ ولو لم يكن نوع الانسان مخلوقا مشيجا من طبائع مختلفة ، وغرائز متباينة ، بل كان ذا عنصر بسيط ، وطبيعة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين ـ لكانت أفراده كذلك ، فيندفعون فى أعمالهم ومساعيهم الى سلوك طريقة واحدة ، والتزام شاكلة فاردة ، فلا يتم الابتلاء والاختبار الذى أراده تعالى فى قـوله (نبتليه) ، ولا يبقى معـنى للتشريع والتكليف ، بل لم يكن عالم بشرى ، ولم ينشأ عمران انسانى . وربما كان هذا هو تأويل قوله تعالى فى سورة هود : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ، أى ذات صبغة فى الطبائع والغرائز واحدة . لـكنه تعالى لم يشأ ذلك ليتم قيام العالم الانسانى ويبلغ طور كماله ، فجعلهم أمما مختلفة فى الطبائع والغرائز والاستعدادات : فهم بسبب ذلك يختلفون فى مساعيهم ، ويتنافسون فى أعمالهم وسائر شئونهم ، (ولا يزالون) هكذا (مختلفين) اختلافا يؤدى ببعضهم الى سعادته ، وببعضهم الآخر الى شقاوته ، (الا من رحم ربك) أى لكن الموفقين ممن رحمهم الله ، وأراد لهم السعادة ـ يسلكون سبلها ، ويردون مشارعها . (ولذلك) أى لأجل هذا الاختلاف الذى يتوقف عليه قيام أمرهم ، ونشـوء عمرانهم ، وتكامل اجتماعهم ـ (خلقهـم) سبحانه وتعالى .

قلنا : ان الله تعالى خلق الانسان من نطفة أمشاج فكان ذا طبائع أمشاج ليتم الابتلاء والاختبار . ولكن هل يتم ذلك من دون أن يكون للمبتلى الممتحن عقـل ونطق واختيار ؟ كلا ، ولذلك قال تعالى : (**فجعلناه سميعا بصيرا**) ، أى خلقناه من نطفة ذات أمشاج لأجل امتحان أمره بالتكاليف والشرائع (فجعلناه) من أجل ذلك ، ومن أجل أن تقوم الحجة عليه (سميعا) : ذا سمع يسمع به الوحى والحكمة والشرائع ، (بصيرا) : ذا بصر يبصر به الآيات والعبر ، ويسعى بنـوره الى تلقى العلم والمعرفة ، وما به يقوم أمره ، وينتظم حاله . فلم يبق له ـ بعد أن منحناه السمع والبصر ـ مـن حجة يحتج بها ، أو عذر يتعلل به .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (فجعلناه سميعا بصيرا) : اننا جعلناه ذا عقل وادراك يميز به الخـير من الشر ، والحق من الباطل ، ويتمكن من اختيار ما به صلاحه وسعادته . وانما كان قوله : (سميعا بصيرا) دالا عـلى ذلك ، لأن استجمـام عقـل الانسـان ، واستجماع قواه ومداركه ـ انما يكون من طريق هاتين الحاستين : السمع والبصر . ولو ولد البشر صمـا عميا منذ أول نشأتهم على وجه البسيطة ـ ما كان لهم من العقل والادراك مثل ما لهم اليوم ، أو ما كانوا بشرا ، بل مخلوقا آخر له سنن لحياته ونواميس لمعيشته ... الله أعلم بها .

أهذا يارب كل ما منحته الانسان وسلحته به لارادة الابتلاء والاختبار الذى كتبته عليـه مذ خلقتـه ؟ أم هناك شىء آخر وراء ذلك ؟ فان عقل الانسان مهمـا حصف ، ومداركه مهما استحكمت ـ تبقى معرضة للغى والزيغ مرة ، والحيرة والاضطراب مرة أخرى ؟ قال تعالى : (**انا**) فوق ما منحنا الانسان من نعمـة العقل والادراك (**هديناه**) : دللناه وأرشدناه وأريناه (**السبيل**) . والمراد بالسبيل جنس السبيل كأنه يقول : أشرعنا أمام عينيه السبل المختلفة مذ أوحينا اليـه شرائعنا بواسطة الرسل . وقد تضمنت هذه الشرائع أمهـات الفضـائل والأعمـال الصالحـة ، وأمرناه بممارستها ، واتباع طريقها . كمـا أبنا له فى هـذه الشرائع الذنوب والآثام التى لانرضاها له ، ونهيناه عن

اتيانها ، وسلوك طريقها : أنزلنا له ذلك ، ودللناه عليه . ثم انه بعد هذا ، وبعد أن منحناه العقل ــ (**اما**) أن يكون (**شاكرا**) لنعمتنا ، فيسلك سبيل الخير والطاعة ، فيستحق رضانا ، وندخله دار كرامتنا ، (**واما**) أن يكون (**كفورا**) لأنعمنا ، فيخالف أمرنا ، ويكذب وحينا ، ويختار لنفسه سبيل الشر والفجور ــ فيستحق سخطنا ، وندخله دار عذابنا . فالله تعالى دل الانسان على سبيلى الشكر والكفر ، وعليه هو أن يختار سلوك هذا أو ذاك . وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للانسان ارادة واختيارا هما مناط التكليف .

قوله : (**انا أعتدنا الخ**) شروع فيما أعده الله يوم القيامة لكل من فريقى الشاكرين الطائعين ، والمعاندين الجاحدين . ومعنى (اعتدنا) أعددنا وهيأنا . و (السلاسل) القيود ، وقالوا انها تكون فى الأرجل . أما (الأغلال) فالأطواق من حديد أوقد ، وتكون فى الأيدى . و (السعير) النار الموقدة .

(والأبرار) جمع بر بفتح الباء ، والبر والبار من جمع فى نفسه بين الصدق والتقوى والاخلاص الى الله والاحسان الى خلقه . و (الكأس) كما تطلق على الزجاجة بشرابها تطلق على الشراب نفسه . وضمير (مزاجها) يرجع الى الكأس بالمعنى الثانى . وكل شيئين اختلطا كان احدهما مزاجا لصاحبه ، فمزاج ذلك الشراب الذى يشرب منه الأبرار كافور . و (الكافور) طيب معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين ، وهو من انفس الطيوب عند العرب . والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها ــ فى طيب رائحتها وفوحان شذاها ــ كالكافور .

ولما ذكر أن الأبرار يشربون شرابا هذه صفته ــ عاد فمدحه بقوله : (**عينا يشرب بها عباد الله**) . فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفى ذكرها زيادة بيان للشراب الذى يشربه أولئك الأبرار ، من حيث انه مستمد ومستقى من تلك العين . وفعل (يشرب) يتعدى الى مفعوله بنفسه تارة فيقال يشربها ، وبالباء تارة كما فى الآية فيقال يشرب بها ، ومنه قول عنترة فى ناقته :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت
زوراء تنفر عن حياض الديلم

والدحرضان ماءان يقال لأحدهما « دحرض » ، وللآخر « وسيع » فغلب دحرضا لشهرته على الآخر . يقول : ان ناقته شربت من ماء هذين الموردين ومن ثم أصبحت مائلة نافرة عن الحياض الأخرى المسماة « حياض الديلم » ، وقد اختلفوا فيها وفى سبب تسميتها بحياض الديلم اختلافا كبيرا .

وقال البصريون : الباء فى الآية وفى قول عنترة وأمثالهما زائدة كزيادتها فى قوله تعالى : (ألم يعلم بأن الله يرى) ، وفى قول الشاعر :

من الحرائر لا أرباب أخمرة
سود المحاجر لا يقرأن بالسور

وفى قولهم : « تكلم فلان بكلام حسن » ، فيجوز حذف الباء فى الكل .

و (**عباد الله**) هم الأبرار المذكورون ، أعاد اسمهم بهذا الوصف تكريما لهم ، وتشريفا باضافتهم اليه تعالى . و (فجر) الماء بالتشديد مبالغة فى فجر الثلاثى اذا بجسه وشق له طريقا يجرى فيه بشدة بعد أن كان محبوسا . وقوله : (**يفجرونها**) وصف للعين التى يشرب ماءها الأبرار . يقول : ان تلك العين مواتية لهم فى الانبثاق والجريان ، فهم ينتفعون بها ، ويتناولون ماءها كيفما شاءوا وأحبوا . وسيأتى لنا فى هذه السورة بيان النعيم الذى يكون للأبرار فى الجنة ، والعذاب الذى يكون للفجار فى جهنم .

كأن قائلا يقول : وبماذا استحق الأبرار منك هذا الاكرام يارب ؟ فأجاب بقوله : (**يوفون بالنذر ويخافون الخ**) ، فذكر من خلائقهم التى استحقوا بها ذلك ثلاث خصال : خوفهم يوم القيامة ، فان الخوف الحق منه يجعل المرء ينشط للطاعة ، وعمل الصالحات ، وممارسة الفضائل ، واجتناب المعاصى . وان لم يفعل لم يكن خائفا ، ولم يكن من الأبرار وان اتسم بسمتهم ، وادعى أنه مستقيم على مثل طريقتهم .

و (مستطيرا) : منتشرا فاشيا فى كل جهة . وأكثر ما يستعمل فى ما فيه نار أو نور . يقال : استطار الحريق ، واستطار الفجر والبرق .

والشر والشيب يستعار لهما اشتعال النار كثيرا ، فناسب أن يقال فيهما استطار . ويقال أيضا استطار الغبار اذا سطع وانتشر .

وذكر من خلائق أولئك الأبرار أيضا العناية بضعفاء البشر ومواساتهم ، والاجتهاد فى ايصال كل خير اليهم ، ودفع كل ضر عنهم فقال تعالى : (**ويطعمون الطعام الخ**) ، وقد قلنا ان هذا الخلق من أخص أخلاق الأبرار ، ومن ثم قال الحسن البصرى : « البر من لايؤذى الذر » . وانما ذكر من ضروب المواساة اطعام الطعام لكونه الأصل فى قيام البنية ، وحصول الحياة ، والا فان البار لا يقتصر من عمل الخير ومعونة الضعفاء على الاطعام فقط . وسيأتى . وقد عم فى عنوان هؤلاء الضعفاء أولا فقال (**مسكينا**) ، والمسكين مشتق من السكون ، وهو الذى جعله فقره أو ضعفه أو ذله أو انقطاع اسباب الدنيا عنه ــ ساكنا قليل الحركة بحيث لا يفطن اليه فيعطى ، ولا يعتنى به فيواسى . ثم خص من هؤلاء المساكين نوعين هما أشد عرضة للضياع والتلف من سائرهم : (اليتيم) ، وهو الصغير الذى فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال ، أو المراد به هنا من فقد كافله من أب وأم أو غيرهما فأصبح وحيدا بمعزل عن الناس ، فان اليتيم فى اللغة المنفرد من كل شىء حتى سموا البيت المنفرد والبلد المنفرد والرملة المنفردة يتيما لذلك . فهذا الصغير المنفرد عن الكافل فى مدرجة الهلاك والضياع ، وان العناية به بالتربية والتعليم والاطعام والالباس من سمات الأبرار ، والتفريط فى حقه واهمال أمره من صفات الفجار .

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا

ومن الضعفاء الذين خصهم القرآن بالذكر من بين المساكين ، وحض على مواساتهم واطعامهم والعناية بهم (الأسير) ، ويعنى به من كان من غير أبناء ملتنا اذا وقع فى أيدينا بعد حرب وقتال . أما مواساة الأسير اذا كان من أبناء ملتنا فبالطريق الأولى . هؤلاء الأسارى ـ لمخالفتهم لنا فى الدين والقومية واللغة أحيانا ، ولانقطاعهم فى بلادنا عن الناصر والمعين ، ولما تأصل بيننا وبينهم من الأحقاد والعداوات ـ يصبحون عرضة للايذاء والتحقير والعنت . فالقرآن هتف بالمؤمنين منبها لهم ، ومحذرا من اجاعتهم وارهاقهم واساءة معاملتهم مذ قال (**وأسيرا**) ، أى ومن صفات الأبرار أنهم يطعمون الأسير غير المسلم ، ويرفقون به ، ولا يدعون أحدا يخلص بشر أو أذى اليه ، ولا يحملونه فوق طاقته من الأعمال .

تقول : ومن أين فهمت النهى عن الأذى والله تعالى انما أمرنا باطعامه ؟ أقول ان هذا على حد قوله تعالى : (ولا تقل لهما أف) . نهانا عن كلمة أف للوالدين ، فكان نهيا عن سائر ضروب الاغضاب ، وهنا نهانا عن اجاعة الأسير فكان أمرا بالمواساة العامة ونهيا عن سائر ضروب الايذاء ، لأن الأذى النفسى أشد نكاية وايلاما من الأذى الجسمى ، وليس ذكر الطعام الا مثالا . قال المفسر النيسابورى : « ثم ان الاطعام ليس بواجب على التعيين ، ولكن الواجب مواساته بأى وجه كان ، وانما عبر عن المواساة بالاطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الاحسان هو الطعام الذى به قوام البدن ، يقال : « أكل فلان مال فلان اذا أتلفه بأى وجه كان ، وان لم يكن بالأكل نفسه » اهـ .

أما أن المراد بالأسير الأسير غير المسلم فهذا ظاهر من أن المخاطبين لحين نزول هذه الآية لم يكن يقع فى أيديهم الا الأسارى من مشركى العرب . وقد نقل عن عكرمة وقتادة أنهما قالا فى تفسير هذه الآية : « لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن اليهم وان أسارى الصحابة يومئذ لأهل شرك » ، وقال الحسن البصرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول : « أحسن اليه » ، فيكون عنده اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وكفى بهذا منقبة للقرآن ، وشهادة على سمو آداب الاسلام .

وقوله : (على حبه) ، أى على حب الطعام . والمعنى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم الى ذلك الطعام فى سد جوعتهم وجوعة عيالهم يطيبون نفسا عنه للبؤساء ، ويؤثرونهم به على أنفسهم .

أما الخصلة الثالثة التى استحق بها الأبرار رضاء الله وكرامته فهى الوفاء بالنذر . وأنت ترى أنه خص هذه الخصلة بالتقديم على الخصلتين الأخريين ، وليس ذلك لأن المراد بها أن ينذر المؤمن لله صيام يومين ، أو صلاة ركعتين ، أو اطعام رغيفين ، ثم يفعل ما نذره ـ ليس المراد ذلك وان كان الوفاء بما ذكرنا مطلوبا شرعا ، وانما المراد بالوفاء بالنذر الذى جعله الله من صفات الأبرار فى قوله تعالى : (يوفون بالنذر) ـ قوة الارادة ، فلا يأخذ على نفسه عمل خير ، أو ممارسة فضيلة ، أو قياما بأمر نافع له أو لقومه دنيا وأخرى ـ الا أمضاه ووفى به . ويدخل فى ذلك الوفاء بما نذر من قربة أو طاعة . أما أن الواحد منا يفكر فى عمل صالح ينفع قومه ، ويعلن انه يريد القيام به والاقدام عليه ، ثم يتقاعد عنه ويفتر ، ويماطل اذا سئل عنه ويعتذر ـ فهذا هو ضعف الارادة الذى عابه القرآن فى غير ما موضع من آياته ، ولم يجعله من خصال الأبرار الذين يستحقون دخول جناته .

قال ابن جرير فى تفسيره : « والنذر هو كل ما أوجبه الانسان على نفسه من فعل ، ومنه قول عنترة :

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما
والناذرين اذا لم ألقهما دمى » . اهـ

ولا يخفى أن سفك دم عنترة الذى نذره ابنا ضمضم ليس من القربات فى شىء . فهذا هو النذر فى لغة العرب ، وهذا هو طريق استعماله لحين نزول القرآن . ثم لما شاع استعماله فى نذر القربات والصدقات لم يعد يفهم منه الا نذر هذه الأشياء : ككثير من كلمات اللغة الواردة فى القرآن والسنة ، اختلفت معانيها باختلاف الزمان (١) . وعلى المفسر المتقن أن ينتبه الى ذلك الاختلاف . وليفطن الى أن الوفاء بالنذر الذى مدحه القرآن فى هذه الآية عبارة عن قوة الارادة التى من آثارها ابراز كل عمل صالح نافع الى ساحة الوجود بعد أن جرى التصميم عليه فى ساحة الفكر ، وان لم يبرزه المفكر لم يكن موفيا بالنذر ، ولم يكن من الأبرار

---

(١) من ذلك كلمة الولى التى جاءت فى القرآن بمعنى الناصر كما فى قوله تعالى : (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، ثم أصبح لها فى العرف معنى آخر وهو ذو الكرامات من المشايخ . وكلمة (الصالح) التى جاءت فى القرآن بمعنى القادر على العمل كقوله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى القادرون على عمارتها ، ثم أصبح لها معنى آخر وهو المسلم الذى يصوم ويصلى ولا يرتكب كبيرة .

الذين تصدق عليهم هذه الآية ، بل تصدق عليه آية (يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وقوله : (**انما نطعمكم**) الخ ليس من قول أولئك الأبرار المطعمين بالسنتهم ، بل ليس من المادح أن يخاطبوا به هؤلاء المساكين المتحلقين حول موائدهم ، وانما هو مما قاله الوحي عنهم مشيرا الى أن حالهم ناطقة بذلك . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : « أما والله ماقالوا ذلك بالسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى به عليهم ، ليرغب فى ذلك راغب » .

و (**شكورا**) مصدر شكر كالشكر والشكران ؛ والمعنى أنهم يواسون الفقراء والمساكين ارادة اكتساب رضاء الله بخدمة الخلق الذين هم عياله والاحسان اليهم ، لا لتحصيل غرض دنيوى أو مصلحة أو مكافأة تعود عليهم ، والا لم يكن المواسى محسنا الى المساكين ، بل محسنا الى نفسه ، ولم يكن خادما لعيال الله ، بل خادما لمصلحته ، ولا مقرضا ربه قرضا حسنا ، بل تاجرا يبغى الربح من وراء سلعته .

رووا عن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها انها كانت تبعث بالصدقة الى أهل بيت من الفقراء ، ثم تسأل الذى أرسلته بالصدقة : ما قالوا لك ؟ فان ذكر أنهم دعوا ، أخذت هى بالدعاء لهم ، ليبقى عملها الصالح خالصا لوجه الله ، لا واقعا فى مقابل عوض من دعائهم .

قوله : (**انا نخاف**) الخ هذا ايضا مما يقوله الأبرار بلسان حالهم فى السبب الذى بعثهم على اطعام المساكين ، ومواساة المستضعفين : ذكروا أولا أنهم انما أطعموهم لوجه الله ، ورغبة فى رضاه لا طمعا فى جزاء مجازى ، أو ثناء مثنى ، وقالوا هنا انهم انما أطعموهم لكونهم يخافون من أيام ربهم (**يوما عبوسا قمطريرا**) وهو يوم القيامة الذى ذكر من قبل أنهم يخافونه ، ووصفه باستطارة شره ، وفظاعة أمره ، وهذا هو الخوف الحق الذى ينفع صاحبه ، فيحمله على الرفق بالفقراء ، ومواساة الضعفاء .

وأراد من وصف اليوم (بالعبوس) شدته وعظم هوله على الخلائق ، أو أراد ان الخلائق انفسهم يكونون من شدة الغم والقلق الذى يغشاهم فى ذلك اليوم ذوى عبوس شديد ، فنسب العبوس الى اليوم لا اليهم توسعا ، نحو قولهم : « نهاره صائم » ، وانما الصائم الشخص لا اليوم ، ونحو :

واخو الهموم ــ اذا الهموم تحضرت
جنح الظلام ــ وساده لا يرقد

جعل الوساد لا يرقد ، وانما الذى لا يرقد صاحبه .

وقوله : (**قمطريرا**) ، اى شديدا مظلما عصيبا ، ويقولون « شر قمطرير » اى شديد ، ورجل قمطرير ، شديد العبوس ، قد قبض ما بين عينيه من فرط الغم .

هؤلاء المحسنون الأبرار ، الذين خففوا آلام المرهقين المتعبين ، وعطفوا على ذوى البؤس والعجز فى الدنيا خوفا من أهوال يوم القيامة ــ نالوا الثواب على حسن صنيعهم ، (**فوقاهم الله**) الذى فعلوا لأجله ما فعلوا من العمل الصالح (**شر ذلك اليوم**) أى أذى ذلك اليوم العبوس الذى خافوه ، ودفع عنهم ما كانوا يحذرون من شدته وهوله ومكروهه ، (**ولقاهم**) اى ألقى عليهم مكان الشدة والرهق والعبوس الذى يغشى الفجار (**نضرة**) حسنا وبشاشة وبريقا فى وجوههم (**وسرورا**) أى فرحا وغبطة وحبورا فى نفوسهم ، (**وجزاهم**) أثابهم وكافأهم (**بما صبروا**) فى مقابل صبرهم على مرارة الطاعة والعمل الصالح والايثار بالمال (**جنة**) دخول جنة ذات شأن من الجنات التى أعدها لأهل طاعته ، (**وحريرا**) اى وأثابهم أيضا حريرا .

وفى الآية ايجاز ، آخذ بأطراف الاعجاز . ذلك أنه أشار بقوله (جنة) الى مايتمتع به أولئك الأبرار فى دار الكرامة من صنوف الثمار الشهية ، والمطاعم الهنية ، فان الجنة لا تسمى جنة الا وفيها ذلك . كما أشار بقوله (حريرا) الى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التى من انفسها واغلاها عند العرب الحرير . فهو تعالى قد جمع لهم فى الثواب والمكافأة بين الشعورين : الشعور بلذة الطعام ، والشعور بلذة اللباس ، وكل هذا تنازل من العناية الآلهية فى تصوير المسرات الأخروية الينا معشر البشر ، وتقريبها من متناول اذهاننا . وستأتى زيادة ايضاح لذلك .

ومن مظاهر الخفض والدعة والنعيم التى يتقلب فيها أولئك المحسنون الأبرار ما وصفهم الوحى به فى قوله : (**متكئين فيها**) اى فى الجنة (**على الأرائك**) جمع اريكة وهى السرير ترخى عليه الحجلة ، والحجلة هى ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور ، ويتخذ عادة للعرائس ، ومن ثم يفرغ الوسع فى تحسينها وتزيينها ، فاذا أريد من الحجلة الوقاية من البعوض سميت كلة ، ونسميها اليوم « ناموسية » .

ومعنى اتكائهم على الأرائك انهم جالسون عليها متمكنين . وللاتكاء معنى آخر وهو أن يجلس المرء على احد شقيه معتمدا على وسادة أو نحوها ، وهذا المعنى هو المشهور المتبادر من الاتكاء عند الاطلاق . ولا تناسب ارادته فى الآية ، لأن الأرائك لا يتكأ عليها بهذا المعنى ، وانما يتكأ على الوسائد والنمارق ، اللهم الا اذا جعلناه من موجز الكلام ، وأن أصله هكذا « متكئين على النمارق جلوسا على الأرائك » ، فحذف « على النمارق » لدلالة « متكئين » عليها ، وحذف«جلوسا» لدلالة « على الأرائك » عليها . ويكون هذا الايجاز كقوله بعده فى صفة الأبرار أيضا أنهم (**لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا**) ، يريد أنهم لا يرون فى الجنة شمسا ولا قمرا . ولا يحسون حرا ولا زمهريرا . فمذ نفى رؤيتهم للشمس التى فى الخلد انهم لا يرون القمر أيضا ، كما أشعر أنهم لايحسون الحر لأن القمر والحر كليهما من متولدات الشمس ، فهى التى تنير القمر فينير علينا ، وهى التى تشع حرارتها فتشعر بها أجسامنا . أو انه لما نفى أنهم يرون الزمهرير وهو البرد أشعر أنهم لا يرون الحر أيضا ، لأن الحر أخو

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

البرد ، فانظر كيف استوعب بهاتين الكلمتين طائفة من المعانى . والقصد أن فى الجنة نورا خاصا ليس منبعثا عن شمس ولا عن قمر ، وأن هواءها معتدل . ليس فيها شىء من حر الشمس المرمض ، ولا من برد الزمهرير المؤذى ، وهذا هو المراد بالزمهرير فى قول الأكثرين ، وقال بعضهم : ان الزمهرير هنا اسم للقمر فى لغة طى ، قال شاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ماظهر

وعطف الزمهرير فى الآية على الشمس ربما أشعر بأن المراد منه القمر ، فهو تعالى يقول انهم لا يرون فى الجنة شمسا ولا قمرا ، وان لهم من نورها الخاص بها ما يغنيهم عن ضياء هذين النيرين .

قوله **(ودانية)** الخ عطف على (متكئين) أو على (لا يرون) ، وكلها أوصاف للأبرار ، وأحوال من الضمير الراجع اليهم فى (وجزاهم) ، وضمير (ظلالها) و (قطوفها) للجنة ، والمراد بظلالها ظلال أشجارها ، وهو كناية عن اشتباك أغصان تلك الأشجار وتهدلها من حوالى الجالسين تحتها ، والا فان الظلال أثر من آثار ضياء الشمس ، وقد ذكر آنفا أنه لا شمس فى الجنة ، اللهم الا أن يكون لنور الجنة الخاص بها ظلال تتولد عنه ، و (القطوف) جمع قطف بكسر القاف : العنقود ساعة يقطف ، ومعنى **(ذللت قطوفها)** أن عناقيد ثمارها قد خلقها الله سهلة القطف ، قريبة من أيدى المتناولين ، لا يحول بينها وبينهم بعد ولا شوك .

يقال ذل الرجل ذلا بضم الذال اذا هان وحقر بعد عز ، فهو ذليل ، وذل البعير ذلا بكسر الذال : سهل وانقاد بعد صعوبة ، فهو ذلول ، ومن هذا الأخير « بقرة ذلول » و «ناقة ذلول » — ويلفظها الناس « دلول » بالدال المهملة — (وجعل لكم الأرض ذلولا)، وفى خطاب النحل (فاسلكى سبل ربك ذللا) ، ومنه تذليل القطوف هنا ، ويقولون : ذلل الكرم اذا دليت عناقيده ، و (الآنية) جمع اناء ، وهو الوعاء يوضع فيه الطعام والشراب . وقد فهم بعضهم من قوله : (ويطاف عليهم بآنية) أن أهل الجنة يأكلون طعامهم على الطرز الذى عليه أهل الترف اليوم : مذ يحمل الغلمان صحاف الطعام حول المائدة ، ويدنون من الآكلين واحدا واحدا ، فيتناول كل منها حاجته .

وعطف قوله : **(وأكواب)** على (آنية) يشعر أنه يريد بالآنية صحاف الطعام ، لأن الأكواب أوانى الشراب ، وهى جمع كوب ، والكوب قدح مستدير الرأس لا عروة له ولا خرطوم ، ونحرفه اليوم فنقول « كباية » .

ذكر أولا أن آنية الطعام من فضة ، ثم لما جاء لوصف أكواب الشراب قال : **(كانت قواريرا قواريرا)** ، و (القوارير) جمع قارورة ، وهى وعاء الزجاج المعروف . فهو يقول ان الأكواب زجاجات ، ثم قال ان تلك الزجاجات متخذة **(من فضة)** ، فكيف يكون ذلك والفضة غير الزجاج ، والمعدنان مختلفان ايما اختلاف ؟ ولمكان هذا الاشكال الذى خامر نفس السامع أكد كلمة القوارير مكررا لها ، فهو يقول : ان هذه الأكواب — مع كونها متخذة من فضة — هى قوارير هى قوارير . فالسامع يتنبه بهذا التكرار الى أن الأمر جد ، وأن الحكم عليها بأنها قوارير ليس الا لمعنى دقيق اقتضى وصفها به مع أنها فى ذاتها من فضة . وبعد التأمل يدرك أنها انما سميت قوارير لكونها رقيقة شفافة شفوف القوارير ، فهى اذن قد جمعت بين بياض الفضة وحسنها وصفائها ، وشفوف القوارير ورقتها ولألائها .

تقول : ولماذا أقحم كلمة (كانت) بين (أكواب) و (قوارير) وهى لو طرحت لصح المعنى ؟ أقول : (كانت) هنا هى من الكون الذى يقع بعد قوله تعالى للشىء : (كن فيكون) و « كن فكان » ، أى فيتكون ذلك الشىء ، ويحصل بمجرد تعلق مشيئة الله به . فهو اذن من عالم الارادة الالهية لا من عالم الأسباب الدنيوية . فتكون تلك الأكواب بما جمعته من صفات الابداع فوق كل ما يتصوره العقل من صنوف الأكواب التى تعاورتها الصناعة الدنيوية .

والضمير فى **(قدروها تقديرا)** يصح ارجاعه الى السقاة الطائفين بالأكواب ، كما يصح أن يكون راجعا الى الشاربين المطوف عليهم بها . فالمعنى على الأول أن السقاة يقدرون الشراب الذى يقدمونه للشاربين فى تلك الأكواب : بحيث لا يزيد على رغبتهم ، ولا ينقص عنها ، فيكون ذلك أهنأ لهم وأمرأ . والمعنى على الثانى أن الشاربين قدروا فى نفوسهم تلك الأكواب وتصوروها على أوضاع وأشكال مختلفة ، فكانت اذا تداولوها ، رأوها طبق أمانيهم ، وعلى مثال تقديرهم .

مر ان مزاج الكأس التى يشرب بهـا الأبرار فى الجنة كافور ، وأن العين التى يتناول منها شراب تلك الكأس يفجره أولئك الأبرار ، ويجرونه انى شاءوا من الجنة. وقد ذكر هنا أن تلك العين (تسمى سلسبيلا) ، وان مزاج الكأس التى يسقونها يكون (زنجبيلا) ، وذكرنا أيضا أن معنى كون مزاجهـا كافورا فوحان رائحة الكافور منها عند شربها ، ولا ينافى هـذا ان يفوح منها احيانا رائحة الزنجبيل : تفوح الرائحتان معا ، أو مرة هذه ومرة تلك .

وقيل المراد انهم يجـدون طعم الزنجبيـل فى الشراب . لا انهم يشمون شذا الزنجبيل من الشراب شما .

و (الزنجبيل) عروق نبات كالقصب تمتـد فى الأرض ، ويتولد فيها عقد حريفـة الطعم ، معرب « شنكبيل » بالفارسية . والعرب يستلذون طعمه كما يستلذون رائحة الكافور . قال الأعشى :

كأن القرنفـل والزنجبيـ ـل باتا بفيها واريا مشورا

يصف طعم فم محبوبته وحلاوته فى المذاق .

و (الأرى) : العسل . و (المشور) اسم مفعول من شار العسل اذا اجتناه من خليته . ومثـل الزنجبيل فى استلذاذهم طعمه فى الخمر ، الفلفل . قال حسان بن ثابت :

ولقد شربت الخمر فى حانوتها
صهبـاء صافيـة كطعم الفلفـل

وقال امرؤ القيس :

كأن مكاكى الجـواء غـديـة
صبحن سلافا من رحيق مفلفل

يقول كأن طيور هذا الوادى وقت الصباح شربت رحيقا تفوح منه رائحة الفلفل ، أو يلذع اللسان لذع الفلفل ، ولذلك اكثرت الصدح والتغريد .

وسميت العين (سلسبيلا) لسهولة مساغها وانحدارها فى الحلق . وأصل المادة (سلس) تدل على اللين والسهولة والانقياد ، حتى يقولون « فى كلام فلان سلاسة » يعنون رقة وانسجاما وسهولة .

ويزيدون على هذه المادة لاما فى آخرها فتـدل على غاية السلاسة ، فيقولون : « سلسل » و « سلسال » يريدون بهما الماء العذب السـهل الجريان فى الحلق لعذوبته وصفائه . ويزيدون عليها أيضا باء فتفيد اذ ذاك غاية الغايات فى السلاسة فيقولون : «سلسبيل» ويريدون به الماء الكثير السوغان فى الحلق . وبذلك سميت تلك العين فى الجنة سلسبيلا ، لأن ماءها هذه صفته . وهو بذكر السلسبيل دفع توهم الشعور بحرافة الزنجبيل ولذعته فى المذاق ، فكأنه يقول : أن الكأس تمزج بالزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشعرون بحرافته ، فيبقى الشراب سلسبيلا سهل المساغ فى الحلق .

قوله : **(ويطوف عليهم)** ، اى ويطوف على اولئك الأبرار بالآنية والأكواب وسائر ضروب الخدمة **(ولدان)** وصفاء **(مخلدون)** من الخلود ، أى لايموتون . وقيل لا فائدة فى هذا الوصف لأن أهل الجنة كذلك . وانما هو من الخلود بمعنى ابطاء الشيب . والعرب تقول للرجل اذا كبر وثبت سواد شعره أو ثبتت اضراسه وأسنانه : أنه لمخلد ... فوصفاء الجنـة مخلدون ، يعنى انهم لايهـرمون ولا يشيبون ولا يجاوزون ما هم فيه من سن الحداثة . ويقال لمثل هـذا أيضا انه مقتبل الشباب ، أى لم يظهر فيه أثر كبر ، بل هو كأنما يستأنف الشباب كل ساعة .

ولكن يرد على هـذا القول ما أورد على سابقه ، ومن ثم جعله بعضهم من الخلد بمعنى السوار وبمعنى القرط أيضا ، يقول أن اولئك الولدان مسورون أو مقرطون .

هؤلاء الولدان **(اذا رأيتهـم)** منبثين فى جنبـات الجنة مجتمعين مفترقين هنـا وهناك **(حسبتهم)** فى حسنهم وجمالهم وصفاء ألوانهم **(لؤلؤا منثورا)** نثره نائر تحت مواقع عينيك ، فترى حبـات منه مجتمعة متلائمة ، وأخرى متفرقة متبـاعدة ، مما يزيدها فى النفس بهاء ورواء ، ويكسبها فى العين رونقا ولألاء ... هذا اذا خصصت فى النظر والتحديق الى ما فى الجنة من مظاهر الأنس والسرور **(واذا رأيت ثم)** ، اى واذا أحببت أن ترمى ببصرك الى ما هنـالك من فخم المظاهر ومجموع المناظر — **(رأيت نعيما)** أى نوعا من النعيم لايوصف ولا يعهد له مثال ، **(وملكا كبيرا)** أى واسعا مستوعبا لجميع مايوفر على النفس راحتها وهناءها وسعادتها ومسراتها . وقد أجمل فى وصف الحالة التى عليها اهـل النعيم فى نعيمهم ، لأنه ممـا لايحيط به وصف ، ويعجز أهل الدنيا — ماداموا فى دنياهم — عن تصوره ، ومعرفة حقيقته .

رجع الى ذكر طور من أطوار الأبرار فى الجنة ، وهو وصف مايفرغ على أبدانهم من ضروب الزينـة واللبوس ، فقال : **(عَالِيَهُمْ ثياب)** الخ . و (عالى) اسم فاعل من علاه يعلوه اذا كان فوقه ، فالمعنى تعلوهم تلك الثياب ، وتغشى ظواهرهم (١) . و (السندس) : ضرب من نسيج البز ، وقيل : هو رقيـق الديباج ، عربى اومعرب ، اما (الاستبرق) فهو غليظ الديباج ، معرب « استبره » ، والديباج : الثوب الذى سـداه ولحمته حرير . وهو معرب أيضا ، و **(حلوا)** اى البسوا حلية ، وهى ما يزدان به الشخص من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة **(أساور)** جمع سوار : زينة معدنية كالطوق يلبس فى المعـاصم والزنود ، وتلك الأساور **(من فضة)** ، وهى المعـدن الأبيض المعروف . وفى سورة الكهف : (يحلون فيها من أساور من ذهب) ، وفى سورة فاطر : (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ، ولا تناقض اذ يمكن الجمع بين الصنفين فى التحلى ، أو يحلون بهذا مرة وبهذا مرة ، و (الشراب الطهور) هو البالغ

---

(١) لم يتعرض المؤلف لاعراب « عاليهم » مع حاجته الى البيان ، وقد قرىء بالرفع على انه مبتدأ خبره ثياب ، وقرىء بالنصب — وهو المشهور — فقيل : انه ظرف بمعنى فوقهم، وهو خبر مقدم لثياب ، والجملة حال من الضمير المجرور فى عليهم وجعل أبو حيان عاليهم حالا من ذلك الضمير ، وثياب مرفوعا على الفاعلية له (انظر روح المعانى) المصحح .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ

فى نقائه من القذى والشوائب المادية ، أو المرادطهارته مما يكون فى الأشربة الدنيوية من الأضرار وسوء التأثير .

قوله : **(ان هذا كان لكم)** الخ — مما يقال لهم او بقوله بعضهم لبعض فى الجنة وقت تقلبهم فى صنوف نعيمها ، أو هو خطاب مستأنف من الله ليبشر الأبرار وهم فى دار الدنيا بأن ماوصف من الثواب ، وعدد من مظاهر النعيم — ينتظرهم فى النشأة الثانية جزاء طاعتهم له ، وأن (سعيهم) الحسن فى التزام أوامره تعالى ، والوقوف عند حدود شرعه (مشكور) ، ومعنى كونه تعالى يشكر عليه أن يثيب عليه خير ثواب . وهذا هو معنى الشكر والحمد والرضا والعجب والحب والضحك اذا نسبت الى الله ، اذ تستحيل فى حقه تعالى أمثال هذه العوارض البشرية ، والانفعالات النفسية .

مر فى هذه الآيات أن الله تعالى قد أعد للكافرين سلاسل وأغلالا ، كما هيأ للأبرار أرائك يتكئون عليها ، وعليهم ثياب السندس والاستبرق ، وفى معاصمهم أساور الفضة ، وبين أيديهم ولدان كاللؤلؤ المنثور يطوفون على اولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية صفاء البلور ، وقد ملئت شرابا ممزوجا بالزنجبيل والكافور .

وذكر فى مواضع أخر من القرآن وسائل مادية للذة والعذاب فوق ماذكر ههنا وأبلغ منه ، وان النفوس لتتساءل عما اذا كانت هذه الوسائل والأدوات ، وأسباب اللذوى والبلوى مادية حسية من عين مانعهده فى دنيانا هذه : فهل الأغلال الحديدية كأغلالنا قاسية سوداء تقعقع ؟ والأساور الفضية كأساورنا مدورة بيضاء تلمع ؟ والخمرة المشروبة كخمرتنا سائلة حمراء تشعشع ؟ أم أن المراد بذلك شيء آخر له حقيقة روحية غير مايفهم من ظاهر اللفظ ؟

ولعل الأسلم فى الجواب أن يقال : انا — معشر المسلمين — نؤمن بالعالم الأخروى ، وبما وردت الأخبار الصحيحة به من وصف وسائل العذاب والنعيم اللذين يقعان فى ذلك العالم من دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقتها ، مادامت هى ممكنة الوقوع ، وما دامت قدرة الله صالحة لخلقها واعدادها.

وهناك آخرون يجعلون هذه الوسائل والأسباب تمثيلا لآلام العذاب ومسرات النعيم بما اعتدناه فى حياتنا الدنيا من الوسائل والأدوات والأسباب ، بحيث يجعلنا هذا الوصف التمثيلى نتعقل تلك الآلام والمسرات على نحو مانتعقلها ونشعر بها عند التعرض لأسبابها ووسائلها ومثيراتها فى دار الدنيا . على أن طائفة من أبناء هذا العصر المتعلمين لم يقنعهم ما اقتصرنا عليه هنا من هذا البحث ، وتمنوا علينا أن نذكر ماهو الأحق بالقبول فى هذه العقيدة مما يلائم روح العصر ، ويلتحم مع معارف أهله وأحوالهم الثقافية والفكرية ولا يخرج به قائله عن الملة . فلمثل هؤلاء كتبنا رسالة بهذا الموضوع : موضوع « ملذات الجنة ماهى ؟ » . وربما طبعناها على حدة أو ألحقناها بهذا التفسير اذا يسر الله طبعه ونشره .

آيات هذه السورة من اولها تدور حول أقطاب ثلاثة:

١ — تذكير الانسان المكذب بالبعث بخلقته الأصلية ، وبأن الاله الذى خلقه كذلك ، ومتعه بالحواس والمشاعر ، وأمده بصنوف النعم — قادر على خلقه ثانية بعد الموت ، فكيف يصح اذن أن ينكر على الله ذلك ؟ بل كيف لايكون تعالى جديرا بأن يشكر ويطاع ؟

٢ — تخويف المكذبين بما أعده الله لأمثالهم من الاغلال والسعير .

٣ — ترغيبهم بما هيأه لهم من وسائل الغبطة والهناء ان هم شكروا وآمنوا .

وكثيرا ما كانت هذه الآيات وأمثال أمثالها معها تلقى على هؤلاء المكذبين ، فلا تحيك فى نفوسهم ، ولا يقابلونها بغير الصدود والاعراض . فكان صلى الله عليه وسلم يأخذه شيء من الوجوم والضجر ، مذ يرى تتابع أذاهم عليه ، وطول أعراضهم عنه ، وتماديهم فى تكذيب الوحى والاستهزاء به . فكان من المناسب بعد تلك الآيات البالغة فى تأثيرها ، ووقوف قريش أمامها وقفة المكذب المعاند ، ووجومه صلى الله عليه وسلم وضجره ، واستبطائه نزول العقاب الالهى بأولئك المكذبين — أن تشدد عزيمته ، وتفكك عن قلبه الشريف عرا الهم والضجر بمثل قوله تعالى : **(انا نحن)** ، أى لاغيرنا يامحمد الذين **(نزلنا عليك القرآن تنزيلا)** لا لبس فيه ولا ريب ، ووعدناك وأوعدنا المكذبين فيه بما وعدنا وأوعدنا ، فلا تبتئس ولا تحزن ولا تضجر : فالقرآن حق ، ووعدنا ووعيدنا صدق ، **(فاصبر)** اذن ، وانتظر **(لحكم ربك)** ، اى لحين حلول وقت حكمه وقضائه الفصل فيك وفى خصومك ، فينتقم لك منهم ، وتكون الغلبة والنصرة لك ، والعقوبة والدبرة عليهم . فاللام فى قوله (لحكم ربك) هى التى يسميها النحاة اللام الحينية . واذا أرادوك على السكوت يامحمد وترك دعوتهم الى الايمان لقاء مال يفيضونه عليك ، أو عروس من بناتهم يزفونها اليك — كما كانوا بالفعل يقولون ذلك

له صلى الله عليه وسلم ــ فلا تصغ اليهم ، ولا تنخدع بقولهم ، **(ولا تطع منهم آثما أو كفورا)** فيما يحاولونه منك ، ويداورونك عليه .

وقد كان أولئك المعاندون المكذبون بين منغمس فى الآثام ، متعاط للفسوق : كعتبة بن ربيعة ، فهو ينفر من الايمان به صلى الله عليه وسلم وبالوحى ، لأن ذلك يحول دون تمتعه بشهواته ، وينغص عليه حياته ــ وبين غال فى ضلاله ، شديد الشكيمة فى كفره : كأبى جهل والوليد بن المغيرة ، فهو ينفر من الاسلام واتباعه صلى الله عليه وسلم خشية مفارقة دينه وتوديع طواغيته . فقوله : **(آثما)** اشارة الى الفريق الأول ، وقوله : **(أو كفورا)** اشارة الى الفريق الثانى ، و (أو) بعد الجحد تكون بمعنى الواو . فالمعنى « ولا تطع منهم آثما ولا كفورا » .

ويروى أن عتبة كان يقول له صلى الله عليه وسلم : « ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتى ، فانى من أجمل قريش بنات » . وكان الوليد يقول له : « أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فانى من أكثرهم مالا » . ولهذا قال له ربه واصبر حتى يقضى الله بينك وبينهم : فيظهر أمرك ، ويرفع لك ذكرك ، ولا تطع أولئك الآثمين الجاحدين فيما يمنونك به من صنوف الترف والنعيم ، فدع ذلك كله ولا تشغل قلبك به ؛ **(واذكر اسم ربك)** فصل له واعبده **(بكرة)** غدوة قبل الظهر ، **(وأصيلا)** عشيا بعد العصر ، **(ومن الليل)** ايضا **(فاسجد له)** ، أى صل له تعالى : فالسجود بمعنى الصلاة ، و (من) فى قوله : (من الليل) لافادة التبعيض ، اذ لابد من راحة له صلى الله عليه وسلم فى بعض الليل وصلاة فى بعض ، كما يكون ذلك فى النهار . ولما كان الليل مظنة غفلة النفس ، وغلبة النوم عليها ــ عاد فأكد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر بصلاة الليل ، لكيلا يفهم من البعضية المدة القليلة منه ، بل وقتا طويلا فقال : **(وسبحه)** ، أى صل له **(ليلا)** ، اى وقتا من الليل **(طويلا)** ممتدا لايقل عن الثلث ، ولا يزيد عن الثلثين ، كما مر بيانه فى آية (قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا أو زد عليه) . فالليل الأول من قوله : (ومن الليل) مراد به مجموع ساعاته من الغروب الى الشروق ، والليل الثانى ، وهو قوله (ليلا طويلا) ، مراد به وقت وحصة منه ، ولذلك وصفه بقوله (طويلا) . ولو كان المراد به مجموع ساعات الليل ما ناسب وصفه بالطويل كما يظهر للمتأمل ، والسجود والتسبيح مراد بهما هنا الصلاة كما اشرنا ، وكثيرا ما أريد بهما ذلك فى القرآن والسنة . والأرجح أن المراد بالصلاة فى هذه الآية الصلاة التى كان يمارسها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، وكان افتراض هذه الصلوات ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة وبعد البعثة باثنتى عشرة سنة . فهو تعالى يأمر نبيه فى هذه الآيات بالصبر على المكذبين ، وانتظار حكم الله فيهم ، والاعراض عما يمنونه به ، ويعرضونه عليه : من زبارج الدنيا ، وبالاقبال على الله ، واستيعاب طرفى النهار وهزيع طويل من الليل فى عبادته والابتهال اليه .

ثم ان الخطاب فى هذه الأوامر وان كان له صلى الله عليه وسلم فان المراد به ايضا صحابته الذين كانوا اذ ذاك فى حاجة الى أن يكونوا اشداء القلوب ، أقوياء الجلد والعزيمة ، ليقووا على الجهاد وبث الدعوة والصبر على المقاومة .

وقد شرحنا فى أول سورة المزمل ما فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته بالتهجد ، وقيام الليل وتحمل مشقات العبادة من الأثر البين فى تربيتهم النفسية ، وتقويتهم البدنية ، فراجعه ان شئت .

قوله : **(ان هؤلاء الخ)** فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ، واقناط من ايمانهم به ، واتباعهم دينه ، وذلك لما فطروا عليه من حب الدنيا العاجلة ، وايثار لذائذها الناجزة : فهم يتهافتون على مابين أيديهم من هذه الشهوات ، **(ويذرون وراءهم)** اى يدعون ويطرحون خلف ظهورهم **(يوما ثقيلا)** وهو يوم القيامة الثقيل الوقع ، الشديد الوطأة على هؤلاء الجاحدين المكذبين . ومعنى طرحهم يوم القيامة وراء ظهورهم : طرحهم العمل له ؛ وتركهم مايؤدى الى النجاة فيه من الايمان والتصديق وممارسة الأعمال الصالحة . وفى الاشارة الى المكذبين بـ (هؤلاء) المفيد للقرب تحقير لهم ، واستصغار لشأنهم ، وان كانوا يتجلببون للناس بجلابيب الكبر والعظمة .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : انهم منهمكون فيما بين أيديهم من عاجل لذات الدنيا ، وينسون امامهم يوما قد هيىء لهم فيه عذاب ثقيل ، وهول وبيل . فتكون (وراء) بمعنى أمام ، وكثيرا ماجاءت بهذا المعنى ، ويكون الكلام تعجيبا من حالهم ، وتعريضا بغباوتهم ، مذ تركوا الحزم ، ولم يتدبروا الخطب وهو أمامهم .

وقوله : **(نحن خلقناهم الخ)** فيه عود الى تليين الكلام لهم ، وترقيق الخطاب معهم ، وتذكيرهم بأنه تعالى هو لا غيره الذى خلقهم خلقا : أحكم فيه صنعهم ، ووثق بالأعصاب ربط بعض أعضائهم ببعض ، فكانوا أقوياء أشداء معصوبى الخلق ، مجدولى البدن . وهذا معنى **(وشددنا أسرهم)** . يقال : « قد أسر هذا الرجل فأحسن أسره » بمعنى انه خلق فأحسن خلقه ، وأحكم تكوينه . ومنه قول الاخطل فى صفة أفراس مجنوبة :

من كل مجتنب شديد أسره
سلس القياد تخاله مختالا

يمتن الله على هؤلاء المكذبين ، بل على سائر الخلق الجاحدين بأنه تعالى خلق أجسامهم صالحة لما يحتاجون اليه فى وجوه التصرف وممارسة الأعمال ومباشرة الاسباب .

وقوله : **(واذا شئنا الخ)** ، اى ليس خلقنا لهم شديدى الأسر هو مبلغ جهدنا ، ومنتهى طاقتنا (و) لكن نحن مع هذا (اذا شئنا) ان نهلكهم أهلكناهم ، ثم **(بدلنا أمثالهم)** ، أى بدلنا بهم أمثالهم من البشر بحيث نخلق الآخرين خلقا يحكى خلق الأولين فى شدة

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

الأسر ، واتقان الصنع ، وتوثيق الأعضاء . والآية تحتمل معنيين :

١ — أن يكون المراد بالأمثال الذين يخلقهم مكان الأولين المكذبين — هم الأولون انفسهم ، مذ يبعثهم من قبورهم ، ويحييهم بعد موتهم يوم القيامة . فهو تعالى يقول للمكذبين انه تعالى كما خلقهم فى الدنيا شديدى الأسر — قادر على أن يخلقهم ثانية بعد الموت شديدى الأسر . ويكون مغزى الآية اقامة الحجة على اثبات البعث وامكان الحياة الثانية ، لأن من فعل الشىء مرة قادر على أن يفعله مرة أخرى .

٢ — أن يكون المراد أنه تعالى قادر على اهلاك المكذبين ، وأن يخلق فى دار الدنيا غيرهم أمثالهم من البشر ، لكنهم مخالفون لهم فى العمل : فيطيعون أمره ، ولا يكذبون وحيه . فهو تهديد لهم ، وحض على المسارعة الى الايمان قبل فوات الفرصة ، وتذكير بانهم ان ماتوا هم فلا يظنوا أن أولادهم ومن يأتى من بعدهم يكونون فى العناد والتكذيب أمثالهم ، بل ان صدق الوحى ، وصحة دعوى محمد عليه الصلاة والسلام — هى من الظهور بحيث لايخفى مكانها على أحد ، اللهم الا من طمس على بصائرهم ، وهم هؤلاء المكذبون المخاطبون . فيكون المعنى فى هذه الآية كالمعنى فى آيات : (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) ، (أن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) ، (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) .

(**هذه**) اشارة الى السورة وما اشتملت عليه من اللفظ الرشيق ، فى الأسلوب الأنيق ، والمعنى الدقيق ، فى الخطاب الرقيق . (**تذكرة**) ذكرى يتذكر بها العاقل ، وموعظة ينزجر بها الجاهل . (**فمن شاء**) من هؤلاء المكذبين الادكار والاتعاظ والانتفاع بهذه السورة والمشى على نورها — (**اتخذ الى ربه سبيلا**) . اى أمكنه أن يتخذ من الايمان والطاعة ، واتباع الحق وتصديق محمد عليه السلام — سبيلا يؤدى به الى رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحه من الهداية والتذكير والدلالة على الحق فى هذه السورة وسائر سور القرآن مع مامتعه الله به من نور العقل وقوة الاستنتاج ونعمة الحواس . فأسباب الخلاص ميسورة ، وسبل النجاة ممهدة تحت مواقع أبصار العاملين ان أرادوا . غير أن غلبة العناد ، واستيلاء الجهل عليهم ، جعلهم لا يشاءون سلوك هذه السبل الموصلة الى النجاة (**الا**) وقت (**أن يشاء الله**) أن يسلكوها (١) مشيئة الهية مقترنة بمشيئة جزئية مكسوبة لهم ، وهذا ما يعبر عنه فى اصطلاح المتكلمين بالجزء الاختيارى .

(**ان الله كان عليما**) بأحوال خلقه (**حكيما**) فيما يرسمه لهم من السنن والنواميس ، وينزل عليهم من الوحى والشرائع ، ويرسل اليهم من الأنبياء والرسل : مما فيه صلاح حالهم ، وانتظام أمرهم ، وارتقاء عمرانهم . وقد سبق زيادة ايضاح لهذا البحث عند قوله تعالى فى سورة المدثر : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ، وقوله أيضا فيها : (فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا أن يشاء الله) .

ثم ختمت هذه السورة ببيان عاقبة الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى : (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) ، فان مفهومه أن فريقا يتخذون سبيلا اليه تعالى.وهم المهتدون ، وفريقا آخر لا يتخذ ذلك السبيل اليه تعالى وهم الظالمون ، أى الجائرون عن سبيل الايمان ، الواضعون عملهم وسعيهم فى غير مواضعه ، وهذا هو الظلم فى أصل معناه اللغوى .

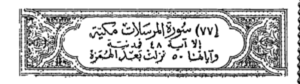
فالفريق الأول قال الله عنهم : (**يدخل من يشاء فى رحمته**) ، أى جنته ورضوانه . وعبر عن هذا الفريق الناجى بقوله (من يشاء) للاشارة الى ساحة الاطلاق ، والى أن دخولهم الجنة يكون بمحض مشيئته تعالى لا يكرهه عليه مكره .

وقال عن الفريق الثانى وهم الذين حادوا عن سبيل الايمان : (**والظالمين أعد لهم عذابا أليما**) . فعل (أعد) اشتغل عن أن يعمل بكلمة (الظالمين) بضميرها وهو (لهم) ، فيقدر للظالمين فعل ناصب يفسره (أعد) مثل أن يقال : « وأوعد الظالمين أعد لهم » أو « وجازى الظالمين أعد لهم »

والمعنى أنه تعالى يدخل المهتدين المصدقين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم ، كما يدخل الظالمين المكذبين دار عذاب مؤلم أرصدها لهم .

---

(١) وذهب قوم فى تفسير هذه الآية الى غير هذا فقالوا : « الا أن يشاء الله » قهرهم عليها بانزال عذاب من السماء مثلا يترصدهم من فوقهم أو تحت ارجلهم ان لم يؤمنوا ، فيؤمنوا اذ ذاك . لكن حملهم على الايمان والجاءهم اليه بهذه الطريقة لم يرده الله ، ولم يجعله سنة من سننه الكونية فى سياسة الخلق واستصلاح أمر البشر ، لحكم وأسرار يعلمها تعالى.وانما اختاروا هذا المعنى فى تفسير الآية هروبا من عقيدة الجبر المقوتة ، وحفظا لكلام الله من التناقض ، وصونا لأوامره تعالى من التدافع ، ولئلا يكون للناس على الله حجة . فيدموا العمل ، ويضلوا المحجة . المؤلف .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)

تقدم ذكر السبب الذى من أجله يقسم الله تعالى ببعض خلقه . ومن أساليب القسم المختلفة فى القرآن هذا الأسلوب الذى افتتحت به هذه السورة .

ويشبهه القسم الذى افتتحت به سورة النازعات مذ قال تعالي : (والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) . أقسم تعالى بالكواكب تسرع فى سيرها ، وتقطع مداراتها منتقلة من برج الي برج ، وتسبح فى الأجواء سبحا حثيثا . ومنها كواكب تسبق غيرها باتمام دورتها : كالقمر والأرض ، وهذه السابقات يكون من أثرها تدبير بعض الأمور الكونية كمعرفة الحساب والفصول .

ويشبهه أيضا القسم الذي افتتحت به سورة العاديات مذ قال تعالى : (والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا) . أقسم بخيل الجهاد تعدو فيسمع لنفسها زفير ، وتقدح الحصا بحوافرها وهي عادية فيتطاير منها الشرر ، ثم تغير على العدو وقت الصباح فتثير اذ ذاك الغبار بشدة عدوها . وحينئذ تفجأ جمع العدو وتتوسطه فتفرقه شذر مذر .

وقد أراد ابن دريد أن يتشبه بالقرآن فى قسمه بالخيل فى مقصورته المشهورة ، فأقسم أولا بالنياق تحمل الحجاج الى بلد الله الحرام فقال :

اليت باليعملات يرتمي بها النجاء بين أجواز الفلا

وبعد أن وصفها ووصفهم أقسم بالخيل تحمل الأبطال الي ساحات القتال فقال :

بذاك أم بالخيل تعدو المرطى
ناشزة أكتادها قب الكلى

يحملن كل شمري باسل
شهم الجنان خائض غمر الوغى

أقسم الله بالكواكب في سورة النازعات تنبيها الي ما في حركاتها ونظام سيرها في مداراتها من المنافع والمصالح ، وأنها انما خلقت لأجل هذا ، ولم تخلق لتكون آلهة تتصرف فى الأكوان كما يزعم عبدتها من الصابئة وغيرهم ، مشيرا الى ذلك بما وصفها به من الأوصاف التى لا تجتمع قط مع أوصاف الألوهة .

وأقسم بالخيل فى سورة العاديات تنبيها الى فائدتها وما لها من حسن الأثر فى خدمة البشر ، معظما شأنها فى ذلك من حيث يبعث على اقتنائها ، والعناية بتربيتها ، وتكثير نسلها .

أما ما أقسم به فى فاتحة هذه السورة ـ سورة المرسلات ـ فهو الرياح . اذ ليست الكواكب ، ولا الخيل السلاهب ـ بأبعد أثرا ، وأطيب ثمرا ـ منها فى خدمة الخلق ، وتوفير مصالحهم ، وتيسير أسباب معايشهم .

على ان الثلاثة المذكورات ـ الخيل والرياح والكواكب ـ أخوات متماثلات ، في الحركة والنشاط وقطع المسافات : الخيل على سطح الغبراء ، والكواكب ، فى فسيح الخضراء ، والرياح ما بينهما فى أجواز الفضاء .

وليس المراد بالرياح المقسم بها مادة الهواء الجوى الذي يحيط بالكرة الأرضية . فان توقف حياة البشر على تلقف هذا الهواء واستنشاقه ـ ظاهر لا يحتاج الي قسم ، ولا الي تنويه بالذكر . وانما موضع الخفاء فى فائدة الهواء ـ اذا هو عصف وتموج واضطرب واندفع الى مسافات بعيدة بحيث ينشأ عن اندفاعه أحيانا كثيرة تخريب وتدمير ، وبلاء مستطير ـ يحمل بعض السذج على سب الرياح ، واستنكار أمرها ، والتساؤل عن الحكمة فى خلقها .

وان في هذه الرياح واضطرابها ، واختلاف مهابها ـ ما لا يحصى من المنافع وتدبير المصالح : من ذلك تسيير السفن فى البحار ، وسوق السحب الحافلة بالأمطار ، وتلقيح النباتات والأشجار ، وحمل البذور وتوزيعها فى الصحارى والقفار . وقد ورد في بعض الآثار أن أمة من الأمم تذمرت من الرياح وتتابع هبوبها ، ورغبت الي نبيها أن يدعو الله بالا يجعلها تهب على بلادهم ، فوعظهم نبيهم ، وخوفهم العاقبة ، ونبههم الي ما فى الرياح العاصفة من المنافع لهم ، وأنه تعالي لم يخلقها عبثا ، ولم يرسلها سدى ... فأبوا الا الدعاء ، فدعا الله فسكنت الرياح تلك السنة ، فعقمت الزروع والنباتات في حقولهم : فلم تعقد ثمرا ، ولم تعط محصولا سوى التبن ، حتى عادوا فانتبهوا من غفلتهم الى سوء فعلتهم ، وابتهلوا الى الله فى اغاثتهم ، وتفريج كربتهم . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فانها تفصح عن مغزى صحيح فى فائدة الرياح وشمول النفع بها للبشر .

قال تعالي : (**والمرسلات عرفا**) ، اى والرياح التى ارسلت وأطلقت هابة بعد طول ركودها وسكونها . يقال : « أرسل الخيل فى الغارة » اذا سرحها وأطلق لها العنان .

وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ

وقلما ذكر القرآن اطلاق الرياح الا عبر عنه بفعل أرسل . ففي سورة فاطر : (والله الذى أرسل الرياح) ، وفى الحجر : (وأرسلنا الرياح لواقح) ، وفى الأحزاب : (فأرسلنا عليهم ريحا) ، وفى الاعراف (وهو الذى يرسل الرياح) ، وفى الروم : (ومن آياته أن يرسل الرياح) ، وفى آيات أخرى غيرها . فقوله تعالى هنا : (والمرسلات) من هذا القبيل .

أما قوله : (عرفا) فهو مثل لتتابع الرياح المرسلة ، وهبوب بعضها فى اثر بعض ، مأخوذ من عرف الفرس ، وهو اسم للشعر النابت فى محدب رقبته . يقال : « اعرورف الفرس » اذا صار ذا عرف ، « واعرورف البحر » تراكبت أمواجه ، فصارت كالعرف . و « اعرورف النخل » كثف والتف ، فأصبح كالعرف . و « جاء القوم الى فلان عرفا واحدا » اذا توجهوا اليه كوكبة واحدة . و « أصبحوا عليه كعرف الضبع » اذا تألبوا عليه .

واعراب (عرفا) على الحال من المرسلات : أى أقسم بالرياح حالة كونها متتابعة يقفو بعضها اثر بعض فى هبوبها .

وبعد أن يرسلها الله ، ويبعثها من سكونها ــ تأخذ فى العصف بشدة . و (العصف) شدة الهبوب ، فالريح الواحدة عاصفة ، والجمع عاصفات . وعصفها يكون بعد اطلاقها واخلاء سبيلها من دون تراخ ، ومن ثم عطفه بالفاء فقال : (**فالعاصفات عصفا**) ، أى الشديدات الهبوب ، السريعات المر .

هذه الرياح اذا أطلقت ، وهبت على هذه الصورة ــ أنشأت سحبا كثيرة تراها مبسوطة ومنشورة فى آفاق السماء . والذى نشر هذه السحائب وبسطها هنا وهناك فى فسيح السماء هو تلك الرياح العاصفة . وهذا هو معنى قوله تعالى فى صفتها : (**والناشرات نشرا**) .

وبعد أن تنشر الرياح السحب على هذه الصورة تأخذ فى تفريقها وتوزيعها على البلاد ، فتحيي مواتها ، وتخصب نباتها . والذى يفرقها ويوزعها هنا وهناك هو تلك الرياح المرسلات العاصفات الناشرات . وهذا هو معنى قوله تعالى : (**فالفارقات فرقا**) . و (الفارقات) اسم فاعل من فرق الأشياء اذا فصل ابعاضها ، وفرق الشعر بالمشط اذا سرحه . ففرق الثلاثى كفرق الرباعى .

وقيل : ان فرق فرقا للاصلاح ، (واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم) ، وفرق تفريقا للافساد ، (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) .

وما وصف الله به الرياح فى هذه الأقسام من معانى الارسال والنشر والفرق ــ تضمنته آية سورة الأعراف مذ قال تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) . فقوله هنا (المرسلات) من (يرسل) فى تلك الآية . وقوله (الناشرات) من (نشرا) على قراءة من قرأه بالنون . ومعنى (نشرا) : متفرقة تعم جوانب الأرض ، جمع نشور كرسل فى جمع رسول ، وقوله (الفارقات) من (سقناه) . فان معنى (سقناه) يرجع الى معنى (فرقناه) ، أى أخذنا به ذات اليمين وذات الشمال لنحيى البلاد ، ونسقى العباد .

ان الأقطار التى تكثر فيها الأنهار المتدفقة ، والينابيع المتفجرة ــ قلما يفكر أهلوها فى أمر السحب والأمطار ، أو يشعرون بحاجة اليها مادامت أراضيهم مضمونة الرى ، مكفية المؤونة . أما أهالى البلاد الأخرى الذين حرموا الأنهار ومياه السيح ، والذين يتوقف خصب نباتهم ورى زراعاتهم على ماء المطر ، ومقدار ما ينزل منه كل سنة ، ويعلمون أن قلة الأمطار وانحباسها عنهم يعرضهم للجدب والتلف والهلاك ــ فهم لايكادون ينظرون الى الرياح المرسلات تهب وتنشر السحاب وتبسطه فى أطراف السموات : حتى تهتز بالفرح قلوبهم ، وتلهج بالذكر ألسنتهم . والذى يلقى هذه الذكرى والبشرى على هؤلاء الناس انما هو تلك المرسلات الموصوفة بما وصفها الله به من جميل الصنع ، وعميم النفع . وهذا معنى قوله تعالى فى ختام صفاتها : (**فالملقيات ذكرا**) ، أى فهى بعد أن تفرق السحائب ، وتوزعها هنا وهناك على البلاد ، تلقى فى قلوب سكانها أو على ألسنتهم ذكرا لمن أرسلها اليهم ، ومن بها عليهم .

والبشر ــ وان كانوا يذكرون الله حين يرون الرياح العواصف والسحب الحوافل ــ يختلف ذكرهم هذا باختلاف ايمانهم بالله وصفاته ، ومبلغ تصديقهم بوحيه ورسالاته : فمنهم قوم يكون ذكرهم (**عذرا**) لهم عند ربهم فى محو سيئاتهم ، والعفو عن خطاياهم ، لأنهم اذا ذكروا الله قرنوا ذكره بالشكر له على ما أولى من الرحمة ، وأسبغ من النعمة . ومنهم آخرون يكون ذكرهم (**نذرا**) ، أى بمثابة الانذار والتخويف لهم من سوء ما هم عليه من هذا الذكر الدال على كفرهم ، وفرط عنادهم ، اذ انهم ينسبون حدوث هذه الرياح المرسلة ، والسحب الهاطلة ــ الى أصنامهم وطواغيتهم تارة ، والى الأنواء وقرانات الكواكب تارة أخرى ، ويغفلون عن الفاعل الحقيقى وهو الله تعالى .

وهكذا كان دأب أهل الجاهلية ، فانهم كانوا اذا مطروا قالوا : « مطرنا بنوء كذا » ، فنهى الشارع عنه ، وتقدم بالوعيد فيه ، ونبه فى هذه الآية اليه مذ قال : (فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا) .

و (عذرا) مصدر عذر — الثلاثى — اذا محا الاساءة ، ورفع اللوم والعتب . و (نذرا) اسم مصدر لأنذر الرباعى اذا حذر وخوف . وهما فى الاعراب بدل من (ذكرا) . والتقدير : ان تلك الرياح بانشائها السحب الثقال تلقى فى نفوس الناس ذكرا . وهذا الذكر بينا يكون عذرا ماحيا ذنوب المؤمنين الموفقين — يكون أحيانا كثيرة انذارا للجاحدين المبطلين . ففى الآية تعريض بمشركى العرب ، وتقبيح لما كانوا عليه من عبادة غير الله ، والغفلة عن الشكر له على آلائه ونعمه مذ نسبوها الى غيره .

أقسم تعالى بهذه الرياح على أى شىء ؟ على أن ما أوعد به المشركين أمر لا ريب فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : **(انما توعدون)** به أيها المكذبون من مجىء يوم القيامة والثواب والعقاب — **(لواقع)** ، أى هو حق كائن لامحالة ، فلا تمتروا ولا تشكوا . فقوله : (انما توعدون الخ) جواب القسم .

وكما أقسم الله بالرياح العاصفة فى سورتنا هذه على أن ما أوعد به المكذبين واقع — أقسم ايضا بها نفسها فى سورة الذاريات بالأسلوب نفسه على أن ما أوعدهم به صادق ، فقال تعالى : (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع) .

والمعنى : اقسم بالرياح التى تذرو التراب ذروا ، ثم لا تلبث أن ينشأ عن هبوبها أثران عظيما الفائدة للبشر : سحائب حاملات فى عنان السماء من ماء المطر حملا ثقيلا ، وسفائن جاريات على سطح البحر جريا سهلا . وهذه السفائن أو مجموع هذه السفائن ، والسحائب فى مجيئها وذهابها وغدوها ورواحها تقسم فى أقطار البلاد ، أو توزع بين سكانها — أمرا عظيم الخطر ، عميم الأثر فى انتظام معايشهم ، وتوفير تكاليف حياتهم . وأى شىء مما خلقه الله أنفع للبشر من الأمطار التى تحملها السحب فتسقى بها زروعهم ، ومن ضروب الأقوات والأرزاق التى تجرى بها السفن ثم تقسمها بينهم ؟

قوله : **(فاذا النجوم الخ)** بيان وتفصيل لما اجمله فى قوله السابق : (انما توعدون) من هول يوم القيامة (لواقع) ، فهو يقع على هذه الصورة : النجوم تطمس ، والسماء تفرج الخ .

(وطموس) النجوم : ذهاب ضوئها . والطموس اذا نسب الى ما له نور : كالشمس والقمر والنجوم — كان بالمعنى المذكور ، واذا نسب الى العين كان معناه عماها وذهاب قوتها الباصرة ، واذا نسب الى القلب كان المراد ضلاله وحيرته ، واذا نسب الى المنزل أو الدار كان معناه امحاؤها وذهاب أثرها . وهو لازم متعد ، يقال : طمسته أنا ، وطمس هو بنفسه .

ووصف النجوم بذهاب ضوئها يوم القيامة لاينافى وصفها بالانكدار والانتثار فى آيتى : (واذا النجوم انكدرت) ، (واذا الكواكب انتثرت) و (انكدرت) بمعنى (انتثرت) . يقال : « انكدر فى سيره » اذا أسرع وانقض ، و « انكدر القوم على فلان » جاءوه متتابعين ، ثم انصبوا عليه ، وليس هو من لون الكدرة . فالنجوم يوم القيامة تنكدر وتتناثر ذاهبة الضوء ، فاقدة اللألاء واللمعان.

وفرج (السماء) كناية عن احداث الشق بين أجزائها المتلاحمة ، يقال : «فرج الباب» اذا فتحه ، و « فرج بين الشيئين » أوسع بينهما وباعد . وهذا معنى ما جاء فى آيتى : (اذا السماء انشقت) ، (وفتحت السماء فكانت أبوابا) .

أما (نسف الجبال) فقلعها من اصلها وتفريق أجزائها : من « نسف الحب بالمنسف » اذا نفضه وذراه ، و « نسفت الريح التراب » : قلعته وفرقته هنا وهناك . وهذا معنى ما جاء فى آيات (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، (وبست الجبال بسا) ، (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) . والمعنى فى الكل أن الجبال تزحزح بشدة عن مقارها ، وتعود كالفتات المتناثر ، والسفساف (1) المتطاير .

وقد وصف الوحى فى هذه الآيات ما يطرأ على العالم يوم خرابه : من اضطراب حبله ، وانتكاث فتله ، وتبدل نظامه ، وزوال تماسكه وأحكامه . والله تعالى وحده يعلم بأية الطرق والأسباب يحصل ذلك الخراب ، فعلى المسلم أن يؤمن به ، ويكل أمر كنهه وتفصيله الى ربه .

هذا مايكون من شأن السماء والأرض فى ذلك اليوم الموعود ، أما ما يكون من شأن الخلائق يومئذ فان الأمر أهم ، والخطب أطم ، والخوف أعم . ذلك أنه لا يعفى فيه أحد من السؤال والحساب حتى الرسل أنفسهم عليهم السلام ، فانهم يغشون ذلك الموقف الرهيب فى وقته المعين الذى كانوا ينتظرونه : فيشهدون على أممهم ، ويبرئون أنفسهم من تبعة التفريط فى تبليغهم ، والتقصير فى امحاض النصح لهم ، وهذا معنى **(واذا الرسل أقتت)** ، وأصله «وقتت» من الوقت ، وأنث الضمير باعتبار الجماعة ، اى جعل لجماعة الرسل وقت معلوم لا يتعدونه . والعرب تعاقب بين الواو والهمزة ، فيقولون : « وكد الخبر وأكده » ، و « وقت الصلاة وأقتها » . وفى الأسماء وشاح واشاح ، ووعاء واعاء ، ووكاف واكاف ، ووسادة واسادة .

وفى التأقيت معنى التأجيل ، بل يقولون احيانا : « وقت الأمر ليوم كذا » اذا أجله اليه . فلما قال ان الرسل أقت لها ميقات تشهده فى حينه ، حسن ان يقع السؤال عن ذلك الميقات الذى أقت ، والأجل الذى ضرب ، فقال تعالى : **(لأى يوم أجلت)** تلك

---

(1) سفساف الدقيق ما ارتفع من غباره عند النخل ، وسفساف التراب ما دق منه .

ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً

الرسل ؟ ، وفى العدول عن « وقتت » الى (أجلت) ـ وهما بمعنى واحد ـ تفنن فى الخطاب ، وتطرئة للأسلوب ، كما أن فى الاستفهام عن ذلك اليوم المضروب موعدا لقيام الساعة ـ تفخيما لشأنه ، وتهويلا لأمره .

ثم أجاب عن هذا السؤال بأن الرسل اجلت **(ليوم الفصل)** . أى ليوم القضاء الفصل ، أو الحكم الفصل . ومعنى كون الحكم فى ذلك اليوم فصلا : انه لا معقب له ، ولا محاباة فيه ، بل تستقر النفوس عنده ، وتطمئن القلوب اليه ، وذلك منذ ينكشف عنها الغطاء ، فترى الحقائق عيانا ، ويصبح علمها ضروريا ، ويتحول جحودها ايمانا .

ولم يكتف بتفخيم شأن ذلك اليوم ، يوم الفصل بالاستفهام عنه ، بل عاد فنوه بشأنه ، ونبه الى عظم هوله بقوله : **(وما أدراك)** ، أى ما اعلمك ـ ايها الانسان ـ **(ما يوم الفصل ؟)** : ما كنهه ؟ وأى يوم عظيم هو ؟ وعجيب منك أن تتغافل عنه ، وتلهو عن العمل له ، حتى كأنك من شدة تهاونك ، وفرط غفلتك ـ اصبحت على بينة من أمر النجاة فيه . كلا ! فان ذلك اليوم أعظم من أن يدرى أمره انسان ، أو يحيط به عقل أو جنان .

وجواب (فاذا النجوم الخ) محذوف موكول فهمه الى فطانة السامع . والحذف على هذه الصورة من أساليب الايجاز التى امتاز بها القرآن .

وهو اما أن يقدر بمعونة آية (انما توعدون لواقع) السابقة ، والمعنى : اذا طمست النجوم وجرى كيت وكيت ، اذ ذاك تعلمون صحة الوحى الالهى ، وصدق ما وعدكم به من مجىء يوم القيامة ، فتؤخذون باجرامكم وسوء أعمالكم ، ويهتف من فوق رءوسكم : **(ويل يومئذ للمكذبين)** ، أى هلاك عظيم ، وخسار كبير فى ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود . أو يقدر الجواب بمعونة آية : (ويل يومئذ للمكذبين) اللاحقة . والمعنى : اذا طمست النجوم وجرى كذا وكذا ، فهناك تعلمون مبلغ ضلالكم عن الحق ، واغراقكم فى الجحود ، واستحقاقكم للويل والهلاك على تكذيبكم . وعلى هذا يكون فى قوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) اشارة للجواب ودلالة عليه .

بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة ، وانه كائن لامحالة . وبعد أن خوف المكذبين من شدة هوله وفظاعة مايقع فيه ـ عاد فخوفهم من بطش الله على أسلوب آخر فقال : **(ألم نهلك)** الأقوام **(الأولين)** الذين كانوا فى ابعد أزمنة التاريخ ، فكذبوا وحيى ، وعصوا رسلى ؟ **(ثم)** بعد أن أهلكناهم ، ألم **(نتبعهم الآخرين ؟)** ، اى نجعل الأقوام المتأخرين عنهم فى الزمن ممن كانوا مثلهم فى التكذيب والعصيان ـ تابعين لهم فى الهلاك ، فأصابهم ما أصابهم ؟ وكان الظاهر أن يقول : « أما أهلكنا . . . ثم أتبعنا . . . ؟ » ، لكنه عدل الى المضارع احضارا للحال الماضية فى الذهن وتصويرا لها فى أنفس المخاطبين ، حتى كأنهم يرون الآن مصارع الهالكين .

والمعنى أنكم أيها المكذبون بالقرآن أو بمحمد عليه الصلاة والسلام تعرفون ذلك من فعلنا بالأمم الماضية ، فلماذا لا ترجعون عن تكذيبكم ؟ وتكفكفون من غرب عنادكم ؟

وما فعله تعالى بالأمم السابقة يفعله فى كل أمة تسلك مسالكهم فى الجحود والعناد والاعراض عن الحق . فهو ناموس عام يأخذ بالقهر كل من قاومه ، واعترض فى سبيله . وهذاهومعنى قوله : **(كذلك)** ، أى مثل ذلك الفعل الذى فعلناه بالأولين والآخرين **(نفعل بالمجرمين)** من اخوانهم السائرين على مثل طريقتهم . وفيه تعريض بمشركى قريش ، وايقاظ لهم من غفلتهم ، وتنبيه الى أنهم ان بقوا فى غشمرتهم فسوف ينزل بهم ما نزل بغيرهم .

وقوله : **(ويل يومئذ للمكذبين)** تهديد للمجرمين الذين لا يرعوون ولا يصغون الى نداء الحق ، وتنبيه الى أنه تعالى ان أراد انفاذ مشيئته فيهم كما أنفذها فيمن قبلهم ـ فان الويل والهلاك الشديد يكون من نصيبهم جزاء تكذيبهم ، فلينتبهوا للأمر ، وليحذروا من الخطر قبل وقوعه .

وجملة (ويل يومئذ للمكذبين) قد تكررت فى هذه السورة ، وتخللت آياتها عشر مرات ، كما كان فى سورة الرحمن من تكرير آية (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) ، وقد حسن التكرير فى سورة الرحمن للتقرير بالنعم المختلفة التى كان الوحى يعددها واحدة واحدة ، فكلما ذكر نعمة قرر بها ، ووبخ على الغفلة عنها ، كما يقول الرجل لغيره : الم أحسن اليك بأن منحتك الأموال ؟ الم احسن اليك بأن انقذتك من الأهوال ؟ الم احسن اليك بأن فعلت لأجلك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرير لاختلاف مايقرر به .

وهذا التكرير فى الحض على شكر النعم فى سورة الرحمن كالتكرير فى سورتنا هذه : من حيث انها

تضمنت ذكر نعم مختلفة ، ونقم متعددة . فكان اذا ذكرهم بنعمة ، أو خوفهم من نقمة — أكد التذكير والتخويف بذكر الويل والهلاك المهيأ للمكذبين الذين استخفوابهذهالنعمة ، أو تهاونوا بتلك النقمة . فيكون ذلك رادعا للمخاطبين عن الغفلة ، وزاجرا لهم عن التمادى فى التكذيب ، وركوب الرأس فى العناد .

وتكرير جملة واحدة ، واعادتها مرارا فى خلال الكلام الواحد — مألوف للعرب ، معهود فى خطبهم وأشعارهم . فمهلهل بن ربيعة رثى أخاه كليبا بشعر قال فيه :

وهمام بن مرة قد تركنا
عليه القشعمان من النسور
على أن ليس عدلا من كليب
اذا طرد اليتيم عن الجذور

ثم كرر قوله (على أن ليس عدلا من كليب) زهاء عشر مرات .

ولما حمى الحرث بن عباد من بغى مهلهل وسفكه الدماء قال أبياته المشهورة التى يقول فيها : (قربا مربط النعامة منى) ، وكرر هذه الجملة عدة مرات .

وفى هذا التكرير من هز السامع والتأثير فى نفسه ، ما لا يخفى على المتأدب المتذوق من لغة العرب ، وما فيها من كل معنى عجب .

قوله : **(ألم نخلقكم الخ)** تذكير للمكذبين ، وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أن من خلقهم من ماء مهين بهذه الطريقة لابد أن يكون قادرا على اعادة خلقهم للبعث والحساب . لا جرم انه تعالى قادر ، وهو أيسر عليه ، وأن المكذبين بذلك يستحقون الويل والهلاك .

ومراده ب **(الماء)** المويهة التى يتكون منها الانسان . و **(مهين)** على وزن فعيل ، ومعناه حقير أو ضعيف أو قليل ، وفعله مهن فهو مهين .

و **(القرار)** الذى جعل الله فيه ذلك الماء المهين هو الرحم ، مصدر قر بالمكان قرارا اذا ثبت وسكن ، ثم شاع استعماله فى نفس المكان الذى يكون فيه الثبات والاستقرار . يقال : « صار الأمر الى قراره » أى الى حيث تناهى وثبت . وقال تعالى : (جعل لكم الأرض قرارا) ، أى موضع قرار وثبات . و **(مكين)** فعيل من تمكن بالمكان اذا رسخت قدمه فيه . وحق (مكين) أن يوصف بها الماء الذى جعل فى القرار ، لأنه هو الذى تمكن من القرار ، لا القرار نفسه ، لكنه جعل من صفته على المجاز والتوسع ، كما يقال « نهر جار » : جعلوا الجريان من صفة النهر ، والنهر الشق فى الأرض ، وانما الجريان من صفة الماء . ومعنى كون الماء مكينا فى الرحم أن يستقر فيه بوضع محكم ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغير ، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة حتى يصبح جنينا ، ثم يولد بشرا سويا .

ويحتمل أن يكون (مكين) صفة لقرار الذى قلنا ان المراد به الرحم . ومعنى كونه مكينا أنه وضع من جوف المراة ومطاوى أحشائها بحيث يكون صالحا لاستيداع النطفة ، مصونا مما يفسد عليه عمله ، ويحول دون قيامه بوظيفته .

والماء الذى جعل فى الرحم يستمر بعد أن يستقر فيه **(الى قدر)** ، أى الى مقدار من الزمن **(معلوم)** ، أى معين محدد . وقالوا فى تلك المدة انها من ٢٧٣ يوم — وهى عبارة عن تسعة أشهر شمسية — الى ٢٨٠ يوم ، وهى عشرة أشهر من الشهور القمرية ، أو أربعون أسبوعا .

ثم ان هذا الترتيب فى جعل الماء المهين فى الرحم ، وضرب أجل معين له حتى ينضج ويختمر وينشأ خلقا سويا ، وانسانا مفكرا أحوذيا (١) — دال على ما للخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التى يستحق عليها سبحانه وتعالى أعظم مدح وأكرم ثناء . ومن ثم قال تعالى : **(فقدرنا)** بالتخفيف ، وهو بمعنى « قدرنا » بالتشديد . وقرىء بالتشديد أيضا ، **(فنعم القادرون)** نحن ، أى المقدرون . يقال « قَدَر الشيء » ، « وقَدَّره » بمعنى واحد ، هو تهيئة الشيء وضم أجزائه ، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة تبلغ بذلك الشيء درجة كماله ، وابقائه الوظيفة التى أوجد لأجلها . وهكذا الشأن فى أمر التوليد والولادة وتكون الجنين فى الرحم وتطوره فى الأشكال المختلفة — كل ذلك بترتيب عجيب ، وتدبير غريب ، يشهد بسمو الحكم الالهية ، وجليل النعم الربانية ، التى يستحق مكذبها ، والممارى فيها — الويل والخسران .

وجعل بعض المفسرين (قدرنا) بالتخفيف من القدرة لا من التقدير . والمعنى : اننا قدرنا على ما أردنا من جعل النطفة فى قرار مكين الى انتهاء الوقت الذى تستوفى فيه كمالها من التدبير وحسن التصوير ، (فنعم القادرون) : أى نعم أصحاب القدرة نحن ، الجديرون بالحمد والثناء ، المستحقون لجميع ضروب العبادة والدعاء . فالويل للمكذبين بقدرتنا ، الممارين بوعدنا ، ومحكم آياتنا .

قوله : (ألم نجعل ... الخ) تذكير بضرب آخر من ضروب نعم الله على الخلائق ، وعجيب صنعه فى تدبير شئونهم ، وتيسيرراحة الحياة بل الممات لهم ، بحيث يستحق المعرض عن ذلك ، والمكذب بما للرب فيه من المنة والفضل — الويل والخسار . من ذلك أنه تعالى جعل الأرض التى يحيا فيها البشر ويموتون صالحة لتقلبهم على ظهرها فى حياتهم ، ولاندماجهم فى بطنها بعد مماتهم . فهىتكفتهم وتضمهم اليها أحياء منتشرين فى أعمالهم ومختلف أشغالهم ، كما تكفتهم وتضمهم اليها أمواتا لا روح فيهم ، فتحفظ عوارهم ، وتصون كرامتهم ، فلا يبقون على ظهرها أشلاء ممزعة كجيف الحيوان : تنقبض منها

(١) (أحوذيا) أى حاذقا ، مشمرا للأمور ، قاهرا لها : يسوقها أحسن مساق بحيث لا يشذ عليه شئ منها .

وَأَمْوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيْلٞ يَوْمَئِذٖ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٖ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفْرٞ ﴿٣٣﴾ وَيْلٞ يَوْمَئِذٖ

النفوس ، وتنتابها الكلاب والوحوش . وقد جاء هذا المعنى في آية : (ثم اماته فأقبره) ؛ أي أمات الله الانسان موتا مميزا من موت سائر أنواع الحيوان ، وذلك بأن جعل له من جوف الأرض قبرا يوارى فيه تكرمة له : فلا تتناوشه السباع ، ولا يبقى نصب أعين أهله وذويه ، فيسوء عيشهم ، وتتنغص حياتهم كلما رأوه مطروحا امامهم .

و (**كفاتا**) مصدر كفت الشيء الى نفسه ضمه ، وهو الذى نصب (**أحياء وأمواتا**) على المفعولية . أما من جعل (كفاتا) اسما بمعنى الموضع الذى يكفت فيه الشيء ويضم كالوعاء والصوان ، فان (كفاتا) حينئذ لاتنصب (أحياء وأمواتا) بل ناصبهما فعل محذوف دل عليه (كفاتا) ، كأنه قال : تكفت أحياء وأمواتا . ونكر (أحياء وأمواتا) لتعظيم شأنهما ، وأنهما جميعا بلغوا فى الكثرة مبلغا لايعدون معه ولا يحصون .

ويصح أن تكون (احياء وأمواتا) منصوبة على الحال ، فانه قال : تكفتكم حالة كونكم أحياء وأمواتا . أما كون الأرض تضم الأموات الى صدرها ، وتكون كفاتا لهم ــ فأمره ظاهر ، ولكن ما معنى أنها تضم الأحياء اليها ؟ وكيف تكون كفاتا لهم وهم منتشرون فوق ظهرها ، متفلتون الى كل جانب من جوانبها : لا حواجز تصدهم ، ولا سدود تقوم فى وجوههم ؟ قيل فى الجواب : ان المراد بكون الأرض كفاتا للاحياء أن منازلها ومساكنها كفات لهم ، تضمهم بين جدرانها للبيتوتة والراحة والسكنى ، كما أن المقابر كفات : للأموات تضمهم بين جوانبها .

وأرى أن اكتشاف ناموس الجاذبية العام الذى بموجبه تجذب الأرض اليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء ، والذى لولاه لطاروا وتبددوا شذر مذر فى الفضاء ، بسبب حركة الأرض اليومية على نفسها ، وحركتها السنوية حول الشمس بسرعة فائقة الحد ــ هذا الاكتشاف يفسر لنا معنى ما قرره الكتاب الالهى من أن الأرض كفات للأحياء مذ يكونون على ظهرها ، فانها تجذبهم اليها ، وتضمهم الى صدرها كما تفعل الأم الحنون ، فلا تدعهم يتفلتون وهم بذلك لايشعرون .

ومن النعم والآلاء ، التى ذكر الله بها المكذبين ، وحضهم على التأمل فيها والشكر عليها ــ الجبال ، مذ قال تعالى : (**وجعلنا فيها**) ، أى فى الأرض جبالا (**رواسى**) : ثوابت رواسخ ، (**شامخات**) : باذخات ، ذاهبات فى السماء صعدا . والنعمة فى هذه الجبال من حيث أنها كالأوتاد للأرض فى حفظ موازنتها ، ورسو جوانبها ، واعتدال أقطارها . فهى تقيها الاضطراب والجيشان والميدان ، كما تقى أوتاد الخيمة الخيمة من مثل ذلك . وقد كشف الوحى عن هذا المعنى فقال فى سورة النحل : (والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) . ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما فى جوفها من الغازات المحتقنة ، والبخارات المنضغطة ، والمواد المتراكمة المشتعلة ــ دائمة الاضطراب والخفقان .

وقد يقول ارباب العلم الطبيعى فى بعض ماذهبوا اليه : ان هذه الجبال انما نشأت من زلازل الأرض ، وتكونت من اندفاع حممها وموادها السائلة من باطنها الى ظاهرها ، فكيف تكون سببا فى ثباتها وقرارها ؟ والجواب أن اندفاع تلك المواد السائلة ، ونشوء الجبال عنها ــ لما كان سببا فى تثبيت الأرض وتسكين زلزالها واضطرابها ، كانت الجبال بهذا الاعتبار ــ لا باعتبار ذاتها وهى قائمة على وجه الأرض ــ كالأوتاد فى تثبيتها ، ومنع ميدانها . ولو بقيت المواد التى تكونت منها الجبال مستكنة فى جوف الأرض ، ولم تنبعث من باطنها ، وتتراكب جبالا على ظاهرها ــ لبقيت الأرض دائمة الاهتزاز والاضطراب ، مستمرة الحركة والميدان . فتكون الجبال اذن نعم المسكن لخفقان قلب الأرض ، المريحها من قلق بالها ، وهزة زلزالها ، وعبء اثقالها .

على ان فى خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هى نشوء السحب فوقها ، وهطول الثلوج والأمطار عليها ، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والجداول والينابيع ، ثم تكثر الزروع والأشجار والمراعى وضروب النبات . فالجبال مخازن الثلوج والأمطار ، ومستودعات عامة للبركات والخيرات ، وكل بلاد تقل فيها الجبال تقل فيها الأمطار ، فيقل الزرع والخصب ، وتكثر الصحارى المرملة ، ويعم الجدب . وانظر كيف انه تعالى بعد أن ذكر نعمة الجبال الشامخات قال ، (**وأسقيناكم ماء فراتا**) ، أى عذبا بالغ العذوبة ــ للاشارة الى أن الحكمة فى خلق الجبال هى أن تكون مستودعات للمياه والأمطار ، ومادة للعيون والجداول والأنهار التى نستقى منها .

وقلما ذكر القرآن الجبال الا أعقبها بذكر الأنهار والينابيع . وليس ذلك الا اشارة لما قلنا : من ان الجبال الشوامخ وسائل للماء ، ومصايد لبركات السماء .

وانما قال : (واسقيناكم) ، ولم يقل :

« وسقيناكم » ــ لأن فعل « سقى » الثلاثى أكثر ما يستعمل فى الماء الذى يعطاه الانسان لشربه ، أما « أسقى » فأكثر مايستعمل لما يعطاه لشربه ولشرب ماشيته وسقى زراعته . وهــذه المياه التى جادت بها العناية الالهية علينا بواسطة الجبال انما كان النفع بها عاما شاملا لنا ولانعامنـا وزروعنـا وبساتيننا ، ولغسل أجسامنا وثيابنا وسائر أمتعتنا .

ووصف الماء بالفرات ، وهو الشديد العذوبة ، لان المياه التى تتفجر من صخور الجبال تكون اعذب من المياه التى تتحلب فى السهول والأحساء (١) .

قوله : (انطلقوا الخ) خطاب للمكذبين المذكورين فى قوله : **(ويل يومئذ للمكذبين)** ، أى ان الويل يوم القيامة سيحيق بأولئك المكذبين بآيات الله ، الكافرين بنعمه ، ويقال فى ذلك اليوم لهم ــ وقد اصبحت دار العــذاب تحت مواقع ابصارهم ــ **(انطلقوا)** أيهـا المكذبون **(الى ما)** أى عذاب **(كنتم به)** فى دار الدنيا **(تكذبون)** . وهذا العذاب الذى أمروا بالانطـلاق اليه هو بالطبع عذاب جهنم ، لكنه تعالى وصف فى هذه الآية شكلا جديدا من أشكاله ، ومظهرا بدعا من مظاهره وأحواله ... فقال لهم مكررا على أسماعهم الأمر الأول : **(انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب)**. سمى العذاب ظلا تهكما واستهزاء بالمعذبين ، بدليل أنه وصفه بأوصاف لا تجتمع قط مع أوصاف الظل . الذى يتفيؤه الانســـــان ، ويتخـــذه مقيلا لراحته ودعته ــ هو كالظل الذى وعد به اهل اليمين ، وهم فريق الأبرار ، مذ قال تعالى فى ســورة الواقعــة : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمـين . فى سـدر مخضود . وطلح منضـود . وظل ممـدود . وماء مسكوب). ومعنى كون الظل الذى يتفيؤه هذا الفريق ممدودا أنه منبسط ممتد لا يتقلص من جوانبه ، ولا ينثلم من اطرافه ، ولا ينفذ اليه الحرور من أية جهةمن جهاته . أما ظل فريق الفجار فهو بئس الظل . وقد وصفه أيضا فىسورة الواقعةفقال تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سـموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) . فقوله : (ظل من يحموم) ، أى من دخان أسـود قاتم . ومن كانت فوقه ظلة من مثل هذا الدخان كيف يقال انه فىهناء وراحة ؟ وكيف يصح أن يسمى ماهو فيــه ظلا الا على طريق التهكم والاستهزاء ؟

ذلك الظل اليحمومى الذى ذكره الوحى فى سورة الواقعة ، والذى قال انه من نصيب أصحاب الشمال ــ أعاد ذكره فى سورتنا هذه ــ المرسلات ــ وقال ان المكذبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق اليه ، واصـفا له بقوله : (ذى ثلاث شعب) ، يريد أن اليحموم من دخان جهنم الذى انعقد كالظلة على رءوس المكذبين لاينبسط ولا يمتد من فوقهم كما يمتد وينبســط الظل المدود من فوق أصحاب اليمين ، بل ينخرق وينثلم ويتشعب الى ثلاث شعب أو ثلاث ذوائب ... كمـا هو شأن الدخان المتكاثف اذا خلى ونفســه فى الفضاء . وبديهى أنه اذ ذاك **(لا)** هو **(ظليل)** يظل من يكون تحته ، ويقيه أوار الحر كما هى عادة الظلال كلها وخاصة الظلالمدود من فوق رءوس السعداء ، **(ولا)** هو أيضا **(يغنى)** عن الجهنميين المستظلين به ويقيهم **(من اللهب)** ، أى ألسنة النار المندلعة اليهم من كل جانب . فما هذا الظل الملعون ؟ وأنى يـكون للمستظل به راحة وسكون ؟

وقال أبو مسلم الأصفهانى : يحتمـل أن يكون المراد من شعب الظل الثلاث أوصافه الثلاثة المذكورة بعده ، وهى انه ليس بظليل ، وأنه لا يغنى من اللهب ، وأن ناره أو شعبه ترمى بشرر كالقصر .

وفعل (يغنى) هذا بمعنى قولهم « لايغنى عنك فلان شيئا » ، أى لا يجدى ولا ينفع ولا يفيد ، وهو يتعدى بعن ، و (عن) فى الآية مقدرة مع مجرورها كمـا أشرنا . و (من اللهب) متعلق بيغنى لتضمنه معنى الوقاية والحفظ كما أشرنا اليه ايضا .

وذهب قطرب الى أن اللهب هنا بمعنى العطش لا بمعنى الشواظ الذى يعلو النـار ، يقـال : لهب الرجل لهبـا ولهبانا اذا عطش فهو لهبان . والمعنى عليه : ان ذلك الظل لا يظل من وهج الحر ، ولا ينفع فى تخفيف العطش كما هى عادة الظلال الباردة .

فهم المخاطب من أوصاف الظل فى الآية السابقة انه ظل جهنمى ، وأن المـراد به الدخان المنعقـد فى سماء جهنم ، فلم يعد يتردد فى كون ضمير (انهـا ترمى) المؤنث ــ عائدا الى جهنم أو دار العـذاب . على أنه يصح أن يرجـع الضـمير المذكور الى قوله (**ثلاث شعب**) التى قلنا ان المراد بها ذوائباليحموم المتكاثف فى سماء تلك الدار ، فهو دخان لا كالدواخن (١) المعقودة ، وله صفات غريبـة غير معهـودة . من ذلك (انها) أى شـعب اليحموم وذوائبه (ترمى) على المستظلين بهـا من وقت الى آخر **(بشرر)** جمع شرارة ، وهى ما يتطاير من النار أثناء تلظيها ، وكل واحدة منهذا الشرر **(كالقصر)** أى كالبيت المبنى .

وقد يستعظم السامع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشرر بالقصر ، لأنه انمـا يفهم من القصر ــ حسب المشهور فى معناه ــ البناء العظيم المشرف ، فيقول كيف تكون الشررة الواحدة المتسـاقطة من ذلك الدخان أو من تلك النيران كالقصر ؟ بل ربمـا ذهب خياله الى قصور الملوك الباذخة ، ذات الشرف والقمم والأبـراج الشـامخة ، فيستغرب الوصف ، ويستبعد الأمر . ولكن القصر ان كان يطلق فى لغـة العرب على هذا الضرب من المساكن الشـامخة فانه يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيرا لاطئا ، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ان تشبيه الشرر

(١) جمع حسى ، وهو سهل من الأرض تستنقع مياه الأمطار تحت رماله .

(١) يجمع دخان على دواخن كما يجمع عثان (أى غبار) على عوائن ، وليس لهما نظير فى هذا الجمع الشاذ .

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

بالقصور وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك ـ اى قليلة الارتفاع ـ جارية فى هيئاتها وشكلها مجرى الخيام ا هـ » . وقد لمح أبو العلاء المعرى قول ابن عباس هذا فقال يصف نارا عظيمة ويشبه شررها بالخيام :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى
ترمى بكل شرارة كطـراف (١)

وقد فسر بعضهم (القصر) الذى شبهت به الشرارة ـ بجزل الحطب ، أى بالغليظ من أعواده . وكأن هذا القائل استبعد أن يكون المراد بالقصر البيت الحجرى لما ذكرنا آنفا ، مع أن تفسيره به من احسن التشابيه ، واشدها انطباقا على ماكان مألوفا للعرب فى ذلك العهد . وكثيرا ماشبه شعراؤهم النياق بالقصور ، قال عنترة :

فوقفت فيهـا ناقتى فكأنهـا
فـدن (٢) لاقضى حاجة المتلوم

وقال امرؤ القيس :

ولمـا أن جـرى سمن عليهـا
كما طينت بالفـدن السيـاعا (٣)

يريد أن ناقته لما سمنت كان اللحم متراكبا عليها تراكب الطين على جدران القصر .

وقال الأخطل :

كأنهـا برج رومى يشـيده
لز بجص وآجـر واحجـار

وقالوا فى وصف نياق أو أفراس : « ان وقفن فمجادل ، او مررن فأجادل » . والمجادل القصور ، والأجادل الصقور .

ثم ذكر الكتاب لشرر جهنم تشبيهـا آخر غير تشبيهه بالقصر فقال : **(كأنه جمالات صفر)** ، اى كأن شرر جهنم المتطاير عنهـا (جمالات) جمـع جمل ، وهو الحيوان المعروف ، أو هو جمع جمال كما قالوا فى رجل رجال ثم رجالات ، ومن جموع جمل ايضـا جمالة ، وقرىء به أيضا (كأنه جمالة صفر) .

شبه الشرارات بالجمالات فى عظمها ولونها ، ثـم فى كثرتها وانتشارها هنا وهناك : فى المرعى وفى تتابع بعضها اثر بعض وهى سـائرة فى قطارها . وهكذا الشرارات ، تنبعث الشرارة اثر الشرارة أثناء تلظى نارها ، و (الصفر) ذات اللون الأصـفر المعروف ، أو المراد بالصفرة هنا السواد الضارب الى صفرة ، فان هذا اللون هو اللون الغالب فى الوان الابل عند العرب ، والعرب يستعملون وصف (الأصفر) فيما كان لونه كالذهب والزعفران ، وفيما كان لونه اسود كالغراب والدخان فهـو من أسماء أو صفات الأضداد ، حتى فسر بعضهم قوله تعالى فى وصف بقرة بنى اسرائيل : (صفراء فاقع لونها) بأنها سوداء خالصة اللون .

وكما جعـل بعض المفسرين (القصر) فى الآية بمعنى جذوع الحطب الضخمـة لا البيوت المعروفة ، كذلك جعل بعضهم (الجمالات) جمع الجمل بمعنى القلس لا الحيوان المعروف ، والقلس حبل السفينـة الضخم ، وقال ان الكتاب يشبه الشرر فى تتابعه وتلاحقه واتصال كل شرارة بأختها بحبـال السفن الضخمة البالغة الغاية فى الثخانة والطول ، فشرارات نار دار العذاب ترى فى ضخامتها وتماسكها ولونها الأصفر الضارب الى السواد ـ كالقلوس ، اى حبال السفن التى هذه صفتها .

والحاصل ان الوحى الالهى شبه شرر جهنم فى كبرها ولونها بالقصور والجمال ، أو بجذوع الحطب والحبال .

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر فى الذكر ، ولا من الجمع بينهما فى التشبيه . فانك اذا نظرت الى قرية من قرى العرب وقصورها ، اى أبياتها الصـغيرة اللاطئة المحمرة أو المصفرة بلون طينهـا أو ترابها أو حجارتها وهى منتشرة هنا وهناك فى جنبات السهل الأفيح ، ويتخللها أو يسرح فى كل جانب من جوانبها نياق وجمال مصفرة اللون أو مسودته ترعى وتتناول بمشافرها أوراق الشيح والقيصوم تارة هنا وطورا هنـاك ـ اذا وقع نظرك على ذلك لمحت من بعد فى آن واحد أجساما صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء تتراءى لك من خلال الكلأ والعشب الأخضر : هـذه البيوت هنـا ، وهـذه الجمال هناك فى مشهد واحـد ، واذ ذاك لاتعود تستبعد تشبيه الشرارات الجهنميـة بتلك الأبيات والجمالات ، ولا تسـتغرب قرنهما معا فى الذكر ، بل تستحلى ذلك وتعجب به .

وامر هذه التشابيه ، ووقعها فى النفوس ، وقربها او بعـدها من الأذواق ـ مرجعه الألفة والاعتياد ، ومقدار تأثر الحواس والمشاعر بها . وهذا منشأ خطأ الكثيرين ـ لاسـيما الذين يجهلون أحوال العرب ، واطوار معايشها ، وأساليب حياتها ـ فى حكمهم على القرآن وبلاغته مذ يرونه يصف وصفا ، أو يطلق قولا ، أو يورد تشبيها ، أو يحكى قصة غير مألوفة لنا اليوم ، ولا مما جرينا عليه فى أساليب كلامنا ، ولا مما اعتدنا أن نشعر به فى حياتنا وأطوار اجتماعنا . ويكون السبب فى قصور حكمهم مخالفة ما نحن عليه لمـا عند أولئك العرب المخاطبين بالقرآن ، الذى روعى

(١) (الطراف) : الخيمة من الجلد المدبوغ :
(٢) (الفدن) بفتحتين : القصر .
(٣) (السياع) : الطين بالتبن .

فى آياته وأساليب خطابه ما اعتادوه والفوه هم ، كما قال ابن عباس فى تشبيه شرر النار بالقصور : « انه وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك ، جارية فى هيئتها وشكلها مجرى الخيام » .

ولعل ابن عباس انما قال هذا بعد ان رأى مارأى من قصور الشام والعراق التى يستحلى شعراؤهم أن يشبهوها — مذ يرونها مبثوثة بين المروج — بالدر بين الزبرجد ، قال شاعرهم :

لاحت قراها بين خضرة مرجها
كالدر بين زبرجد مكنون

وجميع ما يقال فى ملذات الجنة ، وهل هى من جنس ملذات الدنيا او انها غيرها وقد ضربت ملذات الدنيا لها مثلا — يقال فى نار جهنم وأسباب العذاب التى فيها : اهى نيران وأسباب من جنس نار الدنيا وأسباب التعذيب التى فيها ؟ أم أن نيران الدنيا وأسباب عذابها ضربت مثلا لنار الآخرة ؟ — كل ذلك لانقطع القول فيه قطعا ، وانما نؤمن به ، ونكل أمر الكنه والحقيقة فيه الى الله تعالى. وهذا يكفى فى سلامة عقيدة المسلم ما دامت عقيدته تسير به فى طريق المخافة من تلك النار : فيمتثل أمر الله ، ويمارس الطاعات ، وينتهى عما نهاه الله عنه ، ويجتنب السيئات . أما اذا لم يفعل ذلك ، ولم تنهه عقيدته عن الفحشاء والمنكر — فانه لا يفيده ، بل لا ينجيه اعتقاده فى جهنم مهما اعتقد فيها ، وفى نوع نارها ، وأفانين عذابها . اذ العبرة فى الاعتقادات الدينية لآثارها المتجلية فى الأعمال والأخلاق وطهارة النفوس ، وليست العبرة فيها لكلماتها المرددة فى الأفواه والمرقومة فى بطون الطروس .

(هذا) اشارة الى ان ما قصه علينا من خبر ذلك الظل الجهنمى (١) ، ووصف شرره العظيم — واقع وكائن لا محالة يوم القيامة ، وهو **(يوم لا ينطقون)** اى لا ينطق فيه أولئك المكذبون ، ولا يتكلمون كلاما ينفعهم ، أو يدلون بحجة تنقذهم . فليس المراد نفى النطق عنهم بجملته ، بل نفى النطق النافع المفيد . اذ انهم يوم القيامة يتكلمون ، كما قال تعالى : (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، و (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ، و (ربنا أخرجنا منها) فى نظير ذلك . وهذا كما تقول لمن تهدده : « انك ان خالفتنى وفعلت ما نهيتك عنه . . . فلا كلام ولا عذر » ، تعنى لا شىء منهما بمسموع منك ولا بمقبول ، والا فقد يكثر ذلك المذنب وقتئذ من الثرثرة ، وايراد المعذرة بعد المعذرة .

وكذلك هم يومئذ **(لا يؤذن لهم)** فى أن يعتذروا أو يدلوا بحجة عن أنفسهم . وما الفائدة فى الاذن لهم بذلك اذا كانت لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل ؟ ولكنهم مع ذلك ومع عدم الاذن لهم بالاعتذار تراهم يندفعون بسائق الطمع فى الخلاص والحرص على السلامة ، وبمقتضى الجبلة البشرية الى الاكثار من الكلام وسرد الحجج والمعاذير من دون ما فائدة كما قلنا . فقوله تعالى : **(فيعتذرون)** معطوف على (يؤذن لهم) ، ونفيه مسلط عليه. والمعنى لايكون لهم اذن ، كما لايكون منهم اعتذار . ونفى الاعتذار هنا كنفى النطق فى (لا ينطقون) من حيث أن المراد فيهما كليهما نفى النطق النافع ، ونفى الاعتذار المفيد الناجع ، والا فهم ينطقون ويعتذرون ، كما يفعل عادة المذنبون المخصومون .

وانما لم يقل (فيعتذروا) بالنصب وبجعل الفاء للتسبيب ، لأن ذلك يوهم أنهم انما لم يعتذروا لأجل انهم لم يؤذن لهم فى الاعتذار ، وأنهم لو أذن لهم لاعتذروا العذر المسموع . وهذا غير مراد ، وانما المراد أنه لا عذر لهم كما لا اذن لهم ، فالفاء لمطلق العطف لا للتسبيب . هذا مع ما فى رفع (يعتذرون) من رعاية الفاصلة وموافقة رؤوس الآى ، وهو غرض صحيح ، فى تأليف أجزاء الكلام الفصيح .

وذهب بعض المفسرين — وهو منقول عن ابن عباس أيضا — الى أن للناس يوم القيامة مواطن ومواقيت : فقد يتكلمون ويختصمون فى موطن ، ولا يتكلمون ولا ينطقون فى موطن آخر ، وقد يؤذن لهم فيلقون معاذيرهم فى وقت ، ولا يؤذن لهم فلا يعتذرون فى وقت آخر .

و (اليوم) فى كلام العرب كثيرا ما أريد به مطلق الوقت ، لا بياض النهار بعينه بين الشروق والغروب ، وذلك اذا أضافوه الى فعل لا استمرار له ، فيقولون مثلا : أزورك يوم يقدم فلان . يريدون وقت قدومه ولو كان قدومه فى الليل . وقال شاعرهم :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا
واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

أراد باليوم مطلق الزمن والوقت ، ولم يرد حصة منه معينة .

وبالجملة فان الخطب يوم القيامة شديد ، وويل المكذبين محقق أكيد ، فنسأل الله السلامة ، من أن نقف موقف حسرة أو ندامة .

(هذا) ، أى ذلك الوقت الذى لا ينطق فيه المكذبون ولا يعتذرون هو **(يوم الفصل)** ، أى يوم الحكم الفصل. ومعنى كون الحكم فصلا انه لا شفاعة فيه ، ولا رجوع عنه ، ولا تعقيب له . أو المعنى انه يفصل فيه بالحق بين الخلائق ، فلا يمكن لواحد منهم ان يقول : أنه ظلم ، أو لحقه حيف أو بخس .

ثم زاد ذلك اليوم ايضاحا وكشفا عن حقيقة حاله فقال : **(جمعناكم)** فيه أيها الأقوام المتأخرون فى الزمن لموعدكم الذى كنا وعدناكموه فى دار الدنيا . (و) قد جمعنا أيضا معكم **(الأولين)** المتقدمين فى

(١) هذا على قراءة « يوم لاينطقون » بنصب يوم ، أما على قراءة الرفع فالاشارة الى وقت وقوع العذاب الذى وصفه ، ليصح الاخبار عنه بيوم . وما قاله المؤلف تلفيق من الوجهين مع تقدير متكلف . المصحح .

فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الزمن عليكم من الأمم ، لنحكم بينكم جميعا . فهانحن أولاء قد وفينا لكم بذلك **(فان كان لكم كيد)** وحيلة تتوسلون بها الى النجاة والخلاص من عقوبتنا التى أوعدناكم بها كما كنتم تزعمون فى دار الدنيا ، وتتعللون به وقت أن كانت رسلى وانبيائى تخوفكم من هذا اليوم وتحذركم أهواله — **(فكيدون)** : أى فكيدونى ، واحتالوا على ، واعملوا على الخلاص من يدى ان قدرتم .

وهذا توبيخ لهم على ما كان منهم فى دار الدنيا من الكيد للأنبياء ، والتكذيب بالوحى ، وتسجيل عليهم بالخزى والعجز والاستكانة . و (الكيد) : المكر والحيلة . و(كاده) : مكر به ، واحتال عليه ، وحاربه ، وأراده بسوء . و (كاد الأمر) : احتال له ، وحاول الوصول اليه بمختلف الطرق والأسباب .

لا جرم أن حيلة هؤلاء الكائدين تكون يومئذ باطلة ، وتعلاتهم داحضة زائلة ، ويكونون مستحقين للويل والهلاك ، جزاء تكذيبهم الوحى ، وعصيانهم أمر الله .

قوله : **(ان المتقين الخ)** وارد على عادة القرآن فى تصنيف المخاطبين ، والمعاقبة بين أحوالهم ومختلف أطوارهم ، فلا يذكر حالا الا أعقبه بضده ، ولا يصف ما يكون لفريق الا أتبعه بذكر ما يكون لقسيمه : يلون الخطاب فى ذلك ، ويتفنن فيه ما شاء ، تطرئة للكلام فى الأسماع ، وبلوغا الى مايريد من احداث الرغبة أو الرهبة فى النفوس . فهو فى هذه الآيات يعدد ما هيأه لأهل طاعته فى دار الثواب من صنوف البهجة والخفض والنعيم ، بعد ما عدد مايكون للمكذبين من ضد ذلك . فقد ذكر أولا أن المكذبين سيأوون الى ظل لا كالظلال : فهو لا يقى حرا ، ولا يدفع عطشا ، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته ودعته سوى شرر النار الهائل فى شكله العجيب فى أمره .

أما فريق (المتقين) المصدقين بالوحى ، فهم على العكس **(فى ظلال)** ممدودة عليهم ، يتقلبون تحتها فى صنوف الراحة والغبطة والجزل . وليست هى كالظلال الجهنمية التى يأوى اليها فريق المكذبين . **(و)** كذلك المتقون هم فى **(عيون)** . ومعنى كونهم فيها انهم قريبون منها وعلى حافاتها ، بحيث لايعسر عليهم الشرب والتناول منها أى وقت أرادوا . وليسوا هم كفريق المكذبين الذين لا يكون لهم تحت ظلهم الا شدة الحر وفرط العطش .

وذكر (العيون)هنا ربما أيد ما قاله « قطرب » من أن المراد باللهب فى قوله السابق « ولا يغنى من اللهب » العطش . ويقال : رجل لهبان أى عطشان ، فيكون قوله هنا (فى ظلال) مقابل لقوله ثمة (ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل) ، وقوله (وعيون) مقابل قوله (ولا يغنى من اللهب) أى العطش ، وقوله **(وفواكه مما يشتهون)** مقابل قوله : (انها ترمى بشرر كالقصر) ، أى أن المكذبين ان كانوا لا يتساقط على رءوسهم من جوانب ظلهم وشعبه المنخرقة سوى الشرر المحرق والشواظ الموجع ، فان المتقين لهم فى ظلالهم الممدودة فوقهم فواكه وثمار تساقط عليهم ، ويتناولون من أنواعها ومختلف أصنافها ما اشتهوا وأحبوا .

ويشبه أن يكون عطف قوله (وعيون وفواكه) على قوله (فى ظلال) — من قبيل قول الشاعر : « وزججن الحواجب والعيونا » ، فان التزجيج أى الترقيق يكون للحواجب ولا يكون للعيون ، والمقام يعين أن يكون التقدير « وكحلن العيونا » ، وكذلك هنا . فان استقرار المتقين وتبواهم انما يكون فى الظلال الممدودة من فوق رءوسهم ، ولايكون التبوؤ فى العيون الجارية ، ولا فى الفواكه اليانعة ، فيتعين أن يكون التقدير « ان المتقين يقيمون فى ظلال ، ويشربون من عيون ، ويأكلون من فواكه » ، وهذا الحذف من لطيف ايجاز القرآن ، وعجيب ادماجه . أما على التوجيه الأول الذى جعل فيه متعلق الجار واحدا — فالتقدير هكذا : ان المتقين يمرحون فى صنوف من نعيم الجنة : ظلال وعيون وفواكه . وربما كان هذا التوجيه فى تفسير الآية أعلق بالبلاغة ، وادنى الى الصواب .

وقوله تعالى : **(كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون)** فيه أيضا شىء من الايجاز والادماج . اذ التقدير : ان المتقين مستقرون فى تلك الظلال ، مقولا لهم : (كلوا واشربوا الخ) ، وليس المراد من ذلك أمرهم بمجرد الأكل والشرب والاقتصار على لذواهما . لأن ماكانوا يعملون من الطاعات ، ويعالجون من المشقات فى سبيل رضاء الله — أكرم وأكبر من أن يكافئهم ربهم عليه بالأكل والشرب وحدهما ، وانما هناك ملذات وصنوف من النعيم لا توصف ولا تحصى ، ولا يدرك كنهها كما فى الحديث القدسى « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رات ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .. يؤمر أولئك المتقون الصالحون فى

الدار الآخرة أن يتمتعوا بها ، ويتناولوامنها ما شـاءوا واحبوا ، وهذا كما تقول لابنك المطيع وقد أسديت اليه نعما وأيادى « اذهب يابنى ، كل واشرب وتمتع بهذه اللذوى جزاء برك بى وطاعتك لى » . وأنت تريد اظهار الرضا عنه ، والثناء عليه بما كان منه من الطاعة والبر ، واعطاءه الحق فى أن يكون حرا مطلق السراح يفعل ما يشاء ، بعد ذلك النصب والعناء ، ولا تريد قط أن يكون الاكل والشرب هو كل همه ومنتهى حظه من تلك النعم والأيادى التى أسبغتها عليه . وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) فى سورة الحاقة — زيادة تفصيل وايضاح لما قلنا هنا . فراجعه ثمة ان شئت (١) .

وقوله : **(انا كذلك الخ)** ، يريد : انا كما جزينا المتقين بما ذكر من صنوف الراحة ، وانواع الدعة والنعيم فى جنان الخلد اثابة لهم على ما كان من طاعتهم لنا فى دار الدنيا — كذلك نجزى ونثيب كل محسن متق مطيع على احسانه وتقواه وطاعتـه : لا نضيع لعامل عملا ، ولا نبخس لأحد حقا . فالويل بعد هذا لمن كذب وحينا ، وخالف أمرنا ، وعصى رسولنا .

وقـوله : **(كلوا وتمتعوا الخ)** خطاب للمكذبين الذين انذرهم فى ختام الآية السابقة بالويل والهلاك ان هم أصروا على تكذيبهم . وليس المراد من (كلوا وتمتعوا) حقيقة الأمر بالأكل والتمتع ، وانما المراد به التهديد والوعيد. فهو يقول لهم : (كلوا) ، وارضوا من حياتكم الدنيا بتناول المطاعم والمشارب كما هو شأن البهائم التى همها علفها ، وملء كروشها ، وهى لاهية عما يراد بها ، (وتمتعوا) كيف شئتم بالملذات ، وتقمم الشهوات ، تمتعا أو زمنا **(قليلا)** ، وهو مدة اعماركم القصيرة فى دار الدنيا ، **(انكم)** أيها المكذبون **(مجرمون)** . وقد سن الله للمجرمين من قبلكم سننا لا تتبدل ونواميس لا تتخلف . وهو تعالى آخذ بكم مأخذهم ، فيمهلكم فى غفلتكم ، ويمدكم فى طغيانكم ، حتى اذا جاء موعدكم نكل بكم ، واقر عين العـدل بالانتقام منكم .

فقوله : (كلوا وتمتعوا) يفيد التهديد والوعيد ، كمـا يفيده قولك لآخر — وقد نهيتـه عن أمر فلم ينته — : « افعل ماتشاء ثم انظر ما يحل بك » ، ولا تريد بذلك طلب الفعل منه ، بل تريد أن البلاء نازل به ان أصر على المخالفة .

ويشبه أن يكون أراد فى قوله : (كلوا وتمتعوا) التقريع والتعيير الذى أراده الشاعر فى قوله :

انى رأيت من المكارم حسـبكم
أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
واذا تذوكـرت المكارم مـرة
فى مجلس أنتم بـه فتقنعـوا

وربما أوهم مجىء قوله : (كلوا وتمتعوا) فى خطاب المجرمين بعد قوله : (كلوا واشربوا هنيئا) فى خطاب المتقين — انه خطاب للمجرمين فى دار العذاب الأخروى ، كما أن خطاب المتقين يكون فى دار النعيم الأخروى . وليس الأمر كذلك ، لقوله فى خطاب المجرمين (قليلا) ، وزمنا قليلا ، فيكون ظـرفا ، وعلى كلا الاعرابين لا يناسب أن يقع هذا فى خطاب المجرمين وهم فى دار العذاب ، لان أكلهم وتمتعهم انما يوصف بالقلة فى مقداره أو فى زمنه اذا لاحظناه واقعا فى دار الدنيـا الفانية ، لا فى دار الآخرة الخالدة : التى يأكل المجرمون ويتمتعون بما فيها من طعام الزقوم وشراب الغسلين تمتعا وبيلا ، وزمنا طويلا لا آخر لهما ، ولا ينتهيان عند حد .

(و) من جملة صفات هؤلاء الجاحدين المكذبين الذين استحقوا الويل ، ونزول العقوبة الالهية بهم كما نزلت بالأمم قبلهم — انهم **(اذا قيل لهم اركعوا)** ، أى اخشعوا لله تعالى ، وتواضعوا له ، ودعوا هذا الزهو والعجب والاستكبار — **(لا يركعون)** ، ولا يتواضعون ولايخشعون ، بل يصرون على زهوهم واستكبارهم . فالركوع هنا بهذا المعنى لا بمعنى التجبية والانحناء على الركبتين للصلاة . يقال : ركع الى الله اذا اطمأن اليه وخضع .

وذهب بعض المفسرين الى ان المراد به ركـوع الصلاة ، فالمعنى : اذا قيل لهؤلاء المكذبين : صلوا الى الله مـع جماعة المسلمين ، وشـاركوهم فى اخلاص العبـادة له ، واخلعوا الاصـنام والطواغيت التى تعبدونها — أبوا واستكبروا . واباؤهم الصـلاة لله تعالى بعد أمر النبى لهم بذلك ما هو الا تكذيب لنبيهم بما أبلغهم اياه من وجوب الركوع لله . على أن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما كان ليأمر بالصـلاة من عند نفسه ، فامتناعهم عنها هو فى المعنى عصيان لأمر الله ، وتكذيب لخبر الله ، فكيف لا يكون هؤلاء المكذبون مستحقين للويل والعذاب ، يوم العرض والحساب ؟

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وقد اسلمت يوم فتح مكة : كيف ترين الاسلام يا هند ؟ قالت : « بأبى انت وأمى يا رسـول الله ، حسن لولا ثلاث » . قال : وما هن ؟ قالت : « التجبية ، والخمار ، ورقى هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة » . والتجبية الركوع ، ويطلق على السجود أيضا ، وتعنى بالعبد الاسـود سيدنا بلالا رضى الله عنـه مذ يعلو الكعبة للأذان . فأجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : « أما التجبية فلا صلاة من دون ركوع ، وأما الخمار فهو أحسن ستر ، واما الأسود فانه نعم العبد هو » .

وكان سادات قريش يرون الركوع والسجود من اشد الأمور عليهم ، وذلك لفرط تيههم ونخوتهم ، ولذا قال بعض هؤلاء وقد ابى الاسلام : « والله لا تعلونى استى » . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر وفد ثقيف بالصلاة ، فقالوا : « لانتحنى ، فانها سبة لنا » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا خير فى دين ليس فيه

(١) فى صحيفة ٣٩ من هذا الكتاب .



ركوع ولا سجود » ، على أن الاسلام انما جاء لترويض النفوس العاتية وتذليل أنفتها .

وكان نساء الجاهلية يكثرن من التبرج وابـداء الزينة ، وقد اعتدن ذلك ، ولذا استعظمت السيدة هند الزامهن باستعمال الخمار ، ووجوب ترك التبرج المعتاد لما فيه من ستر المحاسن ، وكذلك استعظمت أن يطأ سيدنا بلال الكعبة بقدمه ، والعرب كانوا يجلونها كثيرا . ولكن النبى صلى الله عليـه وسلم أشـار فى الجواب الى أن المؤمن الصالح كمثل بلال أفضل من الكعبة ، لاسيما اذا كان يدعو الى الله ، والى عبادته الخالصة من شوائب الوثنيـة . وفى قوله هـذا سد لذريعة عبادة الكعبة التى ربمـا كانت تخالج نفوس بعض العرب .

ثم ان هؤلاء المكذبين اذا لم يؤمنوا بهـذا الوحى السماوى والحديث الالهى الذى خاطبهم به ربهم على لسان نبيهم ـ (**فبأى حديث بعده يؤمنون ؟**) ، لا حديث ولا كتاب سـماوى يبلغ ما بلغه القرآن من صـدق اللهجة ، ونصوع الحجة ، ووضوح المحجة . فاذا كذبوا بالقرآن ، ورغبـوا عن هديه ، وزهدوا فى وعظـه ونصحه ـ كانوا عن غيره أرغب ، وفى وعظه ونصحه أزهد .

وهكذا يقضى هؤلاء المجرمون أعمارهم: لا ينتفعون بحكمة ، ولا يستضيئون بنور ، ولا يستهدون بدين ، حتى يأتيهم اليقين ، وينادى عليهم يومئذ (ويل يومئذ للمكذبين) .

قال مؤلفه : فرغت من هذا التفسير بياضا صبيحة يوم الجمعة الواقـع فى ٩ المحـرم سنة ١٣٣٨ الموافق لليوم الثالث من اكتوبر سنة ١٩١٩ فى مدينة دمشق الشام ، وأنا بها نزيل ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

راجع التفسير الأستاذ الشيخ عطيه صقر من علماء المراقبة العـامة للثقافة بالأزهـر ، وراجع آيات القرآن الكريمة على الرسم العثمانى الأستاذ الشيخ عامر عثمان المدرس بمعهد القراءات وعضو لجنة مراجعة المصاحف ، وذلك تحت اشراف المراقبة العامة للثقافة الاسلامية بالأزهر الشريف

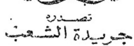
طليعة الوعى الصاعد

تقرأ

كتاب الشعب

الكتاب الأول	**تفسير جزء عم** الأستاذ الامام محمد عبده	أول ابريل ١٩٥٧ (الطبعة الأولى) ١٥ سبتمبر ١٩٥٧ (الطبعة الثانية)
الكتاب الثانى	**قصة السموات والارض** الدكتور محمد جمال الدين الفندى والدكتور محمد يوسف حسن	أول مايو ١٩٥٧ (الطبعة الأولى) ١٥ مايو ١٩٥٧ (الطبعة الثانية)
الكتاب الثالث	**قصة الجنس البشرى (الجزء الأول)** دكتور هندريك فان لون	أول يونيه ١٩٥٧
الكتاب الرابع	**قصة الجنس البشرى (الجزء الثانى)** دكتور هندريك فان لون	أول يولية ١٩٥٧
الكتاب الخامس	**اعرف نفسك** دكتور يوستاس تشسر	أول أغسطس ١٩٥٧
الكتاب السادس	**تفسير جزء تبارك** الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى	أول سبتمبر ١٩٥٧
الكتاب السابع	**الطب للشعب** الدكتور ستارك مرى وفريق من الأطباء الاخصائيين	أول اكتوبر ١٩٥٧







22